الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 95 - December 2006

مجلة شهرية. العدد الخامس والتسعون. السنة الثامنة. ديسمبر ٢٠٠٦. الثمن عشرة جنيهات

هيكل..
الصحافة
والسياسة
والتاريخ

■

عالم نووى

■

جحيم العراق

سلامة أحمد سلامة

■

ما وراء
الحجاب

أيمن الصياد

السينما
الأفيش
والترجمة

السنة الثامنة

العدد الخامس والتسعون

ديسمبر ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر

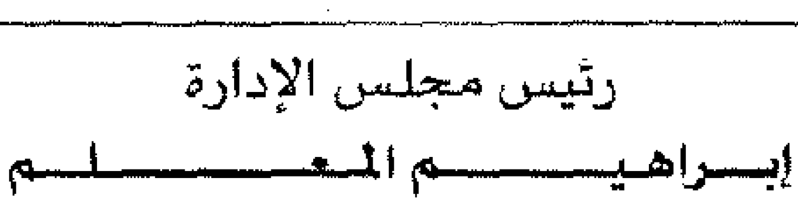
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة



إبراهيم المعلم

رئيس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى

حلمى التونى

مدير التحرير

أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد إبراهيم محمود.. خبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- السيد أمين شلبى.. سفير مصرى سابق - الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- أمارتيا سين.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على نوبل فى الاقتصاد ١٩٩٨.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جمال محمد غيطاس.. محرر تكنولوجيا المعلومات بالأهرام ورئيس تحرير مجلة لغة العصر
- داليا يوسف.. مدير تحرير قسم مسلمى أوروبا بموقع إسلام أون لاين نت.
- ستيفن بيتر روزن.. أستاذ كرسى بيتون مايكل كاتب للأمن القومى والشئون العسكرية ومدير معهد جون م. أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد العظيم حماد.. صحفى.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ فى جامعة واترلو - كندا.
- كارين آرمسترونج.. كاتبة بريطانية.
- محمد البرادعى.. مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية
- محمد يحيى جمال.. أستاذ ترجمة وباحث فى دراسات الترجمة العربية بجامعة نيو سوث ويلز فى سيدنى بأستراليا.
- محمود قاسم.. كاتب وصحفى.
- منار الشوربجى.. باحثة متخصصة فى الشئون الأمريكية.
- وضاح خنفر.. مدير عام شبكة الجزيرة.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى، ص. ب: ٣٢ البانوراما - مدينة نصر

هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١٫٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١٫٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١٫٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



سلامة أحمد سلامة

مأزق الخروج من جحيم العراق

■■ فى مثل هذه الأيام قبل أربعة أعوام، كان العراق لم يزل دولة موحدة، تخضع لحكم قبضة حديدية واحدة، يتحدث العالم عن قوتها العسكرية وما تمتلكه من أسلحة الدمار الشامل التى تهدد الأمن والسلام فى الشرق الأوسط.. بنفس الطريقة والإلحاح التى يتحدثون بها عن إيران وقنبلتها النووية الآن. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تحت قيادة الرئيس بوش، مدعومة بتحالف قوى اليمين المحافظ والصهيونية قد عقدت العزم على أن الوقت قد حان لتوجيه ضربة عسكرية إلى النظام العراقى، بدعوى محاربة الإرهاب، لتجريده من الصواريخ والأسلحة النووية التى يخبئها، والتى فشلت بعثات التفتيش الأمريكية وخبراء وكالة الطاقة الذرية فى العثور عليها.

وفى مواجهة معارضة دولية قوية، عجزت معها واشنطن عن الحصول على قرار من مجلس الأمن يسمح لها طبقاً للباب السابع بالتدخل العسكرى فى العراق، وقف العالم كله تقريباً - باستثناء بريطانيا وإسرائيل وحفنة دول تابعة وضالعة - مشلولاً وعاجزاً عن فعل شىء، ينتظر نشوب حرب طاحنة، لن يتورع ديكتاتور العراق - فى تقديرهم - عن استخدام ما لديه من أسلحة فى الدفاع عن نفسه وعن عراقه مهما كلفه من ثمن.

بعد أربع سنوات إلا قليلاً، ها هو العالم يقف بأجمعه مرة أخرى، سواء هؤلاء الذين انضموا إلى «تحالف الراغبين» بزعامة أمريكا وبريطانيا، أو أولئك الذين عارضوا الحرب من بين الدول الأوروبية وروسيا والصين، أو حتى بعض الدول العربية التى أباحت أراضيها كقواعد عسكرية للعمليات والإمدادات الحربية والتسهيلات الجوية، يرقب ويترقب كيف غرقت القوات المتحالفة بقيادة أمريكا فى أوحال العراق، تحاول انتزاع أقدامها التى غاصت وتغوص يوماً بعد يوم فى بحر من الدماء والدمار، قتل خلالها نحو ثلاثة آلاف جندى أمريكى، وضاعت فيها بلايين الدولارات.. دع عنك ما فقده العراق من أرواح تجاوز عددها طبقاً لمجلة «لانسيت» البريطانية ٦٥٥ ألف نسمة، وما جرى تدميره من منشآت ومبان أعادت البلاد قروناً إلى الوراء. كما فقدت فيها إدارة الرئيس بوش مصداقيتها لدى الشعب الأمريكى على نحو أفضى بها إلى هزيمة فادحة فى الانتخابات النصفية للكونجرس، فقد فيها الجمهوريون الأغلبية البرلمانية. ودخلت أمريكا مرحلة خسوف سياسى أشبه بالحقبة التى أعقبت حرب فيتنام.



لم يكن هذا التحول فى مسار الأحداث مفاجأة لأحد، كما أن الإخفاق الذريع لسياسات الرئيس بوش وفريقه، وللخطط العسكرية التى طبقها دونالد رامسفيلد مهندس الحرب العراقية، لم يقع بين يوم وليلة. ولكنه جاء محصلة لأخطاء تكتيكية تراكمت بكثافة خلال عامين من بدء الغزو. انتقدها قادة وخبراء عسكريون من داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية ومن خارجها، ولم يأبه بوش وجماعته لخطورتها، وربما لم يفهمها ويعمل على تداركها إلا متأخراً. ولم تقتصر الكارثة على أخطاء تكتيكية ارتكبها رامسفيلد ورفض بكل عجرفة وعناد الاعتراف بها، ولكنها تركزت بصفة خاصة فى عجز أجهزة البنتاجون والمخابرات الأمريكية عن إدراك التداعيات الخطيرة للزلزال الاجتماعى والطائفى الذى أحدثه الغزو، وأدى إلى إزاحة الأقلية السنية القوية التى حكمت العراق تاريخياً، لتحل محلها أغلبية ذات مرجعيات متعددة من الشيعة، تعمقت لديها مشاعر المظلومية والاضطهاد والملاحقة. فجرت منازعات طائفية دامية، ليس بوسع أحد أن يتنبأ بتفاعلاتها، ولا بتأثير ذلك على بقاء القوات الأمريكية أو خروجها.

وتشير كل الدلائل إلى أن احتلال العراق لم يكن غير هدف مرحلى فى مخطط أكبر رسمته قوى اليمين المحافظ لمشروع إمبراطورى، يرمى إلى إعادة صياغة منطقة الشرق الأوسط الكبير، يجعل من العراق نموذجاً لنظام ديمقراطى فى بناء حديث للدولة، يرسل إشعاعاته إلى جيرانه العرب، ويصبح بما يملكه من ثروات طبيعية وبشرية بؤرة جذب لنظام جديد فى المنطقة يضمن الاستقرار والأمن، ويقضى على الإرهاب وحينئذ يمكن أن يتحقق السلام الدائم فى إطار علاقات طبيعية مع إسرائيل.

ولقد بدا إيمان بوش وإدارته بهذه العقيدة أمراً مثيراً للدهشة لبعض الوقت، ومثيراً للشك فى مدى سذاجته هو وأصحابه معظم الوقت. وقد استغل بوش ومجموعة اليمين المتطرف سلاح الحرب ضد الإرهاب لتخويف الشعب الأمريكى، وإقناعه بأن البلاد تواجه خطر إرهاب إسلامى حقيقى، يهدد أمن أمريكا ورخاءها واستقرارها. ولابد من تعبئة كل القوى، ولو اقتضى الأمر إصدار قوانين استثنائية تحد من الحريات دفاعاً عن الوطن، لمواجهة قوى الظلام الإرهابية الكامنة فى الشعوب العربية والإسلامية بضربات استباقية فى عقر دارها. وكلما حاول بعض عقلاء الأمريكيين، ومن بينهم رئيسان سابقان: جورج بوش الأب وجيمى كارتر، الحد من موجة هستيريا الحرب التى اجتاحت بوش وإدارته، ضاعف بوش من سرعة اندفاعه لإنجاز المهمة الرسالية التى كلفه بها الرب!



ويحكى وودوارد فى كتابه «حالة إنكار» لمحات من الأزمة التى نشبت بسبب الحرب على العراق بين بوش الأب وبوش الابن: عندما انتابت حالة من القلق والديه، إلى درجة أن بربارا بوش الأم، فى حفل عشاء رسمى عشية الغزو، انتحت جانباً بصديق قديم للأسرة هو السناتور الديمقراطى السابق دافيد بورين الذى كان رئيساً للجنة المخابرات فى الكونجرس أثناء فترة جورج بوش الأب، وقالت له:

- لقد اعتدت دائماً أن تصارحنى بالحقيقة.. فهل تفضى بها إلىّ الآن؟

❖ هل نحن على حق لو راودنا القلق بسبب مسألة العراق.. هل تعتقد أنه عمل خاطئ؟

- رد عليها السناتور: بالتأكيد يا سيدتى.. إنه خطأ فادح لو واصلنا السير فى هذا الطريق..

- أضافت بربارا بوش: أبوه قلق جداً ولا ينام الليل..

- قال لها السناتور: ولماذا لا يتكلم معه؟

- أبوه يظن أنه لا ينبغى أن يتدخل إلا إذا سأله هو النصيحة!

ويضيف وودوارد أن أصدقاء بوش الأب عارضوا بشدة هذه الحرب وسياسات المحافظين الجدد. وكتب برنت سكوكرفت مستشار الأمن السابق فى عهد الأب مقالاً فى «نيويورك تايمز» حذر فيه من غزو العراق. وسكوكرفت يعد من المدرسة القديمة التى لم تقتنع بمشروع نشر الديمقراطية، وتعامل مع صدام ونظامه كحاجز صد ضد إيران، فلم يتدخل عام ١٩٩١ عندما قام صدام بإعدام أعداد كبيرة من الأكراد والشيعة، لأن أمريكا - فى رأيه - ليست على استعداد لاحتلال ما أسماه تشرشل يوماً ما «بركان العراق الذى لا يخمد»!!

ولكن بركان العراق لم يخمد بالفعل، بل انفجرت حممه منذ اليوم الذى أسقط فيه الجنود الأمريكيون تمثال صدام حسين فى بغداد. ولم يدرك الرئيس بوش عندما هبط على أرض العاصمة العراقية بلباسه العسكرى كقائد أعلى للقوات الأمريكية فى أول وربما آخر زيارة له معلناً صيحة النصر، أن الحرب لم تكن على أبواب النهاية، بل كانت فى بداياتها الأولى. وأن المدى الزمنى لبقاء القوات الأمريكية واستمرار العمليات العسكرية سوف يطول بأكثر كثيراً مما قدر له، وأن «تحالف الراغبين» سوف يتحول إلى «تحالف الكارهين»، الذين بدءوا سحب قواتهم بالفعل من العراق قبل عدة شهور.



الآن اعترف الشعب الأمريكى بأن الحرب فى العراق باتت مسألة ميئوساً منها، وجاءت الانتخابات النصفية بمثابة استفتاء على شعبية الرئيس بوش وسياساته الخاسرة. وأصبح السؤال: وماذا بعد؟ كيف يمكن وضع نهاية لهذا النزيف المستمر الذى أعاد إلى الذاكرة الأمريكية كارثة حرب فيتنام، وخاصة بعد أن اعترف ثعلب أمريكا الداهية هنرى كيسنجر الذى يستمع بوش لنصائحه، بأن النصر العسكرى فى العراق أصبح مستحيلاً.



فى السياسة الأمريكية توجد عبارة شائعة بأنه لا يوجد غذاء مجانى. وحتى هذه اللحظة لم تبد أمريكا ما يشير إلى أنها على استعداد لدفع الثمن. وهو ما ألمحت إليه الاتصالات المبدئية التى جرت بين بيكر والإيرانيين، بأنهم ليسوا على استعداد لتقديم أى شىء دون مقابل



وقال للإذاعة البريطانية إنه يعتقد أنه لم يعد ممكنًا إقامة حكومة عراقية تتولى زمام الأمور فى البلاد كلها، وتضع حداً للحرب الأهلية الطائفية فى وقت معقول، يسمح للغرب بمساعدتها! ونصح كيسنجر - كما نصح قبله جيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق الذى يرأس لجنة مشتركة من الحزبين لبحث الأزمة الحرجة التى تواجه إدارة بوش فى العراق . بفتح حوار مع جيران العراق وبالأخص إيران وسوريا.

ولكن كيسنجر لا ينصح فى الوقت نفسه بخروج سريع من العراق، لأن مثل هذا الخروج سوف تكون له نتائج كارثية، ليس فقط على العراق ولكن أيضاً على منطقة الخليج بأسرها حيث التجمعات الشيعية القوية. وهو ما قد يؤدى إلى قلقلة المنطقة فى حروب طائفية لا تنتهى بين الشيعة والسنة، بل وبين الشيعة وبعضهم البعض. وقد ينقضى زمن طويل قبل أن يستعيد العراق وحدته. وهو أخشى ما تخشاه إسرائيل من نتائج الخروج الأمريكى وتمزق العراق، إذ تبرز إيران وكأنها الكاسب الأول والقوة الإقليمية النافذة فى المنطقة.. والتى لن يجرؤ رئيس أمريكى فى المستقبل القريب على توجيه ضربة إليها، وهى تواصل بإصرار العمل فى برامجها النووية وتحرز فى كل يوم تقدماً ملموساً.

بعد ٣١ عاماً من الهزيمة الأمريكية فى فيتنام، تجرى المقارنة بين المأساة الفيتنامية والمأساة العراقية وكأن الأمريكيين لم يتعلموا شيئًا من دروس التاريخ. وبقدر ما كانت الحرب فى فيتنام لأسباب ملفقة بهدف وقف تغلغل النفوذ الشيوعى فى آسيا مدفوعة بلوبى شركات السلاح والبترول، كانت الحرب فى العراق لأسباب لا تقل كذبًا وتلفيقًا، لإعادة ترتيب الموقف فى الشرق الأوسط من أجل احتكار مصادر النفط فى منطقة الخليج، وحماية أمن إسرائيل واستقرارها، والتحكم فى النمو المتسارع للقوى الآسيوية الصاعدة وعلى رأسها الصين والهند.

ربما كان الفارق الوحيد أن الأمريكيين عندما انسحبوا من فيتنام، تركوا وراءهم شعبًا وحدته الثورة والنضال ضد الاحتلال الأمريكى، بحيث استطاع بناء نفسه فى غضون سنوات قليلة. أما فى العراق فلن يكون الانسحاب سهلاً فى ظروف تنبئ باستمرار القتال بين الفصائل المتصارعة فى العراق، واحتمالات تقسيم البلاد على أسس طائفية. وهو ثمن باهظ لن تستطيع أمريكا احتماله. ولعل هذا هو الدرس الذى أشار إليه بوش فى حديثه عن دروس الحرب الفيتنامية، بما يعنى أن أمريكا لن تهرول للانسحاب من العراق كما فعلت فى فيتنام، دون أن تترك وراءها من وما يحمى مصالحها ويحافظ على أمن ربيبتها إسرائيل.



فى هذا الصدد تروى قصة ذات مغزى، عن مفاوضات جرت بين أحد أباطرة صناعة السينما فى هوليوود والأديب الإنجليزى المعروف برنارد شو حول الحصول على حقوق إنتاج إحدى مسرحياته الشهيرة للسينما. وبعد حوار طويل قال شو للمنتج الكبير: «أخشى أننا لن نتوصل إلى اتفاق.. فأنت تتحدث فقط عن الفن، وأنا أتحدث فقط عن الفلوس».

والمغزى أن بوش، سواء فى رحلته إلى آسيا أو فى محاولة تعديل سياساته فى العراق يبتعد كثيراً عن الممكن، ففى اجتماع قمة التعاون الآسيوية فى هانوى، لم يكن الهاجس الوحيد الذى سيطر على بوش غير الأزمة النووية الكورية، بينما كان ٢١ رئيس دولة آسيوية أخرى مشغولين بتوسيع نطاق التبادل التجارى.

وهو ما يفعله بوش حاليًا للخروج من مستنقع العراق. فالأمريكيون - فى ضوء مقترحات بيكر الجديدة - يتحدثون عن ضرورة الكلام مع العدو، أى عن فتح قنوات للحوار مع إيران وسوريا. وكأنه يكفى أن تمد واشنطن يدها بالصداقة أو ما يشبه الصداقة إلى البلدين، حتى تذوب جبال الجليد التى تراكمت عبر الخلافات والتهديدات بالحصار والمقاطعة والضربات الاستباقية، وتزول وصمة «محور الشر» الذى اتخذ منه المحافظون الجدد هدفًا لابد من القضاء عليه. وكان الظن أن إسقاط صدام حسين سوف يؤدى بالتالى إلى سقوط نظام الملالى فى طهران، ومعها أو قبلها نظام الأسد فى سوريا، لتبسط الديمقراطية جناحيها على المنطقة، وتفتح الطريق للسلام الأمريكى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط.

وبقدر السذاجة التى تميزت بها تصورات المحافظين الجدد، جاءت الطروحات التى ترددت أخيراً حول الهدف من الاتصالات مع إيران وسوريا للمساعدة على تهدئة الموقف المتدهور فى العراق لا تقل سذاجة. فالمطلوب من سوريا هو التعاون الكامل لمنع تهريب السلاح والمقاتلين من المتطوعين فى صفوف «القاعدة» عبر حدودها للانضمام إلى المقاومة السنية. ووقف المساعدات المالية التى يرسلها أعضاء القيادة البعثية السابقة الذين وجدوا لهم ملاذاً فى سوريا، حيث تنسب معظم العمليات التى راح ضحيتها جنود أمريكيون فى العراق إلى المقاومة السنية. وقد يتطرق الحديث أيضًا إلى تغيير السياسات السورية إزاء لبنان، ومساندتها للفصائل الفلسطينية المعارضة لتذليل الصعوبات بين الفلسطينيين وإسرائيل.

أما بالنسبة لإيران فالمطلوب منها أن تستخدم نفوذها للسيطرة على العمليات التى تقوم بها الميليشيات الشيعية التى تنتمى إلى الفصيلين الرئيسيين من الشيعة فى العراق، والتى تنتمى إحداهما إلى مقتدى الصدر والأخرى إلى عبدالعزيز الحكيم.. وكلاهما يعتمد فى تمويله وتسليحه على مساعدات إيرانية، وكثير منهم أمضوا سنوات المنفى فى إيران أثناء حكم صدام.



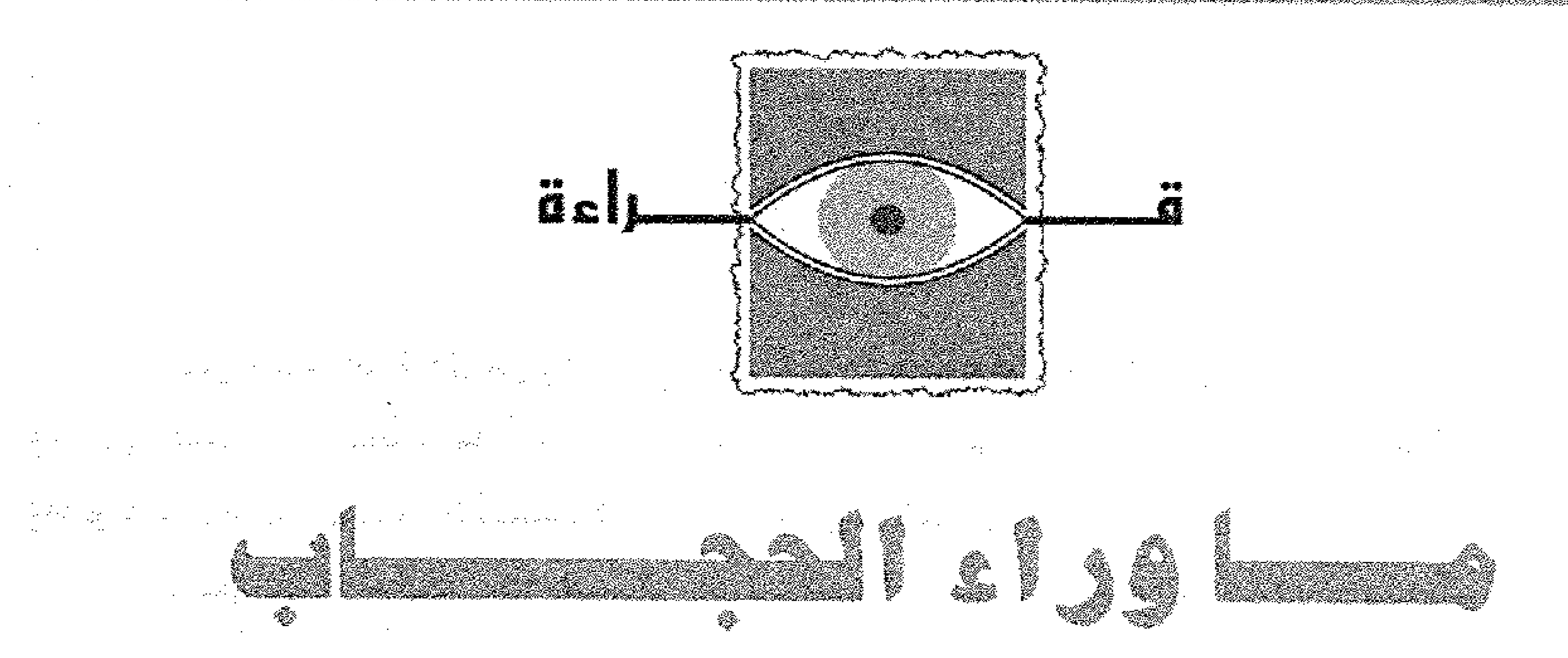
وفى السياسة الأمريكية توجد عبارة شائعة بأنه لا يوجد غذاء مجانى. وحتى هذه اللحظة لم تبد أمريكا ما يشير إلى أنها على استعداد لدفع الثمن. وهو ما ألمحت إليه الاتصالات المبدئية التى جرت بين بيكر والإيرانيين، بأنهم ليسوا على استعداد لتقديم أى شىء دون مقابل. بل على العكس، فمازالت تتردد تصريحات لمسئولين أمريكيين بأنهم لن يقدموا على أى تعاون مع إيران ما لم تتراجع عن برنامج التخصيب النووى، وتقبل بالحوافز والشروط التى قدمها الأوروبيون.

ولا يختلف الحديث مع سوريا - فى الاتصالات غير الرسمية التى جرت - عن هذه النغمة حيث يتجاهل الأمريكيون تماماً حجم المشاكل والإساءات التى شاركت أمريكا فى توجيهها إلى سوريا، سواء فيما يتعلق بلبنان أو فلسطين أو التجاهل الصارخ للاحتلال الإسرائيلى للجولان.

كما لم يبد من جانب واشنطن حتى الآن ما يشير إلى أن بالونات الاختبار التى أطلقها تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا، ودعا فيها إلى ضرورة توسيع نطاق الحوار مع إيران وسوريا ليشمل مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى باعتبارها أم المشاكل، قد وجدت صدى لدى الإدارة الأمريكية، خصوصاً إذا أخذنا فى الحسبان أن الأغلبية الديمقراطية التى سيكون لها اليد الطولى فى تعديل السياسات الأمريكية، لا تتحدث بصوت واحد. وأن مواقف الديمقراطية فى ملفات السياسة الخارجية، سواء بالنسبة لسوريا وإيران أو بالنسبة للتأييد المطلق لإسرائيل، لا تختلف عن رؤى الجمهوريين. وليس من المرجح أن يترك الحزب الديمقراطى نفسه للانجرار إلى صراعات داخلية حول هذه القضايا، وهو على أبواب الانتخابات الرياسية المقبلة.



لا تبدو فى الأفق نهاية سعيدة أو محددة لكيفية خروج القوات الأمريكية من الجحيم الذى أشعلته فى العراق. وقد كانت إيران هى الأسرع فى مواجهة التطورات الأخيرة بتحركات أبرزتها كقوة إقليمية تملك أوراقا قوية للمساومة والدفاع عن مصالحها، حين دعت إلى قمة ثلاثية تضم سوريا والعراق فى طهران. وهو ما ينبئ بأن طبقات الظلام التى تلف المنطقة لن تنقشع فى وقت قريب. وأخطر الاحتمالات أن تقدم إسرائيل - فى حالة يأس - وبإيعاز من أمريكا على حماقة كبرى بتوجيه ضربة إلى إيران. ■



ما وراء الحجاب

أيمن الصياد

■■ قبل عام كامل وبالضبط في اليوم السابع من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٥ كان «عمرو نبيل» المصور البارع لوكالة أسوشيتدبرس AP يؤدي مهمته، لا في ميدان قتال كما فعل مرارا - وإنما في تغطية الانتخابات البرلمانية المصرية. يومها فقد «المصور» عينه - أو كاد - بعد أن اعتدى عليه من أراد منعه من تصوير تجاوزات أمنية فاقت يومها كل حد.

تذكرت الحادثة المؤلمة - ولم أكن قد نسيتها أبدا - حين شاهدت قبل أيام «صورتين» إحداهما للبلطجية ذاتهم يقتحمون جامعة عين شمس بالهراوات والسيوف والجنازير لتأديب طلبة جامعيين فكروا في ممارسة «حق ديمقراطي» حجبته عنهم قوة السلطة. والأخرى لسيارة الأمن المركزي «المهيبة» تدخل - ربما للمرة الأولى - من البوابة الرئيسية لجامعة القاهرة.

ذكرتني «الصورتان» بصديقي «المصور». وكان مثيرا أن نشرهما كان بعد أسابيع فقط من حادثة التحرش الجنسي الجماعي في وسط القاهرة. ومن حادثة تلوث مياه الشرب في الدقهلية. وربما في الوقت نفسه الذي شهدنا فيه بوادر حادث مروع كشف الحالة الحقيقية لاستاد القاهرة «الدولي» وفي الأسبوع ذاته الذي شهد اجتماعا للقضاة الذين أعياهم الدفاع عن استقلالهم. وبعد أيام فقط من الإعلان عن «الاستمرار» في تحمل المسؤولية «مادام في الصدر قلب ينبض ونفس يتردد». وكان الأكثر إثارة أن كل ذلك غطاه «حجاب» من حديث أو قل «شجار» حول «الحجاب» الذي بات فجأة مسألة المسائل أو قضية القضايا.

ثم كان أن دارت آلة التلهي أو الإلهاء الجهنمية، فانشغلنا جميعا؛ مانشتات وبرلمانا وفضائيات بكلام لوزير «وليس قرارا قانونيا ملزما». وبدا أننا بتنا نتعارك في ميادين نمهدها بأنفسنا لأنفسنا. وننسى أن القضاء؛ حصن العدل والأمان الأخير في مصر قد بات مهددا - تحت ضغوط فاقت كل حد - في كرامته، ومن ثم في استقلاله. ونتجاهل أن إقصاء القضاة - بنزاهتهم المؤكدة - عن العملية الانتخابية - قد بات هدفا يدبر له بليل. ويجري الترويج له بباطل القول.

يخترع مثقفونا ومفكرونا - وسياسيونا أيضا - معركة لا فائدة منها حول ما قاله الوزير و«ماذا كان يقصد». وينسون بروفة «فوضى الشارع» القادمة وسط القاهرة ليلة العيد. هل تذكرون ما جرى في ١٩٨٦. حين كانت شرارة واحدة كافية لأن يشتعل الحريق.

يحترق العراق.. ويذبح الفلسطينيون بدم بارد كل يوم، وتعلن إسرائيل تطوير وسائل قتالية متناهية الصغر بواسطة «النانو تكنولوجي».. وتنشغل الدولة العربية «الكبرى» بشجار مفتعل حول مسألة من المفترض أنها حسمت - أيا ما كان أمر ذلك الحسم - قبل أربعة عشر قرنا. حتى وإن لم يكن الأمر كذلك - كما يرى البعض - فليس من الحكمة التي هي «ضالة المؤمن» أن ننشغل بها «الآن» ونترك بيتا عربيا يحترق، وبيتا مصريا تكمن في زواياه - وإن لم نر - أشباح الخراب.



نعرف أن «الحجاب» قد بات «اصطلاحا» يعني غطاء رأس المرأة المسلمة، وما إذا كان «حقا» لها أو «واجبا» عليها، ولكننا نعرف أيضا أن «الحجاب» بمعناه اللغوي الأوسع قد يعني «غمامة» يضعها البعض علي ناظريه لتخفي عنه ما لا يريد أن يرى. أو «غطاء» يعمد إليه من يريد أن يخفي أو يحجب ما يراه أولى بالإخفاء عن العيون .. أو ضوء النهار.

وأخشى أن نكون دولة ومجتمعا، قد ارتاح بعضنا إلى تلك «الغمامة» وأمن الآخرون إلى هذا «الغطاء» فإذا كان «وراء الأكمة ما وراءها» كما يقول القول المشهور، يبدو للمتأمل للمشهد من بعيد أن وراء «الحجاب» الذي أردناه جميعا واسعا وكثيفا يغطي سوءاتنا.. الكثير والكثير والكثير.

اذ يبدو أن مصر قد اختارت أو اعتادت - دولة ومجتمعا ونخبة للأسف - أن تعيش خلف «حجاب» فضفاض من الشعارات البراقة تخفي خلفه الوضع الحقيقي لحال التعليم والديموقراطية والاقتصاد وحقوق الإنسان وإنتاجية العامل ومستوى خريج الجامعة... وكل ماهو معلوم أو مسكوت عنه، أو بالأحرى مختف خلف زحام اللافتات والمانشتات المتبارية دوما في المبالغة وإهانة اللغة و«الأرقام».

فوراء حجاب «مجانية التعليم» تقبع حقيقة أن الدروس الخصوصية تستهلك مايزيد عن المليار جنيه سنويا، (إن صحت التقديرات في بلد يدعي العلم وتغيب فيه دوما البيانات أو الاحصاءات الموثقة)

ووراء حجاب «جامعة في كل محافظة .. وأربع عشرة جامعة خاصة» تعليم جامعي «فاشل» باعتراف الوزير المختص نفسه؛ والذي اختار أن يرسل أولاده للتعليم في الخارج. وخريجون - إن أردنا الحقيقة بلا «حجاب» - لايزيدون عن كونهم أشباه متعلمين، وجامعات «خاصة» تبيع شهاداتها لمن يدفع لا لمن يتعلم. ... ومن ذلك كثير «أنى قلبت وجهك..»

جربوا من فضلكم زيارة مواقع الجامعات المصرية على الإنترنت، (حسب المعايير العلمية كان ترتيب موقع جامعة القاهرة بين جامعات العالم (٤٧٠٨) وبين جامعات أفريقيا (٢٦) بعد ناميبيا وموريشيوس ودار السلام.).

http://www.webometrics.info/
top100_continent.asp-
(cont=africa.htm

نتغافل عن كل هذا. ونتحدث عن الحكومة الإلكترونية. ونقنع أنفسنا بأن لنا الريادة وأننا في الصدارة ثم نذهب لنحتسي الشاي ونتبادل المبسم على المقاهي. وإنا.. «ها هنا لقاعدون..».



وراء الحجاب الذي أردناه مزركشا - كما هي موضة تلك الأيام - ببريق ديمقراطي، دولة أمنية، وإن تخفت تحت «حجاب» أو في ثياب مدنية.

ووراء الحجاب حقيقة أننا أمام نواب لا يعبرون كما يزعمون عن آرائهم الحقيقية. بل تحركهم «عصا الفرعون الخفية» فالذين هاجوا وماجوا ضد الوزير مدافعين عن «صحيح الدين» كما قالوا بأعلى صوت، هم أنفسهم الذين هدأوا فجأة، وبلعوا كل شعاراتهم حين جاء وقت اتخاذ القرار. بالضبط كما حدث قبل عام ونصف العام. فالذين اعتبروا يومها تعديل الدستور من الكبائر هم أنفسهم الذين صفقوا للمبادرة الرئاسية الكريمة لتعديل الماد ٧٦ دعما للديمقراطية. أو قل لإضفاء مزيد من البريق على «الحجاب».

وراء الحجاب معارك «رسمية» خشنة مع القضاة والصحفيين والطلاب والمهنيين على اختلاف نقاباتهم. ووراءه تقرير. نسيناه. للمجلس «الرسمي» لحقوق الإنسان عن اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وعن حالات مؤكدة للتعذيب، وعن أحكام للقضاء تجاهلتها السلطات واعتبرتها «محض حبر على ورق».

ووراء الحجاب «الديموقراطي» حقيقة أن أحكام القضاء التي صدرت عشية الانتخابات الطلابية والعمالية الأخيرة «لم يعتد بها» .. هكذا ببساطة. ولحسابات انتخابية ضيقة لم يدرك أصحاب القرار/السلطة خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادي شعور باليأس من اللجوء إلى التقاضي «سبيلا سلميا لحل المنازعات». وغير مدرك أنه عندما تُغل يد القضاء في رد المظالم لأصحابها يصبح الأمن الاجتماعي مهددا. كما يصبح مفهوم الدولة ذاته في خطر.

قبل عام كامل - وعين صاحبنا المصور التي أصيبت تشهد. لم يدرك أصحاب قرار اللجوء إلى «الهراوة والسكين» لضمان الأغلبية خطورة أن يشيع في المجتمع مفهوم: أن القوة / العنف هي السبيل «الوحيد» لكي تصل إلى هدفك (حقا كان أو باطلا). والآن بعد عام كامل مازال «الحجاب» فيما يبدو يغطي عيونهم.

وراء الحجاب - تأملوا الصورة .. وتمعنوا فيما ماجرى في شوارع وسط البلد ليلة العيد - إحساس بالإحباط، وحالة من التوتر المجتمعي (لا السياسي أو الديني فقط) لن تهدئه - مهما قست - هراوات الأمن المركزي، كما لن تخفيه - مهما تكاثفت - غازاته المسيلة للدموع. والمشكلة أن بعضنا، رغم كل شيء اختار أن يضع «الحجاب» على عينه حتى لا يرى النار تحت الرماد. رغم أن تمرد الأمن المركزي (١٩٨٦) إذا ما كنا نذكر - ويجب أن نذكر - لم تسبقه إشارة، كما لم يكن بحاجة إلى تنظيم وكوادر و«البيان الأول». ولكنه في نهاية المطاف، أو في نهاية «المفاجأة» جاء بالدبابات إلى الشوارع.. وبالقلق إلى النفوس.



خلف «حجاب» فضفاض من الشعارات البراقة يختفي الوضع الحقيقي لحال التعليم والديموقراطية والاقتصاد وحقوق الإنسان وإنتاجية العامل ومستوى خريج الجامعة



نزعم أننا بلد «عرف طريقه إلى الله» وندلل على ذلك بانتشار النقاب واللحى، وصفوف المصلين اللامتناهية في رمضان. ونخفي وراء ذلك «الحجاب» الواسع المطمئن أن الفساد قد وصل إلى كل ركن، وأن الرشوة قد صارت في كل جيب. وأن الغش قد أصبح في منظومة قيمنا الحديثة شطارة وفهلوة. وأننا «عدا ما هو شكلي» قد فقدنا الإحساس الكامن في الضمير بالخط الفاصل بين الحلال والحرام. وأننا بإهدارنا قيمة التعليم «الحقيقي» والعمل «الحقيقي» قد بتنا نلهث خلف أمم عرفت أن لا قيمة للشكل بلا جوهر. ولا للقول بلا فعل. ورحم الله شيخنا محمد الغزالي الذي بح صوته منبهاً ومحذراً.

تبقى على الهامش ملحوظات ثلاث:

١ - الأولى حول علاقة المثقف الملتبسة بالسلطة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى. إذ ليس مفهوماً أن يدافع نفرٌ من «المثقفين» عن حرية الرأي وحرية الفعل. مستثنين من ذلك حرية المتدينين في التمسك بدينهم أو الجهر به. وتحار قطعاً حين تجد من يرسخ في الأذهان أن الثقافة الحقة تعني التنكر للدين أو إخفاء «إيمانك به» تحت حجاب براق من شعارات الحداثة والليبرالية.

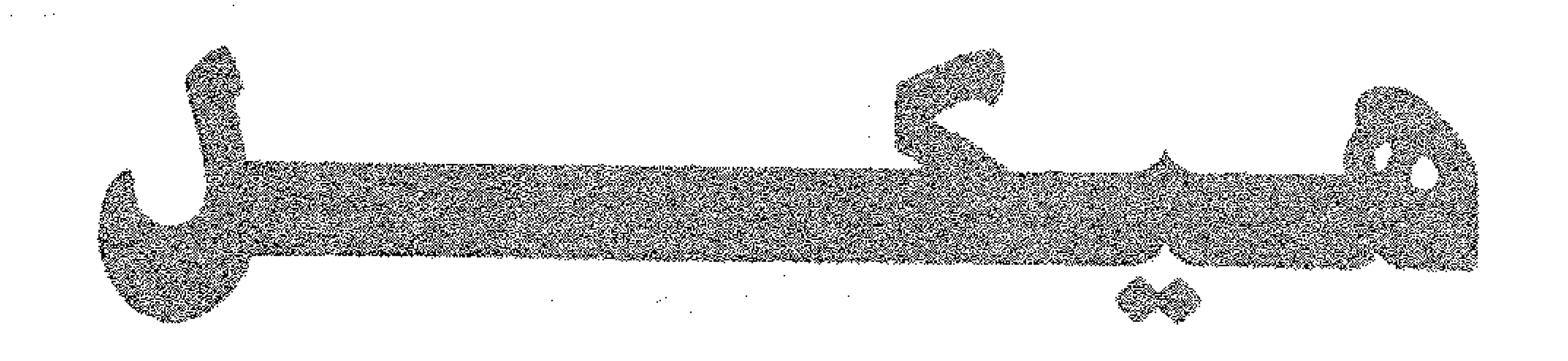
٢ - أنه كان مدهشاً أن كثيرا ممن انبروا تحت القبة «مزايدين» ومدافعين عن الدين الذي اعتبروه مجسداً في غطاء رأس المرأة ملوثة أيديهم - ولا أقول ضمائرهم - بوقائع تزوير وغش واستغلال نفوذ. بل إن منهم - حسب أحكام محكمة النقض النهائية - من وصل إلى مقعده أصلا بطريقة لايرضاها شرعٌ ولا دين.

٣ - أن هناك حالة من الاستقطاب الحادة في المجتمع ينبغي الانتباه إليها.

وهناك «ثقافة ديموقراطية» ينبغي تعزيزها، لا وأدها تحت سنابك الخيل أو أحذية الجنود. وأن «الأغلبية البرلمانية» بحكم الأمر الواقع تتحمل مسؤولية ذلك بالتأكيد. إذ أن ماجرى في مصر في الأيام الماضية، وامتد بالتالي تلفزيونيا وصحفيا الى محيطها العربي كان «شجارا» ولم يكن بحال من الأحوال «حوار». ففي الحوار، يحدد الناس بداية حول ماذا بالضبط يتحاورون وما هي نقاط الاتفاق. وما هي تلك التي مازالت محلاً للخلاف، ومن ثم للحوار. ثم ما هي المرجعيات المتفق عليها، وما هي التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات... هنا - وهنا فقط - يبدأ تبادل «حقيقي» لوجهات النظر بين أطراف تعلم بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالي أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح.. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض.

وبعد.. فستهدأ - كعادتنا - الضجة.. مهما علا الصوت أو ارتفع الضجيج. كما هدأ قبلها بأسابيع فقط الصخب. الذي بتنا لا نجيد غيره. حول تظاهرات التحرش الجنسي في قلب العاصمة. وسننسى كل شيء كما نسينا إصابة «صديقي عمرو» على يد البلطجية أثناء تأدية عمله في رصد الممارسات «الديمقراطية» في ذلك اليوم «الديمقراطي» قبل عام كامل.

وخلاصة القول إنه خطأ قطعاً - بل وربما «جُرمٌ» أيضاً - أن يسخر احدهم سواء كان في لندن أو القاهرة. أو أن يقول إن الحجاب أو ارتداءه علامة من علامات «التخلف». ولكن أن يصبح الحجاب «قضية» وأن تصبح «قضية الحجاب» هي الأولى قبل كل قضايا الإصلاح والحرية والتقدم العلمي والديمقراطية التي هي غائبة بامتياز، يصبح هذا هو «التخلف بعينه». ■



جدلية الصحافة والسياسة والتاريخ





فضل مصطفى النقيب



قراءة هيكل لم تكن مفيدة وضرورية لفهم الخمسينيات والستينيات والسبعينيات فحسب، فالواقع أن قراءته فى التسعينيات قد ساعدتنى وأثرت فى تفكيرى أكثر من السابق



[١]

إنهم يتحدثون دوماً عن الستينيات: جيل الستينيات، وفكر الستينيات، وثقافة الستينيات، مع أن واقع الأمر يؤكد أن كل شىء كان قد ابتدأ وتكرس فى الخمسينيات.

فى مطلع الخمسينيات كنا طلاباً فى المدارس الثانوية فى دمشق، وكانت «القراءة» بالنسبة لنا هى كل شىء. وكان شغفنا بالقراءة يزداد مع تسارع إيقاع المحطات التاريخية لذلك العقد العظيم. ١٩٥٢ (ثورة ٢٣ يوليو) و١٩٥٤ (ثورة الجزائر) و١٩٥٦ (حرب السويس) وشباط ١٩٥٨ (وحدة مصر وسوريا) وتموز ١٩٥٨ (ثورة العراق).

قبل ثورة يوليو، كنا نقرأ قصص جرجى زيدان وروايات ألكسندر دوماس الكبير، ونعيش فى عالم مسحور، تتوزع فيه عواطفنا بين أبطال العروبة والإسلام، وفرسان أوروبا وأميراتها الجميلات.

ثم فتحت ثورة٢٣ يوليو أمامنا عالماً جديداً من الأدب والسياسة. أول ما قرأناه فى السياسة كان فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر، ثم اكتشفنا على صفحات «الجمهورية» نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوى، كما أخذنا نقرأ للكتاب الكبار الذين كنا نسمع عنهم دون أن نقرأ لهم كطه حسين، وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد.

بعد انطلاق ثورة الجزائر عام ١٩٥٤، تسارع نبض حركة التحرر العربى، فأخذنا نلتهم كل ما تصل إليه أيادينا من كتب النضال الثورى، والعمل القومى، والفكر الاشتراكى. وكنا ننتظر بفارغ الصبر يوم الاثنين من كل أسبوع، لتصل مجلة «روز اليوسف» من القاهرة، كما ننتظر مطلع كل شهر لتصل مجلة «الآداب» من بيروت. وعلى صفحات هاتين المجلتين كنا نتحاور فى الأفكار التى قرأنا عنها فى الكتب، أو استمعنا إليها فى النقاشات الدائرة فى كل مكان.

عشنا سنوات ١٩٥٦ - ١٩٥٨ فى مظاهرة واحدة مستمرة، فبعد هزيمة العدوان الإسرائيلى - البريطانى- الفرنسى على مصر، وتكريس قيادة جمال عبد الناصر لحركة التحرر العربى تظاهرنا بشكل دائم مطالبين بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا.

فى تلك الأيام اختفت الحواجز بين السياسة والأدب، فكنا نهتف بشعارات الوحدة والتحرر، وفى نفس الوقت، نناقش آخر أخبار المعارك الأدبية التى كانت تدور بين طه حسين، ومحمد مندور ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس. وعندما حضر طه حسين إلى بيروت تلبية لدعوة مجلة «الآداب» ليتحاور مع رئيف خورى فى موضوع الالتزام والأدب، كان لذلك الحوار وقع وصدى وتداعيات الأحداث السياسية الكبيرة.

ثم جاءت الأشهر الستة الكبيرة لعام ١٩٥٨ التى امتدت من قيام الجمهورية العربية المتحدة فى شباط إلى ثورة العراق فى تموز.

كانت أياماً نادرة، لم يعرف العرب مثلها فى تاريخهم الحديث، وعندما أعلن عبد الناصر «أن الذى علقت من أجله المشانق، أصبح له وحده قوة القانون»، تحرك فى أعماقنا إحساس أكيد بأن أمتنا عادت لتدخل التاريخ من جديد، وأننا نسير على الطريق الذى سيوصلنا لاستعادة الحقوق، وتحطيم الظلم الذى أثقل ظهور آبائنا وأجدادنا مئات السنين.

وفى ظهر أحد تلك الأيام العربية، كنا عائدين من المدرسة، فتوقفنا كعادتنا أمام مكتبة «النورى» فى شارع جمال باشا لنقرأ عناوين الصحف، فوجدنا صفحة من جريدة الأهرام معلقة على جدار المكتبة وفيها رسالة مفتوحة من محمد حسنين هيكل إلى الملك سعود بن عبد العزيز يبدأها بالقول:

«يا صاحب الجلالة، كل الأقلام تحطمت على أعتابك، إلا هذا القلم».

فاجأنى شعور طاغ من الفرح والحماسة هزنى من شعر رأسى إلى أخمص قدمى.

لم أكن من قراء محمد حسنين هيكل، فلقد كان يعمل فى دار «أخبار اليوم»، ثم سمعنا أنه انتقل ليصبح رئيساً لتحرير جريدة «الأهرام». ولم أكن من قراء صحف دار «أخبار اليوم» أو «الأهرام». فلقد كنت أسمع من أحاديث والدى وأصدقائه أن دار «أخبار اليوم» تعمل على نشر أسلوب الصحافة الأمريكى الذى يهدف إلى الإثارة بالدرجة الأولى، كما أنها مؤسسة موالية للقصر ومعادية للوفد «حزب الأغلبية»، كما كنا نرى فى «الأهرام» جريدة قديمة وتقليدية وبعيدة عن أجواء حركة التحرر الوطنى.

بعد ذلك عدت للأعداد القديمة لمجلة «آخر ساعة» التى كان أخى عصام يشتريها ورحت أقرأ فيها كل ما أجده من مقالات هيكل، وعندما فرغت من ذلك رحت أتردد على المكتب الثقافى المصرى لأقرأ مقالات هيكل القديمة فى صحف ومجلات وجرائد دار «أخبار اليوم». ولقد شعرت أنى أتعرف على كاتب من نوع لم أعرفه من قبل، فلقد كانت مفاجأة لى عندما اكتشفت أنه فى الأشهر الأولى من عام ١٩٤٨ يوم كنت ما زلت مع أهلى فى فلسطين كان هو أيضا هناك. ثم اكتشفت بعد ذلك أنه كان أيضا فى كل الأمكنة

التى كانت تأتى منها أخبار النزاعات والحروب والثورات.

لقد تولد عندى بعد قراءة تلك المقالات شعور غريب لم أعهده من قبل، إذ شعرت وكأنى تعرفت على صديق سينقل لى دوماً حقيقة ما يدور فى العالم.

وهكذا أخذت أترقب يوم الجمعة وقراءة مقاله الأسبوعى «بصراحة». فى جريدة الأهرام.

ولكنى لم أتمكن من الاستمرار بقراءة «هيكل» بشكل منتظم كل أسبوع إلا لبضعة أشهر فقط، فلقد سافرت فى مطلع عام ١٩٥٩ إلى الولايات المتحدة للدراسة الجامعية.

فى الولايات المتحدة، كنت أقرأ عن رأى أو وجهة نظر هيكل أيام الأحداث الهامة فى العالم العربى، إذ أن وسائل الإعلام الأمريكية كانت تعتمد على مقالات «بصراحة» كجزء من تغطيتها لتلك الأحداث، وأيام الأحداث الكبرى، كأيام كارثة «الانفصال» أو أيام ثورة اليمن كان والدى يرسل لى بالبريد بضعة مقالات «بصراحة». ولكن لم أعد لقراءة هيكل بشكل منتظم ومستمر إلا بعد مرور أكثر من سنتين على وجودى فى الولايات المتحدة.

عن طريق الصدفة، كنت أزور صديقاً يقيم فى مدينة بورتلاند بولاية أورغون، فاكتشفت أن هناك كلية عن الشرق الأوسط فى جامعة بورتلاند وتحتفظ مكتبتها بكتب وجرائد ومجلات عربية، كثيرة منها أعداد جريدة «الأهرام» التى تعود لسنوات عديدة.

بعد تلك الزيارة، أصبح عندى التقليد التالى: كل ثلاثة أو أربعة أشهر أسافر فى مساء الجمعة لبورتلاند وأقيم عند صديقى، وفى صباح السبت أستيقظ باكراً وأكون على باب مكتبة الجامعة فى موعد افتتاحها الساعة الثامنة. آخذ أعداد الأهرام للشهور الماضية وأنتقى منها أعداد يوم الجمعة فأفتحها على مقال «بصراحة»، ثم أترك المكتبة وأذهب لمقهى الجامعة حيث أتناول الإفطار، ثم أعود للمكتبة لأقضى ساعات ممتعة فى قراءة المقالات.

وفى صباح الأحد آخذ الباص عائداً لجامعتى فى ولاية واشنطن، وخلال الساعات الثلاث التى تستغرقها الرحلة، أشعر وكأنى عائد من الوطن العربى،وليس من ولاية أمريكية مجاورة.

لم أنقطع بعد ذلك أبداً عن قراءة هيكل، ولكن قراءتى له فى سنوات ١٩٦٧-١٩٧٣ كانت تتم دون حماسى القديم. ففى تلك السنوات كنت مقتنعاً بضرورة محاربة الصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الكفاح المسلح وأسلوب حروب التحرير الشعبية، وكنت أرى أن هيكل مازال يؤمن بضرورة الاستمرار بأسلوب الجيوش التقليدى لإدارة الصراع العربى - الإسرائيلى، ويرى ضرورة الابتعاد عن الصراع المباشر مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فإنى لم أرتح للمقالات التى كتبها مؤيدا السادات فى صراعه مع مجموعة على صبرى فى مايو ١٩٧١.

عاد حماسى القديم لقراءة هيكل بعد حرب ١٩٧٣.

بعد قراءتى لمقاله المشهور عن مقابلته لهنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة فى أول زيارة له للقاهرة، أدركت على الفور، أن أنور السادات يريد استغلال حرب أكتوبر لحرف حركة التحرر العربى عن مسارها السليم، ويريد الارتباط بالسياسة الأمريكية وأن هيكل يقاوم ذلك الاتجاه.

بعد ذلك انتقل هيكل من كاتب صحفى إلى مؤلف للكتب، ومن الطبيعى أن كتبه عن حرب الثلاثين عاماً، «ملفات السويس»، «أيام الغليان»، «الانفجار» ««الطريق إلى رمضان»»، و«حرب أكتوبر»، كانت كتباً هامة أعطتنى فهماً جديدا عن الذى دار فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، وإنى أحتفظ بها كمرجع أعود إليه بشكل دائم.

أما كتاب «زيارة جديدة للتاريخ» فإنى أعود إليه دوماً كلما شعرت فى نفسى حاجة ماسة إلى تعزيز الصلة بين الماضى والحاضر والمستقبل. والواقع أنى أحتفظ معى دوماً بكتابين: «زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، و«زيارة جديده للتاريخ»، لأقرأ بعض فصولهما قبل الشروع فى كتابة أى بحث أكاديمى جديد حتى أتذكر أنه من الممكن كتابة أشد الأفكار صعوبة وتعقيداً بأسلوب بسيط سهل يفهمه الجميع، وأنه إذا لم أستطع ذلك فهذا يعنى أن فكرة البحث غير واضحة فى ذهنى بعد، وأن على أن أعود للبحث والتفكير قبل الشروع بالكتابة.

ولكن قراءة هيكل لم تكن مفيدة وضرورية لفهم الخمسينيات والستينيات والسبعينيات فحسب، فالواقع أن قراءته فى التسعينيات قد ساعدتنى وأثرت فى تفكيرى أكثر من السابق، وفى هذا المجال فإنى أتذكر دوما ثلاث مناسبات كان لها تأثير كبير على نشاطى وتوجهى وحياتى المهنية.

المناسبة الأولى، كانت فى مطلع التسعينيات وبعد حرب الخليج الثانية، فلقد مررت كغيرى من ملايين المواطنين العرب بمرحلة تمزق نفسى حاد، إذ أخذت أشعر أنى أعيش فى عالم غريب يدور فيه صراع تراجيدى غير شرعى، فإذا كانت التراجيديا معروفة تاريخيا بأنها تصور صراع عدة قوى كلها شرعية، فى كل واحدة نزعات من الخير والشر، ولكن القدر قادها لأتون صراع لا مفر منه، وجدت نفسى أشاهد صراعا تراجيديا لقوى كلها غير شرعية وكلها شريرة. فمن ناحية كنت ضد هجوم الجيش العراقى على الكويت واحتلاله، ومن ناحية أخرى كنت ضد الإطار الذى تمت فيه عملية «تحرير الكويت» الذى رأيت فيه مجرد ذريعة وحجة لفرض السيطرة الأمريكية على المنطقة وإعادة الهيمنة الاستعمارية المباشرة بشكل يتناغم مع الأولويات الإسرائيلية.

وأكثر ما كان يضايقنى هو أن أكثر كتاب السياسة العرب، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة، كان يقفز فوق الواقع التراجيدى المعاش ويخترع وضعاً درامياً مزيفاً تتصارع فيه قوة شرعية خيرة ضد قوى الشر. فالبعض كان يضفى على الاستبداد صفة الشرعية لأنه فى وضع صراع مع القوى الإمبريالية، والبعض الآخر كان يضفى على الإمبريالية صفة الشرعية لأنها فى وضع صراع مع الاستبداد.

لقد سبب لى هذا الوضع إحباطاً واكتئاباً مراً، وفى أثناء تلك الفترة سافرت من كندا، حيث أعيش، إلى جنيف فى سويسرا لحضور مؤتمر لمنظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الاونكتاد)، ولأسافر بعدها إلى دمشق لزيارة أهلى. وفى أمسية المؤتمر الأخيرة وجدت فى مكتبة «الديوان» الكتاب الجديد لهيكل: «حرب الخليج: أوهام النصر»، الذى كنت قد سمعت عن صدوره ورغبت فى الحصول عليه فور وصولى دمشق.

أخذت الكتاب للفندق وقبيل حفلة عشاء كنت مدعواً لها رحت أقرأ فيه. بعد حوالى الساعة، اتصلت بالتليفون واعتذرت عن عدم حضور حفل العشاء وتابعت القراءة إلى ما بعد منتصف الليل، وفى اليوم التالى تابعت القراءة طوال الرحلة حتى وصلت نهاية الفصل قبل الأخير عندما حطت الطائرة فى مطار دمشق.

لم يغير الكتاب شيئاً من الواقع العربى، ولكنه ساعدنى على فهم ذلك الواقع بشكل أفضل. لقد حلل هيكل الواقع العربى وأظهر كيف أنه يمر بمرحلة انتقال تاريخية صعبة وقلقة، فنظام الحياة القديم سقط لأنه لم يعد يتلاءم مع العصر. فى نفس الوقت الذى لم يتم فيه بعد تكوين رؤية واضحة لمعالم النظام الجديد. لقد ترك الناس التقاليد القديمة ولم يجدوا بعد أعرافا جديدة يرتاحون لها ولقد كان ممكنا أن تشهد تلك الفترة صراعا تراجيدياً شرعياً بين قوى المحافظة على القديم وقوى البحث عن الجديد كما حصل مع كثير من شعوب العالم عندما مرت بفترات الانتقال التى عبرت بها من العالم القديم إلى العالم الجديد .ولكن التعقيد الذى نشأ عن المشروع الصهيونى ووجود الثروة النفطية والمصالح الاستعمارية قاد بشكل تدريجى إلى تجريد السياسة من أساليبها الشرعية كنشاط إنسانى يعتمد الحوار والنقاش وأصبحت تمارس إما بأسلوب السلطة العارية أو بأسلوب المال العارى ولقد قاد ذلك،بحكم طبائع الأمور، إلى تجريد قوى المحافظة وقوى التحديث من الشرعية.

لم يعرض هيكل هذا الوضع المأساوى وكأنه قضاء وقدر، ولم يعرضه على أنه نتاج لصراع قوى مجردة تمثل طبقات أو أيديولوجيات، على العكس من ذلك لقد قام بعرض ذلك الوضع بمضمونه الحقيقى كنتاج ممارسات أشخاص لهم أسماء ولهم مصالح وميول وأهواء. بشر عندهم نقاط قوة وعندهم نقاط ضعف. وفى ضوء هذه الصورة الجديدة من المعلومات والوقائع والقصص الإنسانية الموثقة كان من الممكن لكل قارئ أن يجد مكانا له فى خضمها ليتمعن ويحلل ويراجع أفكاره السابقة فى سياق نقد ذاتى يطور هذه الأفكار نحو الأفضل.

لقد أراحنى ذلك الفهم من الحالة النفسية التى كنت أعانى منها، فوصلت دمشق متحرراً من شعور التمزق والإحباط والقنوط.

وكان هناك شىء آخر يتعلق بالكتاب، فأنا بحكم مهنتى كأستاذ لمادة الاقتصاد الرياضى، أمضيت حياتى أتعامل مع المعادلات الرياضية، ومن خبرة سنوات طويلة، فأنا أدرك أن أى نموذج فكرى يشتمل على أكثر من معادلتين أو ثلاث يصبح معقدا ليس فيه محور أو نقطة ارتكاز، لهذا فلقد أدهشتنى قدرة هيكل فى ذلك الكتاب على التعامل مع معادلات الثروة والفقر، البداوة والحضارة، التقدم والتأخر، التحرر والتبعية، الذكاء والغباء، الشجاعة والجبن، الشرق والغرب؛ و...إلخ، وكيف تمكن من دراسة التفاعلات المعقدة المتبادلة بينها، وكل ذلك مع الاحتفاظ بالتوازن الداخلى لتلك المعادلات فى سياق جدلية الذاتى والموضوعى، العام والخاص، الحاضر والمستقبل، وكيف صاغ كل ذلك بأسلوب شيق وآسر.

أما المناسبة الثانية فكانت تخص صدور كتاب «القنوات السرية: قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل».

فى شتاء عام ١٩٩٦ كنت فى القدس مبعوثا من قبل برنامج الأمم المتحدة الإنمائى للقيام بإعداد دراسة لتقييم نظام الضرائب فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وتقديم الاقتراحات الكفيلة بإصلاحه.

كان قد مضى على توقيع اتفاق أوسلو الذى تم فيه

هيكل.. جدلية الصحافة والسياسة والتاريخ

الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية أكثر من سنتين، وكان قد مضى على قيام السلطة الفلسطينية على بعض أراضى الضفة والقطاع أكثر من سنة: ومع هذا كانت إسرائيل مستمرة فى مصادرة الأراضى الفلسطينية وبناء المستعمرات اليهودية الجديدة وتوسيع القديمة فى الضفة الغربية، كما كانت مستمرة فى ممارسات القمع والقتل والسجن وتهديم البيوت وإحراق الأشجار. ولهذا وبعد يوم من وصولى القدس حدثت عملية استشهادية فى أحد الباصات؛ أودت بحياة حوالى عشرين إسرائيليا، وفى اليوم التالى حدثت عملية أخرى فى تل أبيب قتل فيها بضعة إسرائيليين.

وجدت نفسى بعد ذلك أعيش فى القدس فى أجواء عالمين مختلفين عن بعضهما ولا يمت الواحد منهما للآخر بأى صلة.

فى النهار، كنت أجتمع مع مسئولين فى السلطة الفلسطينية، وموظفين من منظمات دولية وخصوصا من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، والكل كان يتحدث عن الوضع الاقتصادى ومستقبل العلاقات الاقتصادية بين «فلسطين» و«إسرائيل» و«العالم العربى» فى مناخ التعاون والتنسيق وفى سياق الانفتاح على الأسواق العالمية.

فى الليل كنت أجتمع مع الناس العاديين الذين التقاهم فى الفندق والمطاعم وعن طريق الأصدقاء، والكل كان يتحدث عن الشهداء وأخبار الجرحى والمعتقلين، وعن ممارسات الجيش الإسرائيلى فى هدم البيوت «غير المرخصة»، وعن بناء المستعمرات الجديدة والشوارع الالتفافية.

بعد مرور حوالى ثلاثة أسابيع على وجودى فى القدس أصبحت أشعر أن هناك «قضيتين» لفلسطين وليس قضية واحدة. قضية تخص الناس العاديين وهى لاتزال تنزف دماً ساخناً كما كانت عليه الحال عام ١٩٤٨. وقضية أخرى تخص المسئولين فى السلطة وغالبية من المثقفين وهى قضية معلقة بالهواء وليس لها تاريخ.

وذات مساء وجدت أن جريدة «القدس» بدأت بنشر حلقات يومية من كتاب هيكل الجديد: «القنوات السرية: قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل»

رحت أقرأ حلقات الكتاب كل يوم بنفس الشغف واللهفة اللذين أقرأ بهما أى كتاب جديد لهيكل، ويوما بعد يوم أخذت حماستى للقراءة تتضاعف، إذ أخذت أشعر أن فصول الكتاب تشرح لى بدقة وعمق كيف نشأ ذلك الانقسام فى القضية الفلسطينية وكيف تطور عبر السنوات حتى وصل إلى المشكلة التى نعانى منها اليوم. أخذت أرى أن ما أقرؤه عن أحداث





كيف تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم ما يدور فى العالم من أحداث بشكل مميز ولمدة تزيد على ستة عقود تغير خلالها كل شىء فى المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية؟



الثلاثينيات والأربعينيات يلقى ضوءا كاشفا على الذى يحدث فى هذه الأيام، وفى نفس الوقت رحت أشعر أن ما يحدث اليوم يفسر لى ما لم أفهمه من أحداث وقعت قبل سنوات.

لأول مرة فى حياتى، شعرت أنى أتعامل مع «الحاضر كتاريخ» وأتعامل مع «التاريخ كحاضر».

أما المناسبة الثالثة، فكانت عام ١٩٩٩ عندما صدرت مجلة «وجهات نظر» ودعوة هيكل إلى ضرورة العودة إلى القراءة والبحث والحوار، فلقد رأيت فى تلك الدعوة عودة إلى تقليد مهم اختفى من حياتنا العربية منذ عقود. وهو وجود مجلة ثقافية يقرؤها العرب فى كل أقطارهم، فلقد كانت «الرسالة» مجلة جيل والدى فى الثلاثينيات والأربعينيات، وكانت «الآداب» مجلة جيلنا فى الخمسينيات ومطلع الستينيات، ثم توقف هذا التقليد رغم قيام محاولات عديدة كان منها محاولة أدونيس فى «مواقف» ومحاولة بلال الحسن فى «اليوم السابع».

ولست بحاجة إلى أن أصف خيبة أملى عندما توقف هيكل عن كتابة مقاله الشهرى فى وجهات نظر بعد مقاله المشهور الذى استأذن فيه بالانصراف. كما أنى لست بحاجة إلى وصف فرحتى عندما عاد ليطل علينا مساء كل خميس على شاشة الجزيرة فى برنامج: «مع هيكل: تجربة حياة».

[٢]

كان ذلك وصفاً لتجربتى الشخصية فى قراءة هيكل. عبر السنوات وطبعا هناك آلاف، إن لم أقل ملايين القراء، الذين لهم تجارب مماثلة. فهيكل يمثل ظاهرة فريدة وبالغة الأهمية فى حياتنا العربية. ومن الممكن تحديد معنى هذه الظاهرة من خلال مناقشة الأسئلة الثلاثة التالية:

أولا: كيف تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم ما يدور فى العالم من أحداث بشكل مميز ولمدة تزيد على ستة عقود تغير خلالها كل شىء فى المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية؟.

ثانيا: كيف تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على نقل ذلك الفهم المميز بأسلوب مقنع وجذاب وشيق يبدو دوما على أنه «أسلوب حديث» بالرغم من كل التغيرات التى طرأت على أساليب الكتابة وعلى أذواق القراء خلال العقود الستة من الزمن؟.

ثالثا: ما هى دلالة كل ذلك فى وضعنا العربى الراهن؟.

مناقشة السؤال الأول تتطلب معرفة الدوافع التى تحرك نشاط هيكل وتفسر تصرفاته.

فى هذا المجال، يبدو مفيدا استحضار قول الأديب الفرنسى أندريه موروا بأن المعرفة الحقيقية لإنسان ما تتطلب معرفة الصفة التى تتميز بها شخصيته دون أن يكون له قدرة السيطرة عليها. ومن هذه الزاوية فإنى أعتقد أنه من السهل على أى إنسان قرأ هيكل عبر السنوات أن يستنتج بأن الصفة التى تحرك تصرفاته بشكل غريزى هى الصفة التى تسمى «الفضول العلمى» أو «فضول المعرفة» أو «شغف المعرفة». أى ذلك الشوق الحاد أو تلك الرغبة الجامحة لفهم معنى وماهية أى ظاهرة جديدة أو فكرة جديدة أو حدث جديد.

قد يقال إن هذه الصفة إنسانية يتمتع بها الكثير من الناس وخصوصا الذين يزاولون منهم مهنة الصحافة. وهذا القول صحيح إذا كان المقصود بها حب الاستطلاع والرغبة فى كشف الحجاب عما يبدو غريبا من جديد الأمور. وهذه الرغبة يتم إشباعها ببعض الجهد الذى لا يرقى إلى مرتبة الدراسة والبحث المنهجى. وهو بالتأكيد غير صحيح بالنسبة لفضول المعرفة التى تقود صاحبها إلى الجهد المتواصل الدءوب الهادف إلى سبر أغوار الظواهر الجديدة وتكوين فهم عن ديناميتها الداخلية وعدم الاكتفاء بمعرفة أوضاعها الظاهرية. ففضول المعرفة عاطفة قوية تبحث عن الحقيقة ولا تتراجع عندما تكون تلك الحقيقة على تناقض تام مع اعتقادات سابقة عزيزة على القلب وأثيرة على النفس. إنها صفة نادرة وخصوصا عند الذين يمارسون مهنة الصحافة.

إنى أعتقد أن «شغف المعرفة» هى أهم صفة فى شخصية هيكل وأنها كانت، بشكل أو بآخر، الحافز الرئيسى وراء اختياره الطريق الذى سار فيه. وفى نفس الوقت فإنى أعتقد أن تلك الصفة وإن كانت أساسية إلا أنها غير كافية وحدها لتفسير الإنجازات الكبيرة التى حققها، وأن ذلك كان أيضا بفضل «الانضباط المهنى» الصارم الذى ألزم نفسه به طوال حياته.

فى بداية حياته المهنية تدرب على أساليب الصحافة الحديثة فى «الايجبشين جازيت» ثم استمر بعد ذلك فى صقل تلك الأساليب وتطويرها وفق المفاهيم الجديدة والتقنيات الحديثة بشكل يتلاءم مع مستجدات العصر.

لم يقتصر «الانضباط المهنى» عند هيكل على تعلم أساليب وتقنيات الصحافة الحديثة، ولكنه تعدى ذلك، وبشكل أهم، ليشمل جهدا يوميا متواصلا للقراءة وللدراسة والبحث لفهم طبيعة القوى والتيارات التى تصنع الأحداث وهكذا تحول وبخلال سنوات قليلة من صحفى يمارس المهنة كمخبر يغطى الأخبار فى المناطق الساخنة إلى صحفى يمارس المهنة كتلميذ للسياسة.

أثبتت الأيام صحة توقعات هيكل بالنسبة للحروب القطرية والقبلية والمذهبية ليس فقط بالنسبة للمنطقة ككل، ولكن أيضا بالنسبة للوضع الداخلى فى مصر



عندما جاءت ثورة يوليو فى عام ١٩٥٢ كان هيكل مؤهلا ليلعب دورا سياسياً هاماً فيها.

● كان من أهم صحفيى دار «أخبار اليوم» والذى غطى صراعات البلقان والحرب الأهلية فى اليونان وحرب فلسطين وحرب كوريا والصراع على تأميم البترول فى إيران.

● كان رئيسا لتحرير واحدة من أهم المجلات الأسبوعية فى العالم العربى «آخر ساعة».

● كان قد ألف كتابا حاز شهرة واسعة: «إيران فوق بركان».

● كان يتمتع باحترام كل الأطراف فى الأسبوع الذى سبق ثورة ٢٣ يوليو كان أحمد نجيب الهلالى يستشيره فى اختيار أسماء الوزراء فى آخر وزارة تشكلت فى عهد الملك فاروق. وكان اثنان من الضباط الأحرار (ناصر وعامر) يسألانه عن رأيه فى ردود الفعل المحتملة للجيش البريطانى فى قاعدة القناة إذا قام الضباط بحركة ضد الملك انتقاما لحله الهيئة المنتخبة لنادى الضباط.

●...وكان عمره ٢٨ سنة.

كل ذلك كان يؤهله لترك مهنة الصحافة وتبوؤ مركز سياسى هام فى النظام الجديد وخصوصا بعد أن ترسخت صداقته مع عبدالناصر مع الشهرة والتواجد المستمر فى أماكن صناعة القرار، كان يواجه يوميا إغراءات لا حدود لها. إن قول كلمة (لا) لملك الذهب الأسود مرة واحدة فى العمر هو شىء، وقول (لا) بشكل يومى لإغراءات السلطة والنفوذ والقوة هو شىء آخر.

ولكن هيكل نجح فى مقاومة تلك الإغراءات لأنه لم يتمتع بصفتى الفضول العلمى والانضباط المهنى فقط، بل كانت عنده صفة أخرى أهم، وهى «كبرياء الأخلاق» التى تقود صاحبها بشكل دائم إلى التصرف وفق ما يمليه الفكر والعقل والمبادئ، وليس ما تحركه الغرائز والأهواء.

قاوم هيكل كل إغراءات السلطة والنفوذ وامتنع عن قبول أى منصب «سياسى» وعندما أقدم عبدالناصر على تعيينه وزيرا للإرشاد القومى أثناء حرب الاستنزاف، فلقد فعل ذلك دون أخذ رأيه لأنه يعرف بأنه لن يقبل. ولقد قبل هيكل يومها بالمنصب احتراما لرغبة عبد الناصر.

بعد رحيل عبدالناصر، عرض السادات على هيكل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ومستشار الرئيس للأمن القومى وعندما اعتذر عن قبول المنصب استشاط السادات غضبا وصاح به: «هل أنت بلا طموح»؟.

فى الواقع، كان طموح محمد حسنين هيكل أكبر من أنور السادات. ولهذا فلقد تمكن فى خلال سنوات قليلة من أن يتحول من صحفى يمارس المهنة كتلميذ للسياسة، إلى صحفى يمارس المهنة كتلميذ للتاريخ.

[٣]

هناك مفهومان للتاريخ: المفهوم التقليدى الذى يرى فى التاريخ قصة الأحداث الكبرى كالحروب والثورات وسيرة العظماء والأبطال من قادة وفاتحين. والمفهوم العلمى الذى يرى فى التاريخ سجل التطور الثقافى والسياسى والاقتصادى للمجتمعات الإنسانية.

المفهوم التقليدى يركز على الحدث أو البطل على أساس أن التاريخ لا يكشف عن معنى حركته وهدفها إلا من خلال الأحداث الاستثنائية والأشخاص الاستثنائيين.

على العكس من ذلك، فالمفهوم العلمى لا يرى فى أى حدث أو شخص معنى مستقلا بذاته. ولهذا فإن فهم أى ظاهرة لا يتم إلا عبر فهم كيف نشأت وتطورت حتى وصلت إلى وضعها الراهن.

المفهوم التقليدى موجود منذ بداية التاريخ الإنسانى وهو ما زال حتى يومنا الحاضر الأكثر شيوعا وشهرة لأن فيه إغراء وجاذبية. أما المفهوم العلمى فهو حديث نسبياً فما عدا بعض المؤرخين اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد، وابن خلدون فى القرن الرابع عشر، لم يتكرس العمل به إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر.

إنى أعتقد أن ما مكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم الأحداث بشكل مميز، هو أنه بفضل صفاته الشخصية وقدراته المهنية وثقافته الواسعة تمكن من أن يكون تلميذا للتاريخ وفق المفهوم العلمى وليس وفق المفهوم التقليدى.

من الممكن إيراد أمثلة كثيرة من كتابات هيكل تدعم هذا الاعتقاد. ولكنى سأكتفى بمثالين فقط.

الأول يخص معاهدة السلام التى وقعها السادات مع بيجن بعد مفاوضات كامب ديفيد.

لقد انقسم المعلقون على ذلك الحدث، من عرب وأجانب، إلى فريقين: الأول يرى أن المعاهدة ستفتح صفحة جديدة فى الشرق الأوسط تتصف بالسلام والاستقرار والتنمية الاقتصادية. والثانى الذى يرى أن المعاهدة مصطنعة وليس لها أساس موضوعى وأنها لن تقوى على البقاء وسوف تفشل.

بغض النظر عن الخلاف الجذرى بين الموقفين الناجم عن تباين فى المواقف السياسية إلا أن كلا الموقفين مبنى على أساس المفهوم التقليدى للتاريخ، كلا الرأيين يرى أن الحدث فيه معنى قادر على تفسير ما قبله وما بعده. الأول يرى أن النجاح فى توقيع المعاهدة يثبت أن أوضاع الصراع التى سبقتها كانت خطأ وليست فى مصلحة الشعبين وأن الاتفاق قد صحح هذا الخطأ. بينما يرى الرأى الثانى أن عدم وجود تأييد شعبى مصرى وعربى للمعاهدة دليل على أن أوضاع الصراع هى الصحيحة لأنها تعكس واقعا موضوعيا سيفرض نفسه عاجلا أو آجلا.

كان رأى هيكل مختلفا عن الاثنين. لم ير أن المعاهدة ستقود إلى السلام فى المنطقة، كما أنه لم ير أنها ستفشل فى المستقبل القريب.

فى مقال صغير له نشرته النيويورك تايمز (١٨ مايو ١٩٨٠) قال إن المعاهدة تعنى أن أكبر دولة عربية، مدعومة بتأييد الدول الكبرى اختارت السير فى طريق تجاهل التناقض الرئيسى فى المنطقة وأن ذلك سيقود، بحكم طبائع الأمور، إلى فتح الباب أمام التناقضات الثانوية وبالتالى إلى عدم الاستقرار والفوضى والتوتر مع الحروب الأهلية والصراعات القطرية والاثنية والطائفية والمذهبية.

لقد توصل هيكل إلى ذلك الرأى (كما اتضح من كتاباته اللاحقة وخصوصا فى كتاب «خريف الغضب») عن طريق التعامل مع المعاهدة كظاهرة لا يمكن فهمها إلا بواسطة فهم نشأتها وتطورها حتى وصولها إلى وضعها الراهن.

لقد رأى أن ولادة الظاهرة تعود إلى الطريقة التى أنهى بها السادات حرب ١٩٧٣ وأنها نمت وترعرعت مع السياسات التى اتبعها بعد ذلك. فسياسة الانفتاح الاقتصادية التى اتبعها كانت مبنية على أساس تجاهل التناقض الرئيسى فى المجال الاقتصادى بين أنصار التنمية لكل المجتمع وأنصار الثراء الفاحش للأقلية. وسياسة الانحياز للسياسة الأمريكية كانت مبنية على أساس التناقض الرئيسى بين الجماهير التى ترى مصالحها فى التحرر والاستقلال، والأقلية التى ترى مصالحها فى الانحياز والتبعية.

وبحكم طبائع الأمور لم يكن ممكنا، الاستمرار فى تلك السياسات إلى نتائجها الطبيعية فى مناخ الصراع مع إسرائيل ولذلك فإن الصلح المنفرد معها كان نتيجة منطقية لتطور الأحداث منذ توقف إطلاق النار فى حرب ١٩٧٣.

أثبتت الأيام صحة توقعات هيكل بالنسبة للحروب القطرية والقبلية والمذهبية ليس فقط بالنسبة للمنطقة ككل، ولكن أيضا بالنسبة للوضع الداخلى فى مصر. فلقد كانت مصر أيام الالتزام بمتطلبات صراع التناقض الرئيسى مركزا مشعا لحركة التحرر الوطنى على اتساع آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية. وأصبحت أيام «السلم والاستقرار» مرتعا لعصابات قتل السياح الأجانب ومكانا للتناحرات الطائفية والمظاهرات ضد الكتب.

أما المثل الثانى، فيخص العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

من المعروف أن هناك أطروحتين لتفسير الانحياز الأمريكى لإسرائيل فى الكتابات السياسية فى العالم العربى. الأطروحة الأولى (وسندعوها أطروحة اللوبى الصهيونى) يتبناها فريق يرى أن مصالح أمريكا مع العرب ولكن قوة اللوبى الصهيونى تقود حكومتها إلى تبنى سياسات معادية للعرب وللمصالح الأمريكية الحيوية. أما الأطروحة الثانية (وسندعوها أطروحة الإمبريالية) فيتبناها فريق يرى أن الولايات المتحدة هى التى ترسم وتدعم السياسات الإسرائيلية التى تكرس الضعف والتشرذم فى العالم العربى لان ذلك يخدم المصالح الأمريكية الإمبريالية.

من الطبيعى أن هناك جزءا من الحقيقة فى كلتا الأطروحتين فبالنسبة للأولى، هناك بالفعل لوبى صهيونى له نفوذ هائل داخل الولايات المتحدة، وتجاهل ذلك ما هو إلا تجاهل للحقائق ومن ناحية أخرى فالولايات المتحدة إمبراطورية لها مصالح إمبريالية على اتساع العالم، والاعتقاد بأن دولة صغيرة تقودها طوال عشرات السنين إلى التصرف ضد مصالحها هو اعتقاد يتنافى مع منطق الأشياء.

ومن الطبيعى أيضا: عندما يكون الباعث وراء تبنى هذا الموقف أو ذاك سياسيا وليس البحث عن الحقيقة، أن يقوم أنصار كل أطروحة بتجاهل جزء الحقيقة الموجود فى الأطروحة الأخرى. فأنصار الولايات المتحدة الأمريكية يضعون اللوم على اللوبى الصهيونى من أجل تبرئتها من الجرائم التى ترتكبها إسرائيل يومياً ضد العرب بأسلحة أمريكية وتمويل أمريكى وغطاء سياسى أمريكى. أما أعداؤها، فإنهم على العكس، يحملونها مسئولية كل ما تقوم به إسرائيل من جرائم على أساس أنها ليست أكثر من وكيلة المصالح الأمريكية فى المنطقة.

قبل الغزو الأمريكى للعراق فى مارس ٢٠٠٣ وبعده كتب هيكل فى وجهات نظر سلسلة مقالات عن الاقتصاد السياسى للإمبراطورية الأمريكية. (أعداد ٤٩-٥٧) وفى تلك المقالات قام بتحليل ماهية العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية كما نشأت وتطورت داخل النظام السياسى الأمريكى، منذ مطلع الخمسينيات وحتى يومنا الحاضر.

فى ذلك التحليل نرى أن هيكل يحدد المصالح الأمريكية كما يراها صانعو القرار الأمريكى وليس كما يراها المعلقون السياسيون. ولهذا

فإن ما يراه البعض على أنه تصرف أمريكي مناقض للمصالح الأمريكية هو فى الواقع مناقض لفكرة هذا البعض عن المصالح الأمريكية، وليس مناقضا لفكرة صانع القرار الأمريكي عن تلك المصالح. ومن ناحية أخرى فهيكل لا يتكلم عن المصالح الأمريكية فى فراغ بل كما هى فى الواقع تتبدل وتتغير مع تبدل الظروف والمستجدات. وهكذا نرى أن دور اللوبى الصهيونى تطور وتعزز مع تطور وتنامى المصالح الاستراتيجية المشتركة للولايات المتحدة ودولة إسرائيل. كما أن تطور تلك المصالح قد تأثر بشكل جوهرى بتصرفات الحكومات العربية تجاه إسرائيل، وتجاه أمريكا وتجاه بعضها البعض وتجاه شعوبها.

ومن دراسته لتطور العلاقة فى ذلك السياق خلص إلى أنها علاقة شراكة تلعب فيها الولايات المتحدة دور الشريك الأكبر. وهنا يظهر رأى هيكل أقرب إلى «أطروحة الإمبريالية» منه إلى أطروحة «اللوبى الصهيونى» وهذا صحيح من ناحية الإطار العام إلا أنه يختلف عنها بشكل جوهرى لأنه مبنى على أساس القراءة التاريخية وليس الاستنتاج الأيديولوجى ولذلك فإنه قادر على فهم المتغيرات التى تطرأ على العلاقة الأمريكية-الإسرائيلية بشكل لا يقدر عليه دوما أنصار أطروحة الإمبريالية. ولقد ظهر ذلك واضحاً وجلياً فى السنوات الأخيرة فى موضوع العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية فى عهد إدارة الرئيس جورج بوش الابن. ففى عهد هذه الإدارة ارتفعت وتيرة التأييد الأمريكى لإسرائيل لحدود غير مسبوقة وغير معروفة فى تاريخ العلاقات الدولية. ولقد قاد هذا الوضع أستاذين من أشهر أساتذة العلوم السياسية فى الولايات المتحدة، جون ميرشيمر (جامعة شيكاغو) وستيف والت (جامعة هارفارد)، إلى كتابة دراسة بعنوان: «السياسة الخارجية الأمريكية واللوبى الإسرائيلى» (مارس ٢٠٠٦).

قام الأستاذان بتحليل السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط خلال السنوات الخمس الأولى من عمر إدارة بوش الابن، وخلصا إلى أن المحرك الرئيسى وراء تلك السياسة كان المصلحة الإسرائيلية كما يراها اللوبى الإسرائيلى وليس المصلحة الأمريكية.

لم ير أنصار «أطروحة الإمبريالية» فى تلك الدراسة إلا أنها تفسر العلاقات الأمريكية-الإسرائيلية على أساس منطق أطروحة «اللوبى الصهيونى». فمفكر بوزن ناعوم تشومسكى علق على الدراسة ممتدحا شجاعة مؤلفيها فى التعرض للوبى الإسرائيلى ولكنه انتقد ما توصلت إليه من نتائج، لأنه رأى أن ذلك يعنى تركيز الأضواء على اللوبى وإغفال الدور الأساسى للاستراتيجية الإمبريالية.



بفضل صفاته الشخصية وتدريبه المهنى وثقافته الواسعة، يكتب كتلميذ للتاريخ وفق الرؤية الحديثة للمفهوم العلمى للتاريخ كأداة معرفية، وليس وفق الرؤية القديمة كوسيلة أيديولوجية



ولكن دراسة ميرشيمر ووالت كان فيها أكثر وأهم من ذلك.

أولا: من المتعارف عليه فى الدوائر الأكاديمية الأمريكية، أن ميرشيمر ووالت ينتميان إلى ما يعرف بأنه «الاتجاه السائد» فى العلوم السياسية فهما ليسا من الأساتذة الذين ينتمون لأى مدرسة فكرية متطرفة وهما بالتأكيد ليسا من أعداء الإمبراطورية الأمريكية بل من أنصارها. وثانيا: فإن اختصاصهما ليس الشرق الأوسط، فأكثر الأبحاث التى نشراها تخص علاقات القوة بين الدول فى سياق «المدرسة الواقعية» فى السياسة الدولية. وما كتباه عن اللوبى الإسرائيلى وتأثيره على السياسة الأمريكية نابع من حرصهما على المصلحة الأمريكية وليس الحرص على العلاقات العربية- الأمريكية. وثالثا: فالدراسة لم تكن معنية بتفسير العلاقة الأمريكية-الإسرائيلية منذ نشأتها وحتى يومنا الحاضر. لقد كانت معنية بتفسير السياسة الأمريكية الخارجية فى الشرق الأوسط فى مدة خمس سنوات، وعبر تحليل موضوعى وموثق خلصت إلى أن اللوبى الإسرائيلى قد قام بخطف تلك السياسة، طوال تلك السنوات الخمس.

وهذا ما كان هيكل قد رآه بشكل أشمل وأعم قبل سنتين من صدور دراسة ميرشيمر ووالت. فلقد توصل فى تحليله لتطور الاقتصاد السياسى للمجتمع الأمريكى فى سياق التفاعل المعقد لتطور الرأسمالية والتكنولوجيا والإعلان إلى حدوث عملية اختطاف للقرار الأمريكى السياسى ولكن ليس من قبل اللوبى الإسرائيلى بل من قبل تيار المحافظين الجدد الذى له استراتيجية عالمية تتبنى موقف اللوبى فى جزئها الخاص بالشرق الأوسط وهو يقول:

«من مآسى التاريخ الكبرى أن يتمكن عدد من الرجال والنساء لا يزيد عددهم على مائة إلى مائتين، بينهم سبعون عضوا فى مجلس الدفاع، من الاستيلاء على القرار الأمريكى والاندفاع به إلى مشروع مخيف وشبه مستحيل فى طلب الهيمنة على العالم بغير منافس، وإلى الأبد» وجهات نظر، صياغة القرار الأمريكى الآن. عدد٥٤ . يوليو ٢٠٠٣.

وهكذا، فلقد توصل هيكل إلى استنتاج مقولة «الاختطاف» ليس من تركيزه على العلاقة الأمريكية- الإسرائيلية ولكن من دراسته لتطور المجتمع الأمريكى ككل. فعملية الاختطاف لم تحدث كمؤامرة نفذتها مجموعة من خارج النظام السياسى الأمريكى. لقد حدثت كنتيجة منطقية لتطور داخلى فى ذلك النظام. وقوة اللوبى الإسرائيلى أنه واكب ذلك التطور وشارك فى صنعه وصياغة أفكاره وتعيين قياداته إلى الحد الذى أصبح فيه من الصعب التمييز، فيما يخص الشرق الأوسط، بين ما يريده اللوبى وما يريده المحافظون الجدد. وبهذا أثبت هيكل مرة أخرى بمقاربته التاريخية أن التفسير العلمى للأحداث يؤدى بصورة طبيعية إلى الجمع بين أطروحة اللوبى وأطروحة الإمبريالية لأنه يعتمد على الحقائق بدلا من الأيديولوجيا التى تصر على تفسير كل الأحداث من منظور أطروحة وحيدة.

[٤]

أما فيما يتعلق بالسؤال الثانى الخاص بالأسلوب، فإن أهمية الأسلوب تتضح عندما نلاحظ أن كثيرين من كتاب السياسة الذين تعاطوا مع المفهوم العلمى للتاريخ، بدت كتاباتهم فى فترة زمنية معينة وكأنها بالفعل قادرة على رصد حركة التاريخ والتنبؤ بمستقبل الأحداث، ولكن ما أن مرت سنوات قليلة حتى أصبحت كتاباتهم اللاحقة تبدو وكأنها تخص عالما آخر ليس له وجود إلا فى مخيلتهم، وسبب ذلك هو أن هؤلاء الكتاب يأخذون بالمفهوم العلمى للتاريخ وفق الرؤية القديمة التى كانت شائعة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. الرؤية التى تقول بوجود قوانين صارمة ثابتة تحكم حركة التاريخ وتفسر تطوره. والمشكلة هى أنه يحدث فى بعض الأحيان أن تتجمع عوامل عديدة بشكل يبدو وكأن التاريخ يسير بالفعل وفق قانون محدد صارم وما أن تمر فترة وجيزة تتغير فيها بعض تلك العوامل، حتى يفقد ذلك القانون قدرته على تفسير الأحداث. وتقديم صورة عن احتمالات المستقبل ولكن بعض الكتاب يحتفظون به كمرشد لتفكيرهم ومرجعية لتحليلاتهم السياسية، وذلك لأنه ينبثق من أيديولوجية يؤمنون بها، ويعملون على ترويجها. وفى رأيى أن السبب وراء تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم الأحداث بشكل صحيح، ليس لفترة زمنية محدودة ولكن على امتداد أكثر من ستة عقود، هو أنه ومنذ البداية، وبفضل صفاته الشخصية وتدريبه المهنى وثقافته الواسعة، يكتب كتلميذ للتاريخ وفق الرؤية الحديثة للمفهوم العلمى للتاريخ كأداة معرفية، وليس وفق الرؤية القديمة كوسيلة أيديولوجية. ومن السهل توضيح ذلك عن طريق اعتبار المقولتين الأساسيتين اللتين تشكلان مضمون الرؤية الحديثة للمفهوم العلمى للتاريخ أولا، ثم النظر فى مدى اتفاق أسلوب هيكل فى الكتابة مع هاتين المقولتين ثانيا.

المقولة الأولى للرؤية الحديثة هى النظرة التى ترى أنه إذا كانت هناك قوانين تتحكم فى حركة التاريخ على الأمد البعيد

جاءت روايته عن ثورة ٢٣ يوليو تطبيقا متميزا لأسلوب المفهوم العلمى للتاريخ فى التعاطى مع موضوع الثورة على أساس أنها نتيجة تفاعلات وإرهاصات تاريخية تأخذ عشرات، إن لم يكن مئات السنين، حتى تنضج



(مئات السنين) إلا أنه فى الزمن الخاص بالحاضر والمستقبل المنظور يوجد كم هائل من العوامل والمتغيرات والمتقلبات يستعصى على أى قانون أو نظرية، ولهذا فقد أخذت منهجية العلوم الاجتماعية الحديثة بمفهوم «النماذج التحليلية» المرنة بدلاً عن القوانين الصارمة، حيث يتم بناء النموذج التحليلى لظاهرة معينة عن طريق انتقاء عدة عوامل فقط يعتقد أنها العوامل الهامة التى تؤثر فى الظاهرة وإهمال العوامل الكثيرة الأخرى التى يعتقد أنها أقل أهمية. ثم صياغة نموذج يفسر الظاهرة على أساس النتائج المنطقية لتفاعل تلك العوامل القليلة. وكما شرح عبد الوهاب المسيرى، وفى أكثر من مجال، فليس هناك نموذج موضوعى وآخر غير موضوعى أو نموذج صحيح وآخر خاطئ. هناك فقط نموذج له قدرة تفسيرية للظاهرة أكثر من النموذج الآخر. وتأسيسا على ذلك يتضح لنا على الفور أن ما ندعوه «التاريخ» ما هو فى الواقع إلا «نموذج تحليلى» وذلك لأنه لا يشتمل على كل ما حدث فى الماضى، ولكن فقط على ما اعتقد المؤرخون أنه أهم ما حدث. فى الماضى، وهذا يعنى أن «الماضى» سيكون دوما أكبر من «التاريخ».

وبنفس المنطق، فإن أى تحليل للأحداث فى الحاضر أو الماضى هو نموذج تفسيرى لتلك الأحداث لأنه ليس بقدرة أى كان الإحاطة بكل العوامل المؤثرة فى أى ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. وبحكم الضرورة، فإن على المحلل أن يبتدئ من تفاصيل الأحداث وجزئياتها لانتقاء العوامل الهامة المؤثرة ثم صياغة نموذج تحليلى يقدم تصوراً عاما لماهية تلك الأحداث. فكما قال المؤرخ الألمانى ليوبولد رانكى (١٩٧٥- ١٨٦٨):

من «الجزئى» يستطيع الإنسان بحذر وشجاعة أن يتحرك باتجاه «العام» ولكن من النظريات العامة ليس هناك طريقة للنظر فى «الجزئى».

من الواضح أن أسلوب هيكل يتطابق مع هذه المقولة بشكل كامل إذ إن ما يميز أسلوبه هو الاهتمام الدائم بالتعرف على كل تفاصيل وأجزاء أى موضوع يطرقه. وهناك من ينتقده على الإمعان فى وصف أدق التفاصيل والحيثيات «التى لا تغنى الموضوع». والواقع أن هذا النقد يتجاهل حقيقة أن الاهتمام بتلك التفاصيل هو إحدى الأدوات التى تساعد هيكل على الانتقال من «الجزئى» إلى «العام». فعندما كان صحفيا يمارس المهنة كتلميذ للسياسة كان يكتب بأسلوب أتقن فيه الجمع بين «القرب والابتعاد» أو «الحميمية الإنسانية» و«المسافة السياسية» بنفس الوقت. ففى عمله الصحفى، كان يتعامل مع الناس الذين يؤثرون بالأحداث من منظورين اثنين. كان يقترب منهم إنسانياً ويقيم معهم علاقات مميزة يتمكن من خلالها أن يتعرف على قدراتهم وطموحاتهم وأحلامهم وأوهامهم ونزواتهم وكل ما يخص تفاصيل أوضاعهم الإنسانية المعقدة وبنفس الوقت كان يبتعد عنهم سياسيا حتى يحدد مصالحهم العائلية والفئوية والطبقية فى خريطة المصالح السياسية فى المكان والزمان المعنيين.

ومن هذين المنظورين، كان هيكل ينجح فى رؤية ما هو «عام» فى كل تصرف أو حدث «جزئى»... ولهذا كان القارئ يخرج دوما بعد قراءة مقالات هيكل الصحفية بمعرفة حقيقية بالتجربة الإنسانية بكل ما فيها من صخب وأصوات وألوان وروائح وبنفس الوقت كان القارئ يخرج برؤية سياسية وتصور عام يلخص تلك التجربة ويحدد مكانها الصحيح فى مسرح الأحداث الكبير. لا أحد يستطيع أن يتهم هيكل بأنه «يرى الأشجار دون أن يرى الغابة» فليس هناك فى كل ما كتب تفاصيل أحداث لا يجمعها إطار أو تصور أو مفهوم عام. ولا أحد يستطيع أن يتهم هيكل فى أنه «يتخيل وجود غابة وهمية بأشجار غير مرئية». فليس هناك فى كل ما كتب فكرة أو أطروحة أو تصور غير مبنى على أساس قراءة متأنية لدلالات أحداث واقعية.

ولقد تطور ذلك الأسلوب بعد أن أصبح هيكل يمارس الصحافة كتلميذ للتاريخ. وهذا يقودنا تلقائيا إلى المقولة الثانية التى يرتكز عليها المفهوم العلمى الحديث للتاريخ. فإذا كانت المقولة الأولى تعنى أنه ليس هناك قوانين صارمة تتحكم فى حركة التاريخ، فإن المقولة الثانية، التى ترتبط ارتباطا عضويا بالمقولة الأولى، تؤكد أن لكل زمن تاريخه الخاص أى أن التاريخ «عملية مستمرة» تتطور مع مرور الزمن وذلك لأن التقدم العلمى يكشف دوماً عن حقائق جديدة تخص ما حدث فى الماضى وذلك يقود بحكم الضرورة إلى فهم جديد للتاريخ. ولهذا فإن نوعية العلاقة بين «التاريخ» و«العلوم الاجتماعية» هى كما قالت حنا أرندت (١٩٠٦ - ١٩٧٥) مشابهة إلى حد بعيد للعلاقة بين «العلوم الطبيعية» و«التكنولوجيا». فكما أن عالم الفيزياء يستعمل أدوات التكنولوجيا كالمجهر والتلسكوب لاكتشاف حقائق علمية جديدة فإن المؤرخ يستعمل تقنيات العلوم الاجتماعية لاكتشاف حقائق تاريخية جديدة. فعلى سبيل المثال، عندما توصلت العلوم الاجتماعية إلى ابتكار طرق علمية لتقدير عدد السكان أو متوسط دخل الفرد أو متوسط عمر الفرد،... إلخ عمدت على الفور إلى ابتكار التقنيات التى تؤدى إلى إجراء قياس تلك المتغيرات فى الزمن الماضى وعندما توفر وجود مثل تلك التقديرات عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى الماضى وبشكل يمكن مقارنتها كميا بالأوضاع السائدة فى الحاضر، أصبح هناك فكرة أوضح عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى الماضى وفكرة أوضح عن التطور الذى حصل فى الماضى وقاد إلى الحاضر. وذلك قاد بشكل طبيعى، إلى تكوين توقع أفضل عن احتمالات المستقبل. وهذا يعنى أن العلاقة بين الماضى والحاضر والمستقبل تسير فى الاتجاهين: فهم الماضى يقود إلى فهم أفضل للحاضر والمستقبل: كما أن فهم الحاضر يحمل فى ثناياه تبصرا أفضل بالماضى والمستقبل. وكما يقول المؤرخ الإنجليزى إدوارد هاليت كار (١٨٩٢ - ١٩٨٢) «تتصل أزمان الماضى والحاضر والمستقبل ببعضها بسلاسل لا نهاية لها من التاريخ».

عندما ابتدأ هيكل ممارسة الصحافة كتلميذ للتاريخ كان واعيا بشكل حاسم بموضوع العلاقة الجدلية بين الماضى والحاضر والمستقبل إذ أن أول ما فعله كان أن طرح على نفسه السؤال التالى:

«كيف أزور الماضى وآخذ معى الحاضر والمستقبل؟» (من مقدمة زيارة جديدة للتاريخ)

وكان جوابه أن:

«التاريخ ليس علم الماضى وحده، وإنما هو عن طريق استقراء قوانينه، علم الحاضر والمستقبل أيضا، أى أنه علم ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون» (نفس المصدر).

وباسترشاد هيكل بهذه العلاقة العضوية بين ما كان وما هو كائن وما سوف يكون تطور أسلوبه فى الكتابة إذ أصبح يتناول. منظورى «الحميمية الإنسانية» و«المسافة السياسية»، كما هما فى «الزمن التاريخى» وليس فى «الزمن الحاضر» أى الزمن الذى يتم فيه اختراق الحجاب الظاهرى الذى تسدله هموم «الحاضر» على الأحداث ويتم فيه التوصل إلى حقيقتها كما تشكلت فى الزمن الذى يرتبط فيه الماضى بالحاضر بالمستقبل.

نستطيع أن نستشهد بأحداث كثيرة كتب عنها هيكل لإظهار تميز أسلوبه فى الالتزام بالمفهوم العلمى للتاريخ أولاً، وفى الاتفاق الكامل مع المقولتين الأساسيتين اللتين تشكلان مضمون الرؤية الحديثة لذلك المفهوم ثانياً. ولكننا سنكتفى بمثال واحد وهو ما كتبه وما قاله عن ثورة ٢٣ يوليو، على أساس أن ذلك العمل هو من آخر أعماله وأكثرها انتشارا فهو موجود فى مجموعة مقالات فى مجلة «وجهات نظر» نشرت بمناسبة مرور نصف قرن على قيام الثورة (صدرت بعد ذلك فى كتاب) وهو أيضا موضوع حلقات «أيام يوليو» من برنامج «مع هيكل: تجربة حياة» الذى يعرض على شاشة الجزيرة مساء كل خميس.

أكثر الكتابات التى تعرضت لثورة ٢٣ يوليو ركزت على اللاعبين الرئيسيين كالقصر والأحزاب والضباط الأحرار واعتمدت على ما حصل يوم ٢٣ يوليو لتفسير ما كان قبله وما جاء بعده. أى أنها كانت قريبة إلى حد كبير من أسلوب المفهوم التقليدى للتاريخ.

أما اهتمام هيكل، فلقد كان مختلفاً تماماً عن ذلك، إذ أنه اهتم بالحالة العامة للمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن العشرين، وكيف تطورت إلى حالة ثورية فى منتصف القرن. اهتم بكل المؤسسات والطبقات والأطياف السياسية والثقافية للمجتمع. إذ عرض لمؤسسة العرش، والمؤسسة الدينية (الأزهر)، والمؤسسة القضائية، ومؤسسة الجامعة، ومؤسسة الجيش، ومؤسسة الصحافة، طبقة الملاك الكبار وارتباطاتها بشبكة المال والتجارة الخارجية، طبقة الملاك الصغار والطبقة الوسطى والفلاحين وطبقة العمال الناشئة، وجموع الطلاب، حزب الأغلبية (الوفد) وأحزاب الأقلية والأحزاب العقائدية (الاخوان والشيوعيون)، ونخب المفكرين والأدباء والفنانين والقيادات السياسية العربية الموجودة فى القاهرة، ثم قوة الاحتلال البريطانى وجيشه فى القناة، وقوة إسرائيل على الحدود وضغوط نكبة فلسطين، والقوة الأمريكية الجديدة الزاحفة على المنطقة.

لقد قام هيكل برصد تفاعل كل تلك الأوضاع والعوامل والضغوط سنة بعد سنة وشهرا بعد شهر وأسبوعا بعد أسبوع، حتى وصلت حركة المجتمع إلى الحالة الثورية وعند ذلك أخذ يرصد الأحداث يوما بعد يوم ثم ساعة بعد ساعة، حتى استولى الضباط الأحرار على مقاليد السلطة وانهار النظام القديم.

لم يركز على «أبطال الثورة» وصراعهم ضد «طغاة العهد البائد». فقادة الثورة لم يظهروا فى رواية هيكل للأحداث إلا عندما ظهروا فعلا للناس. ولم يركز على أحداث يوم ٢٣ يوليو أكثر من تركيزه على الأيام التى سبقته والأيام اللاحقة له. لقد اهتم بشكل رئيسى بالتركيز على وضع النظام السياسى وهو يفقد شرعيته، وعلى وضع المجتمع المدنى وهو يفقد توازنه، وعلى وضع ثقافة عصر وهى تحتضر.

وهكذا جاءت روايته عن ثورة ٢٣ يوليو تطبيقا متميزا لأسلوب المفهوم العلمى للتاريخ فى التعاطى مع موضوع الثورة على أساس أنها نتيجة تفاعلات وإرهاصات تاريخية تأخذ عشرات، إن لم يكن مئات السنين، حتى تنضج وفق المقولة المشهورة للمصلح الاجتماعى الأمريكى عدو التمييز العنصرى وندل فيليبس (١٨١١ - ١٨٨٤): «الثورة: لا تحدث. إنها تأتى».

أما عن المقولة الأولى للمفهوم الحديث حول علاقة «الجزئي» و«العام»، فإننا نلاحظ أن هناك كثيراً من «الأفكار» و«النظريات» التي يرددها كثير من المثقفين دون أن يكون لها أي سند أو دعم من «الأحداث» و«الحقائق»، أي أن هناك كثيراً من المفاهيم العامة التي لم تنشأ من قراءة صحيحة للأحداث الجزئية. وهنا يأتي دور التفاصيل المتوهجة التي يسردها هيكل بإسهاب ودقة حتى يتضح بشكل كامل أن تلك «الأفكار» و«النظريات» ليس لها أي سند من الواقع المعاش وإنما تعكس أهدافاً سياسية وأيديولوجية. ومن أهم تلك «الأفكار» و«النظريات» التي تتردد بشكل مستمر، القول بأن الوضع في مصر قبل ٢٣ يوليو كان بشكل عام، وعلى الرغم من كل مشاكله، يسير ببطء نحو ترسيخ الديمقراطية وأن ثورة ٢٣ يوليو أجهضت تلك المسيرة. ولكن تفاصيل الأحداث الهامة التي ركز عليها هيكل، تبين بما لا يقبل الشك أن ذلك القول مناف لمنطق الأشياء كما كانت بالفعل ويخص العالم الذي يتم فيه «تخيل الماضي وتذكر المستقبل»، فهل من الممكن لنظام سياسي أن يتقدم في اتجاه التوازن الديمقراطي إذا كان ذلك النظام يسمح للملك أن يقيل إحدى الوزارات لقاء مليون جنيه دفعها له أحد رجال الأعمال الكبار لأن الوزارة كانت تنتهج سياسة تتعارض مع مصالحه؟ وهل يمكن لذلك النظام أن يستمر في أي اتجاه إذا كان يوم حريق العاصمة (يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢) قد حدث وكبار ضباط الجيش في القصر الملكي في وليمة احتفال من أجل ولادة ولي العهد، ورئيس مجلس الوزراء (زعيم حزب الأغلبية) في بيته في الموعد الأسبوعي مع المانيكير التي تقلم أظافره، ووزير الداخلية في بيته يقوم بالتوقيع على عقود بيع وشراء عقارات خاصة؟.

وبالمقابل فهناك أحداث كثيرة يشاع أنها كانت محورية ومفصلية ولها دور في حدوث انعطافات تاريخية هامة ولكن عندما يقيمها هيكل في سياق الإطار العام للحقبة الزمنية التي وقعت فيها يتضح بجلاء أن دورها في الواقع كان ثانويا وهامشيا ولا يغير بقليل أو كثير من الاتجاه العام للأحداث وعلى سبيل المثال فلقد كان شائعا في أوساط كثيرة أن حدث تنحية اللواء محمد نجيب عن السلطة بعد اختلافه مع مجلس قيادة الثورة كان له دور أساسي في عرقلة وحدة مصر والسودان بعد انتهاء الاستعمار البريطاني للسودان، ولكن تحليل هيكل لأوضاع السودان وعلاقاته بمصر في تلك الفترة، يبين بوضوح وجلاء أن الظروف الموضوعية في السودان لم تكن تسير في طريق وحدة البلدين وأن موضوع تنحية نجيب قد تم استغلاله سياسيا على أنه المسئول عن عدم تحقيق الوحدة.





هناك أحداث وقعت مؤخراً وجد فيها هيكل ما يفسر أوضاعاً وأحداثاً في الخمسينيات. وعلى سبيل المثال فإن النزاع الذي حصل مؤخرا في قيادة حزب الوفد ألقى ضوءا كاشفاً على أوضاع الحزب قبيل الثورة وفي سنواتها الأولى



وكذلك الأمر بالنسبة لاستعمال هيكل للمقولة الثانية للمفهوم الحديث للتاريخ حول العلاقة المتبادلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فقد ركز على بعض الأحداث التي وقعت أثناء الثورة في مطلع الخمسينيات لأنها تلقي الأضواء الكاشفة على ما يدور اليوم في السنوات الأولى من مطلع القرن الواحد والعشرين. فعلى سبيل المثال فإن الهدف الكامن وراء أقوال جنرال أمريكي عام ١٩٥٣ بأن الشرق الأوسط في وضع غير طبيعي لأنه خال من القواعد العسكرية الأمريكية يلقي أضواء كاشفة على الانتشار الأمريكي العسكري على امتداد البلاد العربية هذه الأيام وكذلك إصرار المسئولين الأمريكيين في النصف الأول من الخمسينيات على ضرورة قيام حلف إسلامي يضم مصر وتركيا وإيران وباكستان ضد الشيوعية يلقي أضواء كاشفة على إصرار الإدارة الأمريكية هذه الأيام على مشاريع الشرق الأوسط الجديد والكبير.

وفي المقابل هناك أحداث وقعت مؤخراً وجد فيها هيكل ما يفسر أوضاعاً وأحداثاً وقعت في الخمسينيات. وعلى سبيل المثال فإن النزاع الذي حصل مؤخراً في قيادة حزب الوفد ألقى ضوءاً كاشفاً على أوضاع الحزب قبيل حدوث الثورة وفي سنواتها الأولى.

هناك من ينتقد أسلوب هيكل الملتزم بالزمن التاريخي وخصوصا في حلقات «مع هيكل» التلفزيونية وذلك لأنه يقفز أحيانا من موضوع إلى آخر أو ينتقل بسرعة من زمن إلى آخر، مما يزعج المشاهد ويحرمه من متعة الاستماع إلى أحداث قصة واحدة متصلة الحلقات بدون انقطاع. والواقع أنه لو اتبع ذلك الأسلوب لكانت حلقات البرنامج أكثر إمتاعا وتسلية. ولكن هدف هيكل الرئيسي ليس التسلية والإمتاع بل إثارة اهتمام المشاهد بالقضايا المطروحة وعلاقتها بالقضايا الراهنة. إنه لا يهدف إلى إمتاع المشاهد بقصة قديمة منتهية لها بداية ووسط ونهاية، إن هدفه أولا وأخيرا هو تحريك عقل وقلب وضمير المشاهد حتى يدرك أن القصة لم تنته وأنها ما زالت تعيش وتفعل وتؤثر فكما يقول وليم فولكنر «الماضي لا يموت، إنه، في الواقع، ليس ماضيا» وفهم ذلك بعمق ومسئولية ضروري من أجل المستقبل. وهكذا فعندما يكثر هيكل من الاهتمام بالذي يسميه «الذاكرة التاريخية» أو «الضمير التاريخي» أو «الوعي التاريخي» فإنه يفعل ذلك فقط من أجل المستقبل: فاهتمامه الرئيسي كما يقول: «بعض الماضي، ونصف الحاضر وكل المستقبل» (من مقدمة كتاب: أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة).

هذا الاهتمام يتطلب الطرح الدائم للأسئلة والكشف الدائم عن التناقضات والإثارة الدائمة للشكوك حتى يشترك المشاهد في التفكير في القضايا المطروحة وإجراء مراجعة نقدية لقناعاته السابقة تساعده على التخلص من الأوهام والمفاهيم الخادعة.

وهكذا فإن جلسة مساء يوم الخميس على شاشة الجزيرة ليست ساعة للتسلية ولكن للحوار، ليست للمتعة ولكن للتأمل، وتأسيسا على ذلك، نستطيع أن نوجز الصفة التي تميز أسلوب هيكل عن أسلوب الكثيرين من كتاب السياسة والتي تجعله يبدو دوما على أنه «أسلوب حديث» بالقول: «عندما نقرأ للكثير من كتاب السياسة فإننا نجري حوارا مع الآخرين. أما عندما نقرأ هيكل فإننا نجري حوارا مع أنفسنا».

[٥]

والآن جاء دور مناقشة السؤال الثالث الخاص بدلالة «ظاهرة هيكل» بالنسبة للوضع العربي الراهن.

بشكل عام، يمكن لنا أن نقول أن القارئ العربي كان ينتظر مقالات هيكل في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ثم أصبح ينتظر كتبه في الثمانينيات والتسعينيات كما هو ينتظر حلقاته التلفزيونية هذه الأيام لأن هيكل تمكن من الاحتفاظ بالقدرة على استعمال الأسلوب العلمي في قراءة الأحداث. وهذا يعني أن القارئ العربي والمشاهد العربي ما زال يحب ويعجب ويتعلق بالرؤية العلمية للسياسة والتاريخ على الرغم من كل ما يتعرض له يوميا من حملات التجهيل المنظمة والمبرمجة والممولة من خزائن الذهب الأسود ومراكز نشر ثقافة التبعية الأمريكية.

أما ما يخص الوضع الراهن فهناك سؤال محدد هو:

ما هي الدلالة السياسية لجلسة الحوار التي نعقدها مساء كل خميس عندما نستمع لهيكل على شاشة الجزيرة؟

ما هي دلالة الاهتمام بالحديث عن «أيام يوليو» بالنسبة لهذه الأيام؟

من المعروف أن «أيام يوليو» لم تبدأ بثورة، ولكنها ابتدأت كحركة ضباط يريدون القيام بعملية إصلاح بالجيش. وبعد ذلك تحولت إلى ما يشبه الثورة الحقيقية عندما أصبحت حركة شاملة للتحرير والمقاومة: تحرير الوضع الداخلي في مصر من الإرث الاستعماري الذي كرس وضعا سياسياً- اقتصادياً- اجتماعياً يعيد إنتاج التخلف في الداخل خدمة للمصالح الاستعمارية في الخارج ومقاومة للوجود الاستعماري على امتداد الأرض العربية عن طريق مؤازرة قوى التحرر والقتال معها ضد قوى الرجعية والصهيونية والاستعمار.

ولقد حققت الثورة إنجازات تاريخية

سبب اهتمام الناس بكتابات هيكل والحرص على الاستماع إلى أحاديثه على شاشة الجزيرة هو أنهم يرون فى فكره ومنطقه جسرا يصل بين كل ما هو أصيل وحقيقى وناصع



هائلة فى المعارك التى خاضتها لأن قيادتها فهمت بعمق العلاقة العضوية بين عمليتى التحرير والمقاومة فى سياق مشروع متكامل للنهوض التنموى يلتزم نشر التعليم وبناء الصناعة الوطنية وضمان عدالة توزيع الدخل القومى.

ولقد بلغت تلك الإنجازات ذروتها بقيام الجمهورية العربية المتحدة وإعلان عبد الناصر «إن الذى علقت من أجله المشانق أصبح له وحده قوة القانون» إذ أن ذلك كان يعنى الإصرار على تفكيك وتحطيم كل أوضاع الاقتصاد السياسى للإرث الاستعمارى حتى يتم بناء مستقبل حر يستعيد فيه العرب السيطرة على مصيرهم والعيش فى «الزمن التاريخى» حيث يكرس النضال من أجل الحرية صلة الماضى بالحاضر بالمستقبل، وليس فى «الزمن المشوه» حيث يتم تزييف الماضى وتكبيل الحاضر ومصادرة المستقبل من قبل الاستعمار.

ولكن ثورة ٢٣ يوليو كانت ثورة ناقصة، لم تتمكن من خلق البيئة المناسبة لقيام مؤسسات شعبية ديموقراطية قادرة على تمثيل إرادتها والدفاع عن منجزاتها، ولهذا جاءت الثورة المضادة من داخل السلطة الثورية ولم تلق مقاومة شعبية فعالة، ولقد جاء الإعلان الرسمى عن نجاح الثورة المضادة بشكل كامل مع إعلان أنور السادات بأن «الولايات المتحدة الأمريكية تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط». فلقد كان ذلك بمثابة اعتراف صارخ بأن السلطة السياسية قد التزمت بأيديولوجية تقويض كل إنجازات الثورة التاريخية فى تحرير الإرادة الوطنية وإنهاء عهد التبعية، وأنها فى الواقع تعمل على العودة بعقارب الساعة إلى ما قبل الثورة، إلى مطلع الأربعينيات عندما كان موشى شاريت، مدير الدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية، يعلن أنه «لا يحتاج إلى الذهاب للعرب للحصول على اتفاقية بشأن فلسطين، وذلك لأن الكلمة النهائية حول الموضوع ليست لهم، ولكن للبريطانيين والأمريكان» (Lipan's. The Birth of Israel: Myths and Realities, 1987)

وبشكل طبيعى، تجندت كل قوى الثورة المضادة فى عملية هائلة محمومة لتزوير التاريخ وبناء صلة الماضى بالحاضر بالمستقبل على أساس أوضاع التبعية، وكما هو معروف فقد تمت عملية التزوير هذه على جبهتين. الأولى كانت فى المجال السياسى الذى تمثل فى قبول النظام الرسمى العربى بضرورة التحرر من «سجن التاريخ» الذى شيدته السنوات الطويلة للصراع العربى- الإسرائيلى حتى يتم بناء مستقبل السلام وفق إرادة الولايات المتحدة الأمريكية التى قال وزير خارجيتها هنرى كسينجر عندما دخل القاهرة عقب حرب ١٩٧٣ «لا أريد أن أستمع لأحد يحدثنى عن التاريخ». وكان قد قال قبل ذلك بسنوات فى واشنطون «إن أسعد أيامى هو اليوم الذى لا اسمع فيه ذكرا للقرار ٢٤٢».

أما الجبهة الثانية، فكانت فى المجال الفكرى والثقافى وكان فرسان هذه الجبهة مجموعات الكتاب والصحافيين الذين اشترتهم أموال الذهب الأسود وجندتهم لنشر أطروحات التخلف الوطنى والتخلف القومى والتخلف الإنسانى. ومجموعات الأساتذة الجامعيين الذين اشترتهم المنح والبعثات والإعانات الأمريكية وجندتهم لنشر أطروحات التبعية المستترة وراء أقنعة الحداثة والديمقراطية والاعتدال. ولقد تناغمت هذه المجموعات فى جوقة واحدة تعزف معزوفة واحدة تهدف إلى إقناع العقل العربى بأن فكر وممارسات حقبة الخمسينيات والستينيات: حقبة التحرر الوطنى، حقبة الثورة وتشييد دعائم الاستقلال الحقيقى هى الخطأ فى التاريخ العربى، وأن فكر وممارسات التبعية للولايات المتحدة الأمريكية: حقبة الاستسلام، حقبة الثورة المضادة هى السبيل الصحيح للالتحاق بركب الحضارة والحداثة والتقدم.

وفى المقابل تصدت مجموعات من المفكرين والصحفيين الشرفاء لمقاومة هذا التزوير الفاضح والالتزام الكامل بتجديد مشروع النهضة التحررى على أساس التركيز المطلق على المضمون الديمقراطى أسلوبا وغاية ومرجعية. وكان هيكل فى طليعة هؤلاء إذ كرس كل جهده لإعادة قراءة تاريخ معارك حركة التحرر العربية فحدد هدفه بأنه:

«المشاركة - بقدر الطاقة والجهد- فى صد الغارات الهمجية عن ذاكرة الأمة، والأمة مثل الفرد يصاب بالجرح فيشفى، ويصاب بالصدمة فيفيق، ويصاب بخسارة المال فيعوضه، ولكن فقدان الذاكرة كارثة بلا حدود لأنه يودى بكل شىء بما فى ذلك التاريخ والمستقبل ومن ثم يصبح الحاضر محاصرا يتم عزله وتطويقه على لوحة زجاج مسطح لا تحتفظ بشىء ولا تعنى شيئا». (من مقدمة كتاب أكتوبر ٧٣).

ولقد كان شاهدا على، ومشاركا فى، كل أحداث التاريخ الذى كرس وقته وجهده لإعادة قراءته ومع ذلك فلقد رأى فى ذلك عبئا ومسئولية وصعوبة إذ يقول:

«ولعلى لا أتردد إذا قلت أن قراءة التاريخ كانت أصعب بالنسبة لى لأنى عشت وقائعه، وكان على لكى أقراه بأمانة، أن أضع للاختبار كثيرا مما كنت أظن أننى أعلمه، وأن أطرح للمراجعة كثيرا مما كنت أتوهم أنى أفهمه» (من مقدمة كتاب: الانفجار).

الرغبة فى اختبار مدى صدقية المعلومات التى تحتفظ بها، وأكثرها يخص أحداثا عشتها وشاركت فى رسم مقاديرها، والاستعداد لمراجعة مفاهيم وقناعات آمنت بها وناضلت تحت راياتها أحلى سنوات عمرك، لا يتأتى لك إلا إذا كنت مؤمنا بتبصر وعمق بمنهجية المفهوم العلمى للتاريخ التى تعنى أن الحفاظ على ذاكرة الأمة لا يتم عبر التذكير بما حصل فى الماضى واستنتاج الدروس والعظات بل يكون ببقاء الذاكرة حية، ناشطة، فعالة، قادرة بشكل مستمر على تفعيل عملية النقد الذاتى الخلاق الذى يتم بواسطته إعادة تقييم ما حصل فى الماضى على ضوء ما يحصل فى الحاضر وبنفس الوقت فحص ما يحصل فى الحاضر على ضوء ما حصل فى الماضى. على أساس أن ذلك النقد البناء للماضى والحاضر هو الذى يزيل كثيرا من العقبات والصعوبات التى تعترض طريق المستقبل.

ولقد نجح هيكل فى أن يحول قراءته لتاريخ أيام يوليو إلى حوار خلاق بين الماضى والحاضر، فهو لم يعمد إلى تمجيد تلك الأيام، ولم يعمد إلى تعظيم دور أبطالها أو شيطنة أعدائهم، على العكس من ذلك. لقد كان اهتمامه الرئيسى هو الكشف عن تناقضات وأزمات وصراعات تلك الأيام بشكل جعلنا أقدر على فهم إيجابيات وسلبيات تلك المرحلة وعلاقاتها العضوية بأوضاع المرحلة الراهنة. وهذا ما يدفعنا بشكل تلقائى إلى الاسترشاد بالإيجابيات ومحاربة السلبيات. البناء على أولوية تحرير الإرادة الوطنية والتخلص من كل أشكال التبعية وبنفس الوقت الالتزام بالديمقراطية أسلوبا ونهجا وغاية ومحاربة كل نزعات الديكتاتورية.

فى هذا الحوار الخلاق الذى نراجع فيه مفاهيمنا ونراجع توجهاتنا يضىء فى نفوسنا نور يظهر بجلاء ما هو أصيل وحقيقى ومشترك بين الماضى والحاضر ويدفع باتجاه المستقبل الحر وما هو كذب وتزييف وضلال ويشد بنا إلى الوراء، على درب التخلف والتبعية والحداثة المزيفة.

وهكذا نجد أن دلالة جلسة الحوار التى نعقدها كل خميس مع هيكل هى أنها جلسة تعمل على تحريرنا من كثير من القيود التى تكبل عقولنا وقلوبنا. فكما قال مؤرخ جامعة كمبريدج المشهور جون أكتون (١٨٣٤ - ١٩٠٢):

«التاريخ لا يحررنا فقط من التأثيرات غير المناسبة لأزمان معينة، بل إنه يعمل على تحريرنا من التأثيرات غير المناسبة لوقتنا الحاضر، يحررنا من طغيان البيئة وضغط الهواء الذى نتنفسه»

وهكذا فإن دلالة الحديث عن أيام يوليو فى هذه الأيام هو أنه يسهم فى تنقية «الهواء الذى نتنفسه» من الدخان الأسود الذى تنفثه أنظمة الاستبداد والذهب الأسود التى تعمل بشكل محموم ومسعور على قطع الصلة بين المقاومة فى الأمس والمقاومة اليوم عن طريق إشغال الناس بالفتن الدينية والطائفية والمذهبية حتى ينصرفوا عن التركيز على أولويات الصراع الأساسى فى المنطقة.

وهو يسهم فى تنقية «الهواء الذى نتنفسه» من الدخان الأبيض الذى تنفثه جوقة الصحفيين والأساتذة الجامعيين الذين يطرحون أنفسهم كممثلين للحداثة والليبرالية السياسية وهدفهم الأول والأخير هو وراثة أنظمة الاستبداد وإقامة أنظمة سياسية لها كفاءة عالية فى الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة الأمريكية والتحالف مع إسرائيل.

وهكذا نرى أن سبب اهتمام الناس بكتابات هيكل والحرص على الاستماع إلى أحاديثه على شاشة الجزيرة هو أنهم يرون فى فكره ومنطقه جسرا يصل بين كل ما هو أصيل وحقيقى وناصع فى أيام حركة التحرر الوطنى فى الخمسينيات والستينيات وما هو حقيقى وأصيل وناصع فى أيام المقاومة فى لبنان وفلسطين والعراق. جسرا يتحرك إلى أمام بقوة دفع ناشئة عن تحرير الماضى والحاضر من الأوهام التى نصنعها بأيدينا متأثرين بعمليات التزييف والتشويه المستمرة. جسرا يصل أيام المقاومة فى ١٩٥٦ بأيام المقاومة فى ٢٠٠٦، جسرا يصل أيام عبد الناصر بأيام حسن نصر الله.

[٦]

فى بداية العقد الثالث من القرن الماضى تنبأ هنرى لوس مؤسس مجلة التايم الأمريكية بأن القرن العشرين سيكون «القرن الأمريكى».

لقد صدقت تلك النبوءة إلى حد كبير. فالولايات المتحدة التى دخلت القرن تسير بخطى بطيئة ومترددة من أجل احتلال مركز عالمى كامبراطورية جديدة، ودعت القرن وهى الإمبراطورية الوحيدة فى العالم، بعد أن نجحت فى تصفية الإمبراطوريات الصديقة وهزيمة الإمبراطوريات المعادية.

ومع ذلك فإن الصحفى الأول فى القرن العشرين لم يكن أمريكيا. لقد كان عربيا.

وعندما أشرف القرن العشرون على ربعه الأخير، أدركت كبرى الصحف الأمريكية هذه الحقيقة إذ قالت صحيفة النيويورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٢ آب ١٩٧١ أنه «من الممكن أن يكون محمد حسنين هيكل هو أقوى صحفى فى العالم».

لقد كان

ومازال

مثالا على انتصار الروح العربية على الرغم من كل الجروح النازفة فى الجسد العربى. ■

ستيفن بيتر روزن



ما هو انتشار الأسلحة النووية يحتل من جديد رأس أجندة الأمن القومي الأمريكي مدفوعاً بالتقدم الذي حدث في برامج الأسلحة في كوريا الشمالية وإيران. ومن الناحية العملية، تركزت كل المناقشات التي دارت حول هذه القضية على كيفية منع انتشار الأسلحة النووية. وبينما حث الصقور على تغيير الأنظمة الحاكمة أو توجيه ضربات عسكرية، أيد الحمائم منع بيع السلاح والتفاوض. ومع أنه من الأرجح ألا يحل أي من تلك الإجراءات المشكلة، فقد أمضى بعض المراقبين وقتاً طويلاً في بحث ما سيبدو عليه عالم ما بعد انتشار الأسلحة النووية.

ويمكن تقسيم من عكفوا على ذلك البحث إلى متفائلين ومتشائمين. ويفترض المتشائمون أن أخطار المواجهة النووية سوف تزداد زيادة غير عادية مع تزايد عدد القوى النووية وأن وقوع كارثة في المستقبل أمر يكاد يكون مؤكداً. وتمضي هذه المقولة فتشير إلى أنه مادام ليس هناك الكثير مما يمكن عمله لتغيير تلك النتيجة الرهيبة أو التخفيف من عواقبها، فلابد من مضاعفة جهود وقف انتشار الأسلحة النووية أولاً. وفي المقابل يفترض المتفائلون أن الاستقرار الذي يبدو أن الأسلحة النووية وفرته لمواجهة القوتين العظميين إبان الحرب الباردة سوف يتكرر. وهم يقولون إنه بدلاً من أن يكون انتشار الأسلحة النووية كارثة مؤكدة فمن الممكن أن يكون حلاً سهلاً ورخيصاً نسبياً (وإن كان مثيراً للأعصاب) لمشكلة الحرب التي طال أمدها.

ومع ذلك فواقع الأمر هو أنه من المرجح أن يكون مستقبل انتشار الأسلحة النووية أعقد مما يعتقده أي من المتفائلين والمتشائمين. ففي عالم متعدد الأقطاب، سوف تظل السياسة الدولية داخل بيئة يحكمها الخوف والشك، مع وجود أخطار جديدة واحتمالات جديدة لسوء الاتصال تزيد من الأخطار والاحتمالات المألوفة وتعقدها. ونتيجة لذلك فمن المرجح أن يصبح الكثير من الخطط العسكرية والسياسات الدفاعية ومبادئ الأمن القومي التي يتعامل معها المسئولون في الولايات المتحدة وغيرها من الدول في الوقت الراهن عتيقاً ولا يتماشى مع الزمن، وسوف يكون من الضروري تنقيح تلك الخطط والسياسات والمبادئ وتعديلها على نحو كبير.

بترتيب مع مجلة:
Foreign Affairs

ترجمة: أحمد محمود

هل سينجح الردع؟

لنفترض، من باب الجدل، أن إيران ستنجح خلال العقد المقبل في امتلاك بضعة أسلحة نووية بدائية، وأنه سيكون بالإمكان توصيل تلك الأسلحة بواسطة صواريخ باليستية إلى داخل منطقة الشرق الأوسط، ونقلها بوسائل سرية إلى الولايات المتحدة وأوروبا. ولنفترض كذلك أن المملكة العربية السعودية وتركيا أقامتا ترسانتيهما النوويتين، بدافع من الخوف أو رغبة في التقليد. فكيف ستجرى التفاعلات الإستراتيجية في مثل هذا العالم الجديد؟

أثناء الحرب الباردة، كان العدد القليل من الدول النووية يعني أن هوية أي مهاجم نووي كانت ستصبح واضحة. وبذلك كان بالإمكان اتخاذ الاحتياطات من أجل الرد، الأمر الذي ساعد على ردع الهجمات الأولى. غير أن مثل هذا المنطق قد لا يصلح في شرق أوسط نووي متعدد الأقطاب. ذلك أنه لكي يفلح الرد في مثل هذه البيئة لابد أن تكون هناك أجهزة كشف يمكنها أن تحدد على نحو لا لبس فيه ولا غموض ما إذا كان الصاروخ الباليستي الذي يحمل سلاحاً نووياً قد أُطلق، على سبيل المثال، من إيران أم من تركيا أم من المملكة العربية السعودية. وفي العقود السابقة أنفقت الولايات المتحدة قدراً ضخماً من الموارد على رادارات الكشف فوق الأفق والأقمار الصناعية التي يمكنها تحديد أصل إطلاق الصواريخ داخل الاتحاد السوفيتي. غير أن تلك الأنظمة التي حققت أكبر قدر ممكن من مراقبة الاتحاد السوفيتي قد لا تكون على القدر نفسه من الكفاءة في تحديد انطلاقات الصواريخ من دول أخرى. وربما يكون نشر تلك الأنظمة بالأمر الهيِّن من الناحية الفنية على الولايات المتحدة (أو إسرائيل أو المملكة العربية السعودية)، إلا أن الردع سيكون ضعيفاً إلى حد بعيد لحين وجود تلك الأنظمة وإبداء فاعليتها؛ وقد يكون من الصعب الرد على القنبلة التي لا تحمل عنوان الراسل على نحو واضح.

إن الأمر يزداد سوءاً. فأثناء الحرب الباردة كان معظم المحللين يعتبرون أنه من غير المرجح استخدام الأسلحة النووية في وقت السلم؛ بل كان قلقهم أكبر بشأن احتمال وقوع صراع نووي ينجم بطريقة ما عن حرب تقليدية. ولا يزال هذا السيناريو هو الأرجح في مستقبل انتشار الأسلحة النووية كذلك. غير أن تكرار وقوع الحروب التقليدية في الشرق الأوسط قد يجعل من ذلك توقعاً يبعث على قدر أقل من الارتياح. فإذا أُطلق صاروخ باليستي يحمل سلاحاً نووياً أثناء وقوع قتال تقليدي في المنطقة تُستخدم فيه صواريخ باليستية لا تحمل أسلحة نووية، فما هو مقدار الثقة التي ستكون عليها أية حكومة عند تحديدها الطرف المسئول؟ وربما يزداد الأمر صعوبة في حال استخدام طائرة أو صاروخ عابر للقارات في توصيل السلاح النووي.

وعلاوة على ذلك فإن من أكبر المخاوف بشأن امتلاك إيران المحتمل للأسلحة النووية هو أن طهران قد تعطيها لإحدى الجماعات الإرهابية، الأمر الذي سوف يزيد احتمال استخدامها على نحو رهيب. ويقول البعض إن الحكومة الإيرانية لن تتغاضى عن مثل هذا النقل، بينما يقول غيرهم إنها سوف تتغاضى عنه. وليس هناك من سبيل للتأكد من هذا الأمر. غير أن ما يمكننا قوله هو أن احتمال النقل السري إلى الإرهابيين الإسلامويين المتشددين سوف يزداد إذا تنامى عدد القوى النووية الإسلامية، ذلك أنه سوف يكون من الصعب تحديد الدولة المسئولة عن النقل لمعاقبتها على ذلك.

وإذا امتلكت جماعة إرهابية إسلاموية مادة إنشطارية أو قنبلة نووية في الوقت الراهن فسيكون من الصعب أن نحدد على وجه اليقين من هي الدولة التي أعطتها إياها. سوف يتركز الاهتمام على باكستان، الدولة الإسلامية الوحيدة حالياً التي تمتلك أسلحة نووية. ولكن الشك سوف يزداد إذا تحولت دول إسلامية أخرى إلى قوى نووية، وسوف يصبح الرد مستحيلاً تماماً ما لم يكن هناك استعداد للرد من غير تمييز على الدول المشتبه فيها كافة.

قضايا السباق

أثناء الحرب الباردة، دخلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سباق تسلح مكثف وأقاما ترسانتين نوويتين شاسعتين. إلا أن المنافسات النووية الثنائية الأخرى، كتلك التي بين الهند وباكستان، خلت من ذلك السلوك. إذ ظلت ترسانات هاتين الدولتين صغيرة إلى حد ما وغير معقدة نسبياً.

ومن غير المرجح أن تبدي الدول المسلحة تسليحاً نووياً في الشرق الأوسط هذا القدر من الاعتدال وضبط النفس. فإيران والعراق ستشك كل منهما في الأخرى على نحو كبير، وكذلك سيكون الحال بين المملكة العربية السعودية وإيران، وبين تركيا والعراق، وهلم جرا. وبعد ذلك هناك إسرائيل. وسوف يخلق الحذر الظروف التقليدية لسباق السلاح متعدد الأقطاب، حيث تتسلح إسرائيل في مواجهة كل الأعداء المحتملين وتتسلح الدول الإسلامية في مواجهة إسرائيل ومواجهة بعضها البعض.

وتشير الأدلة التاريخية إلى أن سباقات الأسلحة تعجل بوقوع الحروب، لأن الحكومات تصل إلى حد النظر إلى الصراع باعتباره أمراً مفضلاً على استنفاد الأموال أو الاعتقاد بأنه يمكنها تحقيق ميزة عسكرية مؤقتة من خلال الحرب. ويمكن القول إن أية حرب نووية سوف تتسبب في حدوث قدر كبير من الدمار بحيث قد يثني احتمال وقوعها الدول إلى حد كبير عن تصعيد الصراعات. ولكن سباقات التسلح التي لا تهدأ سوف تظل تنتج ترسانات أكبر، مما يجعل منع حدوث الاستخدام الطارئ أو غير المفوض به للأسلحة النووية أمراً أكثر صعوبة.

وربما تنشأ سباقات التسلح في مناطق غير الشرق الأوسط كذلك. فآسيا تضم الكثير من الدول التي بينها نزاعات

مستقبل انتشار الأسلحة النووية أعقد مما يعتقده أى من المتفائلين والمتشائمين. ففى عالم متعدد الأقطاب، سوف تظل السياسة الدولية داخل بيئة يحكمها الخوف والشك، مع وجود أخطار جديدة واحتمالات جديدة لسوء الاتصال تزيد من الأخطار والاحتمالات المألوفة وتعقدها

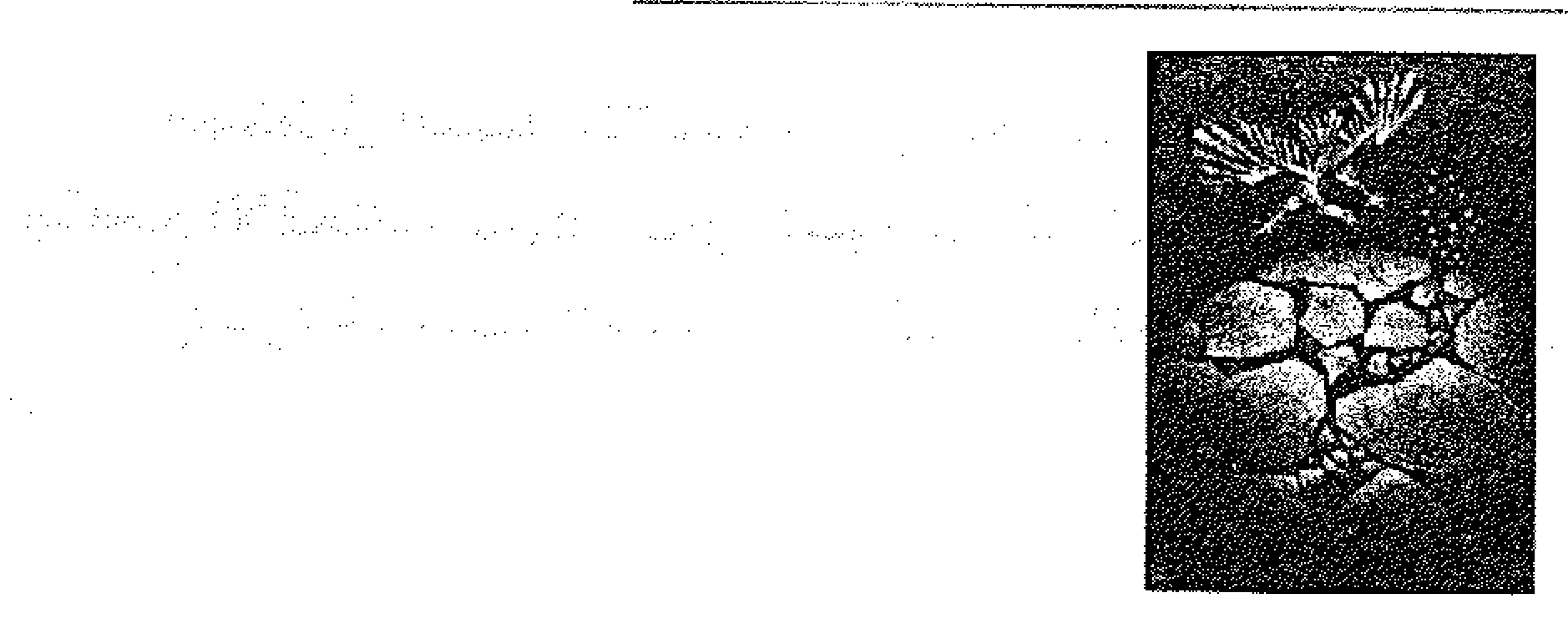




الانتشار

إقليمية أو سياسية كبيرة، منها خمس دول لديها أسلحة نووية (الصين والهند وكوريا الشمالية وباكستان وروسيا). وقد تنضم اليابان وتايوان إلى القائمة. وقد يكون لدى تلك الدول كافةً موارد لزيادة حجم ترساناتهم النووية ونوعيتها إلى ما لا نهاية إن هى اختارت ذلك. كما يبدو أنها قومية النزعة على نحو لم تعد تتسم به الدول الأوروبية الغربية؛ فهى تعى تفوقها إلى حد كبير، وغير عابئة نسبياً بالمنظمات الدولية، وسريعة التأثر بالإهانات، كما أنها حذرة مما يطرأ من تغيرات على الميزان الإقليمى للقوة العسكرية. وإذا ما توقفت الولايات المتحدة عن القيام بدور كفيل النظام الحالى، فسوف تصبح آسيا، كما يقول آرون فريدبرج أستاذ العلوم السياسية بجامعة برنستون، «على أتم الاستعداد للتنافس»، بما فى ذلك التنافس النووى. وفى تلك الحالة سوف تثير المنطقة مشاكل أشبه بتلك التى سوف يثيرها الشرق الأوسط النووى.

والمعروف أن الولايات المتحدة لم تتأثر إستراتيجياً بسباقات التسلح الخاصة بأوقات السلم بين الدول الأخرى، منذ التنافس الكونى على النفوذ البحرى ومنافسات قاذفات القنابل الأوروبية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. ولو ظهرت هذه المنافسات الآن فمن غير الواضح كيف سيكون رد فعل واشنطن، أو ينبغى أن يكون. فخلال الحرب الباردة لم يكن الخبراء الإستراتيجيون الأمريكيون والسوفييت مشغولين بكيفية حماية بلديهم فحسب من الهجوم النووى، بل انشغلوا كذلك بكيفية حماية حلفائهم. ولم تكن هناك قط إجابات شافية عن التساؤلات الخاصة بمصداقية ذلك «الردع الممتد»، غير أن ما قلل من إلحاح تلك التساؤلات، فى الولايات المتحدة على الأقل، هو قرار واشنطن الخاص بربط نفسها ربطاً وثيقاً بشركائها فى حلف الناتو (حيث وصل الأمر بالولايات المتحدة إلى نصب صواريخ نووية أمريكية فى ألمانيا الغربية وتركيا). ومن المحتم أن تعود مثل هذه التساؤلات إذا ما استمر انتشار الأسلحة النووية. وفى أية مواجهة فى المستقبل بين إيران والكويت، على سبيل المثال،



قد تحاول طهران المسلحة تسليحاً نووياً قمع خصمها، فى الوقت الذى تتعامل فيه مع احتجاجات واشنطن وتهديداتها على أنها ضرب من الخداع. فهل سيحتاج التصدى لمثل تلك التحديات إلى تكوين نسق جديد من التحالفات الوثيقة، وضمانات الأمن الصريحة، والهياكل الدفاعية المتكاملة؟

يفترض مفهوم الحرب الباردة الآخر، المعروف بمفارقة الاستقرار وعدم الاستقرار، أن الأطراف الفاعلة تستغل الخوف من الحرب النووية نفسه فى السعى للوصول إلى أنواع أقل من الصراع مع الحصانة. وقد يظهر ذلك أيضاً فى المستقبل. فعلى سبيل المثال، قد تدعم إيران النووية الإرهاب المتزايد ضد القوات الأمريكية فى المنطقة بناءً على النظرية القائلة بأن واشنطن سوف تتردد فى تصعيد الصراع.

شروط الاستخدام

لم تُستخدم الأسلحة النووية منذ عام ١٩٤٥، وسوف يبدو أى استخدام آخر لها صدمةً شديدة. ومع ذلك فقد تظن بعض الأطراف النووية الفاعلة فى المستقبل أن اللجوء لتلك الأسلحة يخدم مصالحها. وليس من غير المتصور، على سبيل المثال، أن دولة ما أو جماعة ما قد ترغب فى أن تُظهر لبقية العالم أنها مستعدة وقادرة على مخالفة أكثر معايير النظام الدولى قدسيةً. وقد تعمدت ألمانيا النازية استهداف اللاجئين المدنيين فى بولندا فى عام ١٩٣٩ وفى هولندا وفرنسا فى عام ١٩٤٠ كجزء من إستراتيجيتها Schrecklichkeit (بث الرعب). والاستخدام شبه الإرهابى للأسلحة النووية، ليس بواسطة جماعة صغيرة وإنما دولة ترغب فى أن يُعترف بها كدولة مخيفة، سوف يكون نظيراً معاصراً.

فما نوع الدولة التى سوف تجرب مثل هذا الأمر؟ إذا كان التاريخ مرشدى فى تحديد ذلك، فالدولة التى ترفض النظام العالمى القائم علانيةً تعتبر خصومها أدنى من أن يكونوا بشراً كاملى البشرية، وتسعى إلى ترهيب الآخرين. وفى المقابل ربما تخلق الصراعات الداخلية كراهية من الشدة بحيث تجعل الأطراف الفاعلة تلجأ إلى استخدام الأسلحة النووية؛ ولننظر على سبيل المثال كيف يمكن أن ترد موسكو إذا أسفر هجوم شيشانى آخر عن قتل المئات من الأطفال الروس. وقد يكون هناك كذلك إغراء لبعض الدول تستخدم الأسلحة النووية بطرق أخرى. فعلى سبيل المثال، كانت جنوب إفريقيا تعتزم قبل تخليها عن برنامج الأسلحة النووية الخاص بها استخدام قنابلها النووية إن هى تعرضت فى يوم من الأيام للهزيمة، باعتبار ذلك محاولة النفس الأخير لجر القوى العظمى إلى الصراع. وإذا ما عبرت تايوان العتبة النووية فإنها قد تتبع إستراتيجية مشابهة.

ومع ذلك فحتى الآن يضم الاستخدام الأكثر احتمالاً للأسلحة النووية الجانب الخاسر فى الحرب غير النووية. فمثل هذه الدولة لن تُواجه بخيار بين الحفاظ على السلام وبدء حرب نووية، بل بين قبولها لهزيمتها الوشيكة والمقامرة باحتمال أن ينهى التصعيدُ القتالَ فجأةً دون أن تتعرض للهزيمة. والصراع بين إيران والعراق أو الصراع بين الصين وتايوان مرشحان محتملان لمثل هذا الكابوس.

ينبغى ألا يتراخى الدفاع

ما الذى يمكن عمله، إن كان هناك ما يجب عمله، كى نستعد على نحو من الفطنة لمثل تلك الأمور المحتملة؟ يقول المتشائمون إنه لا جدوى من الاستعداد، ويرى المتفائلون أنه غير ضرورى وليس هناك ما يدعو إليه. غير أن هناك العديد من الخطوات التى يمكن للمسئولين الحكماء أن يتخذوها، بل وينبغى عليهم اتخاذها، الآن.

كى ندعم فعالية الردع فى عالم من القوى النووية الصغيرة القريبة من بعضها جغرافياً، سوف يكون من الضرورى نشر أنظمة مراقبة يمكنها تحديد حركة الطائرات وإطلاق الصواريخ والتحذير منها. وقد يجرى تشغيل تلك الأنظمة على أساس قومى أو متعدد الأطراف؛ والواقع أن عدداً من الدول فى المناطق المعرضة للخطر قد يساهم فى الجهود الجماعية للكشف عن التهديدات المحمولة جواً.

وعلاوة على ذلك، سوف يوجد إنشاء نظام المراقبة الإقليمى هذا جزءاً كبيراً من البنية التحتية اللازمة لدعم أداة مفيدة أخرى، وهى شكل من أشكال الدفاع الصاروخى. ولطالما سخر المتشككون فى الدفاع الصاروخى كثيراً، ومعهم بعض الحق، من فكرة أنه يمكن لهذه الأنظمة أن تكون فعالة ضد الأسلحة النووية أو الأعداد الكبيرة من الصواريخ. إلا أن ما أغفلوه هو أنه حتى الدفاعات التى بها ثغرات أو غير الفعالة يمكن أن يكون لها دور فى ردع الهجوم الآتى من قوة نووية لديها ترسانة صغيرة، أو يقلل من احتمالات نشوب صراع نووى واسع النطاق نتيجة لاستخدام وحيد (من أى أصل).

وهناك أنواع أخرى من الدفاع يمكنها كذلك تقليل احتمالات وقوع الهجوم أو تخفيف نتائجه الرهيبة. وينبغى على المسئولين الأمريكيين تنمية القدرة على إجلاء هؤلاء المواطنين المعرضين لخطر الهجوم المباشر أو التواجد فى طريق السقط النووى، وكذلك اختزان أعداد كبيرة من أجهزة قياس الإشعاع، وبناء ملاجئ للاحتماء من السقط النووى، واتخاذ غير ذلك من الإجراءات التى وُضعت أول ما وُضعت فى الخمسينيات. وبات يُنظر إلى الدفاع المدنى على أنه نكتة غريبة عندما امتلك الاتحاد السوفيتى آلاف الأسلحة النووية. غير أنه يمكن أن يؤدى دوراً مهماً فى عالم من القوى النووية الصغيرة، شأنه فى ذلك شأن الدفاع الصاروخى.

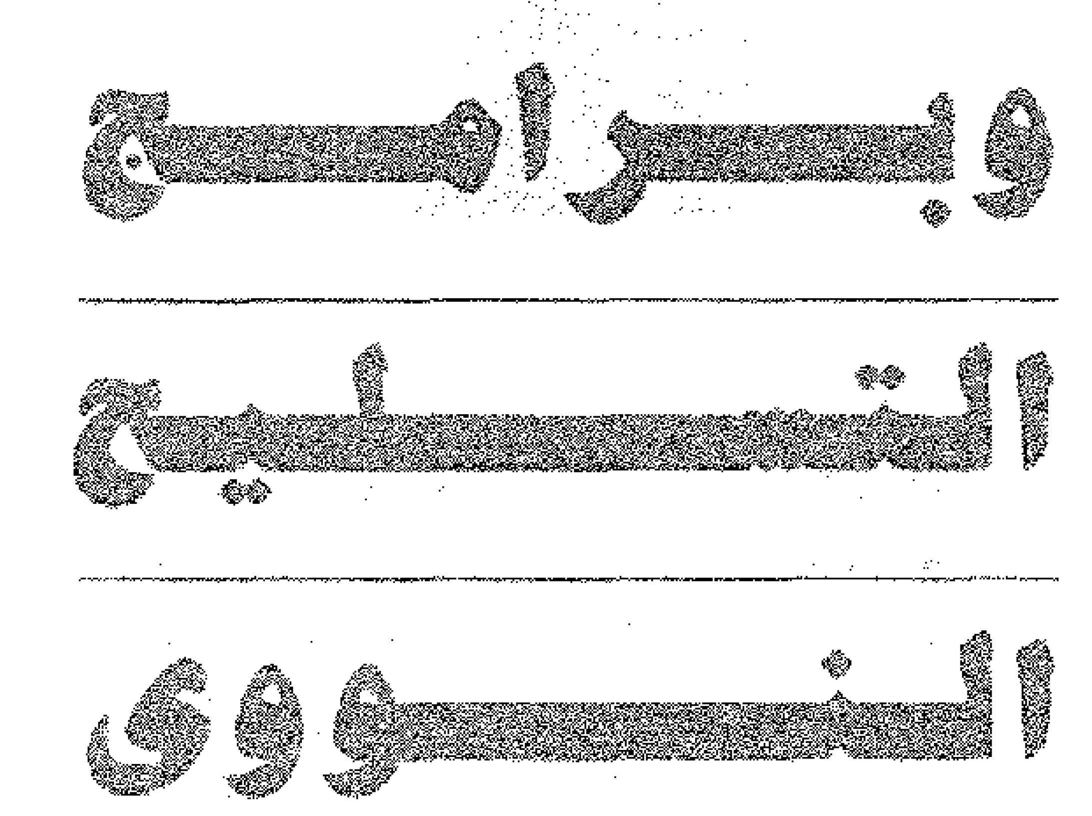
إذا نجحت القنبلة النووية فى الوصول رغم ذلك فسوف يكون من الضرورى بالنسبة للدولة المستهدفة أن ترد بسياسات غير الوقوف ساكنة أو الأمر بالرد من غير تمييز. وسوف يكون أحد الخيارات شن حملة عسكرية نووية ضخمة ضد الطرف المسئول للتأكد من أن مثل هذا الهجوم لن يتكرر. إلا أنه رغم وجود كل تلك الإرادة وذلك المال فى العالم فليس بالإمكان استدعاء مثل هذا الرد فجأة؛ فهو يحتاج إلى تخطيط متأنٍ واستعداد.

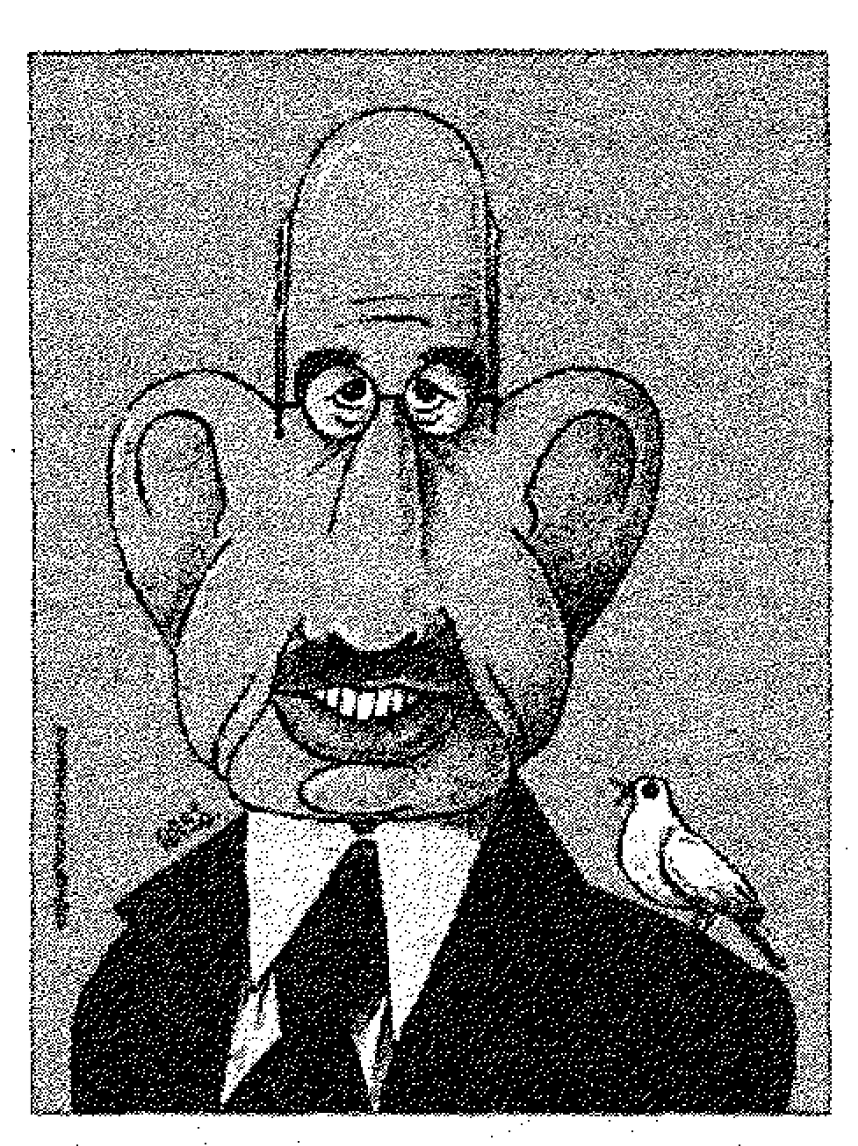
وقد كانت الولايات المتحدة قادرة على بدء جهد تعبئة غير عادى فى عام ١٩٤٢ ليس لأن الهجوم على بيرل هاربر حفّز الجمهور الأمريكى فحسب، بل كذلك لأن أشخاصاً مثل فانيفر بوش (باعتباره رئيساً للجنة القومية لأبحاث الدفاع) وروبرت لوفيت (باعتباره مساعداً لوزير الحرب هنرى ستيمسون) أمضوا سنوات فى وضع أساس لتنظيم العلماء المدنيين وصناعة السيارات من أجل الأغراض العسكرية. ومما يؤسف له أن أحداً لم يفكر فى التخطيط لمثل تلك التعبئة فى الولايات المتحدة خلال ٥٠ عاماً. ومع ذلك فإنه فى أعقاب الهجوم النووى على الولايات المتحدة سوف يطالب الشعب الأمريكى بأن تحاول الحكومة تغيير العالم بحيث لا يحدث مثل هذا الهجوم مرة أخرى. وسوف يكون بدء التمعن فى هذا الجهد وتخطيطه الآن قليل التكلفة ويمكن القيام به، وسيزيد خيارات الحكومة الأمريكية فيما بعد.

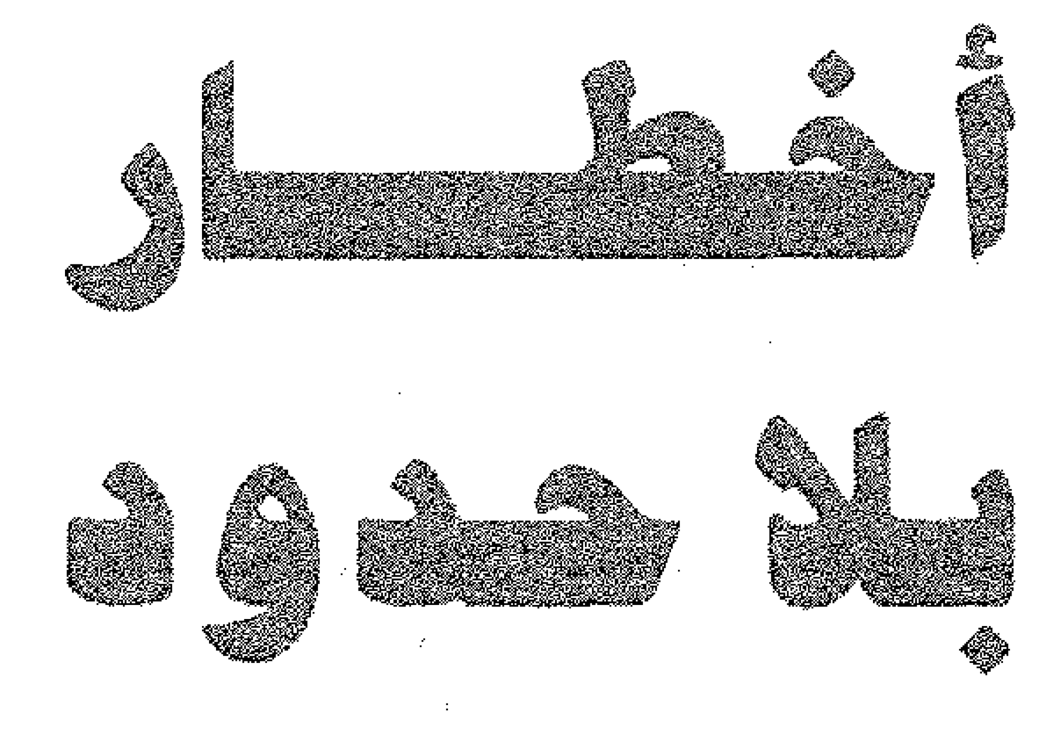
فى الوقت نفسه سوف يكون وقف سباقات التسلح فى الشرق الأوسط وآسيا أمراً صعباً. ويبدو من غير المرجح أن يكون منع انتشار الأسلحة التقليدي، الذى يتطلب أن تسمح الأطراف بعمليات جرد متبادلة لأسلحتها والالتزام بإجراءات التحقق، ذا فائدة كبيرة، بسبب الشكوك المتأصلة فى تلك المناطق، ولوجود حافز لدى القوى النووية الصغيرة كى تخفى أسلحتها وتبالغ فى حجم ترساناتها وفعاليتها كى تمنع خصومها من مهاجمتها. وهكذا فسوف يكون من الصعب التوصل إلى اتفاق على إجراءات التحقق، الأمر الذى سوف يقلل بدوره من احتمالات وجود اتفاقيات فعالة بصور أكثر عمومية.

ومع ذلك فقد يكون من الممكن والمفيد أن يصبح هناك شكل معين من الشفافية النووية. ولكن ذلك يتطلب أن تدرك الدول كافة أن الحرب النووية سوف تؤدى إلى وفيات لديها، حتى ولو كان ذلك باستعمال ترسانات محدودة. فكيف يمكن توصيل هذه الفكرة؟ هناك أدلة تاريخية على أن رؤية تجربة الأسلحة النووية كان لها أثر قوى على الكثير من الأشخاص فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. وهكذا فمن المفارقة أن يكون من الواجب استمرار الانتشار النووى لفترة أطول قبل إيقافه أو الحد من سرعته؛ فلو أُجريت التجارب النووية بشكل كامل من جديد، فقد يدرك الجيل الجديد من واضعى السياسات وجماهيرهم أنه حتى استخدام عدد قليل من الأسلحة النووية سوف يؤدى إلى دمار لا سبيل لتحمله.

باختصار، إذا استمر انتشار الأسلحة النووية فمن المرجح أن يدخل العالم حقبة جديدة ذات تحديات تختلف اختلافاً كبيراً عن تحديات الحرب الباردة. ومن المحتمل أن يوجد العديد من القوى النووية الصغيرة الأخرى إلى جانب القوى الكبرى، وسيتعين معالجة مشاكل الردع النووى، وسباقات التسلح، والأسلحة الدفاعية والهجومية، والرد المناسب من جديد فى ظروف جديدة وأكثر تعقيداً. ومنذ خمسينيات القرن العشرين حتى ثمانينياته كانت الإستراتيجية النووية مجالاً حياً للبحث له أهميته العملية الكبيرة. ولم يعد لهذا المجال وجود بانتهاء الحرب الباردة، حيث انحسرت احتمالات المواجهة النووية بين القوتين العظميين. ومما يؤسف له أن الوقت قد حان لإحيائه. ■




البرادعى



محمد البرادعى

■ تعمل زوجة أخى فى منظمة تقدم العون للملاجئ فى القاهرة، حيث تقوم هى وزميلاتها برعاية اليتامى الذين وجدوا أنفسهم فى هذا الوضع لأسباب خارجة عن إرادتهم، وهن يقمن بإطعام هؤلاء الأطفال وكسوتهم وتعليمهم القراءة والكتابة.

وبالتوازى فإن زملائى وأنا نقوم فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالعمل على حماية المواد النووية من الوصول إلى أيدى الجماعات المتطرفة والتفتيش على المنشآت النووية فى مختلف أنحاء العالم للتأكد من أن الأنشطة النووية السلمية لا تستخدم كستار لبرامج تسلح نووى.

إن زوجة أخى وأنا نعمل لتحقيق نفس الهدف، ألا وهو أمن الأسرة الإنسانية، وإن كنا نعمل للوصول إلى ذلك بأساليب مختلفة.

وفى هذا المقام أود أن أطرح سؤالا أساسيا وهو: لماذا لم نتمكن حتى الآن من تحقيق هذا الأمن للأسرة الإنسانية؟

فى اعتقادى أن السبب الرئيسى فى هذا يرجع إلى أن استراتيجيتنا الخاصة بأمن الأسرة الإنسانية لم تتواكب بعد مع المخاطر التى نواجهها، ففى الوقت الذى قامت فيه العولمة بإزالة العوائق أمام حرية انتقال الأفكار والأفراد والسلع فإنها فى نفس الوقت أزالت الموانع التى كانت فيما سبق تحصر الأخطار الأمنية فى إطار محلى أو إقليمى.

وفى دراسة حديثة قام بها فريق رفيع المستوى من الأمم المتحدة تم تحديد الأخطار التى نواجهها فيما يلى:

١ - الفقر والأمراض المعدية والتدهور البيئى.
٢ - النزاعات المسلحة، سواء الحروب الأهلية أو الحروب بين الدول وبعضها.
٣ - الجريمة المنظمة.
٤ - الإرهاب.
٥ - أسلحة الدمار الشامل.

كل هذه «أخطار بلا حدود»، أصبحت مفاهيم الأمن التقليدية عديمة الجدوى فى مواجهتها. ويجب أن يكون واضحا أنه لن يمكننا حماية أنفسنا من هذه الأخطار عن طريق بناء المزيد من الحواجز، أو تطوير أسلحة أكثر تدميرا أو إرسال المزيد من القوات. بل على العكس فإن طبيعة هذه الأخطار تتطلب أولا وقبل كل شىء تعاونا دوليا واسعا لمواجهتها.

ولعله من الأهمية بمكان كذلك أن ندرك أن هذه الأخطار ليست منفصلة أو مستقلة بل إننا إذا أمعنا النظر جيدا سنجدها جميعا مترابطة ومتصلة بشكل وثيق.

نحن هنا فى هذه القاعة المهيبة حوالى ١٠٠٠ شخص، وإذا تصورنا للحظة أننا نمثل سكان العالم، فإن المائتى فرد الذين يجلسون على يسارى سيكونون هم الممثلون لأغنياء العالم الذين يستهلكون ٨٠٪ من موارد العالم، وسيمثل الأربعمائة فرد الجالسون على يمينى هؤلاء الذين يعيشون على دخل يقل عن دولارين فى اليوم.

إن هذه المجموعة الفقيرة ليست أقل ذكاء أو أقل قيمة من زملائهم الأغنياء، كل ما هناك أن هذا كان قدرهم حين ولدوا.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى العالم الذى نعيشه، فإننا سنجد أن هذا الخلل فى ظروف الحياة يؤدى بالضرورة إلى عدم التكافؤ فى الفرص وفى الكثير من الأحيان إلى فقدان الأمل. ولعل ما هو أسوأ وأكثر تعقيدا أنه كثيرا ما تؤدى محنة الفقراء إلى انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان وغياب للحكم الرشيد وإحساس بالظلم والمهانة بل وكثيرا ما تكون مصحوبة بكل ذلك. ويجب علينا أن نفهم أن اجتماع كل هذه الظروف معا يؤدى إلى إيجاد تربة خصبة لنمو النزاعات المسلحة والجريمة المنظمة والتطرف بكافة أشكاله وأنواعه.

زد على ذلك أنه فى المناطق التى استمرت فيها النزاعات تتأجج لعقود طويلة بدون حل، فإننا دائما ما نشهد محاولات مستمرة من جانب دول تلك المناطق للبحث عن أساليب تمكنها من التغلب على الإحساس بعدم الأمن أو من استعراض نفوذها وقوتها. وفى بعض الحالات، فإن الإغراء قد يساور بعض تلك الدول للحصول على أسلحة نووية وغيرها من أسلحة دمار شامل مقتدية فى ذلك بالدول التى سبقتها فى هذا المضمار.



فى أعقاب الحرب الباردة التى انتهت منذ أكثر من ١٥ عاما راود الكثير منا الأمل فى أن يبزغ نظام دولى جديد - مبنى على تضامن الأسرة الإنسانية، نظام دولى متكافئ وشامل وفعال.

وللأسف فنحن مازلنا اليوم أبعد ما نكون عن هذا الهدف. قد نكون نجحنا فى إزالة الجدران الفاصلة بين الشرق والغرب إلا أننا

محاضرة ألقاها الدكتور محمد البرادعى فى أوسلو، ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥ بمناسبة فوزه بجائزة نوبل لعام ٢٠٠٥

■ تنشر بترتيب خاص مع المحاضر ومؤسسة نوبل



لم ننجح حتى الآن فى بناء الجسور بين الشمال والجنوب، بين الأغنياء والفقراء.

ودعونا ننظر إلى سجلنا بالنسبة لمساعدات التنمية. ففى الوقت الذى أنفقنا فيه فى العام الماضى أكثر من ألف مليار دولار على السلاح، سنجد أننا قد خصصنا أقل من ١٠٪ فقط من هذا المبلغ - أى مجرد ٨٠ مليار دولار - لمساعدات التنمية الرسمية للعالم الثالث - هذا العالم الذى مازال يعانى فيه ٨٥٠ مليون شخص من الجوع. وفى هذا الخصوص مازلت أتذكر ما قاله لى مؤخرا صديقى جيمس موريس مدير برنامج الغذاء العالمى المسئول عن تقديم المساعدات الغذائية لهؤلاء الذين يعانون من الجوع: «إننى لو أُعطيت مجرد واحد بالمائة من المبالغ التى تنفق على السلاح فلن يذهب أحد فى عالمنا هذا إلى الفراش وهو جائع».

وإزاء هذا فلا يجب أن نندهش إذا ما رأينا الدور المتزايد للفقر فى إشعال النزاعات. ولعل دليلا بينا على ذلك هو أنه من بين الثلاثة عشر مليون قتيل الذين راحوا ضحية النزاعات المسلحة خلال السنوات العشر الماضية، فإننا نجد أن تسعة ملايين منهم قد قتلوا فى أفريقيا السوداء وحدها حيث يعيش أفقر فقراء العالم.

ودعونا ننظر كذلك إلى منهجنا فى التعامل مع قيمة الحياة الإنسانية وقدسيتها. لقد حزنا حزنا عميقا، وبحق، فى أعقاب الهجمات الإرهابية فى الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ وأعربنا عن سخطنا الشديد على هذه الجريمة الشنعاء. ومع ذلك، وفى نفس الوقت فهناك الكثيرون الذين لا يعلمون أن ٨,٣ مليون شخص قد قتلوا نتيجة الحرب الأهلية التى اندلعت فى جمهورية الكونغو الديمقراطية منذ عام ١٩٩٨.

ألا نستخلص من هذا التباين أن أولوياتنا مختلة وأن منهجنا فى التعامل مع قيمة الحياة الإنسانية مختلّ هو الآخر؟



على ضوء هذه الخلفية التى أشرت إليها للتو قد نتمكن بشكل أفضل من فهم التغيرات التى حدثت فى مجال منع الانتشار ونزع السلاح النووى. ويمكننا القول إن هناك ثلاثة ملامح رئيسية لهذه التغيرات أولها: ظهور شبكة سوق سوداء واسعة النطاق للاتجار فى المواد والمعدات النووية؛ وثانيها: انتشار الأسلحة النووية وكذلك التكنولوجيا النووية الحساسة فى عدد أكبر من الدول؛ وثالثها: الركود الذى أحاط بجهود المجتمع الدولى للتوصل إلى نزع السلاح النووى.

فإذا ما أخذنا ما تقدم فى الاعتبار، وعلى ضوء العولمة التى تقرب بعضنا البعض يوما بعد يوم، وجب أن نفهم أنه إذا تجاهلنا الإحساس بعدم الأمن من جانب البعض منا، فإن هذا الإحساس ذاته سيشملنا جميعا آجلا أو عاجلا.

وبنفس المنطق، فإنه إذا ما قرر البعض منا أن يستمر فى الاعتماد على السلاح النووى فى أمنه فإن احتمال أن يصبح الحصول على هذا السلاح هدفا للكثيرين سيستمر وسيزيد. وعلى ضوء ما تقدم فإنه ليس لدى شك فى أننا إذا ما أردنا أن نتجنبه لأمين البشرية فلابد أن نتأكد من أن السلاح النووى لا مكان له فى ضمير الإنسانية ولا دور له فى أمنها. ولهذا يتعين علينا أن نعمل بشكل قاطع من أجل ألا تتمكن المزيد من الدول من الحصول على هذا السلاح، كما يتعين علينا فى نفس الوقت أن نعمل على أن تقوم الدول التى تمتلك السلاح النووى باتخاذ خطوات محددة للتخلص من أسلحتها النووية، وأن نبدأ فى بناء نظام أمنى جماعى بديل لا يعتمد على السلاح النووى.

ويصبح التساؤل هنا عما إذا كانت هذه الأهداف واقعية وقابلة للتحقيق؟ فى اعتقادى أنها كذلك، ولكن إذا ما أردنا تحقيقها فإن ذلك سيستلزم منا اتخاذ خطوات ثلاث عاجلة:

الخطوة الأولى، هى الحيلولة بكل شكل دون وقوع أى مواد نووية أو مواد مشعة فى أيدى الجماعات المتطرفة. وفى أعقاب الحوادث الإرهابية عام ٢٠٠١ بدأت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالتعاون مع المجتمع الدولى حملة عالمية لدعم أمن هذه المواد وحماية المنشآت النووية، وتدريب مسئولى الأمن ومراقبة معابر الحدود. ولقد تمكنا فى خلال الأربع سنوات الماضية من أن ننجز حوالى ٥٠٪ من هذا العمل، ولكن سرعة التنفيذ مازالت أبطأ من المطلوب فنحن فى سباق مع الزمن.

والخطوة الثانية: هى إحكام السيطرة على عمليات إنتاج المواد النووية التى يمكن أن تستخدم فى صنع السلاح النووى. وطبقا للنظام المعمول به حاليا، فإنه من حق أى دولة أن تقوم بهذه العمليات من أجل الاستخدامات المدنية، ولكن المشكلة تكمن فى أنها بذلك تتمكن فى نفس الوقت من التغلب على أكبر العقبات لصنع سلاح نووى ألا وهى الحصول على اليورانيوم عالى التخصيب أو البلوتونيوم.

ومن أجل التغلب على هذا فإننى آمل فى تدويل هذه العمليات بحيث لا تكون تحت السيطرة المباشرة المنفردة لأية دولة. وخطتى فى هذا الشأن، المكونة من عدة مراحل، هى أن نبدأ بإنشاء احتياطى للوقود النووى فى شكل بنك للوقود النووى تتولى إدارته الوكالة الدولية للطاقة الذرية، بحيث تضمن الدولة حصولها على الوقود اللازم للاستخدامات السلمية للطاقة النووية. وفى رأيى أن توفير هذا الضمان لكافة الدول سيؤدى إلى انعدام الحافز أو المبرر لأن تطور كل دولة بمفردها دورة وقود نووى مستقلة. واعتقادى أن هذا سيسهل من إمكانية أن نتفق حينئذ على وقف طوعى لبناء أية مرافق نووية وطنية جديدة لتخصيب اليورانيوم أو لاستخلاص البلوتونيوم، وأن نتفق كذلك على تدابير دولية من أجل تخصيب اليورانيوم وإنتاج الوقود ومعالجة الوقود المستنفد والتخلص من النفايات.

وفى نفس الوقت علينا أن نزيد من فعالية نظام التفتيش. إن نظام التفتيش الخاص بالوكالة الدولية للطاقة الذرية هو جوهر نظام منع الانتشار النووى. ولكى نضمن فعالية هذا النظام يجب علينا أن نتأكد دائما أنه مزود بالصلاحيات اللازمة والمعلومات المطلوبة والتكنولوجيا المتقدمة وكذلك الموارد المالية والبشرية. بالإضافة إلى ما تقدم يجب أن يلقى نظام التفتيش الدعم الدائم من قبل مجلس الأمن فى حالات عدم احترام الدول لالتزاماتها الخاصة بعدم انتشار السلاح النووى.

الخطوة الثالثة: هى التسريع من الجهود المبذولة لنزع السلاح النووى.

فاليوم هناك ثمانى أو تسع دول تمتلك السلاح النووى. واليوم أيضا مازال لدينا ٢٧ ألف رأس نووى. فى رأيى أنه ليس مقبولا أن يكون لدينا حتى رأس نووى واحد.

وقد تكون البداية المنطقية هى أن تقوم الدول التى تمتلك السلاح النووى بالتقليل من الدور الاستراتيجى لهذه الأسلحة، فليس مفهوما أو مقبولا، بعد مرور أكثر من خمسة عشر عاما على انتهاء الحرب الباردة، أن تستمر الدول النووية الكبرى فى حالة تأهب قصوى فيما يتعلق باستخدام سلاحها النووى، بحيث أنه مازال لدى رؤساء تلك الدول، فى حال علمهم بوجود احتمال هجوم نووى عليها، فترة زمنية لا تتعدى ثلاثين دقيقة ليقرروا فيها ما إذا كانوا سيقومون بهجوم مضاد، وهو السيناريو الذى قد يؤدى إلى تدمير أمم بأكملها فى دقائق معدودات.

إن هذه الخطوات الثلاث التى أشرت إليها: حماية المواد النووية ودعم نظام التفتيش؛ والسيطرة على دورة الوقود النووى؛ والتسريع من الجهود المبذولة لنزع السلاح النووى هى فى اعتقادى خطوات محددة قابلة للتنفيذ.

إلا أنه فى واقع الأمر، فإن اتخاذ هذه الخطوات الثلاث ليس كافيا فى حد ذاته. فالصعوبة الحقيقية مازالت تكمن فى كيفية خلق المناخ اللازم الذى يمكننا من أن ننظر إلى السلاح النووى نظرتنا إلى الرق أو الإبادة الجماعية، أى باعتباره من المحرمات ومن الأخطاء التاريخية.



سواء اعتقد الفرد فى نظرية التطور أو التصميم الذكى أو كان مؤمنا بالخالق الإلهى، فهناك أمر واحد مؤكد وهو أن البشر فى حالة حرب دائمة فيما بينهم منذ بدء التاريخ، تحت دعاوى مختلفة منها الدين أو الأيديولوجيا أو الاختلاف العرقى. بالإضافة إلى ذلك، فإنه لا توجد حضارة إنسانية تخلت يوما طواعية عن أقوى أسلحتها. وللأسف، فإنه رغم توافقنا اليوم على أننا نستطيع أن نشارك بعضنا البعض فى استخدام التكنولوجيا الحديثة، فإننا مازلنا نرفض أن نعترف بأن قيمنا الإنسانية - فى جوهرها - هى قيم مشتركة.

إننى مصرى مسلم، تعلمت فى القاهرة ونيويورك، وأعيش حاليا فى فيينا. وقد أمضيت أنا وزوجتى نصف



حياتنا في الشمال ونصفها في الجنوب - وفي خلال كل مراحل حياتنا لمسنا بشكل مباشر الطبيعة الفريدة للأسرة الإنسانية والقيم المشتركة التي تربطنا جميعا.

لقد عبّر شكسبير عن هذه الطبيعة الإنسانية الفريدة أبلغ تعبير، عندما تساءل في مسرحية « تاجر البندقية»: «إذا وخزتمونا، ألا ندمى؟ وإذا دغدغتمونا، ألا نضحك؟ وإذا سممتمونا، ألا نموت؟ وإذا أسأتم إلينا، ألا ننتقم؟» وعلينا أن نتذكر دائما أنه لا يوجد دين مبني على عدم التسامح ولا توجد عقيدة لا تقدر قدسية الحياة الإنسانية. فاليهودية تطالبنا بأن نقدر جمال وقدسية الحياة الإنسانية.

والمسيحية تقول إنه يجب علينا معاملة جيراننا كما نحب أن نُعامل. والإسلام يؤكد أن من قتل نفسا بغير حق فإنه قد قتل الناس جميعا. والهندوكية تنظر إلى الكون كعائلة واحدة. والبوذية تطالبنا بأن نتفهم وحدة كافة المخلوقات.

وقد يقول البعض إن محاولة بناء مجتمع مبني أساسا على التسامح وقدسية الحياة الإنسانية، مجتمع تقل فيه أهمية الحدود والجنسية والأيديولوجيا وغيرها من الفوارق، هي محاولة مثالية تقترب من «اليوتوبيا». إلا أنني أقول لهؤلاء إن هذه ليست مثالية بل هي واقعية. فقد علمنا التاريخ أنه نادرا ما تحل الحروب مشاكلنا، وأن استخدام القوة لا يضمد الجروح بل على العكس يفتح المزيد منها.



لقد تحدثت عن جهودنا الرامية للحيلولة دون إساءة استخدام الطاقة النووية.

واسمحوا لي أن أتحدث الآن عن كيف يتم استخدام نفس هذه الطاقة لخير الإنسانية. إننا نعمل كل يوم في الوكالة الدولية للطاقة الذرية في جميع أرجاء العالم من أجل وضع التقنيات النووية والإشعاعية في خدمة الإنسانية. فعلى سبيل المثال، يقوم المزارعون في فيتنام بزراعة أرز عالي القيمة الغذائية تم تطويره بمساعدة الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وفي أمريكا اللاتينية تُستخدم التكنولوجيا النووية لرصد مستجمعات المياه الجوفية حتى يمكن ضمان إدارة موارد المياه بشكل مستدام. وفي غانا، يقوم جهاز أشعة متطور بالمساعدة على معالجة الآلاف من مرض السرطان. وفي منطقة جنوب المحيط الهادئ يقوم علماء من اليابان بدراسة ظاهرة التغير المناخي باستخدام تقنيات نووية متقدمة. وفي الهند توجد حاليا ثماني محطات نووية لتوليد الكهرباء تحت الإنشاء من أجل توفير طاقة كهربائية نظيفة لبلد سريع النمو -وهو أمر يعكس التوقع المتزايد لاستخدام عالمي أوسع نطاقا للطاقة النووية لتوليد الكهرباء.

تمثل هذه المشاريع وآلاف غيرها الهدف من إنشاء الوكالة الدولية للطاقة الذرية، ألا وهو : الذرة من أجل السلام.

ولكن من المهم أن نؤكد على أن التوسع المتزايد في استخدام الطاقة النووية يحتم علينا أن نستمر في الحفاظ على الأمان والأمن النوويين على أعلى مستوى، وقد عملت الوكالة منذ حادث تشرنوبيل في منتصف الثمانينيات على رفع مستوى الأمان النووي. وكذلك فقد عملنا بدأب منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١على رفع مستوى الأمن النووي في مختلف أنحاء العالم. وعلى كلتا الجبهتين فقد عقدنا العديد من الاتفاقيات الدولية ووضعنا الكثير من المعايير التقنية. ولعل من أهم أعمالنا الملموسة في هذين المجالين مئات البعثات التي نقوم بإرسالها إلى كل أرجاء المعمورة حيث يقوم خبراؤنا الدوليون بالتأكد من أن الأنشطة النووية آمنة ومؤمنة.

إنني أشعر بغاية الفخر بزملائي العاملين في الوكالة الدولية للطاقة الذرية من رجال ونساء البالغ عددهم ٢٣٠٠ شخص والذين يعملون بكل جد واجتهاد، وهم الزملاء الذين يشاركونني شرف الحصول على هذه الجائزة والموجود البعض منهم معي هنا. إننا ننتمي إلى أكثر من ٩٠ دولة، ونثري العمل بمفاهيم ورؤى مختلفة. إن تنوعنا هذا هو مصدر قوتنا. إن سلطاتنا محدودة، وميزانيتنا متواضعة، وليس لدينا جيوش.

إلا أننا، متسلحون بقوة قناعتنا، سنستمر في قول الحقيقة أيا كانت العواقب، وسنستمر في تنفيذ صلاحياتنا بنفس الاستقلالية والموضوعية.

إن حصولنا على جائزة نوبل للسلام يتضمن رسالة قوية لنا وهي أن نستمر في عملنا من أجل تحقيق هدفي الأمن والتنمية. إن السلام ليس إنجازا واحدا بل هو مناخ وعمل مستمر والتزام دائم.



قد تبدو الصورة التي قدمتها اليوم قاتمة بعض الشيء، إلا أنني أود في الختام أن أقول لكم لماذا يحدوني الأمل.

يحدوني أمل لأن الجوانب الإيجابية للعولمة مكّنت الدول والشعوب من التفاعل والترابط في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبما يجعل الحرب خيارا غير مقبول لحل الخلافات.

إن الترابط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فيما بين الدول الخمس والعشرين أعضاء الاتحاد الأوروبي واعتمادهم المتزايد على بعضهم البعض أدى إلى جعل استخدام القوة لحل الخلافات فيما بينهم أمرا غير متصور. كذلك فإننا نرى أن منظمة الأمن والتعاون في أوروبا ذات الخمسة والخمسين عضوا من أوروبا وآسيا الوسطى وأمريكا الشمالية تسير في نفس هذا الاتجاه. وقد يصح لي أن أتساءل عما إذا كان ممكنا توسيع هذه النماذج لتشمل العالم كله من خلال نفس التفاعل الخلاق والتعاون الدولي الفعال بين جميع الدول، وبحيث يكون القوي عادلا ويكون الضعيف آمنا؟

يحدوني أملٌ كذلك لأن منظمات المجتمع المدني أصبحت أكثر دراية وأكثر تفاعلا. فهي تقوم بالضغط على حكوماتها من أجل التغيير وخلق مجتمعات ديمقراطية قائمة على أساس من التعددية والتسامح والمساواة. وهي تقوم بتقديم المساعدات كذلك وإيجاد حلول مبتكرة كما إنها تعمل من أجل توسيع الحس الاجتماعي وروح المواطنة وتحويلهما من النطاق المحلي والإقليمي إلى النطاق العالمي.

في رأيي أن الفرصة متاحة أمامنا الآن وأكثر من أي وقت مضى لكي نقدم جواباً إيجابياً على أحد أقدم تساؤلات البشرية : هل أنا مسئولٌ عن أخي؟

إن المطلوب في المحصلة النهائية هو إطار جديد لتفكيرنا وتغيير شامل في مشاعرنا بحيث نكون قادرين على أن ننظر إلى الإنسان الذي يعيش في الجانب الآخر من العالم على أنه جار لنا.

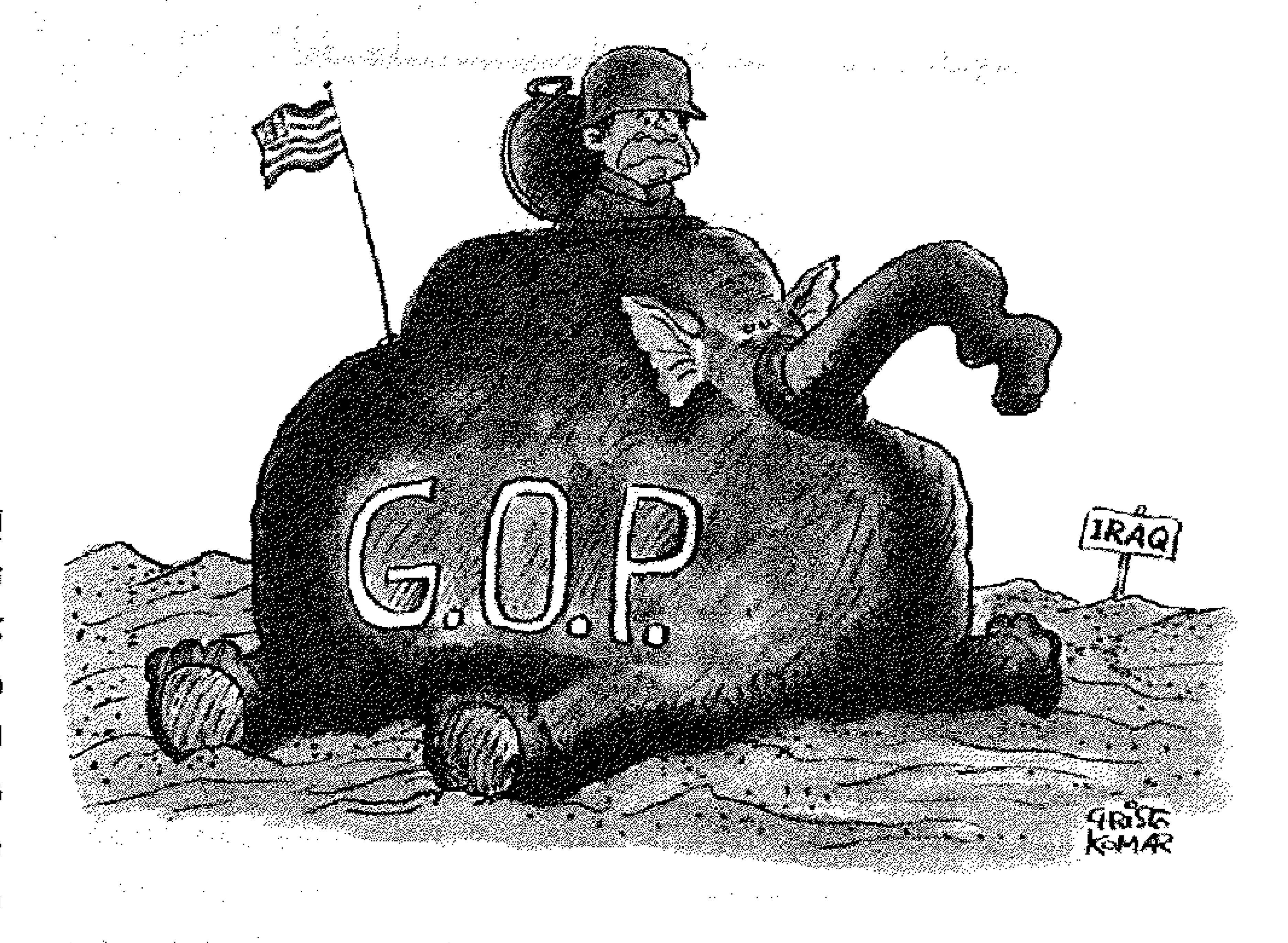
يحدوني أملٌ كذلك لما أراه في أبنائي وبعض من جيلهم. لقد سافرت إلى الخارج لأول مرة وعمري يناهز التسعة عشر عاما. ولكن أبنائي كانوا أكثر حظا مني، فقد اختلطوا بالثقافة الأجنبية منذ نعومة أظافرهم ونشأوا في مناخ متعدد الثقافات. وأستطيع أن أقول يقينا إنهم لا يرون اختلاف الجنسية أو العرق أو اللون عند تعاملهم مع الآخرين، فهم على سبيل المثال لا يرون أي فرق بين أصدقائهم نوريكو أو مافوبو، أو جستن، أو حسام أو ساولو، فبالنسبة لهم هم مجرد بشر مثلهم وأصدقاء مقربون. وتستطيع العولمة أن تساعدنا -مثلما ساعدت أبنائي وبعض أقرانهم من خلال السفر ووسائل الإعلام والاتصال - على أن ننظر إلى بعضنا البعض على أننا قبل كل شيء مجرد بشر.

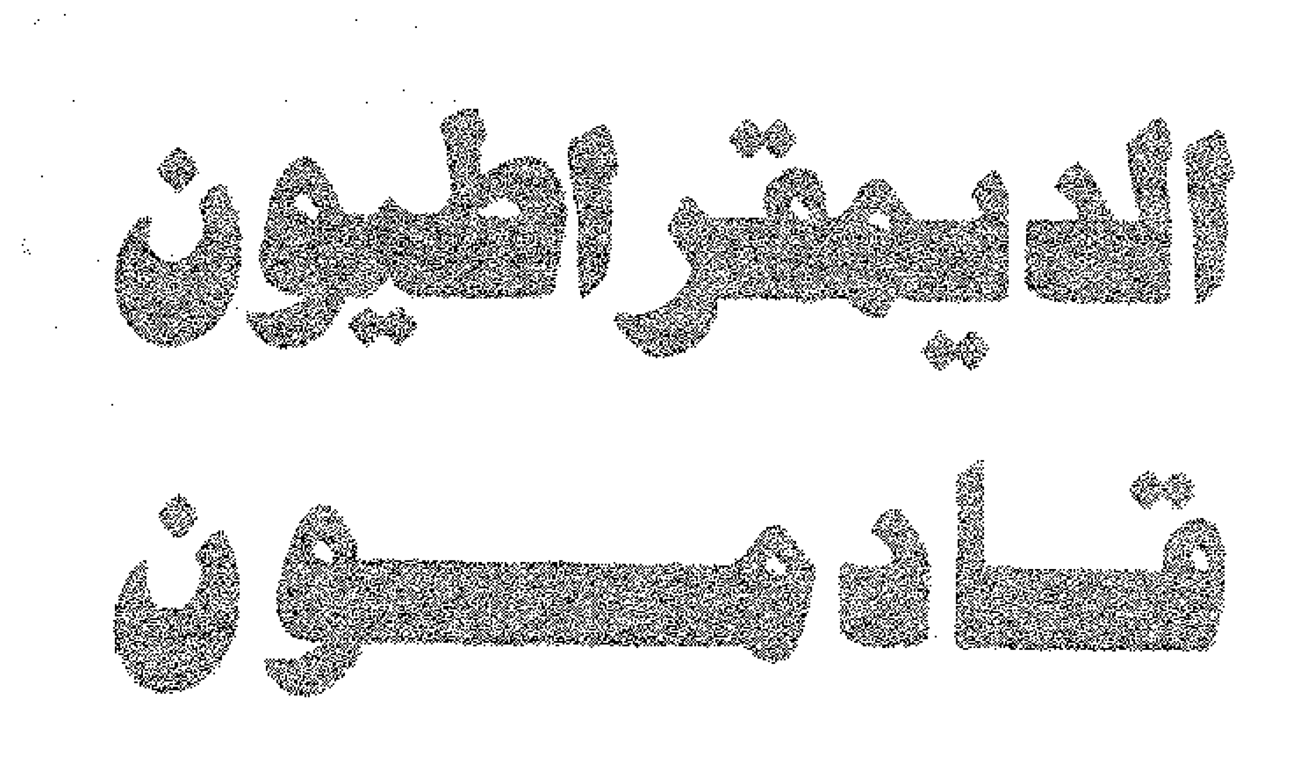


في النهاية دعونا نتخيل عالما مختلفا. فلنتخيل ماذا يمكن أن يحدث لو أنفقت دول العالم على التنمية مثل ما تنفقه على السلاح.

ولنتخيل عالما يعيش فيه كل إنسان في حرية وكرامة. ولنتخيل عالما نذرف فيه نفس الدموع عندما يموت طفل في دارفور أو فانكوفر. ولنتخيل عالما نحل فيه خلافاتنا من خلال الدبلوماسية والحوار وليس من خلال القنابل والطلقات. ولنتخيل أن ما تبقى من الأسلحة النووية هي مجرد ما نعرضه في متاحفنا. ولنتخيل العالم الذي يمكن أن نتركه لأبنائنا وأحفادنا.

دعونا نتخيل أن مثل هذا العالم هو في واقع الأمر في متناول أيدينا. ■





منار الشوربجى

■ وصفت انتخابات الكونجرس الأخيرة بالزلزال السياسى، حيث أطاحت بالحزب الجمهورى من مقاعد الأغلبية فى المجلسين ومثلت استفتاء على أداء بوش وحزبه داخليا وخارجيا على السواء.

وقد لاقت نتائج تلك الانتخابات ترحيبا عربيا أشبه بذلك الذى ساد العالم العربى حين تولى بوش الرئاسة أول مرة عام ٢٠٠٠. ففى ذلك العام، بنى العرب تفاؤلهم على مجموعة من الاعتبارات التى تم القفز منها إلى تقديرات مغالية فى التعميم والتبسيط. كان أول هذه الاعتبارات أن الرئيس الجديد - وقتها - هو أحد أبناء الرئيس بوش الأب، المعروف بصداقاته العربية خاصة فى دول الخليج، ثم إن بوش الابن كان حاكما لولاية تكساس البترولية، فضلا عن أنه،على أية حال، ينتمى للحزب الجمهورى الذى طالما اعتبره العرب أفضل فى التعامل مع القضايا العربية من الحزب الديمقراطى.

أما فى ٢٠٠٦ فربما ارتبط التفاؤل العربى بكراهية إدارة بوش أكثر من ارتباطه بالديمقراطيين أنفسهم، إذ لم يتخلص العرب بعد من مقولة أن «الجمهوريين أفضل من الديمقراطيين»، حتى بعد سنوات حكم بوش الابن، التى تم اعتبارها مجرد استثناء من قاعدة!

ويطرح ذلك كله عددا من الأسئلة المهمة. فما هى - أولا - حدود «الزلزال» الذى ضرب واشنطن وآفاق التغيير الذى يحمله عموما؟ وثانيا: هل فعلا الجمهوريون أفضل من الديمقراطيين بالنسبة للقضايا العربية؟ وما هو المتوقع بالنسبة لتلك القضايا فى ظل وضع جديد يحتل فيه الجمهوريون البيت الأبيض بينما يسيطر فيه الديمقراطيون على المؤسسة التشريعية الأمريكية.

الزلزال الأمريكى

إذا كان من رسالة مؤكدة بعث بها الناخب الأمريكى عبر صناديق الاقتراع، فقد كان عنوانها الرئيسى أنه يرغب فى وضع قيد على إدارة بوش. ورغم أن العراق كان قد تصدر أولويات الناخب عند التصويت، فإنه كان قضية داخلية بامتياز لا قضية خارجية، فكارثة العراق تجسد كل العلل التى ضاق بها ذرعا ذلك الناخب الأمريكى، بدءا من انعدام الرقابة التشريعية وغياب المساءلة والمحاسبة ومرورا بالفساد السياسى ووصولا إلى تزييف الوعى العام عبر تطويع المعلومات من ناحية وحجبها عن الجمهور من ناحية أخرى، وهى علل برز أحدها أو بعضها فى قضايا أخرى عديدة ولكنها تجمعت كلها فى موضوع العراق الذى هو أصلا عنوان للتكلفة البشرية والمادية الباهظة التى تتكبدها الولايات المتحدة يوميا فى حرب ثبت زيف كل مبررات شنها.

بعبارة أخرى، صحيح أن انتخابات الكونجرس عبرت عن موجة من الغضب الشعبى ضد الجمهوريين فى الكونجرس والرئاسة معا، إلا أنها لا تعنى بالضرورة تأييدا للديمقراطيين. فقد فاز الديمقراطيون لا لأنهم قدموا بدائل أفضل أيدها الناخبون وإنما لأنهم ببساطة أهون الشرين وفرصة الناخب الوحيدة لوضع قيد على إدارة بوش الباقية فى الحكم حتى يناير ٢٠٠٩، فى ظل نظام سياسى فيه حزبان كبيران. فتولى الديمقراطيون الأغلبية فى الكونجرس معناه أن تصبح الصلاحيات الهائلة المنوطة بالمؤسسة التشريعية الأمريكية فى يد معارضى بوش بدءا من الاعتمادات ومرورا بالتشريع ووصولا إلى الرقابة التشريعية.

وقد وصلت الرسالة بالفعل إلى كل من الإدارة والكونجرس، فسارع بوش بإقالة رامسفيلد الذى كان رمزا ليس فقط لكارثة العراق وإنما أيضا لمنهج الغطرسة والأحادية والإصرار على تجاهل الواقع. فقد خلق رامسفيلد لنفسه خصومات فى الكونجرس والمؤسسة العسكرية بل فى الإعلام الأمريكى بسبب غطرسته وإصراره على اتخاذ قرارات منفردة فضلا عن رفضه الاعتراف بالأخطاء التى ارتكبها وكبدت بلاده ثمنا باهظا. وهى كلها فى الواقع خصائص اتسم بها أداء رموز إدارة بوش عموما لا فقط رامسفيلد. فقد حكم بوش الولايات المتحدة عبر سنوات ست تجاهل فيها تماما الديمقراطيين فى الكونجرس وكان يسعى لتمرير تشريعاته عبر أصوات الجمهوريين وحدهم، كما رفضت إدارته غير مرة إطلاع المؤسسة التشريعية على المعلومات التى تطلبها بموجب صلاحياتها الدستورية، حتى أن الكثير من أعضاء الكونجرس بمن فيهم الزعماء الجمهوريون كانوا يعرفون بعض القرارات المهمة من وسائل الإعلام، هذا ناهيك عن استراتيجية التخوين التى اتبعتها إدارة بوش مع كل خصومها السياسيين وأمعنت فى استخدامها حتى اللحظات الأخيرة قبل إعلان نتائج الانتخابات التشريعية.

كما وصلت رسالة الناخبين بالقطع إلى الديمقراطيين أيضا الذين فازوا لتوهم بمقاعد الأغلبية. ومن ثم، فإذا كان من زلزال بالفعل تشهده واشنطن فهو ذلك المتعلق بعودة الحياة لدور المؤسسة التشريعية الأمريكية. إذ من شأن تولى الديمقراطيين الأغلبية أن يعاد بعض الاعتبار للرقابة التشريعية بعد أن تلاشت فى السنوات الأخيرة. فالكونجرس كان منذ أحداث سبتمبر قد تخلى عن صلاحياته الدستورية ووقع شيكا على بياض لإدارة بوش فى السياستين الخارجية والداخلية على السواء. والمسئولية عن انهيار الرقابة التشريعية لا تقع على عاتق الجمهوريين وحدهم، إذ شارك فيها الديمقراطيون- باستثناءات محدودة. فقد خضع أغلب الأعضاء الديمقراطيين لمطالب إدارة بوش ذعرا من تحدى رئيس كان يحظى بشعبية مذهلة، أو بفعل حملة التخوين والاغتيال السياسى التى أدارها الجمهوريون بدعوى حماية الأمن القومى، بينما خضع بعضهم الآخر لأسباب انتخابية قصيرة الأجل. وقد وضع ذلك الديمقراطيين فى مأزق حقيقى وقلل إلى حد كبير من قدرتهم على طرح بدائل يمكن أن يلتف حولها الناخبون.

ومع ذلك، فإن بعض الرموز التى رفضت الانصياع لبوش سوف تتولى رئاسة لجان مهمة فى المجلسين وهو ما يمكن معه توقع أن تشهد قاعات الكونجرس جلسات استماع مكثفة وتحقيقات مطولة واستدعاء لرموز بارزة فى الإدارة للشهادة أمام الكونجرس الأمر الذى قد يسفر عن انكشاف الكثير من الأمور التى حرصت إدارة بوش على حجبها عن الرأى العام. وهى العملية التى قد تطال شخصيات بارزة فى الإدارة وتنفجر فى وجه الجمهوريين بل والديمقراطيين أيضا الذين ليس من مصلحتهم سياسيا السعى لعزل بوش.

فرغم أن عددا من رموز الحزب الديمقراطى بمن فى ذلك جون كونيرز الذى سوف يتولى رئاسة لجنة القضاء فى مجلس النواب يدعون إلى عزل بوش، فإن الأغلبية داخل الحزب الديمقراطى تسعى إلى تجنب ذلك المسار لأنه يشكل مخاطرة غير محسوبة قد تؤثر على فرص الحزب الديمقراطى مستقبلا. فالديمقراطيون قد استوعبوا جيدا الدرس الذى تلقاه الجمهوريون حين سعوا إلى عزل كلينتون فظل الأخير يحتفظ بشعبية معقولة حتى اللحظات الأخيرة فى حكمه بينما منيت القيادات

كارثة العراق تجسد كل العلل التى ضاق بها الناخب الأمريكى، بدءا من انعدام الرقابة التشريعية وغياب المساءلة والمحاسبة ومرورا بالفساد السياسى ووصولا إلى تزييف الوعى العام عبر تطويع المعلومات من ناحية وحجبها عن الجمهور من ناحية أخرى



الجمهورية التى سعت لعزله بهزائم متكررة أطاحت بها الواحدة تلو الأخرى.

والديمقراطيون سوف يحكمون خلال العامين القادمين وعينهم على انتخابات ٢٠٠٨ الرئاسية والتشريعية ومن ثم فإن قراراتهم سوف تقوم على حسابات المكسب والخسارة الانتخابية. خاصة أنهم فازوا فى ٢٠٠٦ ليس فقط من خلال التعبئة فى أوساط قاعدة الحزب أى اليسار، وإنما كانت أصوات المستقلين هى التى حسمت النتيجة فى الواقع لصالحهم. ومن ثم صار على الحزب أن يعقد توازنا دقيقا بين رغبة اليسار فى التحول الراديكالى ومطالب المستقلين الذين يطالبون بإنجازات عملية ملموسة فى شكل تشريعات وقرارات محددة. ومما يجعل ذلك التوازن أكثر تعقيدا أن المناصب القيادية، خصوصا فى مجلس النواب، سوف تذهب إعمالا لمبدأ الأقدمية إلى رموز تمثل اليسار الديمقراطى، بينما ازداد عدد الأعضاء الجدد الذين يمثلون وسط ويمين الحزب.

هل الجمهوريون أفضل من الديمقراطيين؟

من المعروف لدى الباحثين عند تحليل ظاهرة سياسية أنه لا يجوز جمع المعلومات بشأنها عبر فترة تاريخية بعينها ثم إطلاق أحكام يتم تعميمها على كل المراحل التاريخية. ولا يجوز أيضا اقتطاع وقائع أو حقائق بعينها من السياق العام ثم القفز منها إلى التعميم. لكن هذا فى الواقع هو ما يفعله العرب المصرون على مقولة أن «الجمهوريين أفضل للمصالح العربية من الديمقراطيين». فالحزب الجمهورى الحالى ليس هو حزب أيزنهاور الذى وقف ضد العدوان الثلاثى على مصر، ولا هو حتى حزب بوش الأب الذى عارض ضمانات القروض لإسرائيل فى ١٩٩١. ثم إن الحزب الجمهورى هو أيضا حزب ريجان الذى وصفه الإسرائيليون وقتها بأنه أفضل رئيس أمريكى على الإطلاق بالنسبة لإسرائيل منذ إنشائها.

أما الحزب الديمقراطى، فصحيح أن اليهود الأمريكيين يعطون أصواتهم بنسبة ٨٠٪ لمرشحيه، إلا أنه صحيح أيضا أنه ضم تاريخيا القوى الأكثر مناصرة للقضية الفلسطينية. فمن الطبيعى أن ينتمى أغلب اليهود الأمريكيين للحزب الديمقراطى، فهو حزب الأقليات عموما، ولكنه أيضا الحزب الذى انضوى تحت لوائه- أو ظلت على تخومه- ألوان شتى من قوى اليسار التى هى أكثر التيارات الأمريكية مناصرة للحقوق الفلسطينية. والأصوات المحدودة التى تجرؤ اليوم على مناصرة الفلسطينيين تأتى كلها فى الواقع من الحزب الديمقراطى أو من على يساره.

ولا يقل أهمية عن ذلك أن أنصار إسرائيل الجدد داخل الحزب الجمهورى لا يقلون صهيونية عن أنصارها فى الحزب الديمقراطى.

فنظرا للطبيعة الخاصة للأحزاب السياسية الأمريكية، فإن تقدير مواقف أى منها إنما يعتمد فى جزء مهم منه على فهم التركيبة السياسية لها. ولأن تلك التركيبة تتعرض للتطور التاريخى، فإنه لا يجوز الحكم على أى من تلك الأحزاب دون أخذ ذلك التطور التاريخى فى الحسبان.

ويخطئ من يتصور أنه بالإمكان فهم التجربة الحزبية الأمريكية قياسا على تجارب الأحزاب الأوروبية. فالأحزاب الأمريكية ذات طبيعة خاصة فرضها النظام السياسى بل وطبيعة النظام الانتخابى المعمول به فى الولايات المتحدة.

فالحزب فى الولايات المتحدة هو بالأساس عبارة عن كيان مصمم خصيصا بغرض الفوز فى الانتخابات العامة، دون أن يعنى ذلك أن لهذا الحزب أجندة سياسية ثابتة وواضحة المعالم تعبر بالضرورة عن كل رموزه ويفوز بموجبها الحزب بأصوات الناخبين. وهو فى ذلك يختلف عن الأحزاب الأوروبية التى تقدم أيديولوجية واضحة أو توجهات متماسكة، ثم تفوز على أساسها فى الانتخابات وتطبقها كسياسة عامة فيما بعد.

ويرتبط بذلك ارتباطا وثيقا أن الحزب فى الولايات المتحدة ليست له منظومة واحدة من المصالح «القومية» التى يدافع عنها ويسعى لتحقيقها، إذ أن فروع الحزب فى الولايات تحدد أولويات مختلفة على أساس المصالح المحلية وحسابات المكسب والخسارة فى الولاية. ومن ثم، فمن الطبيعى أن تجد اثنين، من مرشحى نفس الحزب، بينهما اختلافات شاسعة فى الرؤى والأفكار لأنهما ينتميان إلى ولايتين، لكل منهما أولويات ومطالب وتركيبة سكانية مختلفة عن الأخرى. ومن الطبيعى أيضا، أن تجد عضوا فى الكونجرس يصوت بانتظام ضد مشروعات الرئيس الذى ينتمى لنفس حزبه، لأسباب تتعلق أساسا بمصالح دائرته الانتخابية وأولوياتها.

لكن الأهم من ذلك كله هو أن الحزب فى أمريكا عبارة عن ائتلاف واسع يتسم بالسيولة، ويضم فى داخله قوى وجماعات وتيارات عدة. هذه القوى والجماعات والتيارات لا تتفق بالضرورة على مواقف موحدة إزاء كل القضايا العامة، إذ توجد بينها تباينات كثيرة تتسع فى بعض الأحيان لتضم طرفى النقيض. ورغم أن أيا من الحزبين لا يعبر بالضرورة عن «كل» مواقف أى من هذه القوى، إلا أن كلا منها تجد مصلحة فى الانضواء تحت لواء أحدهما دون الآخر. فهى تفضل الانتماء بشكل أو بآخر للحزبين الكبيرين، لأنهما وحدهما- دون باقى الأحزاب على الساحة- اللذان لهما فرصة حقيقية فى الفوز بالمناصب السياسية المختلفة.



بعبارة أخرى، فإن الحزب الأمريكى بمثابة مظلة واسعة تضم تحتها تيارات وقوى وجماعات لها مواقف متباينة بل ومتعارضة فى بعض الأحيان، ولا يمكن فى الواقع تصنيفها وفق معيار واحد. فعلى سبيل المثال، قد يتمثل ائتلاف أحد الحزبين فى صغار المزارعين والعمال، وولايات الغرب، فضلا عن الأمريكيين السود والكاثوليك إضافة إلى اليسار. فكما يتضح من التركيبة السابقة، فإن هذا الائتلاف لا يقوم على أساس عرقى أو دينى أو جغرافى أو طبقى فقط، وإنما على توليفة من هذه الاعتبارات جميعا.

وفضلا عن ذلك، فإن هذه الائتلافات ليست ثابتة. إذ قد تخرج إحدى هذه القوى من ائتلاف أحد الحزبين فى لحظة تاريخية معينة، لتنضم لائتلاف الحزب المنافس.

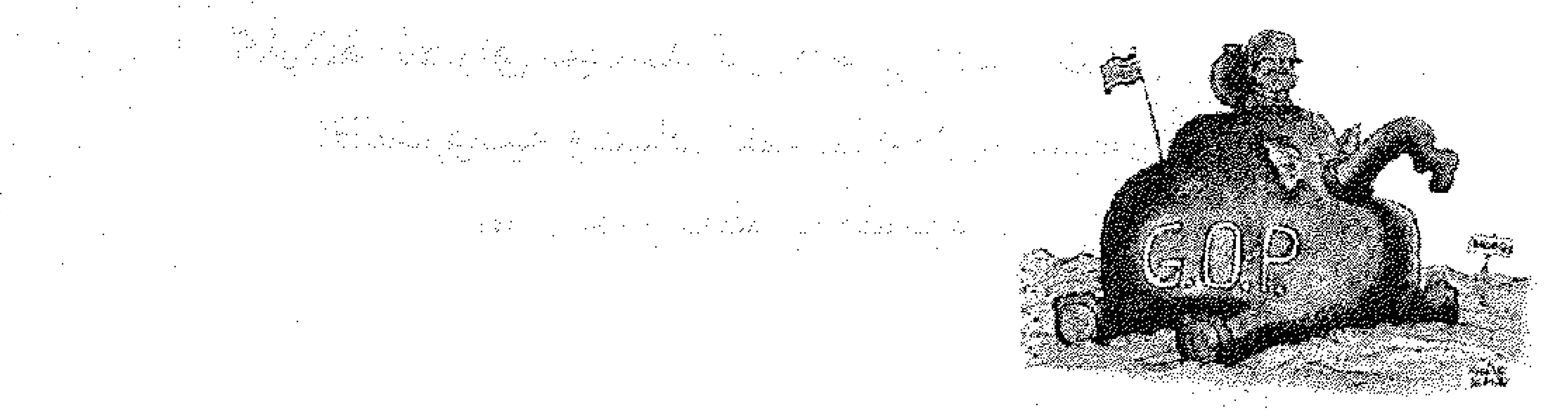
وقد تغيرت ائتلافات الحزبين الجمهورى والديمقراطى فى العقود الأخيرة على نحو قلص الفارق بينهما بشأن القضايا العربية وجعلهما يتسابقان فى مناصرة إسرائيل. وكانت الإرهاصات الأولى لذلك التحول فى ائتلافات الحزبين قد ظهرت ملامحها فى الستينيات وما مثلته من غليان وتحولات كبرى فى المجتمع الأمريكى ولكنها لم تكتمل إلا فى مطلع الثمانينيات من القرن العشرين بانتخاب ريجان عام ١٩٨٠ وصارت تلك الائتلافات الجديدة هى الحاكمة للعمل السياسى الأمريكى منذ ذلك التاريخ.

كانت الولايات المتحدة تموج بأحداث كبرى منذ بداية الستينيات، على رأسها حركة الحقوق المدنية، والتوسع فى برامج دولة الرفاهية، فضلا عن حرب فيتنام، التى كانت فى جوهرها تتعلق بطبيعة العلاقة مع الاتحاد السوفيتى. وإلى جانب كل ذلك كانت هناك الحركات الاجتماعية المختلفة والتى قدمت فى الواقع منظومة قيمية جديدة فيما يعرف بالثقافة المضادة counter culture. ورغم أن هذا التحول فى ائتلافات الحزبين قد ضم قوى وتيارات متعددة إلا أن مايهمنا هنا هو تلك القوى التى غير انضمامها للحزب الجمهورى وجه هذا الحزب بالنسبة لقضايانا.

فمن أهم القوى التى اجتذبها الجمهوريون، بناء على رفض القيم الاجتماعية الجديدة كانت الأصوليين البروتستانت، والذين كانوا يمثلون وقتها حوالى ١/٧ من أصوات الأمريكيين البيض. وكانت بداية قطيعة هؤلاء مع الحزب الديمقراطى قد حدثت فى عهد كارتر. فرغم أنهم ناصروه فى انتخابات ١٩٧٦، إلا أنهم تذمروا من سياساته بشدة، خصوصا حين رفض كارتر الموافقة على إعفاء الأكاديميات الدينية التى تمارس الفصل العنصرى من الضرائب. وحين زاد الديمقراطيون على ذلك بتأييدهم لحق الإجهاض، انفصل اليمين الدينى نهائيا عن الحزب الديمقراطى، وصاروا من أهم القوى ذات النفوذ فى الحزب الجمهورى. وكانت البداية فى عام ١٩٨٠ حين فاز ريجان بينهم بواقع ٦٣٪، ثم فاز بحوالى ٨٠٪ من أصواتهم فى انتخابات ١٩٨٤. وقد صار هذا التيار اليوم هو القاعدة الأساسية للحزب الجمهورى الذى لا يمكنه الفوز فى الانتخابات دونه.

إلا أن ريجان استطاع أيضا أن يجتذب لحزبه، الصقور الديمقراطيين الذين تشككوا فى قدرة كارتر على مواجهة الشيوعية. وقد كان هذا الفريق من الديمقراطيين هو النواة التى كانت معروفة منذ الستينيات باسم المحافظين الجدد، وهم كانوا ليبراليين، صوتوا للحزب الديمقراطى حتى انتخاب كارتر، ولكنهم انقلبوا على الليبرالية الأمريكية لأسباب متعددة كان على رأسها ما وصفوه بعجز الليبرالية عن إدراك حجم الخطر الشيوعى والذى اعتبروه تهديدا لوجود أمريكا ذاته، ومن ثم ينبغى القضاء عليه وإلا قضى على الولايات المتحدة. هذا فضلا عن رفضهم للتوسع فى برامج دولة الرفاهية والحقوق المتساوية للأقليات.

يتضح إذن أن اليهود لا يزالون فى غالبيتهم ضمن



الديمقراطيون قادمون

ائتلاف الحزب الديمقراطى لأنه من ناحية يظل حتى اليوم حزب الأقليات عموما، ومن ناحية أخرى، فإن الجماعة اليهودية الأمريكية تعتبر من الجماعات الليبرالية خصوصا فيما يتعلق بالحريات المدنية والقضايا الاجتماعية.

لكن فى مقابل ذلك، فإن ائتلاف الحزب الجمهورى يضم ليس فقط المحافظين الجدد وإنما يضم أيضا اليمين المسيحى وهو من أكثر التيارات الأمريكية على الإطلاق تأييدا لإسرائيل بناء على تفسير محدد للنبوءة التوراتية المتعلقة بعودة السيد المسيح. إذ يؤمن فريق من هؤلاء (وليس كلهم) إيمانا حرفيا بعودة السيد المسيح ليحكم العالم لألف عام. ووفقا لمعتقداتهم، فسوف يحكم أعداء المسيح العالم أولا، ثم يعود اليهود إلى فلسطين ويعتنق بعضهم المسيحية. بعد ذلك يتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق، ثم يعود السيد المسيح ويكون جيشا قويا وتقع معركة «أرمجدون» التى سوف يهزم فيها المسيح قوى الشر. وبتحقيق الانتصار، يبدأ حكم المسيح فى القدس لمدة ألف عام.

والمسألة بالنسبة لهؤلاء لا تتوقف عند مجرد الاعتقاد بتلك العودة. فهذا الاعتقاد هو بمثابة الأساس لقراءة الأحداث العالمية. فالكتاب المقدس عندهم لا يعرض فقط لتاريخ البشرية وإنما يقدم خريطة لأحداث المستقبل، وبالتالى الدور الذى ينبغى للمؤمنين أن يلعبوه من أجل أن تتحقق تلك النبوءة ويتم إنقاذ البشرية.

ومن هذا المنطلق، يؤيد هؤلاء إسرائيل تأييدا مطلقا. فرغم أن الكثيرين من رموز هذا التيار متهمون بالعداء للسامية، إلا أن أحدا لم يشكك فى تأييدهم لإسرائيل. فتجمع اليهود فى الأرض المقدسة، أحد شروط تحقق النبوءة كلها. ثم إن المفاوضات مع الفلسطينيين- عندهم- بلا جدوى. فهى مناهضة للنبوءة، لأن إسرائيل ستظل على أية حال فى عداء مستمر مع «أعداء المسيح»، وسيتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق.

أما المحافظون الجدد فهم الذين هيمن فكرهم على سياسة بوش الخارجية، وهم المسئولون - كما هو معروف - عن كارثة العراق. فهم أصحاب الفكرة منذ عام ١٩٩٢ وهم أيضا فى أغلبهم من اليهود الصهاينة الذين يناصرون سياسات اليمين الإسرائيلى تحديدا. ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة إلى فيتنام والعلاقة مع السوفييت، والقضايا الداخلية التى سبق ذكرها، فقد كان أحد أسباب انقلاب المحافظين الجدد على الحزب الديمقراطى هو المواقف التى اتخذها بعض المنتمين له إزاء القضية الفلسطينية فى الستينيات وبداية السبعينيات.

فقد كانت حرب ١٩٦٧ مصدر فخر للصهاينة من اليهود الأمريكيين الذين رأوا فيها انتصارا مهما للدولة اليهودية. لكن الحرب نفسها كانت تعنى شيئا آخر لقوى أخرى انتمت هى أيضا للحزب الديمقراطى. فبالنسبة لليهود من غير الصهاينة، خصوصا فى أوساط اليسار الجديد، فقد رأوا فيها أحد تجليات الإمبريالية الغربية والتى اعتبروا إسرائيل إحدى أدواتها. أما السود، وهم أيضا إحدى القوى الفاعلة فى ائتلاف الحزب الديمقراطى، الذين تعاطفوا مع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث عموما، فإنهم لم يستثنوا من ذلك فلسطين وكان لبعض قياداتهم تصريحات واضحة فى عدائها لإسرائيل التى اعتبروها دولة غير قانونية «ولا تملك» حقوقا على تلك الأرض.

وقد شن المحافظون الجدد فى ذلك الوقت حملة ضارية على كل هؤلاء روجوا فيها لفكرة رئيسية مؤداها أن تصوير إسرائيل باعتبارها المعتدى إنما ينبع من أسطورة صنعها اليسار الجديد، قسمت العالم إلى «دول امبريالية وشعوب بريئة فى العالم الثالث». وقالوا إن أية ثورة تقوم على إرادة الشعوب لا تعنى بالضرورة أنها تستحق التأييد، وقد أثار قلق المحافظين الجدد بروز رموز يهودية مهمة داخل اليسار الجديد مثل نعوم تشومسكى وهاورد دين وغيرهما، فوجهوا لهم اتهامات شرسة واعتبروهم دليلا على الخطر الذى يمثله اليسار الجديد على الجماعة اليهودية نفسها إذ أنه يمثل تهديدا من داخلها فضلا عن التهديد الآتى من خارجها والمتمثل فى العداء للسامية، وهى الاتهام الذى وجهوه لقيادات السود التى انتقدت إسرائيل.



غير أن القول بأن الحزب الجمهورى ليس أفضل من الحزب الديمقراطى بالنسبة للقضايا العربية لا يعنى أيضا أن العكس هو الصحيح. فقد صرنا اليوم فى وضع سياسى صارت فيه قيادات الحزبين تتسابق فى خطب ود اسرائيل وإعلان مناصرتها.

فالتحول فى ائتلافات الحزبين ليس وحده المسئول عن الانحياز الصارخ لإسرائيل فى الكونجرس بين الديمقراطيين والجمهوريين اليوم، إذ لا يقل أهمية فى هذا المقام ذلك الجهد المنظم والمستمر الذى قامت به عبر عقود طويلة المنظمات والقوى المناصرة لإسرائيل وهى اليهود الأمريكيون (وتحديدا منظمة إيباك AIPAC كونها المعنية بالمؤسسة التشريعية) فضلا عن عدد من منظمات اليمين المسيحى والمحافظين الجدد، وهم الذين أسفرت جهودهم جميعا عن الحالة التى تشهدها الولايات المتحدة اليوم.

أما إيباك فهى اللوبى الرسمى المشهر من أجل مناصرة إسرائيل فى الولايات المتحدة. وإيباك هى اختصار لاسم المنظمة بالإنجليزية وهو لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية.
American Israeli Public Affairs Committee

وقد أنشئت إيباك من أجل التركيز على المؤسسة التشريعية الأمريكية لا التنفيذية التى وقعت فى اختصاص منظمات صهيونية أخرى.

وقد برعت إيباك فى أداء الدور المنوط بها حتى صارت من أعتى جماعات اللوبى التى تدافع عن مصالح دولة أجنبية، حتى أنها صارت مثلا يحتذى قلدها اللوبى اليابانى واليونانى والكوبى. وقد استخدمت إيباك كل الأدوات، المنصوص عليها فى القوانين، والتى تستخدمها جماعات المصالح الأمريكية عموما، بدءا بالتعبئة للتصويت فى الانتخابات العامة ومرورا بتمويل الحملات الانتخابية ووصولا إلى الضغط على صناع القرار، فضلا عن العمل على المستوى القاعدى، وبرعت فيها جميعا.

وقد كان هدف إيباك منذ البداية هو جعل التأييد غير المشروط لأية حكومة إسرائيلية أمرا مقبولا بل وعاديا فى الولايات المتحدة الأمريكية وخصوصا فى المؤسسة التشريعية الأمريكية. وهو ما سعت إليه إيباك عبر استراتيجية مركبة سارت فى أكثر من اتجاه، أولها الكونجرس نفسه وثانيها محيطه السياسى والفكرى.

فكانت الخطوة الأولى هى تقديم الدعم والمساندة بالمال والأصوات للديمقراطيين والجمهوريين على السواء الذين يؤيدون إسرائيل أو الذين ليس لهم موقف معلن إزاءها بهدف تشكيل موقفهم.

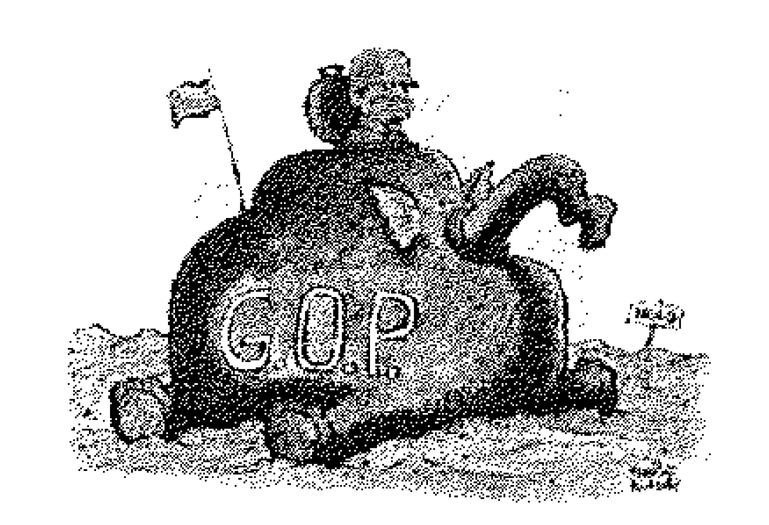
وقد ساعد على نجاح إيباك فى مهمتها غياب أية قوة ذات وزن، ومنافسة لها تقدم فكرا مناهضا، فضلا عن أن الهامش الضئيل بين المتنافسين فى الحملات الانتخابية للمناصب المختلفة ظل يتضاءل باستمرار الأمر الذى يعظم من قدرة جماعات المصالح عموما على التأثير على النتيجة عبر ما تغدقه من أموال أو ما تعبئه من أصوات يوم الاقتراع العام.

وقد أدى العمل الدءوب الذى قامت به إيباك عبر عقود إلى أن خلقت المنظمة لنفسها سمعة صارت فى حد ذاتها جزءا لا يتجزأ من قوتها ونفوذها. إذ صار معروفا بين أعضاء الكونجرس أن إيباك قادرة على الإطاحة بمن يقف ضد مطالبها. وقد قامت إيباك بالفعل فى الثمانينيات بالإطاحة باثنين من أعضاء الكونجرس لجرأتهم على الوقوف فى وجهها وهما بول فيندلى وتشارلز بيرسى. ولأن الناخب العادى لا يهتم أصلا بالقضايا الخارجية عموما بل لا يعرف عنها شيئا فى كثير من الأحيان، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليه لإنقاذ الأعضاء المناهضين لإسرائيل، فقد صار تأييد إسرائيل أمرا بلا تكلفة سياسية،



الحزب الجمهورى الحالى ليس حزب بوش الأب الذى عارض ضمانات القروض لإسرائيل فى ١٩٩١. بل أقرب إلى حزب ريجان الذى وصفه الإسرائيليون وقتها بأنه أفضل رئيس أمريكى بالنسبة لإسرائيل منذ إنشائها





الديمقراطيون قادمون

إن لم يكن مربحا، بينما الوقوف ضدها بمثابة انتحار سياسى يتجنبه من يرغب فى مستقبل فى السياسة.

أما الخطوة الثانية فكانت الهيمنة على الكونجرس من خلال تطعيم الجهاز الفنى وبالذات فى اللجان المهمة والمواقع القيادية بالموالين. فلأن عضو الكونجرس عادة ما لا يملك الوقت الكافى للإطلاع على كل ما يعرض على المجلس، ولا حتى الإلمام بكل القضايا التى تثار، ولما كان أغلبية الأعضاء لا يعرفون أصلا الكثير عن السياسة الخارجية، فإن عضو الكونجرس يوكل الكثير من المهام لمساعديه سواء فى مكتبه الخاص أو فى اللجان التى ينتمى لها. وهؤلاء المساعدون هم الذين يكتبون مشروعات القوانين، ويعدون المعلومات الواجب على العضو قراءتها قبل الحديث للصحافة أو حضور الجلسات، ويرتبون لجلسات الاستماع ويختارون الشهود (كل ذلك بموافقة العضو المعنى طبعا، والتى تكون تحصيل حاصل فى كثير من الأحيان). وقد نجحت استراتيجية إيباك، والتى تم تنفيذها عبر عقود متتالية، نجاحا مبهرا، إذ صار عدد كبير من العاملين فى الجهاز الفنى المساعد للأعضاء الديمقراطيين والجمهوريين على السواء على صلة وثيقة بإيباك على نحو أو آخر.

ومن ثم لم يكن مستغربا أن تتم دعوة نتنياهو للشهادة أمام جلسات الاستماع التى كانت تناقش ما إذا كان على الولايات المتحدة أن تغزو العراق فى ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ وتخلو قائمة الشهود من أية شخصية عربية مناهضة لاحتلال العراق!

وقد استكملت إيباك هذه الاستراتيجية بالاهتمام بتشكيل الرأى العام فى أوساط النخبة السياسية والفكرية المحيطة بالكونجرس لصالح إسرائيل. ولذلك أنشأت معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، Washington Institute for Near East Studies كمركز من مراكز الفكر فى واشنطن ليهتم بقضايا الشرق الأوسط. وهو الذى أنشئ ليكون فى الواقع الذراع البحثى لإيباك وكان الغرض وقتها وضع حد لنفوذ مؤسسة بروكنجز التى اعتبرتها إيباك فى ذلك الوقت «ليست متوازنة» بشأن الشرق الأوسط.

وقد ضم معهد واشنطن على مدار عمره عددا من الأيديولوجيين من عتاة الفكر الصهيونى الذين أسهموا بشكل واضح فى إعادة تشكيل رأى النخبة الأمريكية على نحو يجعلها أكثر قربا لأفكار اليمين الإسرائيلى تحديدا، إذ صار من المقبول تماما التخلى عن فكرة الأرض مقابل السلام وابتلاع إسرائيل لمزيد من الأرض والسكوت على انتهاكاتها المستمرة لحقوق الإنسان بل وتبريرها بزعم الدفاع عن النفس.

لذلك كله، لم يكن غريبا أن ينعقد المؤتمر السنوى لإيباك هذا العام فيحضره أغلبية أعضاء مجلس الشيوخ وربع أعضاء مجلس النواب فضلا عن عشرات من رموز الإدارة.

ولم يكن مستغربا أيضا أن تثور عاصفة فى الكونجرس بعد إدانة نورى المالكى للهمجية الإسرائيلية فى لبنان ويرفض الأعضاء الديمقراطيون قبل الجمهوريين استقباله، بينما يصف هاورد دين ما قاله المالكى عن إسرائيل بأنه «معاد للسامية».

ولعل حالة هاورد دين من الحالات بالغة الدلالة فى هذا الإطار. ففى حملته لمنصب الرئاسة عام ٢٠٠٤ كان هاورد دين قد طالب فى تصريح له بأن تلعب الولايات المتحدة دور «الوسيط المحايد» فى الشرق الأوسط، الأمر الذى أثار حوله عاصفة إدانة وحملة تشهير استغلها خصومه وأسهمت فى تقليص فرصه. ومنذ ذلك التاريخ، لم يسمع عن هوارد دين أنه نطق بكلمة واحدة قد تبدو على أى نحو وكأنها تنتقد إسرائيل.

وهكذا صار الكونجرس قلعة محصنة تهيمن فيها أفكار أنصار إسرائيل بشكل واضح لافارق فى ذلك بين جمهورى وديمقراطى.

ولكن تظل هناك استثناءات وهذه الاستثناءات تأتى إما من الأعضاء السود أو من الأعضاء الليبراليين الذين يقعون على يسار الحزب الديمقراطى. فعلى سبيل المثال استهدفت إيباك اثنين من الأعضاء السود فى عام ٢٠٠٢ هما سينثيا ماكينى وايرل هيليارد وأطاحت بهما من مقعديهما بعد حملة انتخابية شرسة وقفت فيها ايباك وراء منافسيهما حتى فازا بالمقعدين، وذلك عقابا لكل من ماكينى وهيليارد على مناصرتهما للفلسطينيين. وهى حملة لم تخل من اتهامهما بمناصرة الإرهاب والعداء للسامية.

غير أنه من المهم القول أن ما تقوم به إيباك لا يعبر بالضرورة عن الجماعة اليهودية الأمريكية، إذ صارت إيباك على يمين الناخب اليهودى نفسه، فعلى سبيل المثال كانت أغلبية اليهود الأمريكيين ضد غزو العراق بنسبة أعلى من تلك التى رفض بها الأمريكيون من جماعات أخرى ذلك الغزو، هذا فى الوقت الذى لعبت فيه إيباك دورا بالغ الأهمية فى الترويج لذلك الغزو.

إلا أن أيباك لا تتورع عن التشهير باليهود الأمريكيين الذين تعلو أصواتهم ضد مواقفها والاتهام جاهز فهو «اليهودى الكاره لنفسه» Self-hating Jew وهو اتهام معروف فى الخطاب الصهيونى، الأمر الذى يفسر حالة الصمت فى أوساط الجماعة اليهودية إزاء أداء إيباك رغم وجود بعض التذمر. وإن كانت قد بدأت أصوات بعض اليهود تعلو مؤخرا بل وتطرح نفسها بديلا لإيباك.

خلاصة القول أن الرأى العام فى أوساط النخبة الأمريكية صار محصورا فى إطار واحد ضيق هو التأييد المطلق وغير المشروط لإسرائيل. والاتهامات جاهزة لردع المخالفين، بدءا من العداء للسامية وحتى دعم الإرهاب. فقد تلقت عضو الكونجرس بتى ماكولم التى صوتت ضد مشروع قانون يخفض المساعدات الاقتصادية للسلطة الفلسطينية رسائل تتهمها بتأييد الإرهابيين.

ولا يقل دور اليمين المسيحى شراسة عن الدور الذى تلعبه إيباك فقد كان اليمين المسيحى هو المسئول عن تمرير قانون نقل السفارة الأمريكية للقدس وسلسلة أخرى من القوانين منها قانون الاضطهاد الدينى فضلا عن التشريعات المختلفة بشأن السودان. وقد عقدت منظمات اليمين المسيحى المناصرة لإسرائيل مؤتمرا هذا العام حضره أكثر من ٣ آلاف شخص تحت عنوان ذى دلالة هو «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل».

ولا يدخر المحافظون الجدد بكل مراكز الفكر والإعلام الموالية لهم الجهد فى مهاجمة وتشويه كل من يتعرض بالانتقاد لإسرائيل أو يطلق كلاما مغايرا عن المطلوب بشأن الحقوق العربية.

ما الذى يمكن توقعه؟

رغم أن الحزب الديمقراطى صار هو حزب الأغلبية فى الكونجرس بموجب انتخابات ٢٠٠٦ إلا أن الكثير سوف يتوقف على قدرة الحزب على الخروج من كبوته التى صنعها لنفسه منذ أحداث سبتمبر ولا يزال يدفع ثمنها حتى الآن.

فباستثناء أصوات قليلة من الحزب الديمقراطى من أمثال روبرت بيرد وباتريك ليهى وتيد كيندى، انهارت تماما المعارضة المؤسسية. فمنذ أحداث سبتمبر، أصاب الديمقراطيين فى الكونجرس الذعر بسبب الارتفاع المذهل لشعبية الرئيس، وآثروا السلامة على تحدى رئيس يحظى بتلك الشعبية، فانحنوا بالكامل لرغباته ووافقوا على أغلب التشريعات الخلافية التى دفع بها للكونجرس فى مجال السياسة الداخلية والخارجية على السواء. ماتت المعارضة المؤسسية فخرج المعارضون للشوارع.



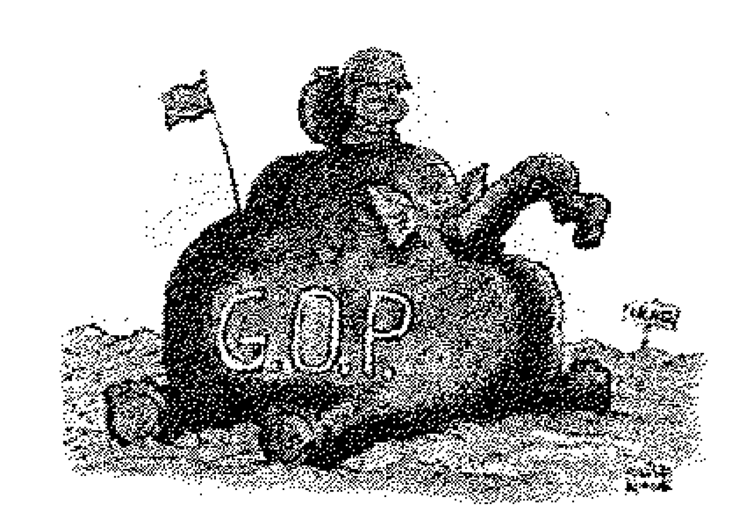
ثم جاءت حرب العراق لتضع المسمار الأخير فى نعش المعارضة التشريعية. إذ جاء انصياع المعارضة الديمقراطية وموافقتها على قرار الحرب لأسباب انتخابية قصيرة الأجل وهو الموقف الذى لا يزال الحزب الديمقراطى يدفع ثمنه حتى الآن.

كانت إدارة بوش قد تعمدت طلب موافقة الكونجرس على استخدام القوة العسكرية فى العراق قبل أسابيع قليلة من الانتخابات التشريعية فى ٢٠٠٢، رغم أنها كانت قد



التحول فى ائتلافات الحزبين ليس وحده المسئول عن الانحياز الصارخ لإسرائيل فى الكونجرس اليوم، إذ لا يقل أهمية فى هذا المقام ذلك الجهد المنظم والمستمر للمنظمات والقوى المناصرة لإسرائيل





الديمقراطيون قادمون

عقدت العزم على غزو العراق منذ انتهاء الحملة العسكرية على أفغانستان.

فالدفع بالطلب إلى الكونجرس قبل الانتخابات بأسابيع يجعل هذه القضية تتصدر اهتمامات الإعلام والخطاب العام، الأمر الذى يصرف الانتباه عن فضائح إنرون التى انفجرت قبل الانتخابات، فضلا عن غيرها من القضايا الداخلية، وعلى رأسها أحوال الاقتصاد التى كانت متردية وقتها وتفتح فرصة مناسبة للديمقراطيين. وطرح قضية تتعلق بعمل عسكرى ضد دولة اتهمت بأنها تمثل خطرا على أمن الولايات المتحدة، كان يستدعى الحالة التى سرت عقب هجمات سبتمبر، ومن ثم يسمح بردع المعارضين لقرار غزو العراق لئلا يتهموا بالتهاون إزاء الخطر الخارجى والتساهل إزاء الأمن القومى، مما يؤدى لإحراجهم ودفعهم دفعا للتصويت لصالح القرار.

وكان الحزب الديمقراطى ينوى إدارة المعركة حول قضايا الداخل ومن ثم حين ألقت إدارة بوش بقضية العراق فى المعترك السياسى، تغيرت قواعد اللعبة، وصار على الديمقراطيين التعامل مع الموقف الجديد. فما كان منهم إلا أن تبنوا استراتيجية جديدة ثبت أنها كلفتهم كثيرا.

فقد انطلق الديمقراطيون من مقدمة صحيحة ولكن بنوا عليها استراتيجية انتهازية كلفتهم كثيرا. كانت المقدمة الصحيحة أنه لا ينبغى لهم - إذا كان الهدف هو الفوز - السماح لبوش باستثمار الحالة التى عمت البلاد بعد أحداث سبتمبر لتحقيق انتصار لحزبه مستخدما شعبيته - خصوصا بشأن الحرب على الإرهاب. أما الاستراتيجية البائسة، فكانت قرارا بعدم مواجهته بشأن الأمن القومى، والسعى إلى صرف الانتباه بسرعة إلى قضايا الداخل.

بعبارة أخرى، سعى الديمقراطيون إلى تحييد قضية الأمن القومى لا عبر اتخاذ مواقف بشأنها، وإنما عبر التنازل عنها بالكامل لبوش، عبر إعطائه ما أراد بشأن العراق، ثم تغيير الموضوع بسرعة لتحتل قضايا الداخل الأولوية فى الانتخابات.

ويظل المهم الإشارة إلى أن الحزب الديمقراطى فى الكونجرس كان منقسما على نفسه بشأن قرار حرب العراق. فرغم الاتفاق على أن الاستراتيجية الأمثل هى منح بوش القرار الذى أراده بشأن العراق، إلا أن بعضهم، خصوصا فى مجلس الشيوخ، كان يسعى إلى استصدار قرار يضع قيودا تحد من صلاحيات الرئيس، وذلك عبر إجباره على الحصول على موافقة الأمم المتحدة وتشكيل تحالف دولى، أو العودة مرة أخرى للكونجرس فى حالة فشله فى ذلك. هذا بينما كان هناك آخرون فى مجلس النواب، خصوصا الأعضاء السود، معارضين تماما لذلك القرار. إلا أن العامل الحاسم كان فى الواقع مواقف قيادات الحزب ودورهم فى اتخاذ القرار.

وهكذا مر قرار غزو العراق فى المجلسين بسرعة غير مسبوقة، لم تتعد الأيام العشرة. أى دخلت الولايات المتحدة حربا جديدة استغرقت مناقشة أسبابها ودوافعها وآفاقها وكل ما يتعلق بها أياما قليلة لم تتعد الأسبوعين! وهى سرعة مذهلة، خصوصا بالنسبة للمؤسسة التشريعية الأمريكية المعروفة ببطء أدائها عموما.

وبمجرد أن تمت الموافقة على قرار غزو العراق، عاد الديمقراطيون إلى دوائرهم سعيا لاستكمال باقى الخطة. فقد كان الهدف من الموافقة على القرار هو العودة بأسرع ما يمكن للقضايا الداخلية وجعلها محور الحملة الانتخابية. ولكنهم فشلوا فشلا ذريعا إذ لم يجد الناخب أى فارق بينهم وبين الجمهوريين فهزموا هزيمة مدوية.

خرج الحزب الديمقراطى إذن من معركة ٢٠٠٢ الانتخابية أكثر ضعفا مما دخلها. وهو ما تكرر فى انتخابات ٢٠٠٤ الرئاسية والتشريعية معا. ذلك لأن الأسباب التى أدت إلى هزيمة الديمقراطيين فى ٢٠٠٢ ظلت شبحا يلاحق حملات مرشحى الحزب فى ٢٠٠٤.

وظل مرشح الحزب للرئاسة جون كيرى يعانى طوال حملته فى ٢٠٠٤ من أزمة حزبه، ويدفع ثمن مواقف اتخذها بنفسه كعضو فى مجلس الشيوخ، حيث حرمته تلك المواقف من أن يبنى حملة قوية تتحدى بوش. فهو، من خلال عضويته فى مجلس الشيوخ، وافق على قانون باتريوت، الذى يقوض الحريات المدنية ثم الخفض الضريبى الذى استفاد منه الأغنياء، وعلى إنشاء وزارة الأمن الداخلى، وعلى قرار غزو العراق ثم على تمويل الاحتلال، الأمر الذى حرمه من تمييز نفسه عن بوش وتقديم برنامج متكامل.

بعبارة أخرى، فإن المشكلة الرئيسية فى حملة ٢٠٠٤ لم تكن أبدا أن المرشح الديمقراطى يواجه خصما يتمتع بشعبية يستحيل معها هزيمته، إذ ظلت المشكلة فى الواقع هى ضعف المرشح الديمقراطى، لا قوة بوش.



الديمقراطيون إذن عانوا طوال السنوات الخمس الماضية من مأزق صنعوه لأنفسهم بأنفسهم. إلا أن الأوضاع السياسية فتحت لهم الباب على مصراعيه فى ٢٠٠٦. ولم يكن موضوع العراق وحده المسئول عن تردى شعبية الجمهوريين فقد فشل الحزب الجمهورى فى العامين الأخيرين فى تمرير أى من مشروعات القوانين التى تتعلق بقضايا داخلية مهمة، وجاء إعصار كاترينا ليكشف عن حالة مذهلة من انعدام الكفاءة والعجز عن مواجهة كارثة طبيعية، فى بلد ظل زعماؤه طوال أعوام خمسة يستخدمون «مواجهة الكوارث الأمنية» كمبرر لكل سياساتهم، هذا فضلا عن الفضائح المالية والأخلاقية التى تورط فيها عدد من أعضاء الكونجرس وطالت بعض رموز الإدارة.

ومن هنا صارت لدى الديمقراطيين الفرصة للفوز بالأغلبية فى الكونجرس لا لأنهم الأفضل ولكن لأنهم الحزب الذى قد يفرض قيدا على بوش.

وكان المسكوت عنه فى حملة ٢٠٠٦ أكثر دلالة بكثير مما تمت مناقشته. فالحزب الديمقراطى المعروف تقليديا بأنه المدافع عن الحريات والحقوق المدنية لم يتطرق مرشحوه لما تعرضت له الحريات المدنية فى عهد بوش من قصف منتظم وذلك ببساطة لأن حزبهم كان شريكا فى تمرير قانون باتريوت وغيره من القوانين المقيدة للحريات.

وبسبب ضلوعهم فى الموافقة على قرار غزو العراق ثم الموافقة على الاعتمادات التى طلبها بوش منذ ذلك التاريخ، عجز الديمقراطيون عن تقديم بدائل واضحة بشأن الكارثة العراقية خاصة بعد أن صارت الأوضاع العراقية بمثابة فخ تحمل كل بدائل الخروج منه تكلفة باهظة للولايات المتحدة. وكان ما قاله الديمقراطيون أثناء الحملة الانتخابية بالغ العمومية لا يتعدى الدعوة إلى تغيير السياسة الأمريكية فى العراق دون تحديد لطبيعة ذلك التغيير، فضلا عن انتقادات واسعة لإدارة بوش بشان استراتيجيتها فى العراق. فلم يكن بمقدور من وافقوا على قرار الغزو أن يزعموا فساد الفكرة أصلا.

والطريف أن القلة من الديمقراطيين الذين اعترفوا بأنهم أخطأوا حين وافقوا على قرار الغزو أرجعوا ذلك الخطأ إلى تزييف إدارة بوش للمعلومات التى عرضتها على الكونجرس. أى لم يقل أى منهم أن فكرة تغيير النظم بالقوة فى حد ذاتها فكرة فاسدة ولم يوجه أى منهم أى انتقاد لمسألة إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط.

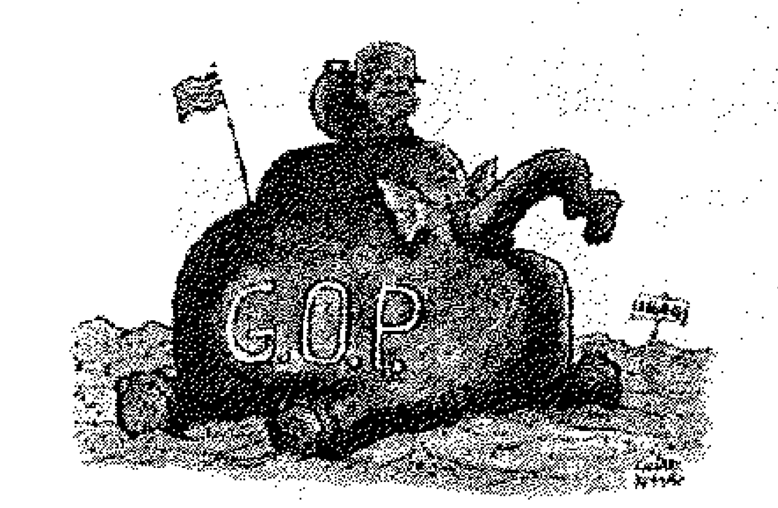
بعبارة أخرى، فإن هذا المأزق الذى خلقه الديمقراطيون لأنفسهم سوف يمثل فى حد ذاته سقفا مقيدا لما يمكن ان يطرحوه من بدائل.

وفى واقع الأمر، فإن الديمقراطيين منقسمون على أنفسهم بشأن التعامل مع موضوع العراق فهناك فريق يدعو إلى الانسحاب الفورى من العراق، ولايمانع البعض فى هذا الفريق من تقسيم العراق إذا ماكان ذلك هو ثمن الانسحاب بشكل يحفظ لأمريكا ماء وجهها. وفريق آخر يدعو إلى انسحاب مرحلى وفق جدول



صارت لدى الديمقراطيين الفرصة للفوز بالأغلبية فى الكونجرس لا لأنهم الأفضل ولكن لأنهم الحزب الذى قد يفرض قيدا على بوش





الديمقراطيون قادمون

زمنى بدءا من مطلع عام ٢٠٠٧ دون وضوح للرؤية بشأن حجم القوات المنسحبة فى كل مرحلة ولا حدود ذلك الجدول الزمنى. وفى داخل ذلك الفريق هناك من يدعو إلى إعادة نشر القوات الأمريكية فى منطقة الخليج ومناطق بعينها داخل العراق.

لكن هناك درجة من الإجماع داخل الحزب الديمقراطى بل وبين بعض الجمهوريين حول ضرورة إحداث تحول كيفى فى دور القوات الأمريكية فى العراق، يحد من قيامها بالعمليات العسكرية ويقصره على التدريب والاستشارات العسكرية، مع الدفع نحو دور أكبر لجيران العراق من خلال عقد مؤتمر دولى تتم فيه مناقشة الأدوار المطلوبة من الفاعلين الإقليميين.

لكن الديمقراطيين عموما أقل ثقة بكثير من الجمهوريين فى حكومة نورى المالكى حتى أن بعضهم يدعو إلى تشجيع الجيش العراقى على الانقلاب عليها، بينما يدعو بعضهم الآخر إلى ممارسة ضغوط قوية على تلك الحكومة وإلزامها بجداول زمنية ونزع سلاح الميليشيات واستخدام التهديد بانسحاب القوات الأمريكية كسلاح فى وجهها.

ولكل ذلك، يعول الديمقراطيون كثيرا على ماسوف تطرحه لجنة بيكر-هاملتون التى أنشأها الكونجرس فى ٢٠٠٥ وينتظر أن تقدم توصياتها بنهاية هذا العام بشأن العراق. فاللجنة بالنسبة للديمقراطيين بمثابة غطاء سياسى هم فى أمس الحاجة إليه لتبنى بدائل لايمكنهم تبنيها دون ذلك الغطاء بسبب المواقف التى اتخذها حزبهم فى السابق.

أما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ينبغى الإشارة إلى أن مواقف الكونجرس كانت طوال الفترة الماضية لا تقل انحيازا لإسرائيل عن الإدارة ولا يختلف فى ذلك الديمقراطيون والجمهوريون.

بل إن الديمقراطيين الذين سوف يتولون عددا من اللجان المهمة خصوصا فى مجلس النواب أكثر انحيازا لإسرائيل فى الواقع من نظرائهم الجمهوريين. فتوم لانتوس الديمقراطى معروفة مواقفه من القضايا العربية وهو الذى سيتولى رئاسة العلاقات الخارجية.

لكن رئاسة اللجان المهمة فى مجلس الشيوخ ستكون من نصيب أعضاء اكثر اعتدالا من نظرائهم فى مجلس النواب، وإن كان من غير المتوقع أن يتمكنوا من إحداث تغيير كبير خصوصا فى جو عام صار معه الوقوف فى وجه مطالب اليمين الإسرائيلى بالغ الصعوبة.

أما فيما يتعلق بإيران وسوريا، فالديمقراطيون ليسوا أفضل حالا من الجمهوريين فمنذ صدور قانون فرض العقوبات على إيران فى ١٩٩٦ الذى كانت ولا تزال إيباك هى الفاعل الرئيسى وراءه، اتخذ الكثير من الديمقراطيين مواقف لا تقل تشددا عن مواقف الجمهوريين بل إن بعضهم لا يمانع فى توجيه ضربة جوية خاطفة للمنشآت النووية الإيرانية، وكان الديمقراطيون أيضا قد أيدوا قانون محاسبة سوريا الذى صدر فى ٢٠٠٣ بل وافقوا بأغلبية ساحقة على مشروع قرار غير ملزم أثناء الحرب اللبنانية الأخيرة يدافع عن «حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها».

ومن الجدير بالذكر أن هذا القرار قد مر بعد أن أصر بعض الأعضاء من الحزبين على حذف عبارة كانت تدعو «كل الأطراف» إلى تجنب الإضرار بالمدنيين والبنية التحتية المدنية. والقرار المذكور لم تكن وراءه إيباك بل كانت هى التى كتبت صيغته أصلا وسلمته للأعضاء الذين تبنوه وقاموا بتمريره.



وفى واقع الأمر فإن أعضاء الكونجرس كانوا فى مقدمة المنادين بالإطاحة بالنظام السورى واشترك معهم فى ذلك عدد من رموز المحافظين الجدد فى الإدارة، بينما عارض ذلك العسكريون فى وزارة الدفاع وكوادر الدبلوماسيين فى وزارة الخارجية، أى الذين لم يأتوا إلى مواقعهم عبر تعيينات سياسية من قبل بوش.

وقد سعت رموز المحافظين الجدد إلى البحث عن جماعة سورية فى المنفى تقوم بالدور نفسه الذى لعبه أحمد الجلبى فى العراق. وبالفعل، عقدت اجتماعات عدة مع رموز حزب الإصلاح، وهو ائتلاف واسع من قوى المعارضة السورية فى الخارج، بزعامة فريد الغادرى، وقد التقى هؤلاء بمساعدى تشينى بالبيت الأبيض، ودوجلاس فايث وفريقه فى وزارة الدفاع، فضلا عن اليزابيث تشينى والفريق العامل معها فى وزارة الخارجية.

وقد لقى هذا الفريق داخل الإدارة معارضة قوية بالذات من داخل وزارة الخارجية التى وجدت فى العمل مع مجموعة الغادرى تكرارا مريرا لفشل تجربة الجلبى، التى كانوا ضدها أصلا منذ ١٩٩٥. غير أن الأمر حسم بعد الانتخابات المصرية والفلسطينية لصالح إرجاء تلك المحاولات مؤقتا خوفا من أن تؤدى الإطاحة بالنظام السورى إلى وصول الإخوان المسلمين للحكم فى سوريا. وصار هدف إدارة بوش منذ ذلك الوقت هو إضعاف نظام الأسد وتهميشه وإبعاده عن إيران ولكن دون القضاء عليه.

أما إيران فهناك حملة محمومة من جانب المحافظين الجدد لتوجيه ضربة جوية مدمرة لها، وهى حملة تدور على قدم وساق ويعود تاريخها إلى ما بعد غزو العراق مباشرة ويغذيها بقوة أنصار إسرائيل فى واشنطن حتى من غير المنتمين للمحافظين الجدد، بعد أن كانوا هم أصحاب تلك الحملة منذ منتصف التسعينيات وحتى تولى بوش الرئاسة فى ٢٠٠١.

وفى هذا السياق، جاء العدوان الإسرائيلى على لبنان ليجد دعما كاملا من جانب إدارة بوش وصل إلى حد رفض وقف إطلاق النار حتى تنتهى إسرائيل من عملياتها العسكرية.

فمن ناحية، كان القضاء على حزب الله شرطا ضروريا لابد أن يسبق اية ضربة أمريكية جوية لإيران لئلا تستخدم صواريخ حزب الله فى أى رد فعل انتقامى.

ومن ناحية أخرى كانت الضربة الأمريكية المزمعة على إيران تشبه إلى حد كبير فى شكلها ومضمونها ما سعت إسرائيل إلى عمله. فقد استخدمت إسرائيل فى لبنان استراتيجية الصدمة والرعب نفسها التى استخدمتها أمريكا فى العراق. ومن ثم فإن ضرب البنى التحتية المدنية فى لبنان كان هدفا فى ذاته، إذ كان المقصود بالصدمة والرعب فى حالة لبنان هو تأليب الفرقاء اللبنانيين على حزب الله لتحقيق هدف القضاء عليه، إن لم يكن بالقوة العسكرية فعبر الانقسامات اللبنانية.

ومن المتوقع أن توصى لجنة بيكر-هاملتون بإجراء محادثات مباشرة مع سوريا وإيران. وهو مالن يروق بالطبع للقوى التى ظلت منذ أكثر من عقد تدعو إلى سياسات مغايرة وتتصور أنها كانت قاب قوسين أو أدنى من تنفيذ مخططاتها لولا كارثة العراق. وبالتالى سوف تشهد واشنطن فى تلك الحالة معركة مفتوحة لكل الاحتمالات.

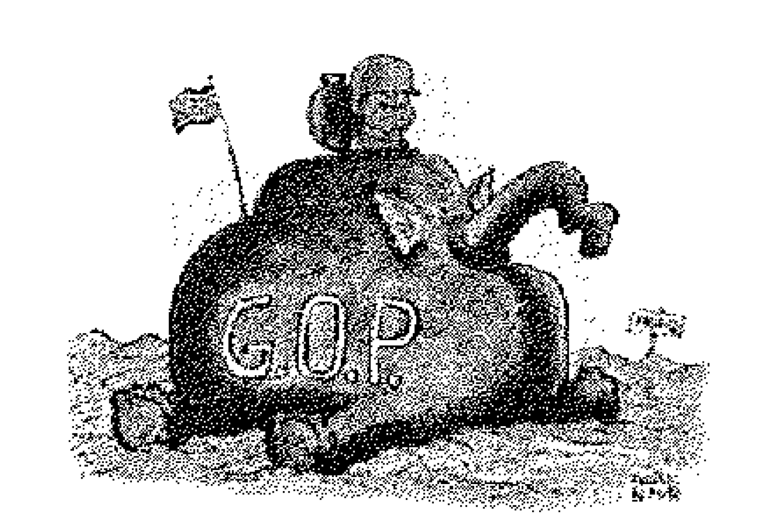
لكن الواضح حتى الآن أن تلك القوى استعدت بأفكار تحفظ لها الحد الأدنى مما تريد، والتى سوف تدفع بكل قوة لتحقيق إجماع حولها. ومن أهم هذه الأفكار هى فكرة المحاور أى تقسيم المنطقة إلى محاور تتحالف فيه الولايات المتحدة مع ما يسمى محور الاعتدال المكون من دول الخليج إلى جانب مصر والأردن، وذلك للضغط على «محور التطرف». وسوف يكون المطلوب من محور الاعتدال هو التدخل لإقناع سوريا بالابتعاد عن إيران والتخلى عن حزب الله، فضلا عن مساعدة الولايات المتحدة فى القضاء على حماس وحزب الله.

لكن المهم القول أن قدرة هؤلاء على تنفيذ أى من تلك المخططات سوف تتوقف ليس فقط على طبيعة المعركة التى ستدور رحاها فى واشنطن، وإنما تتوقف بدرجة أكبر على التفاعلات التى ستدور على الأرض فى عالمنا العربى وما إذا كانت الأطراف المختلفة سوف تمتلك الإرادة السياسية لإفشال تلك المخططات، أو على الأقل الاستعداد لمواجهتها وهو أضعف الإيمان. ■

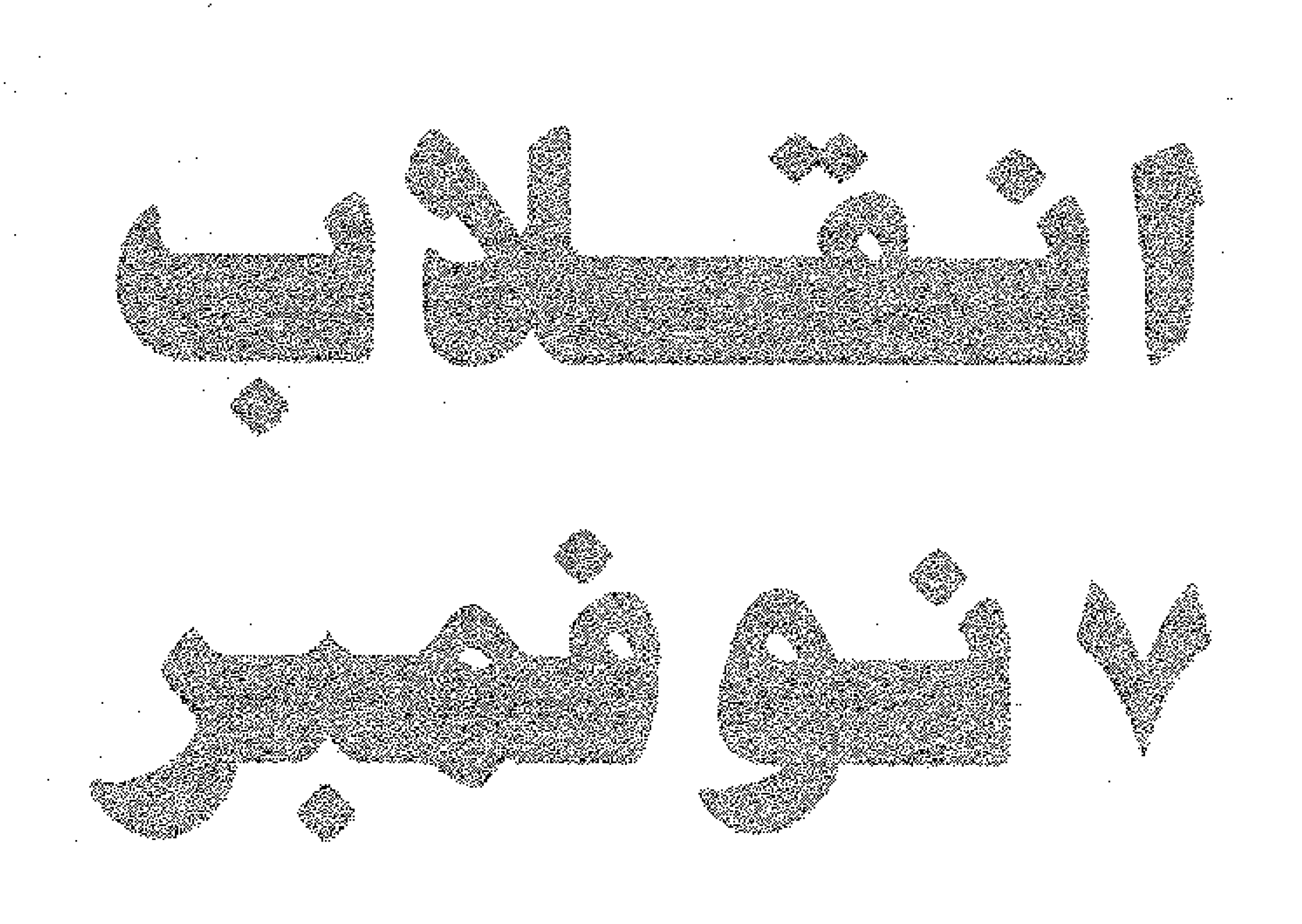


الديمقراطيون عموما أقل ثقة بكثير من الجمهوريين فى حكومة نورى المالكى حتى أن بعضهم يدعو إلى تشجيع الجيش العراقى على الانقلاب عليها





ضد الأيديولوجية.. ضد الإمبراطورية



انقلاب ٧ نوفمبر

عبد العظيم حمــــــاد

■ القراءة الأولية لنتائج انتخابات نصف المدة التى جرت يوم السابع من نوفمبر الماضى فى الولايات المتحدة تؤكد أنها كانت تصويتاً عقابياً لإدارة الرئيس الجمهورى الحالى جورج بوش الابن، بسبب أدائها المزرى فى العراق بعد الغزو، وقد أسفرت هذه الانتخابات كما هو معروف عن إحراز الحزب الديمقراطى المعارض للأغلبية فى الكونجرس بمجلسيه «النواب والشيوخ» لأول مرة منذ ١٢ عاماً.

لنقل إذن دون أية مبالغة أن ما جرى كان سحباً للثقة من إدارة بوش، ولكن تبقى هذه القراءة - رغم أنها صحيحة - مباشرة ومبسطة، لأنها لا تقول كل شىء، وربما أنها لا تقول أهم الأشياء، لذا يتطلب الفهم الدقيق والشامل لانقلاب ٧ نوفمبر ٢٠٠٦ فى الولايات المتحدة مستويات متعددة ومتوالية من النظر تحت السطح، نختار من هذه المستويات ثلاثة، ونعتقد أنها الأهم، لكننا سنركز بصفة خاصة وبعد استعراض سريع نبين للمستويين الأول والثانى على المستوى الثالث المتعلق بالسياسة الخارجية.

تركيز السلطة أم انتشارها؟!

المستوى الأول الذى يتعين النظر منه إلى نتائج انتخابات التجديد النصفى الأخيرة للكونجرس الأمريكى يتعلق بطبيعة النظام السياسى الأمريكى.

هذا النظام يعد فى رأى غالبية علماء نظم الحكم أنجح النظم السياسية تطبيقاً لمبدأ الفصل بين السلطات منذ أن اكتشف هذه الحقيقة.. القاضى الفرنسى توكفيل فى القرن ١٩، فهو نظام يحتوى على ديناميكية لا تتعطل طويلاً لضمان الرقابة والتوازن (CHECK AND BALANCE) بين جميع مكوناته، والترجمة العملية لهذا المبدأ هى أن نظام الحكم الأمريكى يقاوم ويلفظ بسرعة أية محاولة لتركيز القوة السياسية (أو السلطة) فى واحدة من السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية أو حتى فى جهة بعينها داخل إحدى هذه السلطات كالبنتاجون (وزارة الدفاع) داخل الفرع التنفيذى مثلاً، وكانت أخطر نتائج هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ الإرهابية على نيويورك وواشنطن، وما ترتب عليها من تجييش للرأى العام وراء سياسة الحرب خارج الحدود، والدفاع داخل الوطن ضد الإرهاب العالمى أن البيت الأبيض والفرع التنفيذى عموماً استوليا على كثير من اختصاصات الفرعين التشريعى والقضائى، وجرى هذا الاستيلاء بأشكال مختلفة منها ماهو تشريعى مثل قانون الوطنية، ومنها ما هو اغتصاب مثل برنامج التنصت على الهواتف، ومنها ماهو من قبيل الابتزاز والتخويف بل والتحايل مثل حمل الكونجرس على الموافقة على مبدأ غزو العراق استنادا على أدلة كان كثيرون يعلمون زيفها، ولم يجرؤ أحد وقتها على الوقوف ضد التيار، لاسيما أن حزب الرئيس أى الحزب الجمهورى كان يملك الأغلبية فى الكونجرس بمجلسيه واستخدمها البيت الأبيض بصورة أليمة فى ظل هوس ما بعد ١١ سبتمبر.

ولايزال معتقل جوانتانامو، والسجون الأمريكية السرية فى أنحاء متفرقة من العالم بمثابة شواهد حية على اغتصاب الفراغ التنفيذى لاختصاصات السلطة القضائية التى أهدرت بالفعل سلسلة من الأحكام ضد الإدارة لمصلحة معتقلى جوانتانامو على وجه الخصوص.

كما أسلفنا توا تمكنت الإدارة من تركيز السلطة فى أيديها بسبب التفاعل بين سيطرة الجمهوريين على الكونجرس سابقاً من ناحية وبين المزاج السياسى السائد فى البلاد والذى اتسم بتجييش الرأى العام وراء الحرب ضد الإرهاب فى الداخل وفى الخارج، وهو ما جعل فضائح التعذيب فى سجن أبو غريب العراقى تمر من دون عقاب حقيقى للمسئول الأول عنها (دونالد رامسفيلد وزير الدفاع المتعجرف وغيره من المسئولين الكبار) قراءة نتائج الانتخابات الأمريكية الأخيرة على مستوى تأثيرها فى النظام السياسى الأمريكى تشير إذن بوضوح إلى أنها أحيت ديناميكية مبدأ الرقابة والتوازن، وقضت على ظاهرة تركيز السلطة فى البيت الأبيض والفرع التنفيذى، بل وأطاحت بدونالد رامسفيلد وزير الدفاع المستقيل بصفته أحد أركان التحالف الضيق الذى احتكر لنفسه أكبر قسط من النفوذ داخل الفرع التنفيذى ذاته، أى تحالف رامسفيلد وديك تشينى نائب الرئيس والذى انضم إليه، وخرج منه فى أوقات مختلفة متنفذون آخرون من الإدارة أبرزهم كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية حالياً ومستشارة الأمن القومى فى الفترة الرئاسية الأولى لبوش فضلاً عن رؤساء وأعضاء هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة.

الأيديولوجية على حساب الداجماتية

أما المستوى الثانى فى النظر إلى نتائج انتخابات الكونجرس الأمريكى يوم السابع من نوفمبر الماضى فهو ذو طابع فلسفى إلى حد كبير، بمعنى أن هذه الانتخابات جرت على خلفية صراع فكرى بدأ منذ انتهاء الحرب الباردة، واحتدم مع هيمنة المحافظين الجدد على إدارة بوش الابن الأولى وقد دار هذا الصراع بين فريق الأيديولوجيين بقيادة المحافظين الجدد وأسلافهم المباشرين من أمثال فرنسيس فوكوياما منظر نهاية التاريخ وروبرت كابلان صاحب نبوءة الفوضى المقبلة وصمويل هانتينجتون المنذر بصراع الحضارات، وبين فريق البراجماتيين ورثة تقاليد الساحل الشمالى الشرقى التى وضعها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة، وهى تقاليد تحكم على الفعل الإنسانى - والسياسى فى القلب منه - بالنتائج العملية وليس قياساً على أية أحكام أيديولوجية مسبقة ولا جدال فى أن إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن واحدة من أكثر - إن لم تكن أكثر - الإدارات فى التاريخ الأمريكى تزمتاً فى إخضاع السياسة للأيديولوجية، وقد تفوقت الإدارة الحالية فى هذه الناحية على غيرها من الإدارات، إذ شمل تزمتها الأيديولوجى السياستين الداخلية والخارجية معاً وامتد إلى إقحام الدين فى عملية صنع القرار السياسى ومن قبل فى بناء التحالفات الانتخابية بطريقة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الأمريكى إلى حد أنها هددت مبدأ علمانية الدولة الأمريكية، مثلاً كان التزمت الأيديولوجى فى إدارة الرئيس الجمهورى فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى (هربرت هوفر) يتعلق بعدم تدخل الحكومة الاتحادية فى الحياة الاقتصادية لحماية الفئات الأضعف من الكساد الاقتصادى الكبير. وكان التزمت الأيديولوجى فى إدارة الرئيس الجمهورى فى الخمسينيات (دوايت ايزنهاور) يتركز فى أسلوب وزير خارجيته جون فوستر دالاس فى مواجهة الانتشار الشيوعى (من ليس معى فهو ضدى) وفى مناخ الإرهاب الفكرى الذى أشاعته لجنة النشاط المعادى أو ما يسمى فى التاريخ السياسى الأمريكى «بالمكارثية» لمكافحة الشيوعية فى الداخل، ولكن تزمت إدارة بوش الابن الأيديولوجى استغرق كل شىء تقريباً فى السياسة الأمريكية داخلياً وخارجياً ففى المقررات الدراسية تنحاز الإدارة إلى نظرية التصميم الذكى للخليقة ضد نظرية التطور، وفى البحث العلمى ترفض أبحاث الخلايا الجذعية وفى القضايا الاجتماعية تقف بصلابة ضد الإجهاض والمثلية الجنسية وترفض فصل الأجهزة الطبية عن الموتى سريرياً. وأما فى مجال الاقتصاد فقد غالت هذه الإدارة فى التزامها بمبدأ خفض الضرائب فى وقت تزايد فيه الإنفاق بسبب حرب العراق، إلى حد أنها قضت على الفائض فى الميزانية العامة الذى تركته إدارة الرئيس الديمقراطى السابق بيل كلينتون فى العام التالى لدخول بوش البيت الأبيض وأعادت إلى المالية العامة الأمريكية ظاهرة العجز الكبير المزمن فى الميزانية وفى السياسة

الفشل فى العراق يبدأ من ثبوت افتعال ذريعة الغزو، وتلفيق المعلومات، وتضليل الرأى العام والكونجرس، ولم يكن معارضو هذه الحرب داخل الولايات المتحدة نفسها بأقل من معارضيها فى الخارج إدراكاً أن قرار غزو العراق لا صلة حقيقية له بالحرب ضد الإرهاب



الخارجية - وكما سنرى توا - مارست هذه الإدارة أسوأ أشكال التزمت الأيديولوجى ووجد العالم نفسه لأول مرة منذ عصر التنوير قائداً لدولة عظمى - بله الدولة العظمى الوحيدة فى العالم - يتحدث عن قرارات أوحى بها الله إليه، وهو لم يقل ذلك فقط لجمهور متدين من الناخبين، بل قاله فى محادثات رسمية مع قادة آخرين مثلما حكى المستشار الألمانى السابق جيرهارد شرودر فى مذكراته الصادرة منذ بضعة أسابيع.

على هذا المستوى من النظر تقول قراءاتنا لنتائج الانتخابات الأمريكية فى السابع من نوفمبر الماضى إن الفوضى والاضطراب الناجمين عن التزمت الأيديولوجى للإدارة أعادا العقل الأمريكى مرة أخرى إلى الإيمان بفضائل البراجماتية اتساقاً مع تقاليد الآباء المؤسسين، واستيعاباً لخبرة التاريخ التى علمت الأمريكيين أن السياسة العملية (أو الفلسفة الذرائعية إن شئنا استخدام المصطلح المعتمد فى الترجمة العربية لكلمة البراجماتية) هى المنقذ فى الأزمات الكبرى كما حدث فى الحرب الأهلية، وفى الجدل حول مواجهة الكساد الكبير فى أوائل ثلاثينيات القرن الماضى ثم الجدل حول دخول الحرب العالمية الثانية من عدمه وفى الخروج من حرب فيتنام، ومثلما سيحدث فى الورطة الحالية فى العراق فى أرجح الاحتمالات.

الليبرالية ضد العزلة الإمبراطورية

كانت انتخابات التجديد النصفى للكونجرس بالمعنى المباشر استفتاء على مجمل السياسة الخارجية للإدارة الحالية فى سياق الاختيارات الأيديولوجية التى أملاها جناح المحافظين الجدد على حساب من يسمون بالمحافظين الواقعيين، أو البراجماتيين والليبراليين بالطبع، ويجدر بنا قبل تقصى دلالات النتائج الانتخابية فى ميدان السياسة الخارجية أن نسجل تحفظنا على المقولة الشائعة أو المسلم بها دون فحص حقيقى، والتى معناها أن السياسة الخارجية لا تلعب سوى دور محدود فى تشكيل اتجاهات الناخبين الأمريكيين، إذ لم تكن هذه المقولة صحيحة فى عدد كبير من المناسبات الانتخابية الحاسمة فى التاريخ الأمريكى منذ الحرب العالمية الثانية على الأقل، فقد بقى الرئيس فرانكلين روزفلت فى البيت الأبيض أربع فترات رئاسية كانت المرتان الأخيرتان فيهما على الأقل بسبب الحاجة إلى استمرار قيادته للبلاد فى الحرب العالمية الثانية حتى لقد عدل الدستور من أجل ذلك، ولهذا السبب ذاته، ولمواجهة ترتيبات عالم ما بعد الحرب انتخب نائبه هارى ترومان لخلافته، وحين اضطر الرئيس ليندون جونسون فى عام ١٩٦٨ إلى عدم ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية، فقد كان ذلك راجعاً إلى الفشل فى حرب فيتنام وكان تعهد خلفه «الجمهورى» ريتشارد نيكسون بإنهاء هذه الحرب هو السبب الرئيسى فى انتخابه بل إن انتخاب جونسون فى المرة الأولى كان راجعاً فى جزء كبير منه إلى انتصار سلفه الديمقراطى جون كينيدى فى أزمة الصواريخ الكوبية، أما الرئيس جيمى كارتر فقد أطاح به الناخبون عام ١٩٨٠ لفشله فى إنهاء أزمة رهائن السفارة الأمريكية، وفيما يتعلق بالرئيس الحالى جورج بوش الابن فقد كان حصوله على فترة الرئاسة الثانية عائداً بالدرجة الأولى للسياسة الخارجية، إذ كانت البلاد ولازالت منغمسة فى الحروب التى أعقبت هجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية وها نحن نرى السياسة الخارجية عاملاً حاسماً فى انتخابات التجديد النصفى الأخيرة للكونجرس، وربما كانت هذه أكثر الانتخابات النيابية الأمريكية تأثراً بالسياسة الخارجية بما أن كل الأمثلة السابقة تتعلق بالانتخابات الرئاسية.

لكن القراءة الأعمق لنتائج هذه الانتخابات فى ميدان السياسة الخارجية تتطلب - كما قلنا من قبل - عدم الاكتفاء باعتبارها عقاباً أو حكماً بالفشل على أداء إدارة الرئيس بوش الابن فى العراق، ومن ثم تتطلب النظر إلى ما يعنيه هذا الفشل فى السياق الشامل للسياسة الأمريكية الخارجية أصولاً ومنهجاً ونتائج على المدى الطويل نسبياً.

إن الفشل فى العراق يبدأ من ثبوت افتعال ذريعة الغزو، وتلفيق المعلومات، وتضليل الرأى العام والكونجرس، ولم يكن معارضو هذه الحرب داخل الولايات المتحدة نفسها بأقل من معارضيها فى الخارج إدراكاً أن قرار غزو العراق لا صلة حقيقية له بالحرب ضد الإرهاب، وإنما هو الحلقة الأهم أو البداية فى المشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد، وأن الحلقات سوف تترى إذا تحقق النجاح فى العراق، ويروى بوب ودوارد (صحفى ووترجيت) فى كتابه الأخير حالة إنكار أن الرئيس بوش عندما أراد أن يهون على الجنرال جاى جارنر قرار إقالته المفاجئ من منصب الحاكم العسكرى للعراق عرض عليه - وهو يربت على كتفه - أن يختار إما أن يحكم إيران أو أن يحكم كوبا لأن دور كل منهما آت قريباً، فكان أن اختار جارنر كوبا - ولو على سبيل الدعابة - لأن السيجار ومشروب الروم هناك لا يقاومان، كما أن النساء الكوبيات أجمل من نساء إيران..!! وبالطبع فإننا فى هذه المنطقة لم ننس بعد أن سوريا تلقت تهديداً صريحاً بتغيير النظام فيها بالقوة بعد أيام من سقوط بغداد، وكذلك تحدث كتاب المحافظين الجدد عن خطط للتغيير القسرى فى مصر والسعودية وعن خطط لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بالكامل مرة تحت اسم الشرق الأوسط الكبير، وأخرى الشرق الأوسط الموسع، وثالثة الشرق الأوسط الجديد.

إذن تأتى نتائج الانتخابات الأخيرة فى الولايات المتحدة كاشفة ومقررة فى ذات الوقت لسقوط المشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد، بل وإذا استخدمنا تعبيرات ريتشارد هاس أحد المحافظين الجدد التائبين فى مقاله المهم فى عدد نوفمبر / ديسمبر من مجلة فورين آفيرز فإن الحقبة الأمريكية فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى نهايتها وأن هذه النهاية كتبت فى بغداد، والمقصود هو أن الولايات المتحدة فقدت حريتها المطلقة فى العمل والإملاء فى هذه المنطقة من العالم وهى الحرية التى دامت طيلة العقدين التاليين لسقوط الاتحاد السوفيتى وعليه فسوف يتعين على الولايات المتحدة من الآن فصاعداً أن تعمل مع شركاء إقليميين ودوليين فى المنطقة.

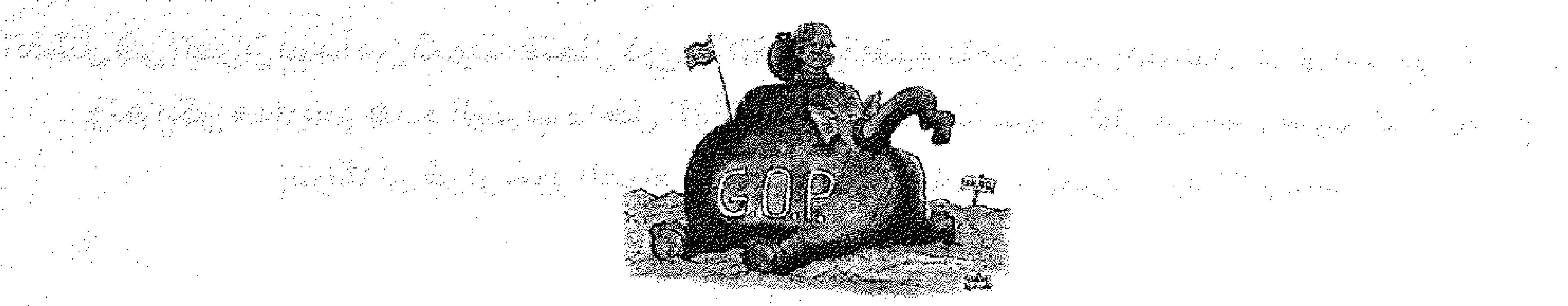
لكن الشرق الأوسط جزء من العالم، والمشروع الأمريكى الفاشل فيه كان جزءاً من مشروع أمريكى للعالم كله، يعكس رؤية المحافظين الجدد لمستقبل العلاقات الدولية والسياسة الخارجية الأمريكية عموماً.

هكذا ندخل فى صلب الجدل القديم المتجدد بين المدرستين أو التيارين الرئيسيين فى الولايات المتحدة فى ميدان السياسة الخارجية، المدرسة الأولى هى المدرسة المحافظة التى يمثلها دائماً الحزب الجمهورى والتى تعتز بتقاليد العزلة عن العالم الخارجى والثانية هى مدرسة الليبرالية الدولية التى يعبر عنها عادة الحزب الديمقراطى وهى تؤمن بأن العزلة غير ممكنة، وغير مفيدة، وأن المصالح الأمريكية يمكن أن تتحقق من خلال نظام دولى تقوده الولايات المتحدة، ويعتمد على مبدأ التفاوض والمشاركة، ولابد من الانتباه هنا إلى أن كل مدرسة منهما تحتوى على اتجاهات فرعية تتباين فيما بينهما فى درجة الالتزام بالخط الرئيسى، فمثلاً كانت هناك ليبرالية متطرفة بالمقاييس الأمريكية من أشهر رموزها ادلاى ستيفنسون المرشح الديمقراطى للرئاسة أمام الرئيس ايزنهاور والمندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة فى إدارة الرئيس جون كينيدى وهيوبرت همفرى نائب الرئيس جونسون، وكانت هناك ليبرالية محافظة كما فى حالة السيناتور الراحل هنرى جاكسون أو السيناتور جوزيف ليبرمان حالياً، فى حين وجدت محافظة متطرفة لدى مرشح انتخابات الرئاسة الجمهورى عام ١٩٦٤ ووزير خارجية ريجان الأول الكسندر هيج مثلاً، كما وجدت محافظة معتدلة أو واقعية فى حالة الرئيس ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنرى كيسنجر، أو الرئيس جورج بوش الأب وكل من وزير خارجية جيمس بيكر، ومستشاره للأمن القومى برنت سكوكروفت، أما المحافظون الجدد فهم أحدث ما أنتجه الفكر المحافظ فى مجال السياسة الخارجية وكانوا هم التعبير العصرى عن تقاليد العزلة فى السياسة الخارجية الأمريكية.. كيف؟



إن العزلة بمعناها التقليدى كانت تعنى عدم التورط أو التدخل فى المشكلات والصراعات الأوروبية وذلك عندما كانت الولايات المتحدة دولة ناشئة، وحتى بعد أن تطورت لتصبح قوة كبيرة بين قوى كبيرة أخرى، ولكن بعد أن أصبحت هى القوة العظمى الوحيدة فإن معنى العزلة ينبغى أن يتطور ليصبح الانفراد بإدارة شئون العالم الذى يراه المحافظون الجدد «عالماً هوبزيا» أى مليئاً بالشرور والفوضى طبقاً لنظرية الفيلسوف البريطانى توماس هوبز الذى عاش فى القرن السابع عشر على ألا تحد من الحرية الأمريكية فى الحركة قوانين أو تنظيمات دولية، واستثماراً للتفوق الأمريكى الكاسح فى الاقتصاد والتكنولوجيا والتسلح وأخيراً تطبيقاً لمقولة «أن ما هو فى مصلحة أمريكا لابد أن يكون فى مصلحة العالم». وكان ذلك هو المدخل للمشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد، والذى بدأ (وانتهى) بغزو العراق متذرعاً بهجمات الحادى عشر من سبتمبر على نيويورك وواشنطن كان ذلك المشروع فى السياق السابق شرحه يعد انقلاباً على منهج الليبرالية الدولية الذى ساد السياسة الخارجية الأمريكية فى معظم فتراتها منذ الحرب العالمية الثانية وهو منهج ينطلق من رؤية «كانطية» للعالم.. أى من رؤية الفيلسوف الألمانى عمانويل كانط الذى ارتأى العالم قابلاً لحكم العقل وبالتالى لحلول السلام فيه.

ويعود الظهور القوى الأول لهذا المنهج الليبرالى أو «الكانطى» إلى فترة حكم الرئيس (الديمقراطى) وودرو ويلسون فى أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن تقاليد العزلة بمعناها القديم كانت أقوى فحالت



بين ويلسون وبين متابعة سياسة خارجية ليبرالية تقوم على المشاركة التعاونية فى شئون العالم وفقاً لمبادئ قانونية تتعاقد عليها، وفى إطار تنظيمات فوق قومية أو دولية، فكان أن انسحبت الولايات المتحدة من شئون العالم ومنظماته بعيد اتفاقيات فرساى التى أنهت الحرب العالمية الأولى، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتكفل نصراً نهائياً حتى إشعار آخر لتيار الليبرالية الدولية فى السياسة الخارجية الأمريكية على يد الرئيس فرانكلين روزفلت، وكان الرجل تواقاً للانغماس فى شئون العالم كما كان يرى الفرص السانحة فى هذا الدور من ناحية المثل السياسية، ومن ناحية المصالح الواقعية، ولكن كان عليه أن يتدرج فى قيادة الرأى العام والكونجرس من موقف الابتعاد عن هذه الحرب الأوروبية إلى قيادة معسكر الحلفاء فيها، وعبر ملحمة طويلة بدأت بقانون الإعارة والتأجير أى تأجير وإعارة معدات المجهود الحربى لبريطانيا طبقاً لمثله المشهور عن «إعارة خرطوم مياه لجارك ليطفئ الحريق الناشب فى بيته حتى لا يمتد إلى بيتك»، فقد انتهت جهود روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى الذى تأسست بموجبه الأمم المتحدة لقيادة نظام عالمى تضامنى وهكذا أصبحت معالم الليبرالية الدولية فى السياسة الخارجية الأمريكية تتمثل فى الانخراط فى الشئون الدولية فى إطار مشاركة مع القوى الفاعلة الأخرى تحت قيادة الأمم المتحدة التى تلعب فيها الولايات المتحدة دوراً خاصاً، وكبيراً مع اعتماد التفاوض منهجاً وأداة رئيسية فى إدارة العلاقات الدولية.

بطبيعة الحال ليس خافياً أن نشوب الحرب الباردة وانفجار الصراع الأيديولوجى بين الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى قد أديا إلى كثير من العثرات فى طريق هذا النظام الدولى الجديد، ولكن الجمع بين سياسة الاحتواء ومنهج التفاوض أدى إلى مفاوضات الحد من التسلح فالوفاق، فالأمن والتعاون الأوروبيين، فسقوط الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة ليواجه الأمريكيون بالاختيار وما بين الانفراد بإدارة شئون العالم بالإملاء وفقاً لأيديولوجية المحافظين الجدد، مابين مواصلة منهج الليبرالية الدولية الذى كان التعبير الجديد عنه هو مذهب كلينتون فى العولمة، ونظرية البروفيسور مايكل مان أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا حول الهيمنة ضد الإمبراطورية الواردة فى كتابه المهم «الإمبراطورية العاجزة».

الهيمنة هنا تعنى القيادة وهى تسلم للولايات المتحدة بالتفوق على جميع الشركاء فى النظام العالمى، وتسلم كذلك بحاجة العالم نفسه إلى هذا الدور القيادى الأمريكى، ولكنها تختلف عن المشروع الإمبراطورى من حيث إن التفوق لا يعنى الانفراد بالحق والقدرة على فعل كل شىء، وأى شىء، وإنكار حق الآخرين فى الاختلاف ورفض السعى لإلزام الولايات المتحدة بمعايير للسلوك سبق إقرارها فى إطار النظام الدولى.

تختلف الهيمنة بمعنى القيادة عن الإمبراطورية فى أن الأدوات الرئيسية فى الحالة الأولى هى مصادر ووسائل القوة الناعمة، وتشمل الإلهام، وتحديد معالم الطريق، والأداة الدبلوماسية وعوامل القوة الاقتصادية، والتقدم التكنولوجى، والتأثير الثقافى، مع استبقاء القوة المسلحة حلاً استثنائيا وملاذاً أخيراً ولكن فى إطار المعايير التى حددها النظام الدولى لاستخدام القوة وذلك حتى لا يعود العالم إلى عصور ما قبل التنظيم الدولى أى إلى عصر الفتح والغزو. وبذلك يتقوض البناء الكبير الذى أمضت البشرية أحقاباً طويلة فى تشييده بالدماء والآلام.. حتى وإن لم يكن قد اكتمل من جميع جوانبه، وإن كان بعض سكانه لا يزالون يشكون من شروخ فيه، نقصد بهذا البناء ذلك التراث الطويل من الاتفاقيات والمواثيق متعددة الأطراف، وكذلك هذه السلسلة من المنظمات والمؤسسات الدولية العاملة فى كل الميادين والتى أحدثت نقلة نوعية فى تاريخ هذا الكوكب.

وفقاً لهذه الرؤية الليبرالية لم يكن غزو العراق بذرائع ملفقة، ولأهداف استعمارية إمبراطورية هو التطبيق الوحيد لأيديولوجية المحافظين الجدد فى السياسة الخارجية أى أيديولوجية الانفراد والإملاء والاستعمار، وإن كان هو أكثر الأمثلة إثارة للاهتمام، فقد سبق لإدارة بوش أن انسحبت من اتفاقية إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، ومن اتفاقية كيوتو لحماية مناخ الأرض، وبدأت هذه الإدارة عملها بالتحرش بالصين، واعتبارها عدواً إستراتيجياً للولايات المتحدة، ثم شنت حرباً نفسية ودبلوماسية على مشروع إنشاء قوة انتشار أوروبية سريعة وحاولت قبل أن تبتلعها ورطة العراق التحلل من كافة قيودها التعاقدية مع روسيا لضبط التسلح الإستراتيجى بإحياء برنامج الدفاع الصاروخى الشامل عن الأراضى الأمريكية لتحويل الولايات المتحدة إلى قلعة حصينة وسط عالم مكشوف أمام أسلحتها، وأخيراً - وليس آخراً كما يقولون - أبطلت الاتفاقيات التى كانت إدارة كلينتون السابقة عليها قد توصلت إليها مع كوريا الشمالية حتى تفكك الأخيرة برنامجها للتسلح النووى وتعود للانضمام لنظام منع الانتشار النووى.

إذن فقد انقلبت السياسة الخارجية الأمريكية تحت قيادة بوش وأيديولوجية المحافظين الجدد على كل التقاليد الليبرالية، بل وعلى تقاليد المحافظين الواقعيين، ولكنها لم تحصد بعد ست سنوات إلا فشلاً وراء فشل فى كل اتجاه، وكانت النتيجة النهائية لهذه السياسات هى أن العالم أصبح مكانا أكثر خطورة على الولايات المتحدة نفسها، أى أن إدارة الرئيس بوش حولت العالم إلى بيئة معادية للولايات المتحدة، فى وقت رأينا فيه أن نظرية الهيمنة ضد الإمبراطورية تسلم ضمن بقية مسلماتها بأن العالم يشعر بالحاجة إلى الدور القيادى الأمريكى، ويقدر هذا الدور ويراه لازماً لحفظ السلم والأمن الدوليين، بمعنى أن ليس هناك ما يحتم تحول العالم إلى بيئة معادية للأمريكيين بل إن العكس هو الصحيح.

لشرح هذه «المسلمة» دعونا نفترض جدلاً أن الولايات المتحدة انسحبت من الشئون الدولية عائدة إلى عزلتها بين المحيطين، فالمرجح فى هذه الحالة أن الصراعات القومية والجيوبوليتكية القديمة فى أوروبا وآسيا سوف تتجدد، وسوف تضاف إليها صراعات جديدة، فقد كانت الولايات المتحدة ولاتزال هى حافظة التوازن بين القوى الكبرى فى أخطر مناطق العالم، ويتذكر كاتب هذه السطور أنه سمع فى سنغافورة أو جاكرتا عبارات وألفاظاً مماثلة لما سمعه فى براج أو بروكسل حول أهمية الدور الأمريكى للسلم والأمن الدوليين، فالآسيويون يفزعون من مجرد التفكير فى احتمال انسحاب الولايات المتحدة من الباسيفيك والمحيط الهندى إذ أنهم سيجدون أنفسهم بلا غطاء فى مواجهة الصراع أو الوفاق الصينى اليابانى، كذلك يشعر الأوروبيون خصوصاً فى الدول المتوسطة والصغيرة أن كل شىء على ما يرام مادام الدور الأمريكى فاعلاً فى قارتهم، فلا خوف من التوسع الروسى أو عودة النزعة العدوانية للقومية الألمانية.. الخ.

بالطبع يجب الانتباه هنا إلى المفارقة المتمثلة فى أننا فى الشرق الأوسط لا نرى فى الدور الأمريكى فى منطقتنا مثل هذه الإيجابيات بسبب الارتباط الخاص بين الولايات المتحدة وإسرائيل، كذلك لا يرى الكثيرون فى أمريكا اللاتينية السياسة الخارجية الأمريكية بسبب تحالفها مع أكثر نظم الحكم رجعية واستغلالا وقمعاً فى القارة فى الماضى، ولا جدال فى أن السياسة الأمريكية فى هاتين المنطقتين من العالم تشكل ثغرتين خطيرتين فى الدور القيادى الأمريكى للنظام الدولى.

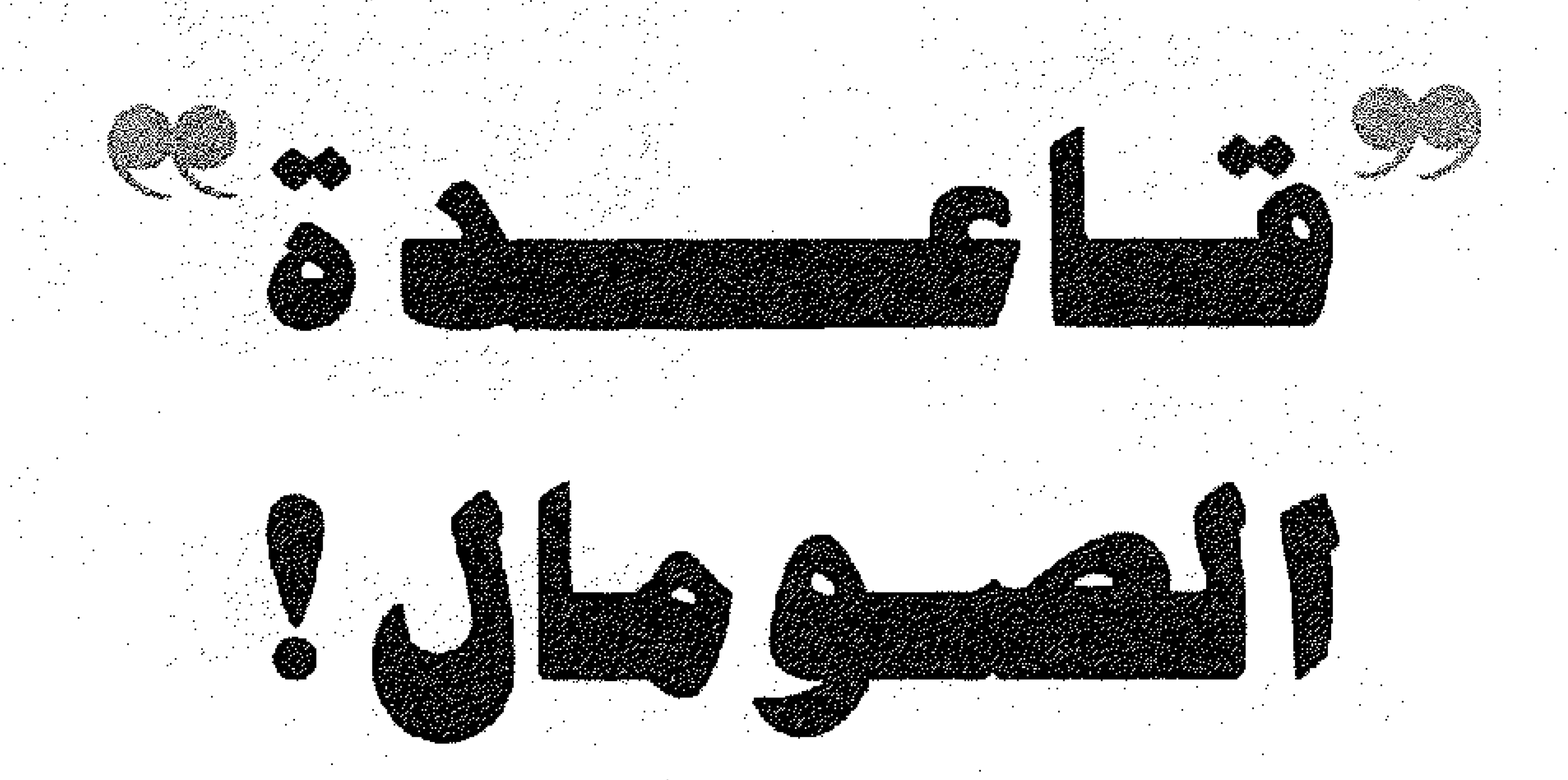
لإعادة تجميع وتركيز ما تشعب من خيوط الحديث، نتذكر أن التيار الليبرالى فى السياسة الخارجية الأمريكية لا يؤمن بالعزلة، ولكن لا يؤمن أيضاً بالإملاء والانفراد بإدارة شئون العالم خارج المعايير التى تشكل فى جملتها ما يسمى بالنظام والقانون الدوليين، ويدعو بدلاً من ذلك إلى تفعيل القيادة الأمريكية - المسلم بها من الجميع - لهذا النظام الدولى، ولذا فهو يفضل الدبلوماسية الوقائية، وحل النزاعات بالتفاوض بديلاً للحرب الاستباقية، وقد كان الفشل فى العراق (وفى كوريا الشمالية أيضاً) سبباً ومناسبة لتحويل انتخابات السابع من نوفمبر الماضى للتجديد النصفى إلى الكونجرس إلى استفتاء للناخبين على الاختيار بين هذه الرؤية الليبرالية «الكانطية» للعالم وللدور الأمريكى فى شئونه وبين رؤية المحافظين الجدد لإمكانية إقامة إمبراطورية أمريكية على أنقاض النظام الدولى الذى أورثه القرن العشرون للبشرية، وكانت النتيجة هى ما رأينا وسمعنا.. ضد الإمبراطورية.. وضد الأيديولوجية «الهوبزية» وضد ظهور قيصر أو أغسطس معاصرين فى واشنطن. ■



تأتى نتائج الانتخابات الأخيرة فى الولايات المتحدة كاشفة ومقررة فى ذات الوقت لسقوط المشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد



أحمد إبراهيم محمود



"قاعدة الصومال!"

■■ تعتبر مسألة العلاقة بين اتحاد المحاكم الإسلامية وتنظيم القاعدة المسألة الأكثر أهمية على الإطلاق من بين محددات التعامل الدولى والإقليمى مع التطورات الجارية فى الصومال، بدءاً من البروز القوى للمحاكم فى مناطق جنوب ووسط الصومال، وصولاً إلى احتمالات سيطرتهم على الحكم فى الصومال، أو على الأقل مشاركتهم فيه. فقد قصرت الولايات المتحدة والعديد من القوى الدولية والإقليمية الأخرى اهتمامها بتطورات المسألة الصومالية على انعكاساتها على الحرب على الإرهاب عموماً، وعلى إمكانية أن تؤدى سيطرة المحاكم الإسلامية إلى تحويل الصومال إلى ملاذ آمن لتنظيم القاعدة ومركز جديد لإدارة معركته مع الولايات المتحدة والغرب.

فالولايات المتحدة والعديد من الأطراف الغربية الأخرى تذهب إلى أن سيطرة المحاكم يمكن أن تحول الصومال إلى ملاذ آمن Safe Haven لتنظيم القاعدة، كما يؤكدون على أن اتحاد المحاكم الإسلامية يرتبط بعلاقات تنظيمية وثيقة مع تنظيم القاعدة منذ فترة طويلة، وأن هذه العلاقات



الثابت أن التحالفات التى بناها بن لادن فى الساحة الصومالية وقتذاك لم تكن بالضرورة مبنية على أساس أيديولوجى. عقيدى، وإنما غلبت عليها البراجماتية واعتبارات السياسة العملية

ما زالت قائمة حتى الآن، ويؤكدون على أن بعض قادة المحاكم يرتبطون بعلاقات تنظيمية مع القاعدة، وفى مقدمتهم الشيخ طاهر حسن عويس رئيس مجلس الشورى بالمجلس الأعلى للمحاكم الإسلامية، الذى تعتبره إدارة جورج بوش رجل القاعدة فى الصومال، ويوجد أسمه على لائحة أخطر الإرهابيين. وتتهم الولايات المتحدة المحاكم بإيواء عدد من أعضاء القاعدة، كما يثير مخاوف من إمكانية مشاركة المحاكم فى عمليات القاعدة فى القرن الأفريقى وشرق أفريقيا، لاسيما من حيث إمكانية توفير الدعم اللوجستى.

فى المقابل، داب قادة المحاكم من جانبهم على نفى وجود علاقات مع تنظيم القاعدة، ويؤكدون على أن الإدارة الأمريكية تتلقى معلومات مضللة فى هذا الصدد من جانب أطراف إقليمية ذات مصلحة فى توتير العلاقات بين المحاكم والولايات المتحدة: كما تبرأ قادة المحاكم من تصريحات أسامة بن لادن التى اعتبر فيها الصومال ساحة مفتوحة للحرب مع الولايات المتحدة، وأكدوا على أن ما قامت به المحاكم الشرعية هو عمل صومالى بحت، ولا علاقة له بأى طرف خارجى.

دور أسامة بن لادن وأتباعه فى الصومال لم يكن بلا ثمن، وإنما أصبحوا مطلوبين بشدة من جانب الولايات المتحدة عقب انسحاب القوات الأمريكية من الصومال، وباتوا مستهدفين فى ملاذهم السودانى



ويشير ما سبق إلى حجم التعقيد المحيط بهذه المسألة فى ظل الافتقار إلى أدلة حاسمة بشأن وجود أو عدم وجود علاقة بين المحاكم والقاعدة، كما تتسم هذه المسألة بأهمية كبرى فى سياق استشراف آفاق التطور المحتملة للمسألة الصومالية، وهو ما يستوجب رصد وتحليل مختلف أبعاد مسألة العلاقة المزعومة بين القاعدة والمحاكم، مع تقدير الأوزان النسبية للحجج التى يطرحها كل طرف بشأن هذه المسألة.

علاقات قديمة

ربما يتمثل أهم ما ترتكز عليه الاتهامات الأمريكية والغربية بشأن وقوف القاعدة وراء اتحاد المحاكم الإسلامية فى أنه كانت هناك بالفعل علاقات تعاون وثيقة بين الجانبين فى فترات سابقة تعود إلى بداية التسعينيات، حيث جاءت بداية ظهور تنظيم القاعدة فى الصومال أثناء التدخل الأمريكى - الدولى فى الصومال خلال الفترة ١٩٩٢ - ١٩٩٤، ولم تكن جماعة أسامة بن لادن تحمل اسم القاعدة وقتذاك أصلاً، وإنما كان أسامة بن لادن ومساعدوه يقيمون فى تلك الفترة فى السودان، وبدأ منها فى التطور فكرياً وحركياً فى اتجاه اعتناق الفكر الجهادى.

وكانت مشاركة أسامة بن لادن وجماعته فى المواجهة ضد القوات الأمريكية والدولية فى الصومال مرحلة تطور بالغة الأهمية على مستوى التحول الفكرى والحركى، لأنها كانت التجسيد الأول لهذا التحول فى اتجاه اعتبار الولايات المتحدة «العدو الأول» فى فكر بن لادن، بعدما كان قد تعاون معها طيلة الثمانينيات أثناء فترة الاحتلال السوفيتى لأفغانستان، ولكنه بدأ فى النظر للولايات المتحدة كـ «عدو» عندما بدأت القوات الأمريكية تنتشر فى الأراضى السعودية فى إطار عملية درع الصحراء عقب الغزو العراقى للكويت فى عام ١٩٩٠، وهو ما كان قد رفضه بشدة، وطالب الحكومة السعودية بعدم الاعتماد على القوات الأمريكية، والاعتماد بدلاً من ذلك على جيش عربى - إسلامى يحرر الكويت، وهو طرح لم تعتد به الحكومة السعودية أصلاً، وبدأت علاقة بن لادن تتوتر بعدها مع السلطات السعودية، وانتقل على أثر ذلك للإقامة فى السودان.

وانطلاقاً من مقر إقامته فى السودان، بدأ بن لادن فى تطبيق هذا التحول الفكرى فى نظرته للولايات المتحدة على أرض الصومال. وطبقاً لمعلومات مستقاة من تقارير الاستخبارات البريطانية، فإن أبو عبيدة البنشيرى تولى مسئولية عملية التنظيم فى الصومال، وقام نائبه محمد عاطف بعدة زيارات للصومال فى عام ١٩٩٣، كما قام العديد من كوادر التنظيم، بما فى ذلك مسئول التدريب على محمد وصادق محمد عوض، حيث قاموا بإنشاء العديد من معسكرات التدريب للمقاتلين الصوماليين للقيام بعمليات مقاومة مسلحة ضد القوات الأمريكية والدولية(١).

والثابت أن التحالفات التى بناها بن لادن فى الساحة الصومالية وقتذاك لم تكن بالضرورة مبنية على أساس أيديولوجى - عقيدى، وإنما غلبت عليها البراجماتية واعتبارات السياسة العملية، وهو ما يندرج فى إطار خاصية تقليدية معروفة فى فكر بن لادن، تتمثل فى كونه دأب دائماً على إسباغ رعايته على كل راغب فى القتال ضد الأمريكيين وأتباعهم، بغض النظر عن معتقداتهم الفكرية وخلفياتهم السياسية.

ولذلك، لم يقصر بن لادن تحالفاته على الجماعات الإسلامية - الأصولية، ممثلة فى جماعة «الاتحاد الإسلامى» The Islamic Union، وإنما تعاون أيضاً مع ميليشيات الجنرال محمد فارح عيديد، فى إطار ما كان يعرف وقتذاك بـ «التحالف الوطنى الصومالى» The Somali National Alliance (SNA)، وهو تحالف عشائرى علمانى، كان يمتلك موارد قوة بشرية واقتصادية وعسكرية واسعة، كما كان يسيطر على مناطق واسعة قبل التدخل الأمريكى - الدولى. ورغم عدم وجود أرضية فكرية مشتركة بين هذا التحالف وأسامة بن لادن، فإن الجانبين تعاونا معاً فى العمل ضد القوات الأمريكية والدولية فى الصومال، بحكم الالتقاء فى الأهداف، وإن اختلفا فى الدوافع والإطار الأيديولوجى - السياسى الأوسع.

على أن العلاقات الأعمق هى تلك التى بناها بن لادن وأتباعه وقتذاك مع جماعة الاتحاد الإسلامى، والتى كان يقودها وقتذاك الشيخ على ورسمه، ونائبه الكولونيل حسن طاهر عويس الذى كان يقود الجناح العسكرى للحركة. والاتحاد الإسلامى جماعة أصولية لا يقتصر نشاطها على الصومال، وإنما يمتد نشاطها إلى إقليم الأوجادين الذى تحتله إثيوبيا، ويعتبر الآن جزءاً من الدولة الإثيوبية، بل إن الكثير من قادة وعناصر هذه الحركة هم من صوماليى الأوجادين. وينصب تركيز الحركة على تنفيذ الحلم التاريخى بإنشاء الصومال الكبير على أرضية إسلامية، وتقوم أفكار الجماعة على أنه بعد فشل القوى العلمانية فى تحقيق الوحدة، فإن الدين الإسلامى وحده هو القادر على تجميع شتات الحركة الوطنية الصومالية، وهو الوحيد الذى يمكنه أن يوحد جهود الصوماليين حول هدف الوحدة وإقامة الصومال الكبير، كما شاركت الجماعة فى الحرب ضد نظام سياد برى، وأقامت مناطق نفوذ لها فى عدد من المناطق، وكان مركزها الرئيسى فى منطقة لوق بإقليم جيدو.

وقد قدم أتباع بن لادن وقتذاك التدريب والخبرة القتالية والدعم اللوجستى للطرفين المذكورين فى الصومال، حيث قاموا بتدريب العشرات من المقاتلين الصوماليين، من أجل استنزاف القوات الأمريكية والدولية فى الصومال، واستفاد بن لادن من الفوضى العارمة التى اتسمت بها عملية التدخل فى الصومال، لاسيما بعدما تحولت القوات الدولية والأمريكية إلى طرف فى الصراع، بإصرارها على اعتقال الجنرال محمد فارح عيديد، ثم تنفيذها للعديد من عمليات الاستخدام العشوائى للقوة العسكرية، مما أثار حالة من السخط العام فى صفوف الصوماليين ضد القوات الأمريكية والدولية.

وجرى تنفيذ هجمات واسعة ضد القوات الدولية، ثم وصل الصراع إلى ذروته فى ٣ أكتوبر ١٩٩٣، خلال الاشتباك الذى وقع بين قوات دلتا الأمريكية ومقاتلين صوماليين، أسفر عن سقوط طائرتى هليكوبتر أمريكيتين، ومقتل ١٨ جندياً أمريكياً، وجندى ماليزى واحد، وأصيب ٩٠ جندياً أمريكياً وباكستانياً وماليزياً، ووقوع طيار أمريكى واحد فى الأسر. أما على الجانب الصومالى، فقد تباينت التقديرات بشأن حجم الخسائر البشرية، حيث قدرها البعض بـ ٣١٢ قتيلاً، وإصابة حوالى ٨١٤ فرداً آخرين، بينما قدرها آخرون بحوالى ألف قتيل صومالى. وقامت الحشود الصومالية الغاضبة بالتمثيل بجثة جندى أمريكى فى شوارع مقديشو(٢)، مما دفع إدارة بيل كلينتون إلى سحب قواتها من الصومال.

ومن غير الواضح بدقة حجم مساهمة أتباع بن لادن فى الاشتباكات التى جرت ضد القوات الدولية والأمريكية، حيث كان بن لادن يمتنع وقتذاك عن الإعلان عن مشاركته الصريحة فى العمليات القتالية ضد القوات الأمريكية والدولية فى الصومال، والامتناع حتى عن التأييد الصريح لها، حتى لا يوقع حكومة السودان - التى كانت تستضيفه وقتذاك - فى حرج إضافى مع الولايات المتحدة وقوى دولية أخرى، وكان بدلاً من ذلك يكتفى بإطلاق عبارات عامة مطاطة يمكن أن يفهم منها هذا المعنى بصورة غير مباشرة، وإن كانت تصريحات بن لادن وأتباعه فى فترة لاحقة هى التى كشفت بصورة أدق أبعاد دورهم فى الصومال.

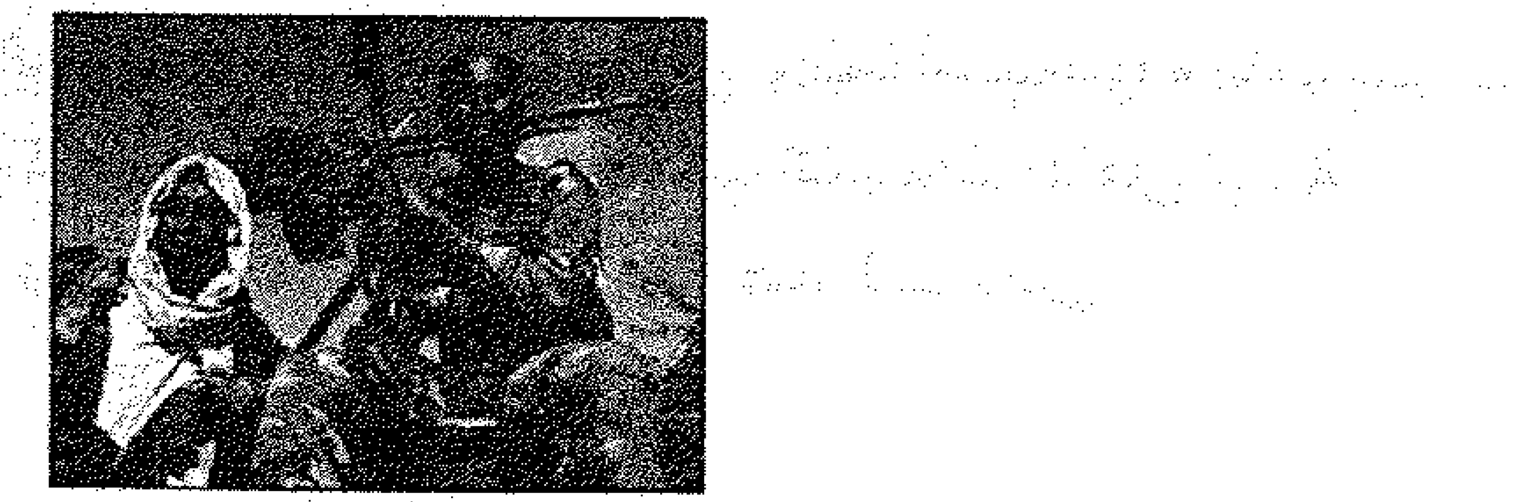
وفى ضوء مواقفه المعلنة، فإن بن لادن اعتبر أن مشاركة أتباعه فى الاشتباكات التى وقعت فى الصومال كانت أساسية، إلا أن تقديرات العديد من الأطراف الأخرى تشير إلى أن مشاركتهم فى القتال كانت هامشية. واعتبر أسامة بن لادن أن ما جرى فى الصومال كان انتصاراً للصوماليين، بالتعاون مع بعض المجاهدين العرب الذى كانوا قد شاركوا فى الجهاد ضد الاحتلال السوفيتى فى أفغانستان(٣)، إلا أن أسامة بن لادن كان فى المقابل قد أعرب فى أحد أحاديثه عن استيائه الشديد من «الهروب السريع جداً» للقوات الأمريكية من الصومال، إثر مقتل عدد من جنودهم، حيث كان «يتمنى أن يمكثوا لفترة أطول حتى يقاتلهم»(٤)، فيما يشير إلى أنه كان يرغب فى خوض حرب استنزاف طويلة الأمد فى الصومال ضد القوات الأمريكية.

على أن دور أسامة بن لادن وأتباعه فى الصومال لم يكن بلا ثمن، وإنما أصبحوا مطلوبين بشدة من جانب الولايات المتحدة عقب انسحاب القوات الأمريكية من الصومال، وباتوا مستهدفين فى ملاذهم السودانى، وتعرضت حكومة الإنقاذ فى الخرطوم عقب ذلك لضغوط أمريكية ودولية عنيفة لتسليم بن لادن وأتباعه أو طردهم، وكان ذلك أحد دوافعهم للانتقال بعد ذلك إلى أفغانستان، عقب سيطرة حركة طالبان على أغلب الأراضى الأفغانية.

وعقب انتقاله إلى أفغانستان، لم يكن للصومال نصيب كبير فى اهتمامات أسامة بن لادن، وإنما تحول التركيز إلى مناطق أخرى تعج بالمصالح الأمريكية والغربية. ومع أن بن لادن توقف بعد ذلك عن اعتبار الصومال ساحة رئيسية للعمليات ضد الولايات المتحدة، فإن ذلك لم يؤد لانتهاء العلاقة بينه وبين جماعة الاتحاد الإسلامى، وإنما كان هناك شكلان للعلاقة بينهما خلال النصف الثانى من تسعينيات القرن الماضى، وهما:

الأول: ما تردد عن قيام أسامة بن لادن بإرسال المئات من المجاهدين العرب للمشاركة فى الهجمات التى شنتها جماعة الاتحاد الإسلامى ضد إثيوبيا(٥)، إلا أن الثابت أن الحركة تلقت ضربات موجعة أصابت أعضاءها من الصوماليين والأجانب فى آن واحد معاً، حيث نفذت إثيوبيا عدة هجمات واسعة فى الحركة، كان أعنفها ذلك الذى حدث فى يناير ١٩٩٧، وقتل خلاله العشرات من قادة وأعضاء الاتحاد الإسلامى من الصوماليين والأجانب، وكان الهجوم الإثيوبى عنيفاً لدرجة أنه قضى بدرجة كبيرة على القدرة العسكرية للحركة.

الثانى: استخدام تنظيم القاعدة للصومال كمحطة ترانزيت فى تنفيذ هجمات على دول مجاورة، حيث استفاد تنظيم القاعدة من التسهيلات اللوجستية التى قدمتها له جماعة الاتحاد الإسلامى لتنفيذ عمليات تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام فى عام ١٩٩٨، فضلاً



«قاعدة» الصومال!

عن تنفيذ الهجومين المتزامنين فى مدينة مومباسا الكينية فى نوفمبر ٢٠٠٢، والذى كان أولهما ضد فندق «باراديس» الذى يرتاده إسرائيليون، بواسطة سيارة مفخخة، وأسفر الهجوم عن مقتل ١١ شخصاً، بينهم ٦ كينيين وإسرائيليان، إلى جانب منفذى الهجوم، فضلاً عن حرق المبنى بالكامل، بينما استهدف الهجوم الثانى طائرة مدنية إسرائيلية تقل مئات السائحين الإسرائيليين العائدين عقب انقضاء إجازاتهم فى كينيا، إلا أن الصاروخين لم يصيبا الطائرة.

ويشير العديد من التقارير إلى أن الكولونيل طاهر حسن عويس نائب رئيس جماعة الاتحاد الإسلامى وقائد الجناح العسكرى فيه كان ضالعاً فى تلك العمليات، لاسيما فيما يتعلق بتوفير الدعم اللوجستى لعناصر القاعدة الذين نفذوا تفجيرات نيروبى ودار السلام، ويأتى بعده مساعده الرئيسى حاشى عيرو الذى قاد الجماعة التى تولت توفير الحماية لعناصر القاعدة الذين نفذوا عمليات نيروبى ودار السلام ومومباسا.

وقد تركت تفجيرات نيروبى ودار السلام آثاراً بعيدة المدى على الموقف الدولى من تنظيم القاعدة والاتحاد الإسلامى فى آن معاً، حيث اتجهت أصابع الاتهام منذ البداية نحو القاعدة بوصفها المسئول عن تلك التفجيرات، ثم تبلورت هذه الاتهامات رسمياً من خلال قرار الاتهام الصادر من السلطات القضائية فى ولاية نيويورك فى نوفمبر ١٩٩٨، والذى تضمن قائمة من المتهمين تشمل زعيم القاعدة أسامة بن لادن والقائد العسكرى للتنظيم محمد عاطف، كما تشمل عدداً آخر من المتهمين من أعضاء القاعدة هم: عبد الله أحمد عبد الله، وفاضل عبد الله محمد، وأحمد سليم سويدان، وأنس الليبى، وأحمد محمد حامد على، وفهد محمد على مسلم، وسيف العدل(٦). وفى ٧ نوفمبر ٢٠٠١، وضعت الإدارة الأمريكية الشيخ طاهر حسن عويس ضمن قائمة الإرهابيين، لدوره فى تفجيرات نيروبى ودار السلام، وإن لم تصدر بحقه مذكرة اعتقال دولية.

هذا التعاون الوثيق بين القاعدة والاتحاد الإسلامى لا ينفى أن هناك حدوداً واضحة للعلاقة بينهما، وهى حدود تشى بضحالة هذه العلاقة ومحدوديتها. فالاتحاد الإسلامى لم يكن فى أى مرحلة من المراحل قريباً من أسامة بن لادن، مثل الجماعات الجهادية ذات الأصول المصرية واليمنية والباكستانية. وبدا ذلك واضحاً من انعدام الروابط التنظيمية بين الجانبين، وغياب أعضاء من الجماعة المذكورة ضمن الحلقة الضيقة المحيطة بأسامة بن لادن، ناهيك عن أن الاتحاد الإسلامى لم يكن عضواً فيما يسمى بـ «الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين» التى أعلن أسامة بن لادن إنشاءها فى فبراير ١٩٩٨، والتى ضمت جماعات جهادية من مصر وباكستان وبنجلاديش، كما لم يكن الاتحاد الإسلامى طرفاً فى التحالفات التى أقامها بن لادن فى فترة ما بعد هجمات ١١ سبتمبر فى واشنطن ونيويورك.

ويشير ذلك إلى أن العلاقة بين الاتحاد الإسلامى والقاعدة كانت تقف فقط عند حدود الالتقاء الفكرى والأيديولوجى، والإسناد المتبادل فى شن «حروب صغيرة» أو «عمليات صغيرة» تهم أحد الطرفين، بينما عانت العلاقة فى المقابل من الاختلاف الحاد فى الأولويات بين الجانبين. فتنظيم القاعدة كان ولايزال يتبنى أجندة دولية واسعة، تقوم على استهداف مصالح الولايات المتحدة والغرب، ومن يتبعهم، على امتداد الساحة الدولية، بينما يكتفى الاتحاد الإسلامى بأجندة خاصة بالصومال ومنطقة القرن الأفريقى، محكوماً فى ذلك بالمتغيرات القائمة فى تلك المنطقة، وضآلة الموارد المتاحة للتنظيم، ومحدودية خبرة أعضائه فى العمل الحركى.

ركائز الاتهامات الأمريكية

لم تكن المخاوف الأمريكية بإمكانية تحول الصومال إلى ملاذ آمن لتنظيم القاعدة مرتبطة بالانتصارات التى حققها اتحاد المحاكم الإسلامية فى الساحة الصومالية منذ أوائل عام ٢٠٠٦، ثم نجاحه فى فرض سيطرته الكاملة على العاصمة مقديشو فى يونيو من العام نفسه، وإنما تعود تلك المخاوف إلى فترة طويلة سابقة، وترتبط تحديداً بالدور المساعد الذى لعبته جماعة الاتحاد الإسلامى فى مساعدة ناشطى القاعدة فى تنفيذ هجمات نيروبى ودار السلام فى عام ١٩٩٨، ثم اتخذت هذه المخاوف أبعاداً أكثر جدية عقب هجمات ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة، والتى تجدد بعدها الاهتمام الأمريكى بالصومال على أرضية حربها العالمية على الإرهاب(٧).

وفى مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر، لعبت إثيوبيا والفصائل الصومالية المعارضة دوراً مكثفاً فى تحريض إدارة جورج بوش ضد حكومة الرئيس الانتقالى السابق عبد القاسم صلاد حسن، لاسيما أن الأخير كان واحداً من الداعمين لنظام المحاكم الإسلامية، وقام بدمجها فى الجهاز القضائى والأمنى الرسمى عقب توليه السلطة. وجرى التركيز فى هذا التحريض على وجود علاقات قديمة بين القاعدة وجماعة الاتحاد الإسلامى، كما ركزت على أن القاعدة تمتلك معسكراً واحداً على الأقل للتدريب فى مدينة جيدو، التى يطلق عليها «قندهار الصومال»، علاوة على التأكيد أن هناك شبكة مالية ضخمة فى الصومال تتولى تمويل الإرهاب، من خلال «مؤسسة البركات» الصومالية.

وكان من نتيجة ذلك أن اهتمت الإدارة الأمريكية باحتمالات وجود عناصر من تنظيم القاعدة فى الصومال، أو على الأقل العمل على منع عناصر هذا التنظيم من الفرار من أفغانستان إلى الصومال. وجرى منذ أواخر عام ٢٠٠١ تسيير دوريات مراقبة كثيفة لبعض السفن الحربية الأمريكية والأوروبية على طول السواحل الصومالية، كما قامت طائرات الاستطلاع الأمريكية بعمليات مسح مستمرة فوق الأجواء الصومالية، بهدف منع فرار أى عناصر تابعة لتنظيم القاعدة إلى الصومال.

وقامت إدارة بوش أيضا بتجميد أنشطة مؤسسة البركات فى ٧ نوفمبر ٢٠٠١، بحجة أنها خاضعة لهيمنة حركة الاتحاد الإسلامى، وأنها تقوم بتحويل أموال إلى تنظيم القاعدة. وزعم مسئولون أمريكيون أن لديهم دليلاً على أن هذه المؤسسة زودت أسامة بن لادن بـ ٢٥ مليون دولار سنوياً فى صورة أسلحة ومعدات وأموال نقدية. وزعموا أيضاً أن المدير التنفيذى لهذه المؤسسة، أحمد نور على جميل، كان صديقاً لأسامة بن لادن خلال سنوات الكفاح ضد الاحتلال السوفيتى لأفغانستان، وأنه أنشأ مؤسسة البركات برأسمال قدمه له بن لادن(٨).

الأكثر من ذلك أن الإدارة الأمريكية تعاملت فى بادئ الأمر مع مسألة توجيه ضربة عسكرية ضد الصومال باعتبارها مسألة حتمية، إلا أن المعلومات التى حصلت عليها الاستخبارات والخارجية الأمريكية أوضحت أنه ليست هناك معسكرات لتنظيم القاعدة أو الاتحاد الإسلامى فى الصومال، وهو ما أكدته أيضاً بعثة مراقبين تابعة للأمم المتحدة فى الصومال وقتذاك. وخلصت تلك الجهود إلى أن الاتحاد الإسلامى أصبح فاقد الفاعلية منذ فترة طويلة من الزمن، كما بدا واضحا وقتذاك أن أى عملية عسكرية أمريكية فى الصومال لن تحقق أى أهداف ملموسة، مما أدى إلى إلغاء خطط تنفيذ عملية عسكرية أمريكية. دولية واسعة فى الصومال، كما اعترفت إدارة بوش أيضاً بضعف الأدلة التى اتخذ على أساسها قرار تجميد مؤسسة البركات، وأصدرت فى أواخر شهر أغسطس ٢٠٠٢ قراراً بشطبها من لائحة المؤسسات المالية الداعمة للإرهاب، وإن عادت الإدارة الأمريكية مجدداً فى يوليو ٢٠٠٣، وأمرت مقاتلاتها الحربية بشن غارات محدودة على جزر صومالية بزعم وجود إرهابيين فيها.

وركزت الإدارة الأمريكية على تنفيذ طائفة واسعة من الإجراءات الوقائية الرامية إلى منع تسلل إرهابيين من القاعدة إلى الصومال، وذلك من خلال إقامة قاعدة عسكرية ضخمة فى جيبوتى، كجزء من حملتها العالمية ضد الإرهاب، وشدد وزير الدفاع الأمريكى السابق دونالد رامسفيلد فى زيارة له لتلك القاعدة على أن «الولايات المتحدة ستبقى انتشارها فى جيبوتى لعدة أعوام، لأنها منطقة يوجد فيها الكثير من العمل»، كما تقوم بتنفيذ دوريات بحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر لمراقبة السفن التجارية المتجهة إلى الصومال والقادمة منها، وتحوم طائراتها الحربية فوق أجواء الصومال لاكتشاف وجود أى معسكرات لتنظيم القاعدة فيها، كما تعمل عناصر المخابرات الأمريكية أيضاً لتحقيق الهدف ذاته.

ولكن الاهتمام الأمريكى بالصومال ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة، مع توحيد المحاكم الإسلامية فى إطار ما يعرف بـ «المجلس الأعلى لاتحاد المحاكم الإسلامية» فى عام ٢٠٠٤، وهو تطور كان قد زاد بقوة من فاعلية ونفوذ هذه المحاكم، برغم أنها كانت موجودة قبل ذلك بعدة أعوام، مما أثار قلقاً عارماً لدى الولايات المتحدة وإثيوبيا والعديد من الأطراف الدولية والإقليمية الأخرى، والتى ترى أن جماعة الاتحاد الإسلامى واتحاد المحاكم الإسلامية هما شىء واحد، ولهما نفس الأهداف



الإدارة الأمريكية تعاملت مع مسألة توجيه ضربة عسكرية ضد الصومال باعتبارها حتمية، إلا أن المعلومات التى حصلت عليها أوضحت أنه ليست هناك معسكرات للقاعدة أو الاتحاد الإسلامى فى الصومال





«قاعدة» الصومال!

والتوجهات، ويعتقدون أن حركة الاتحاد الإسلامى هى التى أعطت للمحاكم الشرعية توجهاً إيديولوجياً ذا صبغة إسلامية، وهى التى قامت بعمليات الحشد والتعبئة لصالح المحاكم الإسلامية، من وراء الستار بصورة غير مباشرة.

وقد جرى التعبير عن هذا الاهتمام الأمريكى بالوقوف وراء إنشاء ما يعرف بـ «تحالف إعادة السلم ومكافحة الإرهاب» فى ١٨ فبراير ٢٠٠٦، وضم عددا من جنرالات الحرب الوزراء فى الحكومة الانتقالية؛ ممن كانوا يرون أن رئيس الحكومة الانتقالية على محمد جيدى كان يتبنى نهجاً مهادناً إزاء المحاكم الإسلامية. وكان الهدف الرئيسى لهذا التحالف هو التصدى لاتحاد المحاكم الإسلامية، التى كانوا يتهمونها بدعم الإرهاب وإيواء عدد من ناشطى القاعدة فى جنوب الصومال. وعلى الرغم من أن الإدارة الأمريكية ظلت لفترة طويلة تنفى علاقتها بهذا التحالف، إلا أن التطورات اللاحقة كشفت تزويد الإدارة الأمريكية للتحالف بما لا يقل عن ٢٠ مليون دولار لتمويل أنشطته بهدف محاصرة عناصر «القاعدة» المشتبه فى وجودهم بجنوب الصومال، برغم أن قادة اتحاد المحاكم الإسلامية كانوا من جانبهم يؤكدون رغبتهم فى تفادى الصدام مع لوردات الحرب، ونفى أى اتهامات بسعيهم للسيطرة على السلطة.

وقد باءت هذه السياسة الأمريكية بفشل ذريع، إذ أن الخطوات التى قام بها تحالف إعادة السلم ومكافحة الإرهاب أدت إلى استفزاز اتحاد المحاكم الإسلامية، لاسيما اختطاف أصوليين صوماليين وأجانب محسوبين على المحاكم، وهو ما أدى إلى اندلاع اشتباكات عنيفة بين الجانبين، بدءا من فبراير ٢٠٠٦، حققت المحاكم خلالها انتصارات متوالية، حتى نجحت فى القضاء على ميليشيات التحالف، وفرض سيطرتهم الكاملة على العاصمة مقديشو فى ٥ يونيو من العام نفسه، وفرضت نفسها كقوة كبرى مهيمنة على الساحة الصومالية.

وللتعويض عن هذا الفشل، قامت عناصر من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بإجراء مفاوضات مع ممثلين من أكبر القبائل الصومالية الداعمة لاتحاد المحاكم الإسلامية، لاسيما من قبيلة «عير»، بهدف إقناعهم برفع حمايتهم لقيادات المحاكم الإسلامية. وشكل ذلك محاولة من جانب الاستخبارات الأمريكية لتكرار نموذج كانت قد طبقته بنجاح فى أفغانستان عبر استمالة العديد من القبائل هناك والحصول على دعمها ومساندتها ضد حركة طالبان فى مقابل رشاوى مالية جرى توزيعها على زعماء تلك القبائل. واستخدمت عناصر المخابرات الأمريكية فى مفاوضاتها مع ممثلى القبائل الصومالية وسائل الترغيب والترهيب، مثل الرشاوى المالية أو التلويح بأن هذه القبائل سوف تكون مستهدفة من الولايات المتحدة ما لم تتعاون معها فى العمل ضد المحاكم، إلا أن هذا الأسلوب لم يحقق نتائج حاسمة فى الحالة الصومالية، بعكس ما كان قد حدث فى النموذج الأفغانى.

هذه التحولات الجذرية للمسألة الصومالية كانت تمثل بحد ذاتها نكسة كبرى للسياسة الأمريكية، لأنها تعنى أن الخطوات التى قامت بها الولايات المتحدة أدت إلى نتائج معاكسة تماماً لما كان مستهدفاً من ورائها، وأدى ذلك بالتالى إلى تصاعد المخاوف الأمريكية من انعكاسات التطورات الجارية فى الصومال على الحرب على الإرهاب، إلا أن هذه المخاوف تنقسم إلى مخاوف محددة رسمية يتم التعبير عنها من جانب مسئولين أمريكيين، ومخاوف عامة غير رسمية يتم تناولها من جانب مراكز البحوث ووسائل الإعلام فى الولايات المتحدة.

ومن المهم، بداية، التركيز على المخاوف الرسمية المحددة من جانب الإدارة الأمريكية بشأن بروز المحاكم الإسلامية كقوة مهيمنة على الساحة الصومالية، وهى تتمثل فى[9]:

الأول: الخشية من تحويل الصومال إلى ملجأ آمن للإرهابيين، وهو ما يرتبط بصورة محددة فى المنظور الأمريكى بوجود عدد من المتطرفين الأجانب فى الصومال، تحت حماية اتحاد المحاكم الإسلامية، ممن تتهمهم الإدارة الأمريكية بالضلوع فى تفجيرات نيروبى ودار السلام وممباسا، وهم: أبو طلحة السودانى، وفاضل عبد الله محمد، وصالح على صالح نبهان. ويعتبر مسئولون أمريكيون أن وجود هؤلاء الإرهابيين فى الصومال يمثل تهديداً فعلياً للمصالح الأمريكية والدولية، ليس فقط فى الصومال، ولكن على امتداد منطقة القرن الأفريقى.

ومما أثار القلق أيضاً من جانب الإدارة الأمريكية أن عناصر القاعدة سالفة الذكر تتحرك بحرية فى منطقة القرن الأفريقى، ويبدو فى بعض الأحيان كما لو أنهم يخططون لهجمات إرهابية جديدة، حيث شوهد فاضل عبد الله محمد فى ممباسا فى مايو ٢٠٠٣؛ مما أثار القلق بشأن إمكانية تخطيطه لعملية إرهابية ضد الخطوط الجوية البريطانية فى كينيا، كما تم اكتشاف مخبأ للأسلحة تابع للقاعدة بالقرب من ممباسا فى أغسطس ٢٠٠٣؛ وكانت به صواريخ مضادة للدبابات كان يمكن استخدامها ضد باصات سياحية أو اليخوت البحرية فى ذلك الميناء.

الثانى: التأكيد على أن حالة انهيار الدولة والفراغ السياسى تجعل من الصومال معضلة أمنية عامة لمنطقة القرن الأفريقى الأوسع، بحكم ما ينجم عن هذا الوضع من انعكاسات سياسية وأمنية بالغة الخطورة، ويدلل مسئولون أمريكيون على ذلك بالزيادة الملموسة فى تجارة السلاح، من وإلى الصومال، بحيث أصبحت تجارة السلاح تتحرك بسهولة شديدة فى منطقة القرن الأفريقى، وفق عملية متكاملة مركزها الصومال.

وبالتالى، فإن الخطاب الرسمى من جانب مسئولى الإدارة الأمريكية اتسم بقدر كبير من الحذر، بل إن مدير مركز مكافحة الإرهاب الوطنى فى الولايات المتحدة، الأدميرال سكوت ريد، أكد فى كلمته أمام إحدى لجان الكونجرس الأمريكى فى ١٣ يونيو ٢٠٠٦ أن التطورات الجارية فى الصومال لا يجب أن تدفعنا للقفز إلى استنتاج بأن القاعدة أصبحت تسيطر على الصومال. وركزت ردود الفعل الرسمية الأمريكية على التريث وعدم التسرع فى اتخاذ خطوات قد تتسبب فى تحول الوضع لغير صالحها فى الصومال، واتجهت نحو تفضيل العمل من خلال مجموعة الاتصال الدولية المعنية بالصومال، التى تأسست بمبادرة من الولايات المتحدة فى يونيو ٢٠٠٦.

أما بالنسبة للمخاوف العامة غير الرسمية، فهى التى تنشرها وسائل الإعلام، بما فى ذلك تلك المنسوبة لمصادر مسئولة غير محددة، وهى أوسع نطاقاً بكثير من المخاوف الرسمية. ويمكن هنا الإشارة إلى نقطتين رئيسيتين هما:

الأول: التأكيد على وجود علاقات وثيقة بين القاعدة والمحاكم، ويذهب القائلون بهذه المخاوف إلى أن القاعدة تقوم بتقديم المشورة لاتحاد المحاكم الإسلامية، وتساعدها فى الحصول على الدعم من جانب مجموعة من الوهابيين المتطرفين فى السعودية واليمن ودول أخرى[10]. وتذهب بعض التقارير أيضاً إلى أن شهود عيان فى مقديشو أكدوا أن أعضاء من القاعدة يعملون فى معسكر أقيم فى مقبرة إيطالية قديمة، وأنشأوا فيه مركزا للتدريب ومسجداً ومستشفى ميدانياً، والزعم بأن هناك أفراداً من السعودية واليمن وباكستان يقيمون فى هذا المعسكر، ويتولون تدريب الشباب الصوماليين على تنفيذ عمليات إرهابية[11].

وفى مواجهة النفى المتكرر لقادة اتحاد المحاكم لوجود علاقات لهم مع تنظيم القاعدة، أو لإيواء المحاكم لأى عناصر من القاعدة، فإن بعض التقارير الصحفية نقلت عن مصادر رسمية أمريكية أن هذا النفى يعتبر مجرد محاولة من المحاكم لتفادى استفزاز الولايات المتحدة ودول أخرى فى المنطقة؛ حتى لا تقدم على أى عمل عسكرى ضدها، واعتبروه أيضاً محاولة من المحاكم لتضليل الأطراف الدولية والإقليمية حتى تخفى أهدافها الحقيقية، والمتمثلة من وجهة نظرهم فى استكمال السيطرة على الحكم وتأسيس نظام حكم إسلامى على غرار النموذج الطالبانى.

الثانى: اتهام اتحاد المحاكم الإسلامية بالسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية على غرار النموذج الطالبانى، ورأوا فى التحولات التنظيمية التى دخلت على اتحاد المحاكم الإسلامية فى ٢٤ يونيو ٢٠٠٦، وتحويله إلى «مجلس أعلى للمحاكم الإسلامية»، بمثابة مقدمة لإعلان دولة إسلامية صومالية تحكم كل أجزاء البلاد. وتستند هذه المخاوف على عدد من المؤشرات، لعل أبرزها ما تردد عن اهتمام المحاكم المكثف بالسيطرة على المدارس الموجودة فى المناطق التى فرضت هيمنتها عليها، وقيامها بتغيير المناهج الدراسية بها فى اتجاه التركيز على تدريس العلوم الإسلامية، بالإضافة إلى تركيز المحاكم على ضرورة التزام النساء بارتداء الحجاب.

ويستحوذ الشيخ طاهر حسن عويس على حيز كبير من الاهتمام الأمريكى، بحكم المزاعم المثارة بشأن ارتباطه بعلاقات وثيقة مع قادة تنظيم القاعدة. فالشيخ عويس يوصف بأنه الأب الروحى لنظام المحاكم الإسلامية، وأحد أبرز قادتها، وهو أحد المتهمين



الاهتمام الأمريكى بالصومال ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة، مع توحيد المحاكم الإسلامية فى عام ٢٠٠٤، وهو تطور كان قد زاد بقوة من فاعلية ونفوذ هذه المحاكم





«قاعدة» الصومال!

بمساعدة ناشطى القاعدة فى تنفيذ تفجيرات نيروبى ودار السلام وممباسا، ووضعت الإدارة اسمه على قائمة الإرهابيين المطلوبين من جانب الولايات المتحدة. وقد طلبت جينداى فريزر من المحاكم الإسلامية فى يونيو ٢٠٠٦ تسليم المتهمين بالضلوع فى التفجيرات المذكورة، ولم يتضح فى وقتها ما إذا كانت تقصد الشيخ عويس من بين هؤلاء المتهمين، وردت المحاكم على ذلك بنفى وجود أى علاقة لها مع المطلوبين، ثم قامت المحاكم فى الرابع والعشرين من الشهر نفسه بإعادة تشكيل المجلس الأعلى للمحاكم الإسلامية، وتولى الشيخ عويس رئاسة مجلس الشورى، الذى يعتبر أعلى هيئة تشريعية فى هذا المجلس، وهو ما كان بمثابة تحد للإدارة الأمريكية، أعلنت الأخيرة على أثره أنها لن تتعامل مع الشيخ عويس برغم منصبه الجديد.

عوامل النفى

فى مواجهة العوامل السابقة التى تستند إليها المصادر الرسمية وغير الرسمية فى الولايات المتحدة والعديد من الأطراف الدولية والإقليمية الأخرى فى التأكيد على وقوف تنظيم القاعدة وراء اتحاد المحاكم الإسلامية، فإن هناك فى المقابل عدداً من المتغيرات التى تؤكد ضعف احتمالات وجود دور قوى وملموس للقاعدة فى الصومال. ولن يكون مفيداً هنا، بطبيعة الحال، الاستناد إلى النفى المتكرر لاتحاد المحاكم لوجود علاقات تنظيمية تربطها بتنظيم القاعدة، إذ أن مثل هذا النفى عادة ما لا يؤخذ بجدية من جانب الأطراف الخارجية، وإنما يكون المحك الرئيسى متمثلاً فى رصد وتحليل المتغيرات الرئيسية الحاكمة لهذه المسألة، وهى تتمثل هنا فى العوامل الأربعة التالية:

الأول: يتمثل فى عجز الأطراف الأمريكية والدولية والإقليمية عن توفير أدلة حاسمة عن وجود علاقات بين القاعدة والمحاكم الإسلامية. فكما سبق أن لاحظنا، فإن التحليلات المطروحة فى هذا الصدد تستند إلى تاريخ قديم بشأن تعاون الطرفين أثناء التدخل الأمريكى والدولى فى الصومال، أو بشأن وجود دور ما لجماعة الاتحاد الإسلامى الصومالية فى تفجيرات نيروبى ودار السلام وممباسا، أو تستند على اتهامات غير مؤكدة بإيواء اتحاد المحاكم لعناصر إرهابية من تنظيم القاعدة، ممن كانوا ضالعين فى تنفيذ التفجيرات المذكورة.

فى حين أنه لا توجد أدلة فعلية حاسمة ومؤكدة بشأن وجود العلاقة المذكورة، على غرار الإمساك بمؤشرات محددة على وجود تعاون مشترك بين الجانبين فى تنفيذ عمليات إرهابية ضد أهداف أمريكية أو غربية أو إقليمية فى الصومال ومنطقة القرن الأفريقى، وهو ما لم تفلح الإدارة الأمريكية فى إثباته، كما لا يبدو أن هناك دورا واضحاً للقاعدة فى الانتصارات المتوالية التى حققتها المحاكم ضد خصومها خلال عام ٢٠٠٦. وتتناقض الاتهامات الأمريكية هنا مع ما هو معروف فى حالة روابط أو تحالفات ما بين تنظيم القاعدة وجماعات أخرى، فإن الطرفين يحرصان على إعلان ذلك صراحة فى الكثير من الأحيان باعتبار ذلك نوعاً من استعراض القوة فى مواجهة الخصوم.

والظاهر هنا أن أسامة بن لادن يحاول بكل الطرق أن يختلق لنفسه أى دور فى المسألة الصومالية، بما يعزز موقفه فى مواجهة الحرب الشرسة التى تقودها الولايات المتحدة ضده، بينما يرفض اتحاد المحاكم الإسلامية ذلك، ويصر على إبعاد نفسه تماماً عن تنظيم القاعدة، معتبراً أن ما يجرى فى الصومال يرتبط فقط بالأوضاع الداخلية الصومالية، ولا علاقة له بالحرب العالمية على الإرهاب.

الثانى: يتعلق ببعض خصوصيات المجتمع الصومالى، والتى قد لا تجعله ملائماً تماماً كملاذ آمن لتنظيم القاعدة. فالعديد من الأدبيات السياسية تتبنى مقولة محددة مفادها أن انهيار الدولة يوفر فرصاً ملائمة لعمل الجماعات الإرهابية فيها، إلا أن هذه المقولة ليست دقيقة بشكل مطلق، حيث يخلق انهيار الدولة ظروفاً غير مواتية لنشاط الجماعات الإرهابية المتطرفة، بسبب ظروف الفوضى والانفلات الأمنى، مما يجعل القاعدة منشغلة فى مثل هذه الحالة بتأمين نفسها، أكثر من اهتمامها بتخطيط وتنفيذ عمليات إرهابية ضد أهداف غربية. أضف إلى ذلك أن الطبيعة الجغرافية للصومال تختلف إلى حد كبير عن مثيلتها فى أفغانستان، حيث تغلب على الأخيرة الطبيعة الجبلية الوعرة التى توفر فرصاً جيدة للاختباء والتحصن فى المغارات وأعماق الجبال، بينما لا توفر العوامل الجغرافية للصومال مثل هذه الفرص.

وتلعب بنية المجتمع الصومالى والثقافة السياسية السائدة فيه دوراً هاماً للحيلولة دون تحويل الصومال لملاذ آمن لتنظيم القاعدة. فالمجتمع الصومالى يتسم بدرجة عالية من الشفافية والانكشاف المتبادل، بحيث تكون حياة الأفراد والجماعات معروفة بالكامل للآخرين فى هذا المجتمع، بصورة تجعل من شبه المستحيل إيواء عناصر من تنظيم القاعدة بدون أن ينكشف أمرها. ويتكامل ما سبق مع طبيعة الثقافة السياسية السائدة فى المجتمع الصومالى، والتى تتسم بطابع براجماتى شديد، بما يحرم تنظيم القاعدة من بناء تحالفات مستقرة مع جماعات عشائرية محددة أو ممارسة النفوذ فى المجتمع الصومالى، مما جعله يشهد تبدلات عنيفة فى أنماط التحالفات فيما بين أطراف الحرب الأهلية منذ انهيار الدولة فى عام ١٩٩١، الأمر الذى يجعل الصومال مكاناً غير آمن لقادة وأعضاء تنظيم القاعدة[١٢].

الثالث: أن مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية فى الصومال، والتى تستخدمها الكثير من المصادر الأمريكية والدولية كدليل على رغبة اتحاد المحاكم الإسلامية فى تبنى النموذج الطالبانى، هى مسألة حيوية لا ترتبط فقط بأيديولوجيا وأولويات اتحاد المحاكم الإسلامية، بقدر ما تمثل أيضاً ضرورة سياسية. استراتيجية لتجاوز الانقسامات الرأسية الواسعة التى تضرب المجتمع الصومالى على مدى أكثر من ١٥ عاماً، وتسببت فى انهيار الدولة واستمرار حالة الفوضى والفراغ السياسى. ولم يكن هناك ما يمكن أن يوحد الصوماليين مجدداً فى مثل هذه الظروف إلا الدين، بحكم أن المجتمع الصومالى ينتمى بكامله تقريباً للعقيدة الإسلامية، وهو ما كان بحد ذاته أحد أهم عناصر القوة لدى اتحاد المحاكم الإسلامية، حيث أن استناده إلى أيديولوجيا دينية ساعده كثيراً على التغلب على خطوط التقسيم العشائرى الحادة فى المجتمع الصومالى.

وعلى الرغم من أن أغلب قادة وأعضاء اتحاد المحاكم الإسلامية ينتمون إلى قبيلة الهوية، لاسيما عشيرة العير، ويستمدون منها الدعم والمساندة، إلا أن المحاكم لم تركز على هذا الانتماء العشائرى، وتبنت خطاباً سياسياً جامعاً، يستند إلى الدين، وموجه لجميع الصوماليين، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية والعشائرية، بحيث لعب الدين هنا دوراً توحيدياً للجميع، فضلاً عن تركيزها على أولويات محددة هى محل إجماع عام فى المجتمع الصومالى، مثل استعادة الاستقرار والنظام، وتوفير الخدمات العامة لجميع المواطنين.

ويكون من المنطقى هنا بالنسبة للمحاكم الإسلامية، بعدما فرضت سيطرتها على مناطق واسعة فى جنوب ووسط البلاد، أن تؤكد بالفعل حرصها على تطبيق الشريعة الإسلامية، باعتبار ذلك أمراً يتسق تماماً مع مبادئها ومنطلقاتها. وما لم تفعل ذلك، فإنها تنتحر سياسياً أمام أتباعها ومؤيديها والمتعاطفين معها، وتبدو كما لو أنها استغلت الدين كمجرد ذريعة للسيطرة على الحكم، ثم تراجعت عن تطبيقه بعد ذلك، وهو فخ يرفض قادة المحاكم، بطبيعة الحال، الوقوع فيه.

ولكن المهم هنا أمران رئيسيان، أولهما: أنه ليس هناك بالضرورة ما يدفع للاعتقاد بأن تطبيق الشريعة الإسلامية فى الصومال، فى حال حدوثه، سوف يستلهم النموذج الطالبانى، إذ تؤكد العديد من المؤشرات على أن النموذج الطالبانى لم يلق قبولاً واسعاً فى المجتمع الصومالى، والذى يميل بدرجة كبيرة للاعتدال والوسطية فى معتقداته الدينية. وثانيهما: أن تطبيق الشريعة الإسلامية يعتبر شأناً داخلياً صومالياً، طالما أن ذلك يتم فى إطار من القبول والرضى من جانب قطاعات واسعة فى المجتمع الصومالى. ولا يجب أن يمثل ذلك تهديداً لأى أطراف دولية أو إقليمية، طالما أن هذا التطور لم يترتب عليه اتخاذ خطوات عدائية من جانب المحاكم ضدها.

الرابع: أن الوضع الحالى لتنظيم القاعدة يجعله أضعف بكثير من أن يكون قادراً على تقديم الدعم للمحاكم الإسلامية أو الوقوف وراءها أو تسيير حركتها. فالضربات العنيفة المستمرة التى تعرض لها التنظيم من جانب الولايات المتحدة وحلفائها فى إطار الحرب العالمية على الإرهاب منذ هجمات ١١ سبتمبر أضعفت كثيراً من قدرات هذا التنظيم، سواء من حيث خسارته لمركز عملياته



مدير مركز مكافحة الإرهاب الوطنى الأمريكى، أكد فى كلمته أمام الكونجرس فى ١٣ يونيو الماضى أن التطورات الجارية فى الصومال لا يجب أن تدفعنا للقفز إلى استنتاج بأن القاعدة أصبحت تسيطر على الصومال





«قاعدة» الصومال!

الرئيسى فى أفغانستان، أو من حيث مقتل واعتقال العديد من قادته وأعضائه الرئيسيين، أو من حيث ضرب قدراته المالية واللوجستية، أو من حيث القضاء على الكثير من خلاياه الموجودة فى الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأوسط.

وكان من شأن هذا الوضع بالتالى أن أصبح تنظيم القاعدة الآن مفككاً ومطارداً وعاجزاً عن القيام بفاعلية بعمليات التجنيد والحشد والتعبئة والتخطيط والتنفيذ والتمويل للعمليات المسلحة، أو عن تقديم الدعم للجماعات القريبة منه فكرياً فى صراعها على السلطة فى مجتمعاتها المحلية. وهناك ما يشبه الإجماع بين الباحثين المعنيين على أن تنظيم القاعدة تحول منذ فترة ليست بالقصيرة إلى مجرد رمز روحى وحركى للجماعات الأصولية المناوئة للولايات المتحدة والغرب، بحيث يتم استلهام نموذج القاعدة من حيث المرجعية الفكرية والبنية التنظيمية وتنفيذ العمليات الإرهابية ضد مصالح الولايات المتحدة وأصدقائها.

والحديث، إذن، عن دور رئيسى للقاعدة فى التطورات الجارية فى الصومال هو أمر يخدم مصالحها، ويعطيها وزناً أكبر بكثير من وزنها الحالى، ولعل هذا هو أحد أبرز الأسباب الكامنة وراء حرص كبار مسئولى الإدارة الأمريكية على حصر الحديث عن دور القاعدة فى الصومال فى نقاط محدودة، على نحو ما أوضحنا، وحتى لا يبدو كما لو أن الضربات التى وجهتها الولايات المتحدة ضد هذا التنظيم لم تفلح فى القضاء على فاعليته وقدراته الحركية.

والأقرب للحقيقة هو أن تحولات الصراع الداخلى فى الصومال، وبروز اتحاد المحاكم الإسلامية كقوة مهيمنة على الساحة الصومالية، هى مسألة ترتبط بالديناميات الداخلية للصراع، وبموازين القوى المحلية، أكثر مما ترتبط بوجود دور للقاعدة أو غيرها فى هذه التطورات. وحتى بافتراض صحة وجود عناصر للقاعدة فى الصومال، ممن تطاردهم الولايات المتحدة لمسئوليتهم عن تفجيرات سابقة، فإن هذا لا يعنى بالضرورة أن الصومال أصبحت ملاذاً آمناً القاعدة أو نقطة انطلاق لعملياتها فى الخارج.

والإشكالية الرئيسية هنا أن حصر الاهتمام الدولى والإقليمى بما يجرى فى الصومال فى الجزئية المتعلقة باحتمال وقوف تنظيم القاعدة وراء اتحاد المحاكم الإسلامية قد أضاع فرصة هامة لإدراك الدلالات الأعمق لبروز المحاكم كقوة مهيمنة على الساحة، باعتباره أمراً ينطوى بحد ذاته على فرصة غير مسبوقة لإنهاء حالة انهيار الدولة فى الصومال، لاسيما إذا تضافرت قدرات المحاكم مع الحكومة الانتقالية من أجل تحقيق الأمن والاستقرار فى البلاد. وربما يكون التعامل الإيجابى مع اتحاد المحاكم الإسلامية هو وحده القادر على دفعها نحو الاعتدال، بينما يبدو من المؤكد أن توجيه اتهامات غير مؤكدة لها، أو محاولة عزلها أو ضربها عسكرياً، هو الذى يمكن أن يدفعها بالفعل نحو التطرف، بل وإمكانية توثيق علاقاتها مع فلول تنظيم القاعدة. ■

الـهـوامـش

(1) International Crisis Group (ICG), "Counter-Terrorism in Somalia: Losing Hearts & Minds", ICG Africa Report, No. 95, 11 July 2005. p70

(٢) د. بطرس بطرس غالى، ٥ سنوات فى بيت من زجاج (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩)، م. س.، ص. ١٢٥.

(٣) كان بن لادن قد أدلى بهذه التصريحات فى حديث إلى عبد البارى عطوان رئيس تحرير صحيفة القدس العربى التى تصدر فى لندن، وهى موجودة باقتباس فى المصدر السابق مباشرة.

(٤) مصدر هذه المعلومة هو عبد البارى عطوان فى حديث لقناة الجزيرة، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١.

(5) Gregory Alonso Pirio and Hrach Gregorian, "Jihadist threat in Africa", Middle East Times (http://www.metimes.com), July 2006.

(6) Mary Jo White, "Press Release on the Indictment of Bin Laden and Atef Indicted for bombings of U.S. Embassies in Kenya, Tanzania", Press Release, U.S. Department of State, Nov. 4, 1998.

(7) Ken Menkhaus, "Somalia: In the Crosshairs of the War on Terrorism", Current History, May 2002.

(٨) تيم غولدين وبيل بيركلى ودونالد ماكنيل، «مسئولون أمريكيون: أدلة علاقة مجموعة البركات الصومالية بابن لادن ضعيفة»، جريدة الشرق الأوسط، نقلا عن خدمة نيويورك تايمز، ١٤ أبريل ٢٠٠٢.

(٩) جرى التعبير عن هذه المخاوف من جانب العديد من كبار مسئولى الإدارة الأمريكية، أبرزها تلك التى عبرت عنها مساعدة وزيرة الخارجية الأمريكية للشئون الأفريقية، جينداى فريزر، فى شهادتها أمام اجتماع مشترك للجنتين الفرعيتين لأفريقيا وللإرهاب الدولى ومنع الانتشار التابعتين للجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب الأمريكى، فى ٢٩ يونيو ٢٠٠٦، ثم كررتها فى شهادتها أمام لجنة الشئون الأفريقية بمجلس الشيوخ الأمريكى، فى ١١ يوليو ٢٠٠٦.

(10) Bill Gertz, "Al Qaeda group controls Somalia", The Washington Times, 19 June 2006.

(11) Chris Tomlinson, "Is Somalia a haven for al-Qaeda?", Mail & Guardian Online (http://www.mg.co.za), South Africa, 20 June 2006.

(12) Ken Menkhaus, "Terrorism in Somalia: Threat Assessment & Policy Options", Special Report (Washington DC: The United States Institute of Peace), No. 113, Jan. 2004, p. 9.

كتاب الزاوية

غسان توينى

سر المهنة وأصولها

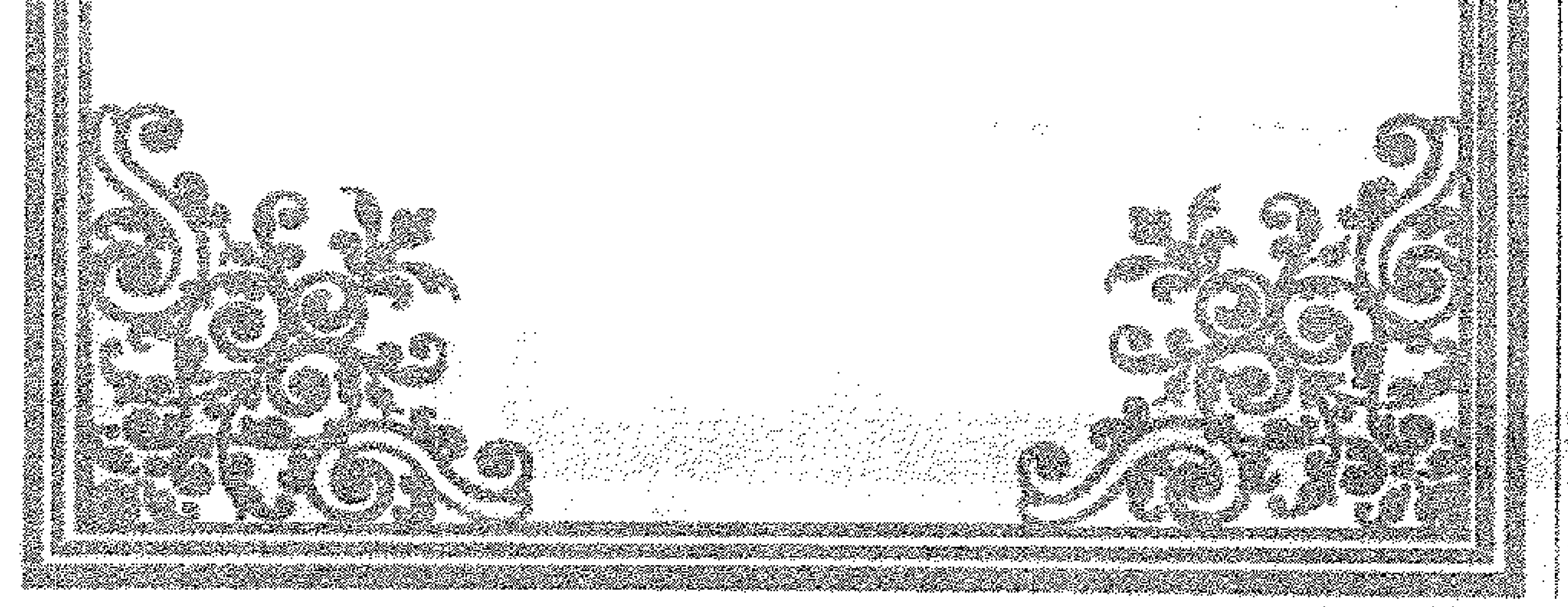
هذا كتاب عن الصحافة والصحفيين، «نظمه» صحفى ترك الصحافة حينًا، بل أحيانًا، ولكن الصحافة لم تتركه، بل ظلت ملازمة لتصرفه سياسيًا ودبلوماسيًا.

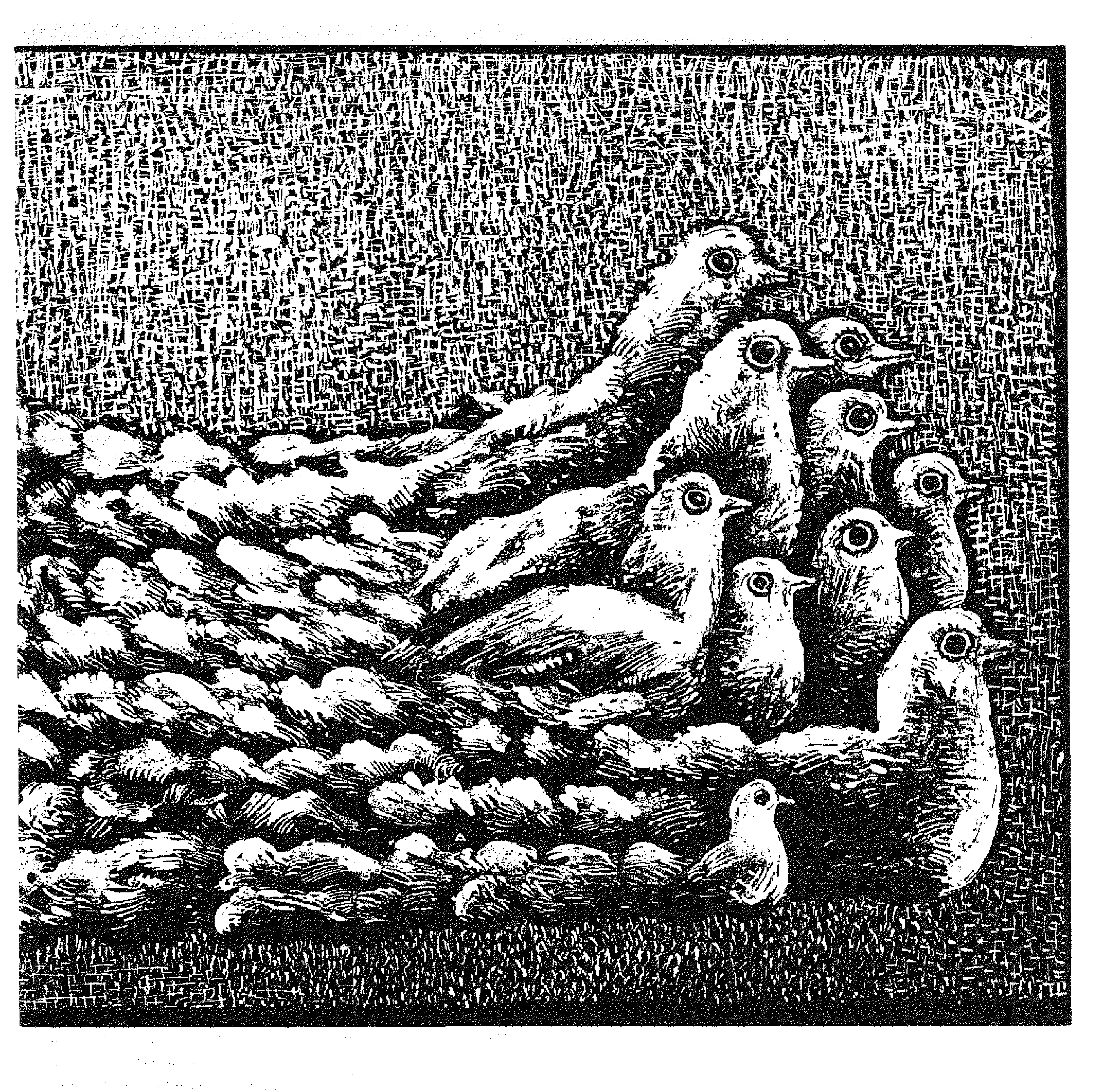
غسان توينى أحد أبرز الصحفيين والسياسيين اللبنانيين وصاحب جريدة «النهار» اللبنانية العريقة. وتقول مقدمة الكتاب وهو بعنوان سر المهنة.. وأصولها.. النهار كتاب للتسعينيات: كان يرجى لهذا الكتاب، يوم باشرت «النهار» جمع عناصره وتنظيمه، أن يصدر فى ذكرى مرور خمسين سنة على تأسيسها. ولكن الكتاب لم يصدر فى موعده، فى ٤ آب ١٩٨٢، لأن الاجتياح الإسرائيلى آنذاك حال دون أى احتفال، وظل «الكتاب» مشروعًا ينتظر نهاية الحرب.. فجاء عام ١٩٩٠ والحروب لا تزال هى الأقوى.

«كتاب التسعينيات» أرادته «النهار» أن يكون عودة إلى «سر المهنة»: كيف هى، كيف كانت، كيف تمارس، وكيف تكون حرة وتصون حرياتها، سياسيًا واقتصاديًا، وما هى أصولها ومَن، مَن هم الأصول.

❖❖❖

وتجىء هذه الذكريات سجلاً سياسيًا عبر ما فيها من وقائع صحفية ونظرات.. وليدة تعامل غسان توينى مع «النهار» وعبرها مع الصحافة من عام ١٩٤٨، يوم تولى رئاسة التحرير، إلى اليوم الذى قال فيه إنه يكتب «المقال الأخير»، عام ١٩٧٧، فاستمر بعد «المقال الأخير» أغزر منه قبله، وإن من منابر أخرى، إلى أن عاد إلى «النهار» مشتاقًا متلهفًا كمن يعود من غربة.





فى البحث عمّا

تعرضتُ إلى مشهد القتل، لأول مرة، حين كنت فى الحادية عشرة من العمر. وكان ذلك سنة ١٩٤٤م، خلال الاضطراب الفئوى الذى ساد فى السنوات الأخيرة

عـن مجـلـة:
The New Statesman

ترجمة: حمزة بن قبلان المزينى

لحكم الراج البريطانى (للهند)، الذى انتهى سنة ١٩٤٧م. فقد رأيت حينها شخصا لا أعرفه ينزف دما غزيرا وفجأة سقط عبر بوابة حديقة بيتنا، طالبا المساعدة وقليلا من الماء. فناديت والدى، فى أثناء إحضارى ماء له. ثم نقله والدى بسرعة إلى المستشفى بسيارتنا، لكنه مات هناك متأثرا بجراحه. وكان اسمه «قادر مياه».

وقد مهدت الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين التى سبقت الاستقلال كذلك إلى تقسيم الوطن إلى الهند والباكستان. واندلعت المذابح بشكل درامى مفاجئ، ولم توفر البنغاليين المسالمين دائما. وقُتل «قادر مياه» فى مدينة دكا التى كانت المدينة الثانية (بعد كالكوتا) فى الهند غير المقسمة، وهى التى ستصبح، بعد التقسيم، عاصمة باكستان الشرقية. وكان والدى أستاذا فى جامعة دكا، وكنا نسكن فى منطقة تسمى «وارى» فى دكا القديمة، غير بعيد عن الجامعة، فيما كان، بالصدفة، منطقة تسكنها أغلبية هندوسية. وكان «قادر مياه» مسلما، ولم تكن هناك أية هوية أخرى تتصل بإقدام الأوغاد الهندوس القساة لأن يهجموا عليه. وقد قتل مئات من المسلمين والهندوس بعضهم بعضا فى ذلك اليوم، وهو ما استمر يحدث يوما بعد يوم.

ولم يكن يبدو أن لتلك المجازر

آمارتيا سين

نجح المؤججون السياسيون أن يُقنعوا كثيرا من الناس فى كلتا المجموعتين، الذين يتصفون فى العادة بحب السلام، بأن يتحولوا إلى أوغاد قتلة منتمين. فقد أُقنعوا ليظنوا أنهم ليسوا إلا هندوسا أو إلا مسلمين





الدموية أسبابا واضحة، لكنها كانت بالطبع ثمرة للتخطيط الدقيق المدفوع بدوافع طائفية تتصل بطرق مختلفة بالمطالب السياسية من أجل تقسيم الهند. ولم يكن لتلك الاضطرابات القاتلة أن تستمر طويلا؛ إذ ستتبخر من الجانبين فى البنغال بعد التقسيم. وسوف يختفى العنف بين الهندوس والمسلمين سريعا، وهو ما جعل من السهل إبراز خصائص أخرى للهوية الإنسانية.

بل إن مدينة دكا سوف تتفجر، بعد سنوات قليلة، بالوطنية البنغالية، مع ما صحب ذلك من احتفال صاخب باللغة البنغالية والأدب البنغالى والموسيقى البنغالية والثقافة البنغالية. وهى كلها مشتركة بين المسلمين والهندوس البنغاليين. وكان لعودة الحياة للفخر القوى بغنى الثقافة البنغالية المشتركة أهمية خاصة بنفسها، ذلك أنها كانت قد اختفت بشكل كاسح خلال سراب الاضطراب الذى نتج عن العنف المتبادل بين الهندوس والمسلمين. لكن لها ارتباطات سياسية كذلك، فهى ترتبط بصورة خاصة بالرفض فى باكستان الشرقية (أى الشق البنغالى من الباكستان) لعدم المساواة الواضح جدا فى القوة السياسية والمكانة اللغوية والفرص الاقتصادية بين شقى الدولة الإسلامية (أى باكستان) التى لم تندمج اندماجا تاما.

وأدى اغتراب البنغاليين فى نطاق باكستان فى نهاية الأمر إلى تقسيمها، فى ديسمبر ١٩٧١م، وقيام دولة بنغلادش الجديدة العلمانية الديمقراطية، واتخذت دكا عاصمة جديدة لها. وفى أثناء المذابح التى حدثت فى دكا فى مارس ١٩٧١م؛ أى فى أثناء عملية الانفصال المؤلمة، حين كان الجيش الباكستانى يحاول بعنف أن يقضى على الثورة البنغالية، كانت الانقسامات الخاصة بالهوية تُحدَّد بحسب حدود اللغة والسياسة، لا الدين، إذ كان الجنود المسلمون من باكستان الغربية يرتكبون الفظائع. ويقتلون. المعارضين (أو ما يشتبه بأنهم معارضون) الذين كان أغلبهم مسلمين من باكستان الشرقية. وقاتل الفصيل المكوَّن حديثا، حينذاك، والمسمى «بوكتى باهينى» (فصيل الحرية) من أجل الاستقلال الكامل عن باكستان. وكان التقسيم بحسب الهوية الذى غذى «الكفاح من أجل التحرير» متصلا بقوة باللغة والثقافة (والسياسة، بالطبع)، بدلا من أن يكون متصلا بالتنوعات الدينية.

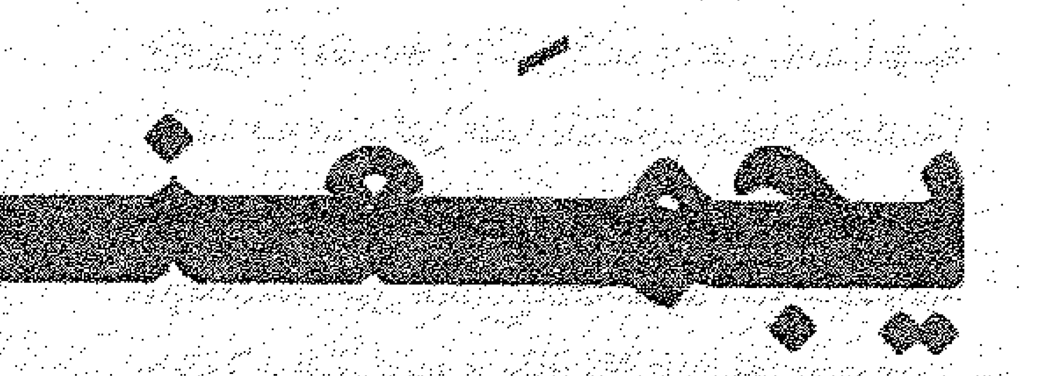
وبعد ستين سنة من موت «قادر مياه»، فى الوقت الذى أحاول أن أتذكر ما حدث من اضطرابات بين الهندوس والمسلمين فى الأربعينيات، فإن من الصعب أن أقنع نفسى بأن تلك الأمور الفظيعة قد حدثت بالفعل. ومع أن الاضطرابات بين مكوِّنات المجتمع فى البنغال كانت عابرة وعارضة (ولا يمكن أن تُقارن ببعض الحالات القليلة التى ظلت مشتعلة فى بعض أجزاء الهند الأخرى بما حدث خلال الأربعينيات)، إلا أنها خلَّفت وراءها آلافا وآلافا من القتلى الهندوس والمسلمين. وقد نجح المؤججون السياسيون (نيابة عما أسموه بـ«أهلنا») أن يُقنعوا كثيرا من الناس فى كلتا المجموعتين، الذين يتصفون فى العادة بحب السلام، بأن يتحولوا إلى أوغاد قتلة منتمين. فقد أُقنعوا ليظنوا أنهم ليسوا إلا هندوسا أو إلا مسلمين (وهم الذين يجب أن يطلقوا لأنفسهم العنان ليثأروا بقسوة من «المجموعة الأخرى») وأنهم ليسوا شيئا غير ذلك أبدا: أى أنهم ليسوا هنودا ولا ينتمون إلى القارة الهندية، وليسوا آسيويين، ولا أعضاء فى الجنس البشرى المشترك.

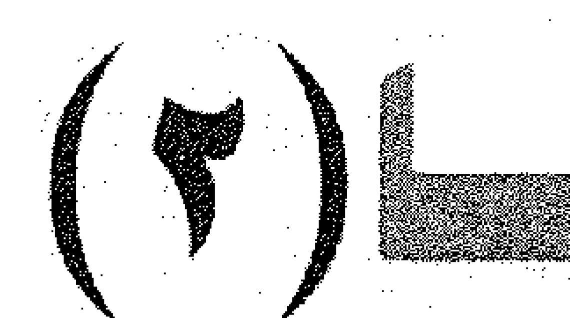
ومع أن الأغلبية العظمى فى كلتا المجموعتين لم تكن تفكر بالأمر بهذه الحدود الضيقة الثائرة إلا أن كثيرا منهم وقعوا أسرى لهذا النوع من التفكير، وكان أكثرهم دموية. وغالبا ما كان ذلك فى نهايات الطيف لكلتا المجموعتين التى تعانى من بعض المشكلات. فإنهم سيقوا إلى قتل «الأعداء الذين يقتلوننا» (بالطريقة التى تعرِّف بها كل فئة الفئة الأخرى). وقد نُظر إلى الأشخاص ذوى الجوانب المتعددة، عبر العدسات المضطربة للواحدية الطائفية، على أنه ليس لأى منهم إلا هوية واحدة فقط: وهى التى تُربط إما بالدين، أو على وجه الدقة، بالفئوية التى تقوم على الانتماء إلى المجموعة الدينية (ذلك أنه لم يكن لشخص ما ممن لا يمارس الدين الموروث أية حصانة من أن يكون هدفا للقتل).

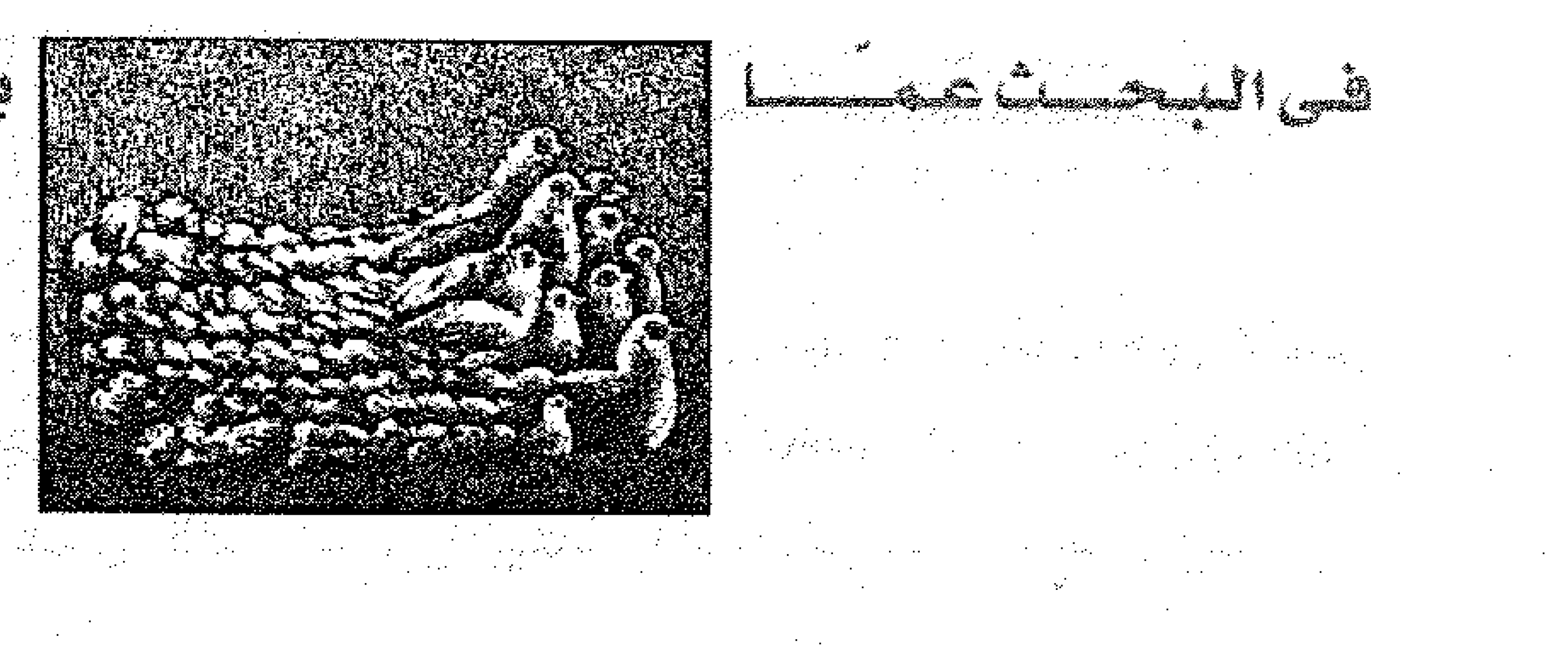
وطُعِن «قادر مياه»، وهو عامل مسلم يعمل بالأجر اليومى، حين كان فى طريقه إلى بيت مجاور لنا، من أجل أن يقوم بعمل يتقاضى عنه أجرا قليلا. وطَعَنه وهو فى الشارع أشخاصٌ لم يكونوا يعرفونه وأكثر الاحتمال أنه لم تلمحه عيونهم من قبل. وكانت الحادثة الدموية محيِّرة بشكل عميق، لطفل فى الحادية عشرة، بغض النظر عن كونها كابوسا دائما. فلماذا يتعرض إنسان للقتل بطريقة مفاجئة؟ ولماذا يقتله أشخاص لا يعرفون ضحيتهم، وهو الذى لم يكن بإمكانه أن يعمل أى شىء مؤذ لقاتليه؟ ويبدو أن النظر إلى «قادر مياه» على أنه لا يمتلك إلا هوية واحدة وحسب .ذلك أن يكون عضوا فى الجماعة «العدو» وهو الذى «يجب» أن يُهاجم وأن يُقتل احتمالا. شىء لافت للنظر بشكل كبير. وكان العنف المتصل بالهوية، لطفل تسكنه الحيرة من هذا الأمر، أمرا صعب الفهم. بل إنه أمر ليس سهلا على وجه الخصوص حتى لشخص متحير بالغ.

وفيما كان «قادر مياه» فى طريقه للمستشفى فى سيارتنا من أجل إسعافه قال لوالدى إن زوجته طلبت منه ألا يذهب إلى منطقة معادية خلال الاضطرابات. لكنه كان لابد له أن يذهب بحثا عن عمل، مقابل أجر قليل، لأن أسرته ليس لديها ما تأكله. وتمثَّل العقابُ على الحاجة، التى تسبب بها الحرمان الاقتصادى، بالموت. وكان الرابط المؤلم بين الفقر الاقتصادى والحرمان الخالص من الحرية (وغالبا ما يكون الحرمان من الحياة) اكتشافا مفزعا بشكل عميق صعق دماغى الغض بقوة لا يمكن احتمالها.

ومات «قادر مياه» بصفته ضحية مسلمة، لكنه مات كذلك فقيرا، أى عاملا عاطلا يبحث بشكل يائس عن عمل ضئيل وقدر قليل من المال يعيش به أسرته فى أوقات عصيبة. وأفقر المنتمين لأية مجموعة هم أسهل من يُقتل فى هذه الاضطرابات، لأنه يلزمهم أن يخرجوا من غير حماية للبحث عما يعيشون عليه يوميا وأن مساكنهم المتداعية يسهل اختراق العصابات القاتلة لها ببساطة وكذلك هدمها. وفى أيام الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين كان الأوغاد الهندوس يقتلون







المسلمين الفقراء الذين لا يملكون حيلة بسهولة فائقة، فيما كان الأوغاد المسلمون يغتالون الضحايا الهندوس الفقراء بكثرة. ومع أن الهويتين الاجتماعيتين لكلتا الجماعتين اللتين كانتا عرضة للهجوم الشرس مختلفتان، إلا أن الهوية الطبقية لهما كانت واحدة (بصفتهما عمالا فقراء لا يملكون إلا وسائل اقتصادية قليلة). ولم يُسمح باعتبار أية هوية أخرى إلى جانب الهوية الدينية. وقد أسهمت خدعة الحقيقة المفردة المختلف عليها فى إنقاص بنى الإنسان بشكل شامل وأدى إلى كسوف حرية التفكير عند الفريقين المتنازعين كليهما.

غرس العنف ورعايته:

لا يتصف العنف الطائفى عبر العالم اليوم بقدر أقل أو أكثر من الفجاجة، وهو ليس أقل أو أكثر اتصافا بالانتقاص، مما كان عليه الأمر قبل ستين سنة. ذلك أن الهمجية العارية تقوم على وجود اختلاط تصورى كبير فيما يخص مسألة هويات الناس، وهى التى تحوّل بنى الإنسان المتعدى الأبعاد إلى مخلوقات ذات بعد واحد.

إن كره الناس ليس أمرا سهلا. وتصوّر المقطوعة الشعرية التى كتبها «أوجدن ناش» بعنوان «دعوة من أجل أذى أقل نحو لا أحد» هذه القضية بشكل غاية فى الدقة، إذ يقول: «أى طفل فى سن المدرسة يمكن أن يقع فى الحب بشكل يشبه الأغبياء، لكن الكراهية، يا بنى، فن». فكيف يعمل هذا «الفن»؟ (إنه يعمل بالشكل التالى): يعمل قادة الاتهامات الكاذبة والمذابح بمهارة على نشر السراب الخادع عن هوية مفردة واحدة ثم يَسمحون لهذا السراب بالتجذر والنمو. وليس أمرا لافتا أنّ توليد هذا السراب يبدو مقبولا عند أولئك الذين يشتغلون بمهنة غرس العنف ورعايته. لكن هناك سؤالا كبيرا عن السبب الذى يجعل تنمية الهوية المفردة تحقق هذا المستوى من النجاح. إن محاولة أن ترى شخصا بمعايير واحدة فقط من بين هوياته المتعددة تصرّف فكرى فج بشكل عميق، ومع هذا، ونظرا لتأثيره الكبير، فمن الواضح أن من السهل اعتناقه والدعوة إليه.

ويستفيد الفن التجييشى الذى يرسّخ العنف من بعض الغرائز الأساسية ويستخدمها فى كبح حرية التفكير واحتمال التعليل المركّب. لكنه يتغذى كذلك على نوع من المنطق، وهو نوع مبتسر منه. فالهوية المعيّنة التى تُعزَل من أجل توظيفها فى عمل معين هى، فى معظم الحالات، هوية حقيقية للشخص الذى يراد تجنيده: فـ«الهوتو» هو حقيقة هوتو، و«النمر التاملى» من الواضح أنه تاملى، والصربى ليس ألبانيًا، والألمانى غير اليهودى الذى سممت عقله الفلسفة النازية هو ألمانى غير يهودى «جنتايل». أما ما يُفعل من أجل تحويل فهم الذات إلى وسيلة قاتلة فهو: (١) تجاهل أهمية الانتماءات والارتباطات الأخرى، و(٢) إعادة تعريف شروط الهوية «الوحيدة» بشكل عدائى خاص. وهذا هو الحد الذى تُشغَل عنده الفظاظة والسراب التصورى الخادع ويتجذران وينتشران.

كما أن إرغام الناس على الانحشار فى صناديق الهوية المفردة خصيصة تتصف بها كثير من النظريات الكبرى عن الثقافات والحضارات التى تتمتع بكثير من التأثير الآن. ولا تتبنى هذه النظريات ولا تُقرّ العنفَ. وهى بعيدة عن ذلك. ومع ذلك فإنها تحاول فهمَ بنى الإنسان لا على أنهم أفراد يتمتعون بهويات متنوعة بل على أنهم فى الأغلب أعضاء فى مجموعة اجتماعية ما أو فئة.

ومن ذلك، مثلا، أن الذين يصنّفون بحسب الحضارات غالبا ما يحشرون الهند فى صندوق «الحضارة الهندوسية». وهو وصف لا يعبأ، من بين أشياء كثيرة، بأكثر من مائة وخمسة وأربعين مليونا من المسلمين فى الهند (هذا إن لم نذكر السيخ والجينز والمسيحيين والفارسيين وآخرين)، كما يتجاهل الارتباطات الواسعة بين مواطنى الهند التى لا تعمل عبر الدين إطلاقا، بل عبر النشاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية والفنية والموسيقية وغيرها من الأنشطة الثقافية. وتقتطع المدرسة القوية جدا للتفكير الفئوى «هوية واحدة لكل إنسان»، تقوم على العضوية الفئوية، وهو ما ينتج عنه بالفعل التقليل من الانتماءات الأخرى كلها التى تجعل بنى الإنسان مخلوقات اجتماعية معقدة ومتشابكة وهو ما يتميزون به.

وفى هذا السياق من اللافت أن نتذكر أن التفكير الفئوى يبدأ، جزئيا فى الأقل، بوصفه مقاربة بناءة للهوية، عن طريق محاولة الاهتمام بالشخص فى «سياقه الاجتماعى». لكن ما يبدأ بوصفه محاولة نظرية محترمة بشكل خالص للنظر إلى بنى الإنسان بصورة «أكمل» وأكثر دقة «اجتماعيا» ربما ينتهى ليكون فهما محدودا بشكل مفرط للشخص على أنه أساسا عضو فى مجموعة واحدة فقط.

إن إنقاص بنى الإنسان إلى هويات مفردة يمكن أن يكون له آثار تفتيتية، وهو ما يمكن أن يجعل العالم أكثر عرضة لأن يكون مكانا للاحتراق. وكمثال على ذلك فقد قوبل التحديد الإنقاصى للهند على أنها «حضارة هندوسية» الذى أشرنا إليه من قبل بمزيد من الترحيب من الناشطين الطوائفيين فى حركة ما سمى بـ«هندوتفا». وبالمثل فيمكن لنظريات الخصوصية الإسلامية، حين تكون مقرونة بالجهل بصلة الهويات الأخرى المتعددة للمسلمين كلها، أن تُستغلَ لتوفر أساسا تصوريا لوجه العنف فى الجهاد (وهو مصطلح يمكن أن يستخدم لإثارة الدعوة للاضطرابات العنيفة كما يمكن أن يستخدم من أجل أعمال سلمية). ويمكن أن نرى هذا بشكل كبير فى التاريخ القريب لما يسمى بشكل ملتبس بالإرهاب الإسلامى. ويمكن أن يتجاهل الداعون للهوية الدينية العدائية، بشكل ربما تكون له نتائج مرعبة، الغنى التاريخى لهويات المسلمين المتنوعة بوصفهم علماء أو باحثين أو علماء رياضيات أو فلاسفة أو مؤرخين أو معماريين أو رسامين أو موسيقيين أو كتّابا.

وليس هناك من سبب لتركيز الناشطين المسلمين الغاضبين اليوم على الإنجازات الدينية للإسلام فقط فى تقرير ما الذى يمكن لهم أن يفعلوه لتغيير العالم المعاصر الذى يربطونه بالإساءة المنتظمة وعدم المساواة. وبالمثل، ومن جهة أخرى، فإن هناك سببا وجيها، فى مقاومة الإرهاب من هذا النوع ومحاربته، للاستشهاد بغنى كثير من الهويات لبنى البشر، لا الاقتصار على هويتهم الدينية وحدها. بل إن الهوية المفردة كثيرا ما تكون أضيق مما يمكن أن يَسمح به التصنيفُ العام لأن يكون الشخص مسلما. فقد استُخدم التمييز بين الشيعة والسنة، مثلا، بشكل قوى لغرض العنف الطائفى بين هاتين المجموعتين المسلمتين، من باكستان إلى العراق.

وقد أسهم كثير من العوامل التاريخية فى إضعاف العراق، ومن ذلك عشوائية حدوده التى رسمها المستعمرون الغربيون، واستحالة الفكاك من التشرذم الذى تسبب به التدخل (الغربى) العسكرى العشوائى الجاهل. يضاف إلى ذلك أن المقاربة السياسية لقادة الاحتلال المبنية على الطائفية صبت كثيرا من الزيت على النار (وهى مقاربة لا تختلف كثيرا عن المقاربة الرسمية البريطانية للهند أيام الاستعمار التى اشتكى منها غاندى كثيرا).

ولما كانت المبادرة السياسية التى تقودها الولايات المتحدة تميل إلى النظر إلى العراق بوصفه مجموعة من المجموعات الدينية، بدلا من كونه كيانا بمواطنين، فإن المحادثات غالبا ما تركز على قرارات قادة المجموعات الدينية، وخطاباتهم. ومن المؤكد أن هذا هو الطريق الأسهل للتعامل مع العراق، خاصة إذا نظرنا إلى التجاذب الموجود فيه وهو الذى أوجده بالطبع الاحتلالُ نفسه. لكن الطريق الأسهل فى المدى القصير ليس الطريق الأفضل دائما.

وقد أشار غاندى إلى تنمية مثل هذه الهوية الفريدة التى تقوم على الفئوية وتقديمها على أنها «تقسيم» دولة ما بما يشبه عملية تشريح الحيوان (فى تقطيع أوصاله إلى قطع صغيرة لدراستها)، وهناك أسباب وجيهة للاهتمام السياسى



العنف المتصل بالهوية، لطفل تسكنه الحيرة من هذا الأمر، أمر صعب الفهم. بل إنه أمر ليس سهلا على وجه الخصوص حتى لشخص متحير بالغ



يمثل هذه التقسيمة. كما أن من المهم بشكل حاد أن تتنبه إلى الهويات العراقية التى تؤدى إلى الاندماج، مثل الجنس والطبقة بالإضافة إلى الدين. ومن الممكن أن نتذكر تنبيه غاندى لرئيس الوزراء البريطانى، الذى كان يحكم الهند فى سنة ١٩٣١، القاضى بأن النساء «يمثلن نصف عدد سكان الهند». وهو خط من التفكير له علاقة بالعراق المعاصر الآن كذلك.

وللسراب الانغلاقى الخادع نتائج تترتب على الطريقة التى يُنظر بها إلى الهويات العولمية وتقدُّم. فإذا كان لا يمكن أن يكون لفرد ما أكثر من هوية واحدة، فسيصبح الاختيار إذن بين الوطنى والعالمى سباقا بين «العدم والوجود». لكن رؤية هذه المشكلة بهذه المعايير الإقصائية الكالحة يعكس خطأ فى الفهم. ذلك أن لعدد من المشكلات الاقتصادية والسياسية أبعادا عالمية، وأن القضايا الإجرائية التى تتعلق بها يجب أن تُدرس ويُهتم بها. وهناك سبب قوى لإصلاح المؤسسات الرسمية التى تجعل العولمة اتفاقا أكثر عدلا. ومن ذلك وجوب أن يُهتَم على جبهات مختلفة بالمشكلات العويصة التى يواجهها الضعفاء وغير المحميين، ويجب أن تقوم بهذه المهمة السياسات الوطنية والمبادرات الدولية وإصلاح المؤسسات الرسمية.

كما أن هناك قضية العدل الفكرية فى تناول التاريخ العالمى، وهو مهم للفهم الأكمل للماضى الإنسانى وللتغلب على الحس الخاطئ بالتفوق التام للغرب. ومن ذلك مثلا، أنه مع أن هناك بعض النقاش مؤخرا عن حاجة المهاجرين من بيئات مختلفة إلى أوروبا أو أمريكا إلى أن يعرفوا أشياء كثيرة بشكل أوفى عن الحضارة الغربية، فلا يزال من اللافت بشكل كبير أنه لا يوجد إلا وعى قليل بأهمية حاجة «البريطانيين الأصليين» و«الألمانيين الأصليين»، و«الأمريكيين الأصليين»، وآخرين إلى أن يتعلموا شيئا عن التاريخ الفكرى للعالم.

عالم ممكن:

وكثيرا ما يُزعم أن من المستحيل أن يكون هناك، فى المدى المنظور، دولة عالمية ديموقراطية. والواقع هو هذا، إلا أنه إن نُظر إلى الديموقراطية على أنها الحوار العام المعلَّل، فإننا لسنا بحاجة إلى أن نضع إمكان الديموقراطية المعولمة فى ثلاجة إلى أجل غير مسمى. إنها ليست خيارا بين العدم والوجود. فيمكن أن تُستغل كثير من المؤسسات فى هذه الممارسة للهوية العالمية، ويشمل ذلك الأمم المتحدة، لكن هناك احتمالا أيضا للعمل المتأصل، الذى بدأت فيه للتو منظمات أهلية، معظمها ليست مؤسسات حكومية، بالإضافة إلى أجزاء من الوسائط الإعلامية المستقلة.

وهناك دور مهم جدا لحركة العدالة العالمية. وربما تكون واشنطن ولندن غاضبتين من النقد المتنوع الواسع لاستراتيجيتهما فى العراق، مثلما أن من المحتمل أن تكون شيكاغو أو باريس أو طوكيو على درجة من الاستغراب للاحتجاجات ضد العولمة. وليس كل المحتجين على صواب، لكن كثيرا منهم يسأل الأسئلة ذات الصلة. فهناك حاجة لازمة فى العالم المعاصر لنسأل أسئلة لا تتصل فقط بالاقتصاد أو السياسة أو العولمة، بل كذلك بالقيم، والأخلاق وحس الانتماء الذى أبدع تصورنا عن العالم المعولم. لكن الهوية المعولمة يمكن أن تبدأ باستقبالها استقبالا تستحقه من غير أن تلغى انتماءاتنا الأخرى.

وقد كتب ديريك ويلكوت (الشاعر الكاريبى الحائز على جائزة نوبل فى الآداب)، فى سياق مختلف جدا، متعاملا مع فهمه المندمج للمجتمعات الكاريبية (رغم اختلافاتها الواسعة فى الأعراق والثقافات والاهتمامات والخلفيات التاريخية):

إننى لم أعثر قط على اللحظة
التى كان يَقسم عندها الأفقُ العقلَ
ذلك أنه فيما يخص الحدّاد من بيناريس
والحجّار من كانتون
فإنه كما يغوص خط اصطياد السمك، فإن الأفق
يغوص فى الذاكرة

إننا نستطيع، فى مقاومتنا للتقزيم من شأن بنى الإنسان، أن نوجد الاحتمال بعالم يمكن له أن يتغلب على الذاكرة فى تاريخها المؤلم وأن تتغلب على مخاوفها الحاضرة. ولم يكن باستطاعتى حين كنت فى الحادية عشرة من العمر أن أفعل الكثير لقادر مياه، فيما كان مطروحا ينزف ورأسه فى حجرى. لكننى أتخيل عالما آخر، ليس بعيدا عن متناولنا، يمكن فيه، له ولى معا، أن نؤكد هوياتنا المشتركة الكثيرة. إنه يلزمنا أن نؤكد، قبل أى شىء، أن أفقا ما لم يقسم عقلينا إلى نصفين. ■

كتاب الزاوية


القلم ينصف الحياة

غسان توينى

عندما أسس جبران توينى «النهار»، من أكثر من ربع قرن، كانت الصحافة اللبنانية خبراً متواضعاً، بطيئاً، ورأياً يستتبع القارئ، وطرائف من الأصدقاء وعنهم.. كل ذلك بأحرف غليظة، وأعمدة متطاولة، وصفحات متعارضة.. ولا عنوان! والقارئ الذى تدرج مع تقدم الخبر والرأى، والحرف والعمود والعنوان، لا يذكر ولا ريب كيف علم ببدء الثورة فى فلسطين أو كيف قرأ عن حصر التبغ والتنباك، كما أنه لا يتذكر، فوق ذلك، أن إعلان الحرب عام ١٩٣٩ كان بمثابة إعلان ثورة فى «النهار».. لأنه جاء بعنوان على عرض الصفحة نسميه الآن «مانشيت»، ولا نقرأ صفحة من دونه..

هذا القارئ، ماذا تقدم إليه هذه المجموعة؟ تاريخاً؟.. وما قيمة تاريخ ربع قرن فى عصر الذرة والفضاء الخارجى؟ مجموعة آراء وأخبار قديمة؟ ونحن فى أحرج حيرة حول ما يحمله لنا الغد؟ سر هذه المجموعة أنها تحمل أخبار كل سنة وآراءها من ربع قرن، وكأنها كتبت فى يوم، وكأنها أخرجت اليوم.. ما تفعله هذه المجموعة، إذاً، هو نقلك إلى قبل ربع قرن ثم المرور بك عبر السنين، واحدة واحدة، ستا وعشرين مرة، وكأنك تعيشها اليوم. تستفيق صباح ١٩٣٣ لتقرأ رأى جبران توينى فى الفوضى التى تنتاب حياتنا العامة، ولتسمع بموت الملك فيصل الأول، ثم تقفز إلى عام ١٩٤٣ لتقرأ - كأنها حصلت فى الليل - أخبار تعديل الدستور، فالاستقلال. ثم تنتقل إلى عام ١٩٥٢ «لتفاجأ» عند قراءة أخبار ما تم بالمراسيم الاشتراعية. وهكذا حتى ما حدث، فعلاً، هذا الليل، وأمس وأول من أمس!

(١٩٥٨)


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى الت
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
...دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
...دة صلى
www.maccarpet.com


أفلام السهم الذهبي
"كوكا"
تقدم
سامية
جمال
كوكا
سيجارة وكاس
اخراج
نيازي مصطفى

أفيش السينما، مثل أي إعلان تجاري، يعتمد على الصورة، والكلمة معاً، كل منهما يحاول أن يفسر الآخروأن يدل عليه، أي أن يكون بمثابة الآلة له.

ABBAS HELMY *présente*

NADIA LOTFI · CHOUKRI SARHAN · SALAH ZULFICAR

dans « L'OMBRE DU PASSE »

Scenario D'IBRAHIM EL WARDANI

Mise en scène de ATEF SALEM

Distribution : DOLLAR FILM COMPANY









أفيش الفيلم هو أول علاقة حميمة بين الفيلم والمرء..

حتى وإن كان هذا المرء لن يشاهد الفيلم، أو من غير محبي السينما، إلا أنه، أي الأفيش، سوف يحيط بالأعين، ويقف قبالتها في أماكن عديدة، وبأشكال مختلفة، حتى قبل العرض بفترة طويلة..

وتتعدد أماكن وجود هذا الأفيش، ابتداء من قاعة السينما نفسها، ثم الشوارع، والصحف والمجلات، والتليفزيون، ووسائل النقل في أحيان كثيرة، مثل الترام، والأتوبيس.

إذن، فالأفيش هو أول ما نراه من الفيلم، وبفترة طويلة.

لذا، يجب أن يكون بمثابة المختصر المفيد، والجذاب المؤكد الذي عليه أن يولد ما يمكن تسميته بالحب من أول نظرة بين الطرفين: المشاهد. الفيلم، مما يدفع بالمتفرج إلى انتظار العرض والتهافت لرؤية الفيلم، ربما في الحفل الأول، أو اليوم الأول، وأحياناً، في أيام لاحقة.

ومن هنا تجيء أهمية الأفيش الذي عليه أن يلعب دور زرع الحب من أول نظرة، أن يتضمن كل ما في الفيلم من جاذبية، أسماء النجوم، وأحياناً اسم المخرج، لكن صورة النجوم كما سيبدون، سوف تلعب دوراً أساسياً، بالإضافة إلى ترتيب الأسماء، فعلى الأفيش، يجب أن يظهر النجم في أفضل صورة، وأن يرى المتفرج ما يرغبه في نظرة واحدة، قد تحتاج إلى المزيد من التأمل وبإعجاب.

ولاشك أن الأفيشات السينمائية، قد صنعت من الشوارع معرضاً تشكيلياً مفتوحاً، متجدداً، وبأحجام مختلفة، فالناس تجد أنفسها محاطة بهذه الأفيشات، لا تستطيع أن تطردها بسهولة في حالة رفضها، بل هي وسيلة مؤكدة للتأمل، وفي كثير من الأحيان فإنها، مع مرور الوقت، ترتبط بذكريات بعينها، وفيما بعد تظل حالة ملحوظة من الحنين، ومن هنا تأتي جاذبية الكتب التي استجمعت أكبر عدد من أفيشات السينما، كي يمكنها لملمة أكبر عدد من الذكريات..

وقد قامت صناعة الأفيشات، عالمياً وعربياً منذ بداية السينما، وتحويلها إلى سلعة تجارية، مطلوب منها أن تجذب أكبر عدد من الناس لمشاهدة الفيلم، وهذا المنتج التجاري، يجمع بين التجارة، والفن، وينطبق عليه ما يمكن أن نقوله حول صناعة الإعلان في كل أنحاء الدنيا، بل إن السينما ظلت بأفيشاتها بمثابة الكيان المدلل في هذا العالم، باعتبار جماهيرية الفن، وذيوعه، وما يتسم به نجومه من شهرة فائقة.

وأفيش السينما، مثل أي إعلان تجاري، يعتمد على الصورة، والكلمة معاً، كل منهما يحاول أن يفسر الآخر وأن يدل عليه، أي أن يكون بمثابة الآلة له.

وقد وضع مصممو الإعلانات، والأفيشات السينمائية هذا المفهوم وهم يصممون سلعهم، من أجل أن يتقبلها الناس، وأن تحقق الهدف المنشود منها، لكن مع اختلاف واضح أن أفيش السينما يتعامل مع منتجات حية، تتمثل في النجوم، وطاقم العاملين بالفيلم، وأيضاً القصة التي سوف يشاهدها الناس، لذا فالإعلان يعد بمثابة وسيلة لترغيب الناس للذهاب لمشاهدة الفيلم، وقضاء وقت لطيف هي مدة عرض الفيلم.

وفي الولايات المتحدة، وأيضاً بعض الدول التي لديها مؤسسات سينما ضخمة، كانت هناك إدارات خاصة لتصميم الأفيشات، لديها فنانون ذوو سمات خاصة، أي أنهم رسامون مهرة، لكنهم لم يعملوا غالباً في رسم اللوحات، مثل مصممي أغلفة الكتب لدى دور النشر، أو مصممي المجلات في المؤسسات الصحفية.

في العالم، كانت شركة الإنتاج هي التي تتولى عمل الورش، ولم يكن يذكر اسم مصمم الأفيشات، لكن التشابه كان واضحاً في داخل الشركة الواحدة، ولم يكن المصمم يوقع أو يكتب اسمه، مثلما حدث في مصر، وفي أوروبا كانت شركات الإنتاج مثل جرمون، وغيرها هي أيضاً المسئولة عن إدارة تصميم الأفيشات، أما في مصر، فإن الأوربيين هم الذين قدموا الأفيشات الأولى، خاصة الأرمن الذين جاءوا للإقامة في مصر، ثم بدأت المؤسسات الصغيرة في الظهور، الواحدة تلو الأخرى، وسوف توجد في السمات التي سنتوقف عندها ما يتعلق بالمرحلة التاريخية، وبما تركته الأفيشات من أثر في الحياة.

على مدى تاريخ السينما العربية، فإن هناك مجموعة من السمات العامة يمكن أن نلاحظها في الأفيشات التي ملأت الشوارع بقوة قرابة ثمانين عاماً، وتلاشت من فوق أماكنها، لكن الكثير منها ظل ماثلاً في الذاكرة.

نجوم الأفلام: أسماء وصور، هم بؤرة هذه الأفيشات، ونقاط التركيز فيها، ويتوقف ذلك على شعبية النجم، وقبول الناس له، فهذا يعني أن النجم موجود بقوة في الفيلم، مثلما هو موجود في الأفيش، أي أن الأفيش هنا يعتبر بمثابة مدخل، أو مفتاح للفيلم، وبمتابعة هذه الملصقات طوال هذا التاريخ، فسوف تجد أن نجوماً بأعينهم، كانت صورهم، وأسماؤهم المكتوبة بشكل متفرد سبباً في جذب الناس، بمعنى أنه يكفي أن يظهر هذا النجم وحده على الأفيش، اسماً، وصورة، كي يؤدي غرضه، وقد حدث هذا مراراً، لكن فقط لأعداد محدودة من النجوم، خاصة في مجال الغناء، والكوميديا، ولعل أسماء محمد عبدالوهاب، وفريد الأطرش، وشالوم، وعبدالحليم حافظ، وإسماعيل يس، ثم عادل إمام، ومحمد هنيدي، كانت بمثابة بطاقة الأمان المضمونة حين توضع وحدها على الأفيش، وقد بدا هذا واضحاً في يوم سعيد، شاطئ الحب، فتى أحلامي، ليالي الحب، الإنسان يعيش مرة واحدة، وصعيدي في الجامعة الأمريكية.

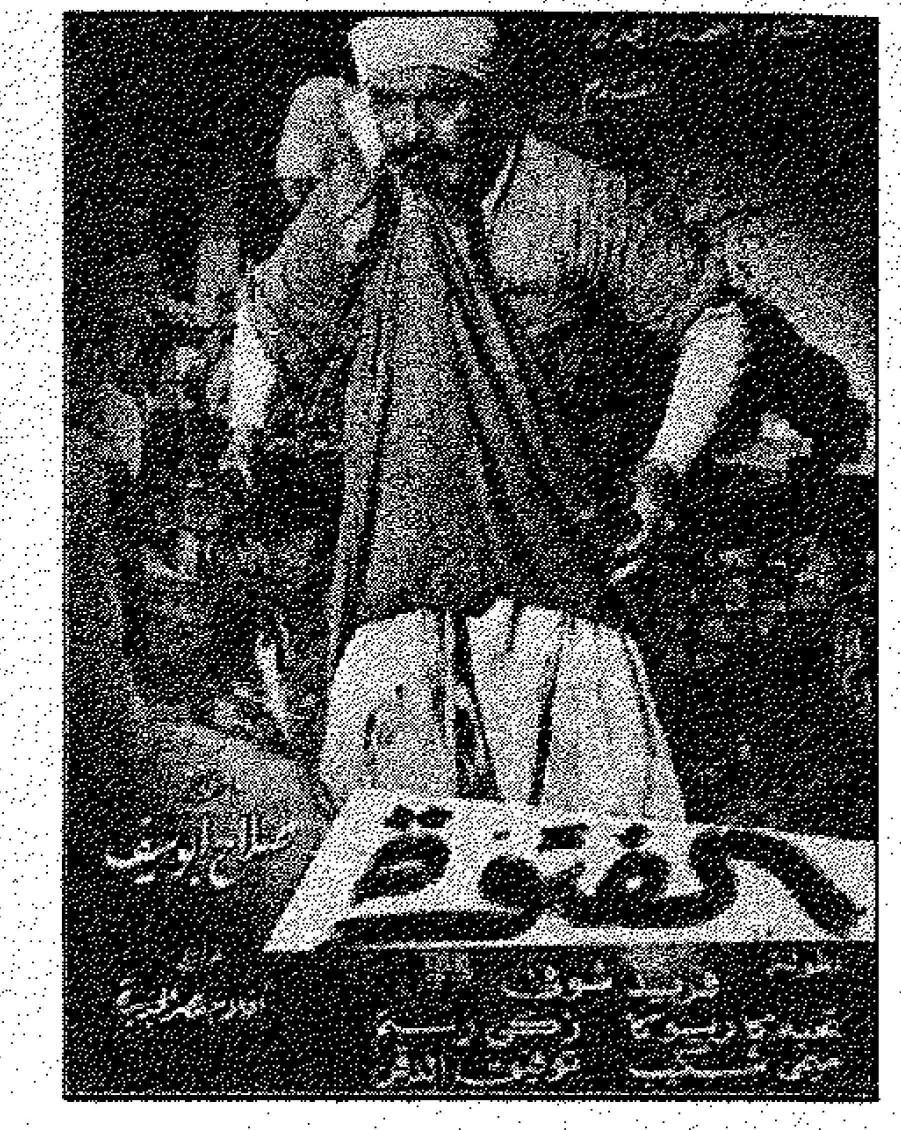
وقد ساعد في تفرد النجم وحده بالأفيش قوة اسمه أولاً، وأيضاً عدم وجود نجمة تمتلك الجاذبية نفسها في الأفلام المذكورة، ونذكر هذه الأسماء بشكل محدد، باعتبار أن النجومية كلها، كانت للنجم، وأن النجمات المشاركات كن أقرب إلى الدرجة الثانية.

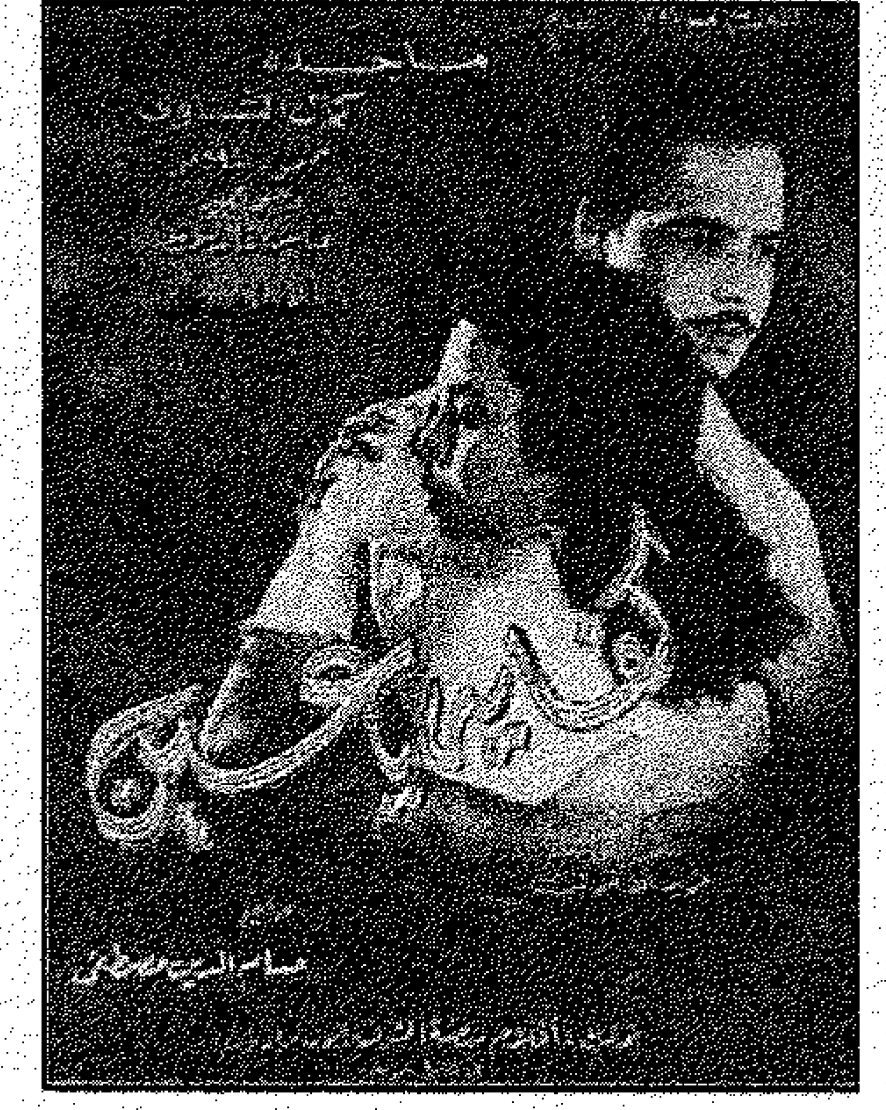
ولم تتكرر الظاهرة نفسها على الأفيشات بالقوة المذكورة، بالنسبة للنجمات، حتى مع فاتن حمامة، ونادية الجندي، وشادية، ونبيلة عبيد، وليلى مراد، بالطبع لأنه كان هناك نجوم إلى جوار هؤلاء اللامعات، لكن هناك بالطبع حالات استثنائية، قد تعود في المقام الأول إلى مصمم الأفيش، أو إلى النجمة المنتجة، أو المشاركة في الإنتاج، فقد حرصت نادية الجندي على أن تضع أسماء من يعملون أمامها في العديد من أفلامها، مثل شوق والخادمة أي أنها لم تنفرد وحدها بالأفيش، اسماً وصورة إلا في حالات قليلة، فهي كانت تراهن على الممثلين الذين يعملون أمامها، لكنها بلا شك قد اقتسمت لنفسها المساحة الأكبر، وقد حدث الشيء نفسه مع نبيلة عبيد، وقد توقفنا عند هاتين النجمتين، لأن كلا منهما حرصت أن تلقب نفسها باسم ما مثل «نجمة الجماهير»، «نجمة مصر الأولى»، مثلما أطلق البعض على فاتن حمامة اسم سيدة الشاشة من قبل التي تصدرت أفيشات قليلة بصورها مثل أريد حلاً.

هذا بالنسبة للأفلام التي اعتمدت في بطولتها على نجوم من طراز الأسماء التي ذكرناها سابقاً، وهناك حالات استثنائية متعددة، فعمر الشريف مثلاً يتصدر أفيش فيلمي أيوب، الأراجوز، وشالوم يتصدر أفيشات أفلامه ومنها: الترجمان، الرياضي، أما الأفلام التي تتضمن اثنين من النجوم، خاصة في الأفلام الرومانسية، فإن الأفيش يظهرهما بالقوة نفسها، وفي مشهد عاطفي، دون تكبير لأحدهما عن الآخر، مثلما شاهدنا في الوسادة الخالية، آه يا ليل يا زمن، سونيا والمجنون، معبودة الجماهير، امرأة للحب، عذراء ولكن،

محمود قاسم

من مقدمة كتاب:
أفيش السينما المصرية
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٥







الاعتراف الأخير، وتمضي الأحزان، سنوات الحب، رسالة من امرأة مجهولة.

ونحن لا نتوقف هنا عند أفلام بعينها، سواء من حيث تاريخ الانتاج، أو الأهمية الفنية، فهي أفيشات، موجودة أمام الناس، يشاهدونها بدرجاتها المختلفة، ومن حيث هذه السمة، فهناك أفلام تجمع شخصين، سواء اثنين من النجوم الرجال، أو اثنتين من النجمات النساء، لكل طرف منهم أهميته، في أن يتصدر الأفيش، في مواجهة زميلة، مثل وجهي شادية، وفاتن حمامة المتواجهين في المعجزة، ومثل وجهي محمود عبدالعزيز، ومصطفى فهمي على ملصق وجهاً لوجه الذي اختفى عنه تماماً وجه بطلة الفيلم الرئيسية سهير رمزي وكذلك أفيش فيلم رجل بمعنى الكلمة الذي يقف فيه كل من محمود يس، وعادل أدهم في مواجهة كليهما، وقد قيدا بقيد حديدي، و الخدعة الخفية الذي أخذ شطراً من وجهي كل من فريد شوقي وعادل إمام.

وتتدرج الأفيشات، فنرى بعضها، وقد ضم ثلاثة من أبطاله الرئيسيين، مما يعني أن الجاذبية تنحصر في هذا الثالوث، وقد تتعدد هذه الأفيشات بتعدد الأفلام التي يقوم ثلاثة شباب، أو ثلاث بنات ببطولتها، وما أكثرها، ومنها إحنا التلامذة.

كما أن هناك أيضاً الفقراء أولادي، الحب الصامت، هارب من الحياة.

وفي بعض الأحيان، نرى على هوامش هذا النوع من الأفيشات، إشارات، ورسوماً لبطلات أخريات شاركن في البطولة، ويتضح هذا في أذكياء لكن أغبياء، يوم الحساب، العاطفة والجسد، انهيار وأنت عمري.

أما الأفلام التي تعتمد على البطولات الجماعية، أكثر من أربعة أشخاص، لا يستطيع أي منهم وحده أن يحمل لواء فيلم، فإن الأفيش يحرص على ضمهم معاً، بأشكال متباينة، منها صور مرسومة لكل منهم متجاورين، في كادرات منفصلة، ولعل الأشهر في تلك السمة هو ثرثرة فوق النيل، وأيضاً الإخوة الأعداء، وفي أحيان أخرى تتناثر رسوم هؤلاء الأبطال، مثلما حدث في أفيشات من يطفيء النار، النصابين وأفراح الشباب اللبناني، بدون زواج أفضل، عمل إيه الحب في بابا، سنة أولى حب، السقا مات، حياتي عذاب، الدنيا على جناح يمامة، الكمساريات الفاتنات، الشيطان، الواد سيد الشغال، كلاب الحراسة، الذئاب الذي ضم ١١ نجماً في شبه دائرة.

الملصقات هي في المقام الأول لوحات مرسومة، قام بتصميمها فنان تشكيلي، تخصص غالباً في عمل هذا النوع من الرسوم، وهو ما هو في رسم الوجوه (بورتريه) الخاصة بالفنانين، وبشكل عام، فهناك ثلاثة أنواع من هذه الملصقات تنحصر في التالي:

رسوم توضيحية، رسوم كاريكاتيرية، صور.

وهناك فنانون بأعينهم برزوا في هذا النوع من العمل، وتفرغوا له، وأتقنوه بقوة، ولعل «جسور» هو الأكثر أهمية في رأينا، لقدرته البارعة في رسم الوجوه، وصياغتها بشكل جذاب، وتعادل موهبته في تصميم الملصقات موهبة وعطاء جمال قطب في تصميم أغلفة الكتب، خاصة الروايات، فجسور أيضاً هو مصمم أغلفة روايات نجيب محفوظ الثلاث، وهي بين القصرين، قصر الشوق، السكرية.

وقد دخل على هذا المجال رسامو كاريكاتير بارزون، على رأسهم مصطفى حسين الذي صمم أفيشات أفلام عديدة منها إلى المأذون يا حبيبي، سوبر ماركت، وبدت ملامح رسوم الفنان التي عرفناها في الكاريكاتير الخاص به في الصحف السيارة في الرسم الأقرب إلى حركة لأفيش إلى المأذون يا حبيبي، أما سوبر ماركت لمحمد خان، ففيه الجو الساخر لمصطفى حسين، حيث وضع ممدوح عبدالعليم في عربة صغيرة لحمل المشتريات في السوبر ماركت، وقامت نجلاء فتحي بدفعه أمامها.

وهناك أفيشات عديدة اعتمدت على الكاريكاتير، من أبرزها ٤ - ٢ - ٤ إخراج أحمد فؤاد، أما عادل البطراوي فقد رسم أفيش فيلم شيلني وأشيلك لعلي بدرخان.

كما توجد تجارب بالغة الأهمية، منها أفيش فيلم إسكندرية ليه ليوسف شاهين ١٩٧٩، كما استعانت أسماء البكري بالفنان الفرنسي جولو ليصمم فيلمها شحاتين ونبلاء، والذي صمم رسماً تخيلياً أقرب إلى ما يرسمه في مجلة سبيرو، والجدير بالذكر أن جولو رسم الرواية نفسها في هذه المجلة من خلال قصص مرسومة.

النوع الثالث من الأفيشات، من حيث نوع الرسوم على الأفيش تتمثل في الاستعانة بصور فوتوغرافية للنجوم، في بعض الأحيان قد تمتزج الرسوم المصورة، وفي أحيان أخرى تتم الاستعانة بالصور بشكل مباشر، مثلما رأينا في أفيشات أفلام من طراز مافيش تفاهم، مذكرات تلميذة، غصن الزيتون، صراع الجبابرة، خلخال حبيبي، يا حبيبي، عنبر الموت، يوم بلاغة، عودي يا أمي، وفي السنوات الأخيرة، وعن طريق الفوتو شوب، وبرامج الكومبيوتر، تم الاستفادة من الصور الفوتوغرافية لعمل مزيج جديد، بالغ التعقيد أحياناً لعمل الأفيشات، ولم توقع مثل هذه الأفيشات باسم صانعها، مثلما رأينا على ملصقات أفلام، عايز حقي، إللي بالي بالك، ميدو مشاكل، زكي شان، عوكل، باحبك وباموت فيك، وغيرها.

انتقلت ظاهرة الاقتباس من القصص والموسيقى إلى الأفيشات. لكن الاقتباس هنا لم يحدث بالصورة نفسها البالغة الاتساع التي رأيناها في القصص، والسيناريوهات، ولعله من الصعب أن نتذكر كل التجارب، لكن أغلب الحالات المتشابهة التي بين أيدينا، مأخوذة عن أفلام أمريكية، باعتبار أن أفيشات الأفلام الفرنسية، والإيطالية التي وجدت طريقها إلى دور العرض المصرية لم يكن أغلبها أصليا، وقد وصلتنا هذه الأفلام غالباً عن طريق شركات التوزيع الأمريكية المعروفة.

أشهر هذه الأمثلة التي لا تضيع من الذاكرة بسهولة، هو أفيش فيلم بئر الحرمان لكمال الشيخ عام ١٩٦٩، الذي خلا من توقيع المصمم وإن كان يقترب من أسلوب جسور، وهو يصور وجها كبيرا لسعاد حسني، وقد تدلى شعرها بطول الأفيش وعلى الجانب الأيمن كل من محمود المليجي، ونور الشريف، ومريم فخر الدين تعانق ابنتها، والأفيش هو صورة طبق الأصل من أفيش الفيلم الأمريكي، البريطاني هروب من القدر إخراج جون شيلزنجر عام ١٩٦٧، وبطولة جولي كريستي، كل ما فعله المصمم أن وضع ملامح وجه سعاد حسني مكان جولي كريستي، ووضع رسوم الممثلين المصريين مكان أبطال الفيلم الأجنبي وهم تيرتس ستامب، وبيتر فينش، وإلك بيش.

وفي نهاية الستينيات أيضاً، كانت ظاهرة اقتباس الأفيشات واضحة، فقد تم تصميم أفيش فيلم حواء والقرد إخراج نيازي مصطفى على النمط نفسه الذي رأينا عليه أفيش فيلم مليون سنة قبل الميلاد، وتصدرت سعاد حسني أيضاً، مرتدية ملابس امرأة بدائية، وتقف بالطريقة نفسها التي كانت عليها راكيل والش في الأفيش.

أما فيلم المشاغب إخراج نيازي مصطفى عام ١٩٦٤، فهو مأخوذ من أفيش لفيلم أمريكي ينتمي إلى المغامرات بعنوان قراصنة بحر الشمال بطولة كيروين ماتيوز، وفيه يقوم هذا الأخير بحمل فتاة، ويجري بها، وهو المشهد نفسه الذي رأينا عليه فريد شوقي يحمل سهير المرشدي في الفيلم المصري.

كما أن هناك تشابهاً ملحوظاً بين أفيش فيلم أرض الأحلام إخراج كمال الشيخ ١٩٥٧، وبين فيلم الرداء عام ١٩٥٣، وهناك تشابه آخر بين أفيش فيلم ثورة المدينة عام ١٩٥٥، وبين أفيش فيلم ذهب مع الريح، وهناك أيضاً تشابه ملحوظ بين أفيش فيلم هروب لحسن الصيفي، المأخوذ قصة، وأفيشاً عن الفيلم الأمريكي حطمت قيودي لستانلي كرامر عام ١٩٧٧، كما أن هناك تشابهاً بين الأفيش نفسه وبين أفيش فيلم رجل بمعنى الكلمة لنادر جلال، حيث هناك رجلان مقيدان بقيد حديدي. ينظر كل منهما إلى الآخر في تحدٍ.

ولعل من الأفيشات الحديثة التي لفتت الأنظار أنها مقتبسة، أفيش فيلم أمير الظلام عام ٢٠٠٢ لرامي إمام، المأخوذ بظلاله، والصورة غير المحددة للنجم، من أفيش الجزء الثالث من فيلم الأب الروحي لفرنسيس فورد كوبولا.









مثلما تتباين الأفيشات في وضع الصور، وأسماء النجوم، فإن التباين ملحوظ، بالنسبة لأسماء العاملين الفنيين، ابتداء من اسم الكاتب، أو السيناريست، ومدير التصوير، أو المونتير، واسم الشركة المنتجة الذي يوضع عادة في أعلى الأفيش، وأيضاً اسم الموزع الخارجي، والموزع داخل مصر، وفي بدايات السينما، كانت أسماء النجوم، والشركة المنتجة توضع عادة في أعلى الأفيش، وأيضاً اسم الموزع الخارجي، والموزع داخل مصر، وفي بدايات السينما، كانت أسماء النجوم، والشركة المنتجة هي الأساس على الأفيش، لكن لو نظرنا إلى أفيش فيلم الكلبشات لأحمد صقر، إنتاج عام ١٩٩١، وهو من أفلام المقاولات التي لم تجد طريقها للعرض على الشاشة فسوف تجد اسم المنتج سيد علي، وأسماء الأبطال الثلاثة سعيد صالح، وسمير صبري، وسماح أنور، هم أسماء كل الممثلين الذين عملوا في الفيلم، وهي تقارب الـ ٢٦ اسماً من نجوم الصف الثاني، والثالث، والرابع، بالإضافة إلى كاتب السيناريو، ومدير التصوير، والمونتاج، والمدير الفني، وآخرين، بالإضافة إلى اسم المخرج.

أثار ترتيب أسماء النجوم على الأفيشات الكثير من المتاعب، خاصة إذا تضمن الفيلم أكثر من بطل، وإذا تقاربت الأهمية النجومية بالنسبة لهذه الأسماء، حيث يحرص النجوم دوماً أن تكون أسماؤهم في الصدارة، لأن أي مساس بمكان الرسم يعني هبوط صاحبه إلى مصاف الدرجة الثانية، وقد عرف عن عادل إمام في بداية بطولاته المطلقة، أنه لم يكن يتوقف عند مسألة ترتيب اسمه، فترك اسم كل من نيللي في الغول، وسعاد حسني في المشبوه، حب في الزنزانة يأتي قبل اسمه، بالطبع لمكانة كل منهما من الناحية التاريخية، رغم أن عادل إمام كان البطل المطلق في هذه الأفلام.

لكن ما هو ترتيب الأسماء لفيلم تقوم ببطولته كل من إلهام شاهين، وفيفي عبده، في أوائل التسعينيات هو ليلة القتل فقد أثار ترتيب الأسماء على الأفيش مشاكل بين الاثنتين أدت بهما إلى أقسام الشرطة، ومن هنا يتفنن مصمم الأفيش في أن يضع أحد الاسمين أعلى، والاسم الآخر المعادل أقصى اليمين، قد تعرف من الأول، ومن الأعلى.

وقد تكرر هذا الأمر في فيلم الطيب والشرس والجميلة إنتاج نور الشريف، الذي وضع اسمه قبل زميله فريد شوقي. وفي أغلب الأحيان، فإن المنتج يستفيد من هذه الخلافات لصالح الدعاية للفيلم، وقد يمتثل، محاولة لإرضاء الطرفين، وربما أكثر، وفي تاريخ السينما هناك الكثير من هذه الحالات، وغالبا ما يتم تجاوزها. فقد قيل إن فاتن فريد دفعت تعويضاً لمحمود يس في أفيش فيلم امرأة دفعت الثمن، كما أن نبيلة عبيد أثارت الكثير من المشاكل مع المخرجين والمنتجين، حين فرضت أن يكتب اسمها منفرداً، وبأسفله، أو بأعلاه عبارة«نجمة مصر الأولى»مثلما حدث في أفلام توت توت، الغرقانة.

هناك عدة أنواع من الأفيشات، لكنها في الغالب تنقسم إلى نوعين من حيث الحجم، الأول يتم نشره في لوحات كبيرة، موحدة القياس، غالباً ما تكون ٣٠٠×٢٤٠سم، وهو قطعة واحدة غالباً، وتتكون من ٢٤ قطعة، أما النوع الثاني فهو يتكون من ٩٠×٦٠ سم، ويعلق على أبواب السينما، وفي الشوارع، ومن ناحية التصميم، فإنه في الغالب ما يكون الأفيش الأكبر مختلفاً تماماً عن قرينه الأصغر، وذلك بهدف التنوع، وفي الكثير من الأحيان يتم عمل أكثر من أفيش، سواء للكبير، أو للصغير، وذلك أيضاً للهدف نفسه، ومن أجل الإحساس بالتجديد.

لم تهتم المؤسسات المختلفة بتكريم الإعلانات إلا مع أواخر الثمانينيات، حيث بدأت جمعية تحمل اسم«الابتكار الإعلامي» في منح جوائزها لأفيشات الأفلام والجمعية المصرية للإعلان، كما أن جمعية الفيلم منحت جوائزها السنوية لأحسن أفيش لأفلام عديدة منذ بداية التسعينيات، منها السادة الرجال، اللعب مع الكبار، الكيت كات، شحاتين ونبلاء، والقائمة طويلة، وهذا أمر يستحق التنويه والإشارة.

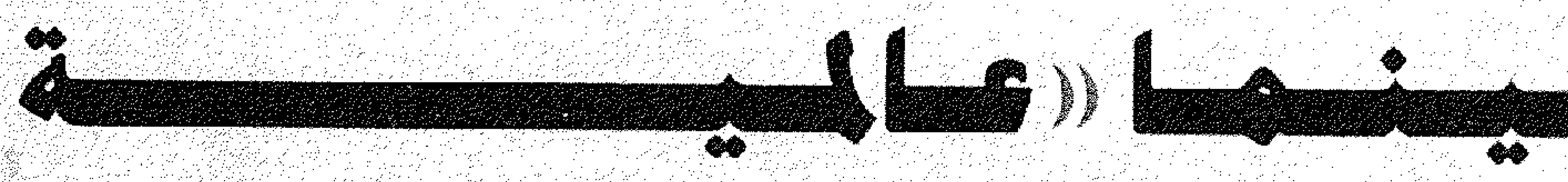
كثيراً ما تثير الأفيشات مشاكل رقابية، باعتبار أن المشاهدين يعدون بالملايين يومياً في مختلف الميادين، والإعلانات الجريئة هي التي استوقفت الناس، قبل أن تستوقف الرقابة نفسها، ومن المعروف أنه في العقود الأخيرة، شوهدت أفيشات عديدة، وقد قذفت من أشخاص مجهولين بالطين، أو ما شابه، لتغطية أجزاء بعينها من أجساد نجمات برزت على الأفيش، أي أن الرقابة الاجتماعية هنا كانت أكثر تشدداً من رقابة وزارة الثقافة، وقد ظلت هذه الظاهرة موجودة بقوة إلى أن ظهر ما يسمى بالأفلام النظيفة، فتقلصت ظاهرة رشق الأفيشات بالطين بشكل ملحوظ.

وهناك أفيشات بأعينها تمت تغطية الكثير من أجزائها بعد أن علقت في الشوارع، ولعل أشهر تلك الحالات أفيش فيلم شهر عسل بدون إزعاج لأحمد فؤاد عام ١٩٦٨، حيث ظهرت فيه الممثلة ناهد شريف، وقد تعرى ظهرها تماماً حتى ما قبل فتحة مؤخرتها، بينما ظهر زوجها في الفيلم حسن يوسف وهو يهم بتقبيلها، ولعله الأفيش الأكثر جراءة الذي صدم الناس، خاصة بعد هزيمة يونيه، وأثار استياء الناس، وسرعان ما تمت تغطية ظهر الممثلة بما يوحي أنها قد ارتدت ملابسها..

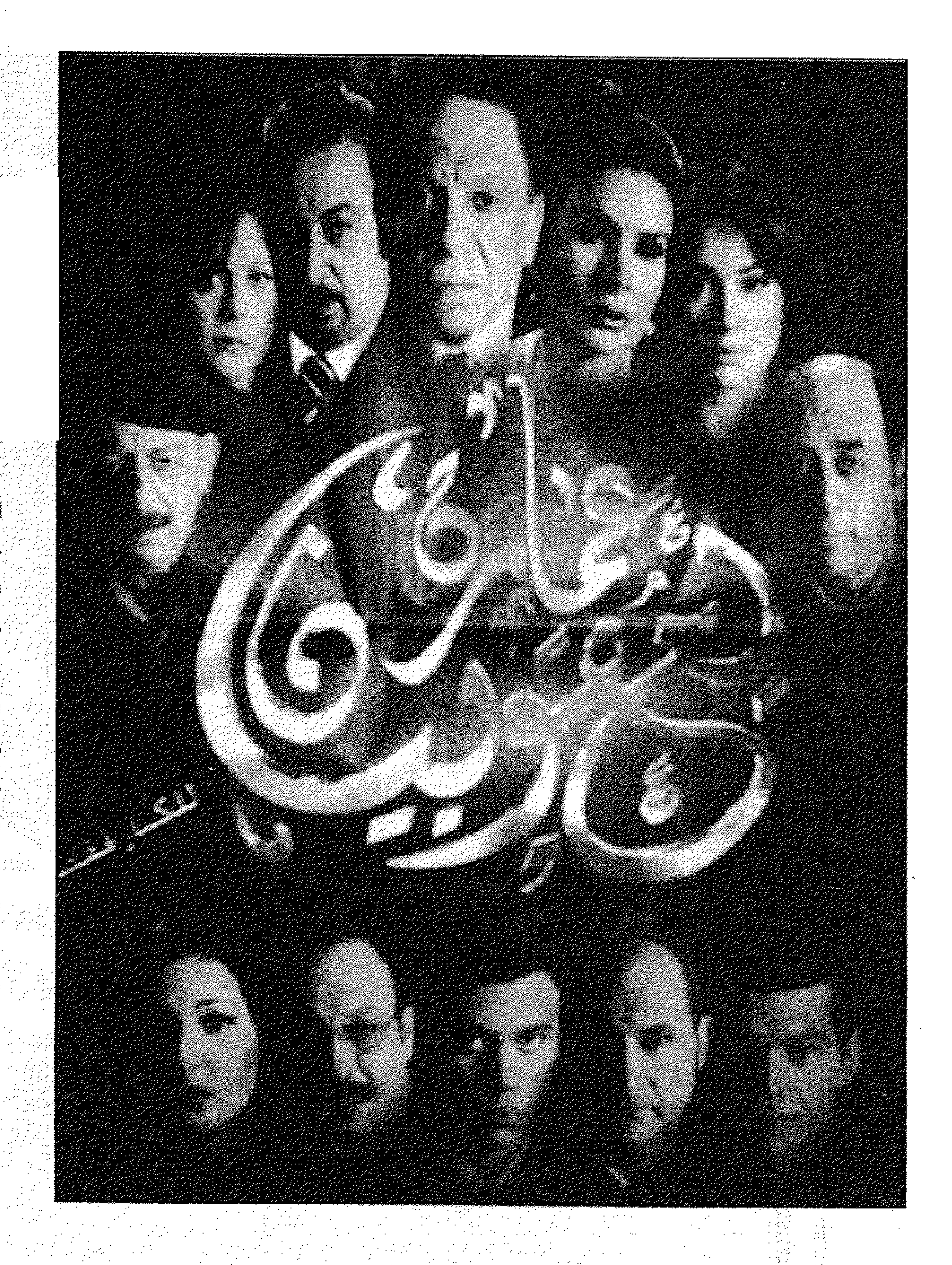
ومن التجارب الحديثة، فإن أفيش فيلم النوم في العسل لشريف عرفة ١٩٩٧، قد ظهر فيه كل من دلال عبدالعزيز، وعادل إمام، وشيرين سيف النصر، وقد اختفوا وراء ملاءة طويلة بينما ظهرت أجزاء فاتنة من سيقان دلال، وشيرين، وقد أثيرت حول هذا الإعلان الكثير من الاعتراضات، في فترة تصاعدت فيها حدة العمليات الإرهابية، وقضايا الحسبة، ضد الأفيشات المشابهة، لذا سرعان ما تمت تغطية السيقان العارية بشكل ملحوظ.

وقد يسوقنا هذا إلى مسألة تغطية الصدور على أبواب السينما، وقضايا الحسبة التي رفعت ضد صور بعينها لفيلم أبي فوق الشجرة، لكن من الواضح أن هذا النوع من الأفلام«النظيفة»فرض أيضاً أفيشات مختلفة، باعتبار أن أشياء كثيرة قد تغيرت في السينما في السنوات الأخيرة.

سيبقى الأفيش السينمائي، طيلة ما تبقى للسينما من أعمار، بمثابة الواجهة الأولى، ولغة الخطاب، بين الفيلم، والجمهور، سواء مشاهدة أم لا، وسوف يستفيد صناع هذه الأفيشات من التطورات التقنية، سواء من حيث التصميم، أو الطباعة، أو التوزيع، والنص، واختيار الأماكن، لكنها ستظل تعمل بالوتيرة نفسها، من حيث شدة التركيز على السبب الأول لنجاح الفيلم تجارياً، سواء كان اسم النجم، أو صورته، أو أسماء نجوم آخرين، أو اسم المخرج، ولأنه لم يعد في بلادنا اسم مخرج يمكنه أن يجذب الناس للمشاهدة، فسيبقى النجم مسيطراً لعقود طويلة على الأفيشات، ومن المرجح أن تعرف النجومية انقلابات حادة، ووجوهاً غير مألوفة، مثل الصعود المذهل الذي حدث لمحمد هنيدي ابتداء من صعيدي في الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٨، ولمحمد سعد في فيلمه اللمبي، وأغلب هذه النجومية ستكون للرجال في المقام الأول. ■



محمد يحيى جمال



■■ ولدت السينما صامتة وظلت كذلك طيلة سنواتها الثلاثين الأولى. ومع الفيلم الأمريكى «مغنى الجاز» بدأت السينما الناطقة فى ١٩٢٧، ومعها بدأت مهنة «ترجمة الأفلام» وتوزيعها فى العالم ومخاطبة الآخر وأيضا استغلال ذلك الآخر بصورة أو بأخرى حيث يمكن «تصويره» على أنه من أهل الخير أو من أهل الشر. أما السينما فى مصر فقد عرفت الإسكندرية الاختراع الجديد فى نهايات القرن التاسع عشر ومع سنة ١٩٠٧ شُيدت أول دار للسينما فى مصر. وعلى الرغم من الاختلاف بين المؤرخين المصريين على التاريخ الحقيقى للسينما المصرية وهل يبدأ بالفيلم الصامت أم الناطق؟ وهل نحسب تاريخ البداية من الإنتاج المصرى أم من إنتاج الأجانب المقيمين فى مصر؟ أم نحسب عمر السينما منذ أن قامت «صناعة السينما» الحقيقية بتأسيس استديو مصر وعوضا عن تجارب الهواة من السينمائيين. على أى حال أجمعت الآراء، بنسبة توفيقية، على أن التاريخ الوطنى للسينما فى مصر يبدأ مع أول فيلم روائى طويل وهو فيلم «ليلى» الصامت والذى عرض فى الإسكندرية فى نوفمبر عام ١٩٢٧. ولم تنتظر مصر كثيرا حتى شاهدت أول فيلم ناطق وهو «أولاد الذوات» الذى عرض فى عام ١٩٣٢. وكانت تلك المناسبة مهمة أيضا حيث إنها تؤرخ لأول فيلم مصرى يتم ترجمته إلى لغة أجنبية (الفرنسية) وفى الواقع هو أول فيلم مصرى يعرض فى الخارج أيضا حيث تم عرضه فى باريس بعد الانتهاء من عمل المونتاج.

ومع بناء أستوديو مصر الذى يعده بعض المؤرخين البداية الحقيقية لصناعة الفيلم فى مصر، جاءت «وداد» لتكون باكورة إنتاجه. وفيلم «وداد» يعتبر نقطة تحول فى غاية الأهمية فى تاريخ السينما المصرية. فالفيلم هو أول أفلام أم كلثوم، وكانت كوكب الشرق قد قامت ببطولة ستة أفلام أولها «وداد» وآخرها «فاطمة» فى سنة ١٩٤٧. وكانت أفلامها بداية انتشار اللهجة المصرية فى أرجاء العالم العربى. وكان لفيلم «وداد» سبق الاشتراك فى مهرجان البندقية لعام ١٩٣٦ ليسجل له التاريخ أنه أول فيلم مصرى يسعى نحو العالمية منذ سبعين عاما.

ومن هنا نرى الارتباط الوثيق بين السينما والترجمة. فمنذ البدايات الأولى للسينما وهى تتخذ أسلوبا عالميا يخاطب الآخر أكثر من القلم ومن الكتاب. وارتبطت السينما باللغة والحوار والإشارات غير المحكية والرمز السيميائى على نحو أكثر من الموسوعة المصورة أو الصحافة ذات الإمكانيات الكثيرة. إن تعدد الوسائط فى السينما من صوت وصورة ولغة وموسيقى ورموز متعددة جعلها واحدة من أكثر الأساليب ذات التأثير العميق على النفس والعقل البشرى واحتلت السينما بالتالى مكانتها الرفيعة كالفن السابع وطبعت القرن العشرين بصورتها الفريدة.

ومع دخول التليفزيون، الأبيض والأسود، وتعدد سبل الإعداد والإخراج للبرامج ظهرت المسلسلات والدراما التليفزيونية. وما نشرة الأخبار التى كان يقرؤها المذيع إلا أفضل مثال. لقد ولّت تلك الحقبة مع دخول تكنولوجيا الاتصالات التى جعلت النشرة الإخبارية أكثر تفاعلا وأكثر ديناميكية عن ذى قبل. ومع إمكانية البث بالألوان فى منتصف السبعينيات والانفتاح على العالم أكثر من ذى قبل تابع المشاهد المصرى العديد من المسلسلات التليفزيونية المترجمة بالإضافة إلى الفيلم المترجم. وساعدت الترجمة «التليفزيونية» على نجاح العديد من الأعمال الأجنبية فى مصر مثل المسلسل الأشهر «الهارب» وأيضا المسلسلات الأخرى مثل «بيتون بليس» و«المحترفون» و«دالاس» و«فالكون كريست». وعلى الرغم من أن معظم تلك الأعمال حملت عبارة «تمت الترجمة والطبع فى معامل أنيس عبيد» إلا أن احدا لم يتأمل تلك العبارة جيدا. فقد كان تأثير المهندس أنيس عبيد على صناعة ترجمة الأفلام وبعدها الترجمة التليفزيونية تأثيرا كبيرا. ولكن الغريب



يشاهد الجمهور العربى الترجمة التليفزيونية منذ حوالى نصف القرن، وعلى الرغم من الهجوم والاعتراض والحكم القاسى على الترجمة التليفزيونية من حيث عدم الدقة، أو النقص أو الركاكة فلم يتوقف الكثيرون عندها بالفحص والتأمل والدراسة!

أن تلك المهارة لم تصبح علما جامعيا يدرس ويبحث فى أصوله وتعقد له الندوات وتنشر عنه الدراسات. إن الترجمة بكافة فروعها الأدبية والقانونية والعلمية والتجارية الخ فى حاجة إلى تخصص وكذلك الترجمة التلفزيونية لما لها من تأثيرات متعددة ساعدت تكنولوجيا الاتصالات على إبرازها.

ومع الثورة الرقمية والسيطرة الإعلامية «شاهد» المواطن العربى إبان حرب الخليج الثانية هرولة القادرين ماديا إلى الفنادق الكبرى لمتابعة الضربة الأمريكية على العراق على قناة السى إن إن. بعدها استطاع المشاهد العربى أن يلحق بعصر القنوات الفضائية وكان دخول الأطباق اللاقطة سمة العصر وعنوان الحضارة فى منتصف التسعينيات. ومع دخول عصر الفضائيات وإمكانية الاشتراك فى باقة من القنوات المدفوعة التى تختار من القنوات العربية التى بلغ عددها حتى اللحظة ٢٥٥ قناة وقع المشاهد العربى فريسة للفضائيات. وبما أن معظم تلك القنوات لا تنتج برامج تكفى لساعات الإرسال فكان لزاما عليها أن تعيد بعض البرامج أو أن تتجه لترجمة بعض البرامج الأجنبية، حتى تلك التى لم يعتد عليها المشاهد العربى من قبل مثل ما يسمى بالبرامج الواقعية والتفاعلية. ومن ناحية أخرى تقوم بعض القنوات الحكومية «بتوجيه» برامجها لمشاهد معين خارج الحدود وتحاول أن تصل إليه عبر الترجمة التليفزيونية. ومن هنا نرى قنوات متخصصة مثل قناة «نايل تى فى» تقدم عليها معظم البرامج مصحوبة بترجمة إنجليزية.

وما من شك فى أن الثورة الرقمية قد فتحت أكثر من باب وأكثر من نافذة على العالم الخارجى وبالتحديد العالم الغربى. والنقاش دائر حول النقطة التى تفصل بين الانفتاح وبين الغزو الثقافى ولكن هذا موضوع آخر. إلا أن الثورة الرقمية وإمكانياتها التى أصبحت فى متناول الحكومات بل والأفراد قد وضعت القائمين عليها فى موقف حرج. فالنظرة التحليلية للقنوات الفضائية العربية، ومع نجاحات القلة منها، إلا أن الإدارة فى معظمها لم تكن مستعدة لهذا المجال الإعلامى. وواحدة من المشكلات الرئيسية هى مشكلة الترجمة التى تعرض على الشاشة.

الترجمة التليفزيونية

إن مصطلح ترجمة الأفلام أو الترجمة التليفزيونية يعنى تقديم العمل الروائى مصحوبا بترجمة تساعد على متابعة وفهم والتمتع بالعمل المقدم. وبالتالى فهى ترجمة انتقائية مختصرة ومبسطة بحيث تتيح للمشاهد متابعة الفيلم أساسا وليس ملاحقة الترجمة لفهم الفيلم. وبالتالى فان الترجمة لا تكون كاملة ويصح للمترجم اتباع أساليب فى الترجمة قد يراها البعض غريبة وغير مقبول منها على سبيل المثال التبسيط أو الاختزال أو الحذف. وهذا التفسير فى غاية الأهمية لكيلا يظلم المشاهد المترجم بأحكامه التى غالبا ما تتسم بالتسرع والقسوة والهجوم. بل وهذا التفسير مهم أيضا بالنسبة للمترجم الذى لم يدرس قواعد الترجمة «المرئية» والذى يتعامل مع الحوار وكأنه ترجمة «أمينة ودقيقة وكاملة» لوثيقة مكتوبة.

والترجمة المرئية تختلف من حيث الاتجاه. فعلى التليفزيونات العربية نشاهد الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. وهذا الأمر جدير بالاهتمام. فالمشاهد العربى يتحدث بلهجته العربية المصرية أو الخليجية أو الشامية أو المغاربية فى خضم أحاديثه الاعتيادية اليومية. ولكنه حين يتخذ مقعده أمام الشاشة فهو يقرأ باللغة العربية الفصحى (أو قل المعاصرة). ومن هنا تتلاشى اللهجات العربية تماما إلا عند بعض المفردات مثل وجبة «ورق العنب» بالمصرية أو «ورق الدوالى» بالفلسطينية أو «ورق عريش» بالشامية. وهذا يطرح للتأمل والمتابعة والدراسة طريقة ونظرية الترجمة واستخداماتها فى الوسط العربى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، كيف تصاغ «لغة الترجمة المرئية»؟ بمعنى آخر:

يشاهد الجمهور العربى الترجمة التليفزيونية منذ حوالى نصف القرن (دخل التليفزيون البلاد العربية فى سنوات مختلفة كان أولها فى العراق سنة ١٩٥٦). وعلى الرغم من الهجوم والاعتراض والحكم القاسى على الترجمة التليفزيونية من حيث عدم الدقة، أو النقص أو الركاكة فلم يتوقف الكثيرون عندها بالفحص والتأمل والدراسة! على الرغم من أنها أصبحت لغة شائعة الاستخدام مثل لغة الصحافة أو لغة كرة القدم أو حتى لغة التصريحات السياسية. فالتعبيرات الشائعة مثل «أيها الوغد»، «عليك اللعنة»، «تلك العاهرة» وما إليها أصبحت مفردات لا تستخدم إلا عند مشاهدة الأفلام والمسلسلات الأجنبية (والأمريكية على الأخص).

الرقابة والسينما والترجمة

ومثلما تكون الرقابة على الأفلام تكون الرقابة على ترجمة الأفلام، وتخضع الترجمة لعين الرقيب ومقصه. فليست كل الألفاظ المحكية والواردة فى الأفلام الأجنبية مقبولة على الشاشة العربية حتى وإن قام المترجم العربى بتحييدها وغسلها وتعقيمها تعقيما شديدا. وهناك أمثلة عديدة لتدخل الرقيب فى حجب بعض المشاهد وكذلك فى إسقاط بعض السطور. فعلى سبيل المثال يشكل فيلم الباتشينو «حليف الشيطان» مثالا جديرا بالدراسة والتأمل. فعند عرضه فى القاهرة فى عام ١٩٩٦ أثار زوبعة شديدة بسبب ما جاء على لسان البطل مما فسر على أنه «تطاول على الذات الإلهية»، وهذا حقيقى كما ورد فى مشهد الحوار مع المحامى. ولكن الأمر الغريب أن الرقيب وإن كان قد وافق على عرض الفيلم وسمح بعرض المشهد إلا أنه لم يوافق على ترجمة الحوار وأسقط الترجمة!! والمثال الآخر من فيلم «سورد فيش» والذى عرض تجاريا فى مصر بعنوان «كلمة السر» فى سنة ٢٠٠٤ فإن البطل جون ترافولتا يقدم نفسه على أنه إرهابى «وقد جاء من تل أبيب». إلا أن الترجمة حذفت عمدا ولم تذكر ما قاله الإرهابى!!

ومن ناحية أخرى، هناك حاجة إلى استطلاع آراء المشاهدين فى مستوى الترجمة: هل هى مقبولة وما هى علامات القبول؟ المرونة أم استخدام ألفاظ اكثر حيوية أم الالتزام بروح الفيلم بأقصى درجة؟. والإجابة على تلك الأسئلة ليست سهلة بتاتا. فالأمر يتعلق بشريحة معينة من المجتمع ذات سمات خاصة. فهى أولا شريحة متعلمة غير أمية. وهى مثقفة لدرجة تدرك الفارق الثقافى بين العربى والأجنبى. والأكثر من ذلك تعقيدا هو أن الأصوات التى تقدم الاعتراض على الترجمة بل والهجوم على المترجم أحيانًا تأتى من أولئك الذين يجيدون التحدث باللغة الأجنبية ولكنهم فى الواقع يجهلون مهمة الترجمة التليفزيونية والغرض منها وطريقة إعدادها.

فالترجمة التليفزيونية ليس الغرض منها أن تكون دقيقة وكاملة. فهى بالأساس تصاحب الحوار المنطوق. ومن البديهى أن الإنسان يتكلم بسرعة تفوق سرعة القراءة. والمناظر تتغير بسرعة وهناك حوار بين أكثر من شخص (ناهيك عن المؤثرات السمعية) والأهم من ذلك كله ليس هناك متسع على الشاشة لوضع الترجمة الكاملة. فالترجمة لابد أن تقتصر على سطرين فقط. والأهم من ذلك هو أن المشاهد، فى الأساس، يريد مشاهدة الفيلم وليس قراءته. ومن هنا كانت الترجمة بالضرورة انتقائية مختصرة ومبسطة. وبالطبع هناك مترجمون محترفون يدركون أن «خير الكلام ما قل ودل» ويحسنون اختيار اللفظ والتراكيب اللغوية التى تساعد المتفرج على المتابعة والفهم وأيضا الاستمتاع بالعمل الروائى المقدم على الشاشة.

لا سـينما «عالميـة» دون ترجمـة «عالميـة»

ترجمة الفيلم المصرى

إذا كان الوضع هكذا فى الاتجاه الرئيسى للترجمة التليفزيونية (الترجمة إلى اللغة العربية) حيث نرى مثل تلك التحديات على الشاشة فما هو الوضع بالنسبة إلى ترجمة الأفلام المصرية والأعمال التليفزيونية إلى اللغات الأخرى؟

بداية، فإن حجم الترجمات إلى اللغات الأجنبية الأخرى يكاد يكون معدوما. وهنا يتساوى الفيلم والمسلسل مع الكتاب العربى أو القصة العربية. فإن حجم الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية لا يعكس حجم أو مكانة الأمة العربية. ثانيا، عندما نتحدث عن ترجمة الفيلم العربى للغات الأجنبية فإن ذلك يكاد يكون مقصورا على مهرجانات السينما الدولية فقط وعندها تكون الترجمة مقصورة على اللغتين الإنجليزية والفرنسية. وهذا يطرح سؤالا هاما :

لماذا لا تترجم السينما العربية أفلامها إلى لغات أخرى لتفتح أسواقًا لتوزيع إنتاجها فى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا بل وأوروبا نفسها ؟ إن ترجمة الفيلم تختلف عن ترجمة الرواية العربية وهى طريقة أسهل وأرخص من ترجمة الأدب العربى. فعلى سبيل المثال، جعلت التكنولوجيا الرقمية فى مقدور الفرد أن يقتنى فيلمًا وأن يشاهده مدبلجا أو مترجما على اسطوانة واحدة مدمجة(الدى فى دى). وهذه التقنية العالية تتيح تخزين ترجمة للفيلم فى أربعين لغة ! ومع ذلك نرى الأفلام المصرية مترجمة إلى لغتين فقط هما الإنجليزية والفرنسية. وعلى الرغم من تعدد كليات الترجمة واللغات فى الجامعات العربية وبخاصة أقسام اللغات غير الإنجليزية والفرنسية لا نجد إلا اهتماما ضئيلا باللغات الأخرى. (يقدم التليفزيون العربى السورى نشرة الأخبار بالإسبانية ويترجم بعض المسلسلات العربية إلى الإسبانية).

أما بخصوص الترجمة ذاتها فهى تحتاج إلى عناية ودراسة على مستوى عال. والدليل على ذلك ضعف مستوى الترجمة على القنوات الفضائية التى تقدم أعمالا مترجمة بصورة تقنية رديئة وبأسلوب لغوى ضعيف. فمن الناحية الفنية قطعت الترجمة المرئية أشواطا بعيدة فى مجال تقديم الترجمة بخط واضح ولون مقبول وكذلك تقنية عالية لضبط توقيت دخول وخروج كل سطر من سطرى الترجمة. فلا يصح أبدا أن يضحك الممثل وتظهر الترجمة بعدها بثانية أو ثلاث! وليس من المقبول أن تظل الترجمة لمدة عشر ثوان على الشاشة مع تغير المشهد والأشخاص. إن مثل تلك الأمور لا تساعد المشاهد الغربى على الإقبال على مشاهدة الأعمال العربية أو محاولة التقرب منها ناهيك عن بذل الجهد للتعرف على قضاياها.

ومن أهم التحديات التى تواجه المترجم العربى الذى يقدم ترجمة للأفلام العربية هى لغة الحوار فى الفيلم. فهى لغة عامية غنية بتراكيبها ومفرداتها ولغة الإشارات الخاصة بها. ومن ناحية أخرى: نجد أن معظم الأفلام المصرية تعتمد على الحوار بكثافة شديدة مما يعقد من مهمة المترجم. فعلى عكس الأفلام الأجنبية حيث نرى الكاميرا تقوم بدور أكبر فى السرد الروائى للفيلم نرى أن الحوار فى الفيلم المصرى يقوم بدور الكاميرا أيضا. وفى رأى المخرج السورى نجدت أنزور فإن الأفلام المصرية أفلام «إذاعية» تعتمد أساسا على الحوار وليس على الكاميرا.

والأمر الآخر فى ترجمة الأفلام العربية إلى الإنجليزية أو الفرنسية هو مقدرة المترجم على الترجمة من العربية «العامية». وهذا أمر آخر بالغ الأهمية والحساسية: فإن مقدرة المترجم العربى الذى يترجم من اللغة العربية «العامية» إلى الإنجليزية مثلا موضع شك! وذلك لأن معظم، إن لم يكن جل، الجامعات العربية تقوم بتدريس الترجمة من الفصحى إلى الإنجليزية والإنجليزية إلى العربية الفصحى. وهناك بالتالى نقص شديد فى تناول مواضيع مثل ترجمة أدب الأطفال أو ترجمة الإعلانات أو ترجمة الأفلام. وهذا بيت القصيد! فعلى الرغم من أن صناعة السينما عمرها فى مصر بلغ ثلاثة أرباع قرن والتليفزيون نصف قرن إلا أن مجال الترجمة السمعية والبصرية لم يتأسس بعد. وما زالت الترجمة المرئية تمارس كمهنة بلا ضوابط يقوم بها مترجمون غير محترفين تنقصهم الخبرة والتدريب وإن كانت الجدية سمة أعمالهم إلا أن الغرض التجارى أكبر من الهدف الفكرى. وإن كان هذا لا يعيب النشاط ذاته، على المستوى الفردى، إلا أن توابع ذلك المنهج، من الناحية المهنية بالنسبة للسينما، يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

إن الترجمة السمعية البصرية أصبحت فرعا أساسيا من فروع علوم الترجمة وأصبح لها منتدى دولى وتعقد لها المؤتمرات الأكاديمية التى تبحث مجالات تطويرها وإجراء الأبحاث التى تهدف إلى دراسة سبل تنظيمها وتطبيقاتها العملية فى مجالات متعددة مثل ترجمة الأفلام التى تعرض على متن الطائرات (أمام الجميع الكبار والصغار) وترجمة الأنباء السريعة فى شريط الأخبار أسفل شاشة التليفزيون والترجمة التى تظهر فى ماكينات المصارف بل وترجمة المواقع على شبكة الإنترنت. ومن نواحى التطبيقات العملية دراسة سبل الترجمة المرئية للمشاهدين الصم والذين يعانون من ضعف السمع. ففى الدول الاسكندنافية صدر قرار بترجمة كافة البرامج إلى اللغة المحلية التى تذاع بها البرامج بحيث يستفيد منه الصم وضعاف السمع. وفى الهند يتم تطبيق ذلك القرار بهدف تنمية مقدرة القراءة للمواطنين. وما من شك فى أن الترجمة المرئية للبرامج الأجنبية تساعد فى تعلم اللغات وإن كان ذلك يتأتى بعد مقدار من التعلم النظامى للغة. ومن الملاحظ أن مجال الترجمة السمعية البصرية فى حاجة إلى اعتناء الكليات الجامعية به على مستوى الوطن العربى كله. فعلى الرغم من الاستثمارات الضخمة فى إنشاء مدن الإنتاج الإعلامى فى مصر والمغرب ودبى إلا أن الاعتناء بالترجمة السمعية والبصرية قد سقط من الحسبان. ففى مصر، وعلى الرغم من تعدد كليات اللغات والترجمة، لا يوجد سوى مكان واحد فقط لتدريس الترجمة السمعية البصرية وهو الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

والدراسة بها تحظى بقبول واسع ويشرف عليها مترجمون نشطون وإدارة واعية إلا أنها فى حاجة إلى استحداث الجانب العملى باستقدام أجهزة الترجمة التليفزيونية بحيث تكون أكثر فعالية من الجانب النظرى. هذا بالإضافة إلى منح الدورات الدراسية فى الجامعة طابعا أكاديميا وذلك عن طريق تطوير البرامج الدراسية ورفع مستواها الجامعى من مجرد شهادة أو دبلومة إلى درجة الليسانس، على الأقل. إن برنامج تدريس الترجمة فى الجامعة الأمريكية له تاريخ طويل بل وحافل وجدير بالاستثمار طويل الأجل فى مجال الترجمة السمعية البصرية من الناحية الأكاديمية وليس التجارية فقط.



الترجمة لابد أن تقتصر على سطرين فقط. والأهم من ذلك هو أن المشاهد، فى الأساس، يريد مشاهدة الفيلم وليس قراءته. ومن هنا كانت الترجمة بالضرورة انتقائية مختصرة ومبسطة

عمـــارة يعقـوبـيان

ما من شك فى أن «عمارة يعقوبيان» يعتبر نقطة فاصلة فى السينما المصرية. والسبب يرجع إلى أن الفيلم «يخاطب» ليس فقط الجمهور المصرى العربى وإنما يخاطب السينما العالمية بلغة سينمائية راقية. فالفيلم اعتمد فى بنائه على محاور ليست شائعة فى السينما المصرية: فهو ليس فيلم النجم الأوحد، والكاميرا تقوم بعملها جيدا وتتحرك كثيرا والإضاءة تلعب دورا مميزا، والمناظر تتعدد بسرعة معقولة والاختلاف الكبير هو أن الحوار لم يتصدر الأهمية بل أخذ مكانا «معقولا» فى البناء السينمائى للفيلم. والأهم من ذلك الحبكة الدرامية ومواضيعها. إن كل ذلك من شأنه أن يغازل أعضاء لجنة التحكيم فى مهرجان زيورخ حيث فاز بالجائزة الذهبية ومهرجان برلين (شارك فى قسم بانوراما) بعد أن عرض فى مهرجان كان السينمائى(خارج المسابقة) ومهرجانى ترايبيكا وقرطاج أو لدى مهرجان الفيلم العربى فى معهد العالم العربى فى باريس (حيث حاز على الجائزة الكبرى) بل وأن يمتلك فرصة التنافس على جائزة الأوسكار لأحسن فيلم أجنبى فى سنة ٢٠٠٧.

ولكن، رغم أن ميزانية الفيلم قد وصلت إلى ثلاثين مليونا من الجنيهات إلا أن المنتج يبدو أنه قد وقع فى نفس خطأ العديد من المنتجين وهو البخل والشح عند إعداد ميزانية ترجمة الفيلم إلى اللغة الإنجليزية. فوقعت الترجمة المرئية فى بعض من الأخطاء التى لا يصح أن يقع فيها فيلم فى حجم «العمارة». فعلى سبيل المثال، من الناحية التقنية: لابد أن يكون حجم سطرى الترجمة أكثر وضوحا(أكبر فى الحجم) وإن كان اللون الأصفر جيدا إلا أنه يجب مراعاة الخلفية الصفراء فى بعض المناظر والتى تتلاشى معها الترجمة. أما

من الناحية اللغوية : فإن الترجمة فى الكثير من الأحيان كانت تعكس، بل تعانى من، اللهجة المصرية النابعة من الحوار. وهذا لا يجب ان ينعكس فى الترجمة الإنجليزية التى يجب أن تكون على مقدار رفيع من البلاغة بل والبساطة حتى يتابعها المشاهد الأجنبى دون عناء. وكذلك التحكم فى «كمية» الترجمة المتواجدة فى السطرين: فليس كل ما يقال فى الحوار يترجم. والترجمة، فى سطرين، يفضل أن تكون «قليلة» وخير الكلام ما قل ودل.

إن ترجمة «يعقوبيان» فى حد ذاتها كانت مقبولة ولكن إن كانت النية قد عقدت على ترشيح الفيلم لجائزة الأوسكار فيجب إعادة النظر فى الترجمة فورا. والقائمون على الترشيح أولى بأن يأخذوا الترجمة المرئية على محمل الجد. فعلى سبيل المثال: يتساهل المخرجون فى الأفلام المصرية، كثيرا، مع الحوار بالكلمات الأجنبية ولا يترجمونها كتابة بالعربية على الفيلم. وهذا أمر غريب: فهل كل مشاهدى الفيلم يتحدثون الفرنسية ويدركون معنى الأغانى التى قدمتها «يسرا» فى الفيلم؟

وبالمثل، لم تترجم التحيات ولا الأحاديث التى تمت بالفرنسية وهذه نقطة تحسب على الترجمة المرئية. وأخيرا، قد يكون من حسن التدبير إعداد فريق من المترجمين للإشراف على الترجمة فى عمل كبير مثل هذا، تتوق السينما العربية إلى اعتلائه منصة التكريم فى هوليوود.

تصادف دورة انعقاد مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الأخيرة مناسبتين هامتين فى تاريخ صناعة السينما المصرية. المناسبة الأولى هى الذكرى الثلاثون لتأسيسه. فقد انعقد المهرجان وبدون انقطاع منذ سنة ١٩٧٦ وقاد مسيرته خمسة رؤساء تناوبوا على قيادة دفته فى فترات غير سهلة حيث كادت بعض الظروف أن تطيح بالفكرة بل وتعصف بالهدف والرسالة الأساسية التى من أجلها أقيم المهرجان. وتذكر اللائحة الرئيسية للمهرجان أن الغرض الأساسى منه «نشر التذوق الفنى ودعم التفاهم بين شعوب العالم والمساهمة فى تطوير الفن السينمائى». وبالنظر إلى الغرض الأساسى للمهرجان نرى أن ذلك لا يتم إلا عن طريق دخول مهنة الترجمة فى المعادلة. أما المناسبة الأخرى، فهى أيضا تتعلق بالسينما وترتبط بالترجمة فهى الذكرى السبعون لأول فيلم مصرى يشارك فى مهرجان سينمائى دولى.

وعلى الرغم من التاريخ الطويل للسينما فإن العلاقة بين صناعة السينما ومهرجان الفيلم ترتبط ارتباطا وثيقا بالترجمة. ولا يمكن تخيل أى مهرجان دولى للسينما بدون الالتفات للترجمة كعلم وكمهنة. إلا أن موسوعات السينما والكتب التى تتناول مهرجانات الأفلام تكاد لا تشير إلى الترجمة ولا إلى دورها فى إنجاح المهرجان أو حصول فيلم على جائزة أو تقدير. وذلك على الرغم من أن لوائح العديد من المهرجانات تشترط أن يكون الفيلم المشارك مصحوبا بترجمة إنجليزية أو فرنسية (على الأقل). وعلى الرغم من أن الترجمة الجيدة لا تنفع فيلما ضعيفا إلا أن سوء الترجمة من شأنه أن يضيع عمل المشاركين فى صنع فيلم جيد. وأمام المهرجانات العربية فرصة الاهتمام بالترجمة وعلاقتها الوثيقة بالسينما بحيث تكسب سبق الاهتمام عن طريق تنظيم ندوة على هامش كل مهرجان سينمائى لمناقشة جودة الترجمة وقضايا الترجمة السمعية البصرية وتقنياتها وكذلك ظروف عمل المترجمين وطرق إعدادهم. وأخيرا، يعتبر ذكر اسم المترجم أو فريق الترجمة فى لائحة المشاركين فى الفيلم نقطة تقدير طالما طالب بها المترجمون فى كافة أنحاء العالم. فمثلما تذكر أسماء المنتج والمخرج ومهندسى الصوت والإضاءة والديكور بل وعمال النجارة والسائقين يحق للمترجم أن يأخذ مكانه فى لائحة المشاركين فى صنع العمل الفنى فهو الوسيط الذى يصل الفيلم بالعالم الخارجى. إن «التفاهم بين الشعوب» كما ورد فى لائحة مهرجان القاهرة الدولى للسينما يعتمد أساسا على أسلوب ترجمة الفيلم المصرى بصورة سهلة وسلسة وسليمة بحيث لا تعيق فهم الفيلم ولا تفسد متعة المشاهدة.

أوسكار أحسن فيلم مترجم

بل وهناك فرصة أمام مهرجان القاهرة السينمائى لاستحداث جائزة «أفضل فيلم مترجم»، وهذا فى الواقع قد يجعل أى مهرجان عربى للسينما، يقدم على تقديم مثل هذه الجائزة، أول مهرجان فى العالم يشيد بدور الترجمة فى إنجاح صناعة السينما عالميا. إن سعى أى صناعة سينما محلية يكون بالضرورة نحو العالمية إن لم يكن من حيث التقدير الدولى للصناعة المحلية فعلى الأقل بغية فتح أسواق جديدة للتوزيع والانتشار. وهذا الدافع المادى خليق بان يجعل صناعة السينما تستثمر فى تكنولوجيا الترجمة وجهود المترجمين والقائمين على مهنة الترجمة التى بدونها تصبح أى سينما حبيسة حدودها الإقليمية مقصورة فقط على القلة القليلة التى تجيد لغتها المحلية ضعيفة الانتشار عالميا. ■



الصحافة فى بلادنا

جبران توينى (الأب)

هناك بلاد ليست بالديمقراطية ولا بالأوتوقراطية، بل هى حائرة بين النظامين، كبلادنا مثلاً، فإن حالة الصحافة فى هذا النوع من البلاد من أسوأ الحالات وأشدها ارتباكًا. فالصحافة فيها حرة فى الأصل، لكن سلطة الحكومة ترصدها على المنعطفات، فإذا نشرت ما يعكر مزاج الحاكمين نكبوها بالتعطيل الإدارى، من غير أن يعطوها فرصة للدفاع عن نفسها، كما يعطون المجرمين على الأقل، فإنهم لا يحكمون عليهم إلا بعد أن يقيموا محامياً عنهم، وإن بالسخرة، بينما يحكم على الصحافى حكمًا مبرمًا، وهو لا يملك الدفاع عن نفسه، أو تبرير موقفه، وهكذا ينطبق عليه وعلى الحكومة قول الشاعر: «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم».

فكيف تستطيع الصحافة أن تزدهر، وتقوى على أداء مهمتها فى مثل هذا الجو، أو كيف يجوز للقراء أن يطالبوها بإظهار الحقائق، إذا كانت لا تعرف فى أى ساعة ينقض عليها سيف التعطيل؟

أضف إلى ذلك أن الصحافة عندنا لا تستند إلى أحزاب منظمة تغذيها، بل هى تعتمد على جهود أصحابها، فإذا خسرت كان على صاحبها أن يتبنى الخسارة.. ومع ذلك يجب عليها أن تظل محافظة على مبدأها، وأن تقاوم الاستبداد، وتدافع عن حقوق البلاد.. والويل لها إن هى قصرت فى ناحية واحدة، إنهم ينسون كل مواقفها وينسبون إليها التقصير أو التهاون فى الدفاع فتذهب سيئة واحدة بكل الحسنات.

(١٩٣٨)



Henrik Ibsen.

Efter Photographi af Petersen, xylographeret af Kanne & Hansen i Leipzig.



سيد المسرح..

السيد أمين شلبي

■■ تحتفل الأوساط الأدبية فى العالم هذا العام بمرور مائة عام على وفاة الكاتب المسرحى النرويجى هنريك إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦). وفى الواقع أنه على مدى نصف قرن كرس هنريك إبسن حياته وطاقاته لفن الدراما، وحصل على اعتراف دولى كأعظم من كتب الدراما وأكثرهم تأثيرا فى زمنه. وكتب عنه جيمس جويس فى شبابه «أنه قد يكون موضع تساؤل ما إذا كان رجل قد احتفظ بإمبراطورية على عالم الفكر فى العصور الحديثة كما احتفظ هنريك إبسن»، وربط الناقد الدانماركى جورج براندس بينه وبين نيتشه باعتباره محولا للروح الحديثة، وكما عبر أحد النقاد «إن مسرح إبسن هو روما الدراما الحديثة: فكل الطرق تؤدى إليها وتنبع منها».

> كان إبسن رجلا علم نفسه، وعنده لم تكن الأفكار كلمات فى الكتب وإنما مبادئ للحياة المعاشة

وقد كان إبسن شاعرا كبيرا فقد نشر مجموعة من الأشعار عام ١٨٧١، ومع هذا فقد كانت الدراما هى مركز روحه الشعرية الحقيقية، ولسنوات طويلة وصعبة واجه إبسن معارضة مريرة ولكنه انتصر فى النهاية على تحيزات القوى المحافظة فى عصره، وأكثر من أى شخص آخر منح إبسن لفن المسرح حيوية جديدة بما أدخل فيها من عمق سيكولوجى ووقار أخلاقى وأهمية اجتماعية يفتقر إليها المسرح من أيام شكسبير، وبهذا المعنى ساهم إبسن بشكل قوى فى إعطاء الدراما الأوروبية حيوية ومستوى فنيا يقارن بالتراجيديات اليونانية القديمة. وحين مات إبسن عام ١٩٠٦ كان-شأنه شأن نيتشه- قد اغلق صفحته مع نهاية القرن الذى سيطر عليه وحول فكرة المسرح المعاصر مثلما أدار ثورة حول الأفكار الحديثة، وفى الوقت الذى مات فيه كان المسرح قد أصبح شكلا كبيرا من أشكال الفن يقارن بالشعر والرواية، وكانت طريقته فى الكتابة قد غيرت صورة وشكل المسرح نفسه، وتصميم خشبة المسرح وممارسة التمثيل وكل علاقة الدراما وكاتبها بالجمهور. ومن هذا المنظور يقيم النقاد مساهمة إبسن فى تاريخ المسرح، فدرامية إبسن القائمة على الواقعية المعاصرة هى استمرار للتقاليد الأوروبية فى المسرحيات التراجيدية. وفى أعماله صور إبسن شخصيات من الطبقة المتوسطة لزمنه وهى شخصيات وجدت أن روتين حياتها اليومى قد انقلب فجأة بما تواجهه من أزمة عميقة فى حياتها وهى الأزمة التى نتجت عن أسلوب الحياة الذى كانت تتبعه بشكل أعمى وبذلك فهم مسئولون عن أزمتهم وعليهم أن يواجهوها بأنفسهم.

وقد كان إبسن رجلاً علم نفسه، وعنده لم تكن الأفكار كلمات فى الكتب وإنما مبادئ للحياة المعاشة رغم أن حياته كانت حياة الانسحاب والصمت والمحافظة، ولكنه كان يبغى إحداث ثورة فى «الروح» واعتبر أن مهمته هى مواصلة وتحمل عبء ثورة القرن الـ ١٩ نحو الإصلاح والتحرر وتحقيق الفرد لذاته. ولم تكن هذه الثورة مجرد ثورة اجتماعية أو سياسية وإنما كانت ثورة من الداخل وتغيير وتجديد للفكر وضد التقليد والنفاق وادعاء الورع والاعتداد بالنفس.

ولا يحتوى تاريخ حياة إبسن على فترات ومراحل معينة تتميز بالخطورة، فحياته كفنان يمكن أن ترى على أنها نضال طويل وشاق على نحو استثنائى قاد إلى النصر والشهرة، وكان طريقا صعبا من الفقر إلى النجاح العالمى: وقد أمضى ٢٧ عاما من عمره خارج بلده النرويج فى إيطاليا وألمانيا وغادر مسقط رأسه وعمره ٣٦ عاما ولم يعد إليه إلا وعمره ٦٣ عاما حتى موته عام ١٩٠٦ وعمره ٧٨ عاما. وفى آخر مسرحية له «حين نستيقظ نحن الموتى» يصف حياة فنان، ولذلك فإن قيمتها فى هذا السياق تعكس حياته، فالنحات العالمى البروفيسور روبك، عاد إلى النرويج بعد عدة سنوات فى الخارج، ورغم شهرته ونجاحه لم يشعر بأى سعادة، وفى عمل كبير له «ندم على حياة محطمة» قدم كذلك صورة ذاتية اعترف خلالها أنه أفسد حياته وحياة الآخرين واستبعد فيها ما يمكن أن يجلب السرور، كل هذا من أجل الفن، لقد تخلى عن حب شبابه وكذلك عن مثاليته الأولى وهو بذلك قد خان فى الواقع فنه بتنازله عن هذه الأساسيات.



وفى عالم إبسن نجد شخصياته الرئيسية تجاهد نحو هدف ما، ولكن هذا النضال يؤدى إلى البرد والوحدة، ومع هذا تبقى دائما إمكانية اختيار طريق آخر فمازال أمام الإنسان فرصة لاختيار الدفء والصلة الإنسانية، غير أن المشكلة أمام شخصيات إبسن أن كلا الاختيارين يبدوان طبيعيين وبشكل لا يستطيع الفرد أن يرى نتائج قراره. وفى المسرحية «حين نستيقظ نحن الموتى» فإن رعشة الفن توضع بشكل متعارض مع دفء الحياة، ومن هذا المنظور يبدو الفن سجنا لا يستطيع الفنان، ولا يريد أن يهرب منه، وكما يقول بطل المسرحية «إننى فنان ولا اشعر بالخجل من مظاهر الضعف العالقة بى، ذلك أنى قد ولدت لكى أكون فنانا، وأيا ما فعلت فلن أكون أبدا شيئا آخر».

ويمثل إبسن ككاتب تأملا شعريا طويلا فى حاجة البشر لكى يعيشوا بشكل مختلف عما يعيشون، وهكذا ثمة يأس عميق يجرى تحت السطح فى أعماله. ويطلق أحد شراح إبسن على الصور التى رسمها لهؤلاء البشر الذين يعيشون فى توقع دائم والذين يستهلكهم سعيهم «نحو شىء مختلف آخر» إنهم يمثلون «دراما يائسة» فهذه المسافة بين ما يستطيعون تحقيقه وما يتوقون إلى تحقيقه هى بالتحديد سبب جانب هذه الدراما (وفى حالات كثيرة الكوميديا) فى حياة هؤلاء البشر. وقد أدرك إبسن أن جذور فنه تكمن فى هذا التناقض بين الآراء والإمكانيات الحقيقية، ولذلك قال عام ١٨٧٥ - وهو ينظر إلى ٢٥ عاما من الكتابة- أن معظم ما كتبه «يتضمن التناقض بين القدرة والأمل، بين الإرادة والإمكانية» وفى هذا الصراع رأى «الكوميديا وتراجيديا الإنسانية والفرد فى آن واحد».

ومن خلال مسرحياته المعاصرة الاثنتى عشرة من «أعمدة المجتمع» عام ١٨٧٧، حتى «حين نستيقظ نحن الموتى» ١٨٩٩، يقودنا إبسن مرة تلو المرة إلى نفس الوسط، فشخصياته تتميز بحياتها البرجوازية القوية والقائمة على أساس متميز، ورغم ذلك، فان عالمها مهدر ومهدد، وبذلك يبدو هذا العالم فى حركة مستمرة، وتبدو قيمه القديمة ومفاهيمه السابقة فى مهب الريح، وتهز هذه الحركة حياة الأفراد وتعرض للخطر النظام الاجتماعى القائم، وهنا نرى كيف تكتسب العملية مظهرا سيكولوجيا واجتماعيا، ولكن كان من وراء هذه العملية كلها الحاجة إلى التغيير، وشىء نابع وبقوة من إرادة واختيار الفرد.

وقد وصف إبسن نفسه أسلوبه فى الدراما وكان ذلك فى وقت مبكر من حياته الأدبية عام ١٨٥٧: «إنه ليس الصراع الذى بين الأفكار التى تعرض أمامنا، ولا هو الموقف فى الحياة الحقيقية فما نراه هو الصراعات البشرية التى تكمن فيها وفى عمقها أفكار تتصارع فى معركة يخرج البعض منها منتصرا وينهزم الآخر».

هذا الوصف يلمس بدون شك شيئا جوهريا فيما يتطلبه إبسن من الفن الدرامى إذ لابد له أن يجمع ثلاثة عناصر: السيكولوجى، والأيديولوجى والاجتماعى، ويشكل المركب العضوى لهذه العناصر الثلاثة جوهر دراما إبسن، وربما حقق إبسن وفق هذا المقياس نجاحا كاملا فى عدد غير قليل من مسرحياته مثل «الأشباح» و«البطة البرية»، و«هيدا جابلر»، ورغم أن إبسن يعتبر أن أكبر أعماله المسرحية هى Emerov and Galilean ١٨٧٣، الأمر الذى يشير إلى الأهمية التى يعطيها للعامل الأيديولوجى كصراع بين وجهات نظر متعارضة نحو الحياة، إلا أن ما منح إبسن شهرته العالمية هو مسرحياته «أعمدة المجتمع»، «عدو الشعب»، «الأشباح» وأكثر من هذا «بيت الدمية».

سيد المسرح





من خلال مسرحياته المعاصرة الاثنتي عشرة من «أعمدة المجتمع» عام ١٨٧٧، حتى «حين نستيقظ نحن الموتى» ١٨٩٩، يقودنا إبسن مرة تلو المرة إلى نفس الوسط، فشخصياته تتميز بحياتها البرجوازية القوية والقائمة على أساس متميز



وقبل أن نستعرض هذه الأعمال تجدر الإشارة، فيما يتعلق بمجمل إنتاج إبسن ومراحله، إلا أن عمل إبسن يمكن تقسيمه إلى أربع فترات وإن كانت صفات كل منها تتداخل في الأخرى، فهناك الدراما التاريخية الكلاسيكية مثل: Brand, Peergynt ثم مسرحياته الحديثة التي تنقسم إلى أعماله الاجتماعية العظيمة بين (١٨٧٠-١٨٨٠)، ثم تراجيدياته المذهلة في نهاية عمله، وتبدو كل مرحلة كأنها تؤدي إلى المرحلة التي تليها. كما تميزت كل مرحلة بالتغيرات التي كانت تحدث في وقت ومكان كتابتها. فالمسرحيات التي كانت تعالج مشكلات كتبت معظمها في ألمانيا، أما تراجيدياته التأملية فقد أتت غالبا بعد عودته إلى النرويج. وتظهر كل مرحلة يقظة إبسن العميقة لأفكار اليوم،وربما لم يحتفظ إبسن بكتب كثيرة في بيته. كما لم يكن رجل المجموعات والحركات الأدبية، ولكنه كان مراقبا حادا، وقارئا دقيقا للصحف، ومحللا مدققا للسلوك ورجلا متصلا بشكل وثيق مع مشكلات زمنه وكما تعتمل داخله، وكما كتب مرة «أن كل شيء كتبته قد ارتبط لحظة بلحظة بكل ما عشته، وكل عمل كان بمثابة موضوع يخدم عملية التحرر الروحي، وبكل إنسان يشارك في مسئولية المجتمع الذي ينتمي إليه». وكما وصفه صديقه الرسام والفنان ادوارد مونك: «عين نصف مغمضة تبدو في تأمل وتفكير بينما الأخرى تراقب... واحدة تتحول إلى الداخل نحو الروح والأخرى إلى العالم الاجتماعي، ورغم أن نظرته كانت وقورة وقاسية، إلا أنها كانت ذات رؤية وتنبؤية».

وهكذا كانت دراما إبسن الجديدة جديدة حقا، وقد قيل بحق أن قرار إبسن التحول من الشعر إلى النثر من أهم ما شكل مستقبله ومستقبل الدراما الحديثة، ومع هذا الاختيار اختار أيضا أن تكون الموضوعات التي أقدم على استكشافها هي الموضوعات ذات الأهمية والصلة بالأحداث المعاصرة والقضايا الجوهرية للعصر وفوق كل شيء الصراع بين عالم المجتمع التقليدي وما يدعو له المستقبل من أخلاق وتحرر.



وقد كانت اللحظة الأساسية التي تطور فيها إبسن إلى كاتب مسرحي كبير حين كتب عام ١٨٧٧ مسرحيته «أعمدة المجتمع»، وحين سجلت فعلا تطور إبسن ومعه تطور فن الدراما إلى حد كبير. وقد اختار إبسن أن تجري المسرحية في النرويج، ولكن ليست النرويج الفعلية، وإنما في بلد تمثل مستودع الروح الفيكتورية حيث تتشاجر أشباح عقائد واتجاهات الماضي مع ضمير الحاضر الجديد، فهي مكان الانحصار والانغلاق والعقل الضيق والروح التجارية والنفاق

وقد تجسد هذا على المسرح بالحجرة البرجوازية التي جرت فيها الأحداث رغم أن ما حدث فيها تصوغه وتشكله أحداث كبرى في خارج هذه الحجرة المغلقة الخالية من الهواء حيث تحدث أكثر التحولات واللمحات الدرامية في نهاية الفصل الأول، فقد عادت المرأة الحديثة من أمريكا وهي تزيح الستائر جانبا لكي تسمح للضوء أن يدخل وكما قالت: «بعض الهواء الجديد للمجتمع. وكانت هذه اللمحة هي روح دراما إبسن الجديدة نفسها، مثلما كان الشخص الذي أداها «المرأة الجديدة» هو الشخص المعبر عن التغيير. وفي نهاية المسرحية تعلن الشخصية الرئيسية أن النساء هن أعمدة المجتمع الحقيقية، ولكن «أونا» التي تعبر بدون شك عن كاتب المسرحية، تصحح له وتقدم معنى مختلفا للأحداث «لا يا صديقي»، إن الحقيقة وروح الحرية هي أعمدة المجتمع الحقيقية»، وكان مما أظهرته المسرحية أن مادة الدراما المعاصرة هي الصراع بين المسائل والأفكار المعاصرة بين الاعتداد بالنفس والنفاق الذي يحيط الذات وبين الأخلاقيات المتنورة الجديدة، بين الرجال والنساء، والقديم والجديد، وبين الماضي والحاضر، كما كانت الكراهية التي قوبلت بها المسرحية في كل اسكندنافيا في تراثها تأكيدا لحرية واستقلال إبسن الأدبي والأخلاقي، كما كانت هذه المسرحية التي أرست سمعته الدولية بين دعاة التنوير.

وفي «بيت الدمية»، أطلق إبسن بطلتها إلى العالم تطالب بأن يكون للمرأة الحرية لأن تطور حياتها كشخص ناجح مستقل ومسئول. وفي «بيت الدمية» سوف نجد الحبكة التي كررها إبسن في أعمال تالية وحيث الفرد الذي يقف معارضا للأغلبية ولسلطة المجتمع القهرية، وقد لخصت نورا هذا الموقف بقولها على أن أكتشف من على صواب: المجتمع أم الناس عن النظر إليه كنعمة مطلقة ثم أصبح الطلاق بين أطراف غير متوافقة أمرا مقبولا يمكن تبريره. وهكذا قدمت «بيت الدمية» رسالة متفجرة.. إن الزواج ليس شيئا مقدسا، إن سلطة الرجل في بيته يمكن تحديدها، وأن الواجب الأول لأي فرد سواء كان رجلا أم امرأة أن يكتشف حقيقته وأن يعيشها. وفي المسرحية أدرك إبسن ما أكده فرويد ويونج بعد ذلك: أن تحرير الذات إنما يتحقق فقط في الداخل، وهذا الإدراك هو الذي جعله لا يعتقد في «ثورة من الخارج»، ولكن ما هو مطلوب حقيقة هو ثورة في روح الإنسان.

وهكذا فإنه حين يحرر الفرد نفسه ثقافيا عن طرق التعليم التقليدية، تبدأ الصراعات الخطيرة في النشوء. ولفترة قصيرة حول عام ١٨٨٠ بدا أن إبسن كان متفائلا بشكل نسبي حول فرص الفرد في النجاح بمفرده. فرغم أن مستقبلها «نورا» لم يكن آمنا بمعان كثيرة فقد بدا أن لديها فرصة حقيقية في أن تعثر على الحرية والاستقلال الذي تنشده. وقد ينتقد البعض إبسن لتعامله بشكل مصطنع مع المشكلات التي قد تواجهها امرأة مطلقة في مجتمع معاصر. ولكن ما كان يعني إبسن ككاتب هو المشكلات المعنوية لا المشكلات العملية والاقتصادية ولذلك فإنه رغم مستقبلها «نورا» غير الأكيد قدمت في عدد من البلدان كرمز للمرأة التي تحارب من أجل التحرر والمساواة، وفي هذا الشأن كانت أكثر شخصياته عالمية. فقد التقط الانقسامات والمشكلات الحادة التي حاقت بالأسرة البرجوازية ووضعها على المسرح. فعلى السطح كان البيت البرجوازي يعطي الانطباع بأنه بيت ناجح ويعكس صورة مجتمع صحي ومستقر، إلا أن إبسن قد صاغ بشكل مسرحي الصراعات الحقيقية في هذا المجتمع بفتحه أبواب الغرف السرية والخاصة لهذا البيت وأظهر ما يمكن أن يكون مختبئا خلف الواجهات الجميلة للازدواجية الأخلاقية، والخيانة والتستر وراء الجدران المغلقة والخداع فضلا عن افتقار الأمن الدائم.



وقد بدت «بيت الدمية» في البداية باعتبار أنها تعرض التحدي الأكبر، وتثير «مسألة المرأة»، «مشكلة الزواج» عبر أوروبا كلها، وأثارت نقاشا عاما وقلقا بل ورعبا في المنازل، وقامت مظاهرات عامة معارضة ومؤيدة لها، واعتبرت اكثر المسرحيات التي كتبت نفوذا وتأثيرا، وكانت نهايتها الشهيرة، حين خرجت «الزوجة الطفلة» من بيت زوجها وصفقت الباب وراءها في إشارة نهائية على رحيلها، كانت بذلك اشهر نهاية في الدراما الحديثة. وقد كان لصفق الباب هذا صداه في الاتجاهات الاجتماعية والعلاقات الجنسية الحديثة، وكان إعلان «نورا» النهائي لزوجها الذي حاول إبقاءها وتذكيرها بواجباتها، أن «على أن أعلم نفسي، ولا تستطيع أنت أن تفعل ذلك لي، إن لدي واجبا آخر مقدسا بشكل ما هو واجب حيال نفسي» كان مثل هذا الإعلان دعوة واضحة وعالية لحركة المرأة منذ هذا الوقت، ووعدا عاما لتحقيق الذات قدم لهؤلاء الذين اختاروا أن يحرروا أنفسهم من قيدهم ويؤكدوا ذاتيتهم وحاجتهم لتحقيقها.

وقد قيل دائما أن كل مسرحية من مسرحيات إبسن تخرج من تلك التي سبقتها، لذلك فان عمله التالي وهو أعظم أعمال هذه الفترة من كتاباته، جاء بالتأكيد من «بيت الدمية»، عبر إبسن عن ذلك بقوله «إني لا أستطيع أن أظل واقفا عند «بيت الدمية» فقد كان على مسز الفنج أن تأتي بالضرورة». وقد كانت المسرحية التي أثارت اعظم صرخة على الإطلاق، ففي كل مكان عرضت فيه أحيطت بمناقشات خلافية غاضبة. ففي ألمانيا كتب أحد النقاد «أن كل شيء مسموح به الآن، كل ما يحتاج الكاتب أن

يفعله هو أن يجلس ويكتب». ولم تعرض المسرحية فحسب الأشباح التى حامت فوق مظاهر الاحترام لمجتمعه وعصره، وإنما تعاملت مع موضوع السلطة الرئيسية للوراثة وعرضها فى أكثر صورها رعبا، صورة مرض السفيس الموروث وموضع الزواج ولكن فى أكثر صوره عذابا. إن «الأشباح» هى قصة امرأة هجرت زوجها ولكن القس الذى تحبه، يحاول إقناعها بأن تعود إلى منزلها وهو ما تفعله، ثم تحمل ابنا يرث عن أبيه مرضا تناسليا. وقد عقب إبسن على حملة النقد العنيفة التى تعرضت لها «الأشباح» بقوله «إنه تصور مثل هذا النقد فى كل أعماله، ومثلما انقضت هذه الثورة من قبل، سوف تنقضى هذه المرة كذلك» ولكن ما أحدثه ظهور «الأشباح» من إثارة أثر على بيعها وصورت على أنها لا يجب أن تكون بين ألوان الأدب الذى يدخل المنازل وتقرأها العائلة، ذلك أنها لم تكن مجرد هجوم على أكثر مبادئ العصر قدسية مثل حرمة الزواج، وهو ما فعلته «بيت الدمية»، أو على واجب الابن أن يشرف أباه، ولكن ما هو أسوأ من ذلك فقد أشارت بشكل لا يخطئ إن لم يكن بالاسم، إلى مرض تناسلى ودافعت عن الحب الحر واعتبرت أنه فى ظروف معينة فإنه حتى الاتصال الجنسى الذى تحرمه أواصر القربى قد يكون مبررا، بل إن المسرحية قد أغضبت أقوى المدافعين عن إبسن واعتبرها بعضهم «واحدة من أقذر ما كتب فى اسكندنافيا» ووصفها آخر بأنها «ظاهرة سيكلوجية مثيرة للاشمئزاز تهدد أسس نظامنا الاجتماعى وتتقوض أخلاقياته».

غير أن أصواتا شجاعة دافعت عن المسرحية، فقد كتب أحد أساتذة الأدب اليونانى فى جامعة كريستنانيا (أوسلو) «حين قدم أعظم شعراء التراجيديا والكوميديا فى أثينا الأفكار السياسية والأخلاقية والدينية لعصرهم، فقد وجد من ينتقد هذه الأعمال ويعتبرها ذات أهداف معينة ومتحيزة، ولكن الأجيال التالية رأت ذلك شيئا طبيعيا، وحين بلغ الفن القديم الكتابة الدرامية أوجه فى هذا العصر الذهبى، فقد كانت هذه الواقعية، وإذا شئت أن تسميها التحيز، هى التى أعطت هذا الفن حيويته وطابعه، أما فيما يتعلق بمسرحية إبسن الأخيرة فإن من بين كل الدراما المحترمة التى قرأناها سوف نجد «الأشباح» هى أقربها إلى التراجيديا الكلاسيكية.. وحين يخمد غبار النقد الجاهل، وهو ما أثق أنه سيحدث قريبا، فإن مسرحية إبسن هذه بنقائها وشجاعتها لن تقف فحسب كأنبل الأعمال وإنما كأعظم الأعمال التى أنتجها بل وأنتجها كل أدباء الدراما».

وكان إبسن يتوقع الهجوم من الدوائر المحافظة أما ما صدمه فهو هجوم الصحافة الليبرالية وربما بحماسة أعظم، وقد كتب لصديق دانماركى فى ٢٨ يناير ١٨٨٢ «ربما تكون هذه المسرحية جريئة من بعض الوجوه، ولكنى أعتقد أن الوقت قد حان لكى نتحرك وتتحول بعض علامات الحدود، وقد كان أكثر سهولة بالنسبة لى ككاتب كبير فى السن أن أفعل هذا أكثر من كتّاب أصغر يريدون أن يفعلوا شيئا من هذا القبيل، لقد كنت مستعدا لعاصفة تتفجر ضدى، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يتهرب من ذلك حيث سيكون ضربا من الجبن، غير أن أكثر ما أصابنى بالاكتئاب لم يكن الهجوم ذاته وإنما ما كشف عنه من افتقار للشجاعة فى صفوف من يسمون بالليبراليين فى الترويج».



ويبدو أن الغضب الذى أثارته مسرحية «الأشباح» قد حرك إبسن كى يكتب مسرحية أخرى لم يجد عنوانا أفضل لها من «عدو الشعب». وتحكى المسرحية قصة طبيب فى منتجع صغير للمياه المعدنية يكتشف أن ينابيعه التى تعتمد عليها حياة المدينة ملوثة. وفى البداية يثنى عليه السكان باعتبار أنه يخدم المصلحة العامة، ولكن حين يعلمون أن الينابيع سوف تغلق لعدة سنوات، وأن دخلهم سوق يتأثر يتحولون ضده وحين يدعون لاجتماع ليوضح لهم وجهة نظره يصفونه بأنه عدو الشعب. ويقول الطبيب الكسندر ستوكمان الذى خاطر بكل شىء كى يقول الحقيقة حول الماء الملوث «إنى على حق أنا وواحد أو اثنين»، وقد أراد إبسن أن يظهر أن التلوث مقصود فعلا وأن هؤلاء الذين يشربون منه هم الذين يعانون وهؤلاء هم أبطاله الحقيقيون وليسوا رجال السياسة أو الموظفون المدنيون».



فى «بيت الدمية» أطلق إبسن بطلتها
إلى العالم تطالب بأن يكون للمرأة الحرية لأن تطور حياتها
كشخص ناجح مستقل ومسئول



فى هذا الوقت كان إبسن يقف مبتعدا عن السياسة، ولم تكن الأفكار تعنيه وإنما الأمانى والتطلعات والثمن الذى يدفع فى الحياة من أجلهم، وكان هذا هو موضوع ما سوف يأتى بعد ذلك من أعمال إبسن ومسرحياته الأخيرة عن الأمل الإنسانى والتى سقطت عنه عباءة المذهب الطبيعى. وكما ذكر هو «إننى شاعر بشكل أكثر وفيلسوف اجتماعى بشكل أقل مما اعتاد الناس أن يفترضوا بشكل عام وكان هدفى هو تصوير الكائنات البشرية، وهو ما سيصبح موضوع مسرحياته الأخيرة.

وهكذا لم يخترع إبسن فحسب الدراما الحديثة ولكنه كتب عددا من المسرحيات التى مازالت تشكل جانبا رئيسيا من كل رصيد المسرح العالمى. فقد وجد المسرح الأوروبى فارغا وعاجزا فحوله إلى شكل فنى ثرى وقوى ليس فقط فى بلده وإنما فى العالم كله. وزيادة على ذلك فإنه لم يحدث ثورة فى فنه فحسب ولكنه غير التفكير الاجتماعى لجيله وللجيل الذى جاء بعده. فما فعله روسو بالنسبة لنهاية القرن الثامن عشر فعله إبسن بالنسبة لنهاية القرن التاسع عشر فحيث حث روسو الرجال والنساء على العودة للطبيعة وحرك بذلك ثورة اجتماعية، بشر إبسن بثورة الفرد ضد النظام القديم من المحرمات والتحيزات التى سادت كل مدينة صغيرة بل وكل عائلة. لقد علم الرجال والنساء خاصة أن ضميرهم الفردى وأفكارهم الشخصية عن الحرية لها أولوية أخلاقية على متطلبات المجتمع وحين فعل ذلك حرك ثورة فى الاتجاهات والسلوك بدأت فى حياته وتواصلت من بعده وقبل فرويد بوقت طويل، فقد وضع إبسن الأساس للمجتمع المتحرر، وفى هذا الشأن ربما لم يكن لروسو وماركس تأثير أكثر على الأسلوب الذى سلكه بالناس بالفعل فى مواجهة الحكومات.

ويبدو إنجاز إبسن فى أنه لم يقنع بأن ينتهى به الأمر ككاتب مسرحى اجتماعى فنى ولو كان لهذا الدور تأثير دولى، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من تقدمه والتى شهدت تحوله من المسائل السياسية إلى مشكلة التحرير الشخصى والتى ربما احتلت فكره أكثر من أى جانب من الضمير الإنسانى. وقد كتب فى مذكراته «أن التحرر هو أن يضمن للأفراد حق تحرير أنفسهم كل وفقا لحاجته الخاصة. هذه المرحلة هى التى أنتجت: البطة البرية عام ١٨٨٤ the wild duck، «هيدا جابلر» عام ١٨٩٠ Hedda gabler، «البناء البارع» the master builder.

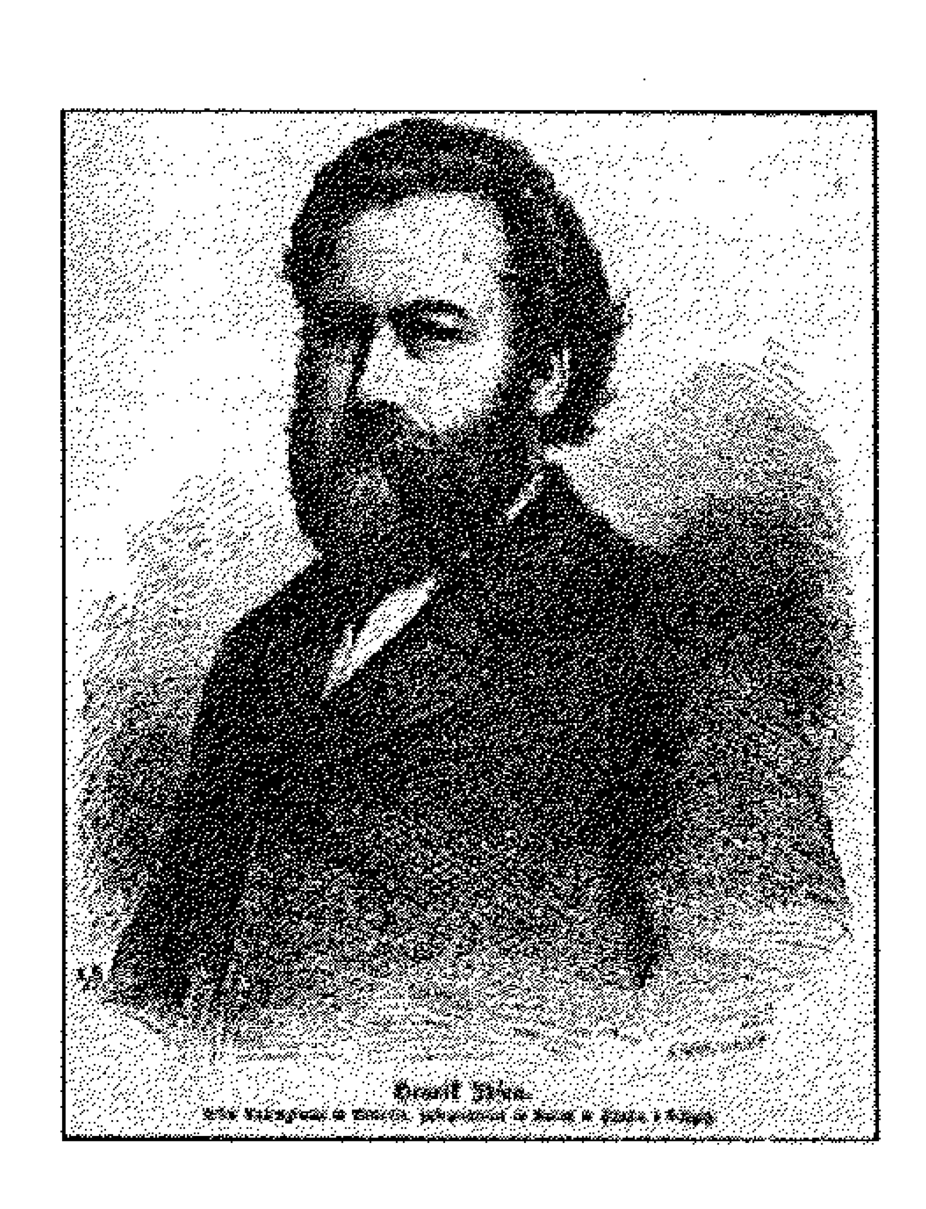
وربما وجدت هذه المسرحيات فى وقتها محيرة وربما غير مفهومة ولكنها هى التى أصبحت أكثر أعماله قيمة من حيث استكشافها للنفس الإنسانية وتطلعها للحرية. إن من فضائل إبسن أنه لم يكن مجرد صانع لشىء جديد وأصيل فى فنه، قد كانت حساسيته للأفكار التى لم يكتمل تكوينها وربما لم تستكشف بعد. لقد استطاع رواد المسرح فى العالم كله أن يجدوا أنفسهم أو جيرانهم فى معاناة الضحايا والمعذبين المستغلين فى مسرحياته فقد كانت دعواه أن يتاح لكل الكائنات البشرية الفرصة لكى يحققوا أنفسهم ولذلك وجد مفهومه على القيم التقليدية، ودعوته للحرية الشخصية ترحيبا فى كل مكان.

فمنذ بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر وحين عاد إلى بلاده منتصرا، كانت مسرحياته تمثل بشكل متزايد فى العالم كله، ومع تولوستوى فى روسيا، كان ينظر إليه باعتباره أكثر كتاب العالم الأحياء. وكان ظهوره اليومى فى مقهى «الجراند هوتيل» حيث كان يجلس بمفرده فى مواجهة مرآة حتى يمكن أن يرى بقية الحجرة، يقرأ الصحف ويشرب البيرة الممزوجة بالكونياك يمثل أحد مشاهد المدينة وحين كان يدخل المقهى كل يوم وفى نفس الوقت والثانية، كان كل من فى المكان يقف ويرفع قبعته، ولم يكن أحد يجرؤ على أن يجلس قبل أن يجلس الرجل العظيم.

غير أنه كما يقول بول جنسون، فإن هذا الرجل العظيم أو المحرر العظيم، الرجل الذى درس وتوغل فى النفس البشرية وعلمتها أعماله كيف تحرر نفسها من أغلال التقاليد والتحيز، له جوانبه الغريبة والمتناقضة. فإذا كان يشعر تجاه الإنسانية بهذه القوة فلماذا ينفر من الإنسان كفرد، ولماذا يرفض التعرف عليه ولقاءه والاكتفاء بأن يقرأ عنه فى الصحف، ولماذا هو دائما وحيد حيث عزلته القاسية التى فرضها على نفسه؟ بل إن من نقاده من اعتقدوا أنه كلما نظرنا إليه عن قرب بدا أكثر غرابة. فالرجل الذى هاجم التقاليد، ودعا إلى حريات الحياة البوهيمية، هو نفس الرجل الذى يقدم نفسه كشخصية تقليدية أرثوذكسية، وأول شىء لاحظه العديد من الناس عن إبسن كان خيلاءه غير العادية، ويبدو أنه لم يكن دائما كذلك وأنها تتطور معه، فقد ذكرت أم زوجته أنها حين رأته للمرة الأولى فى شبابه كان يبدو كحيوان المارموت الصغير الخجول ولم يكن قد تعلم بعد أن يحتقر زملاءه من البشر وكان يفتقر إلى تأكيد ذاته. وكان من مظاهر خيلاء إبسن التى قاربت حدود السخرية والتى لم يستطع أكثر نقاده إعجابا به أن يدافعوا عنها هو عاطفته نحو الميداليات والأوسمة.

أما مظاهر شخصيته المناقضة لصورته الأدبية فقد بدت فى قسوته على الناس بل وحتى الضعفاء والمصابين منهم مثل

سيد المسرح





لم يخترع إبسن فحسب الدراما الحديثة ولكنه كتب عددا من المسرحيات التى مازالت تشكل جانبا رئيسيا من كل رصيد المسرح العالمى. فقد وجد المسرح الأوروبى فارغا وعاجزا فحوله إلى شكل فنى ثرى وقوى



هجومه علنا على رسام مريض بالسل، وكان هو نفسه يفاخر بأنه طوال حياته كان يدير ظهره لوالده ولعائلته كلها لأنه «لا يستطيع تحمل استمرار علاقة تقوم على تفاهم غير كامل». وحين مات أبوه، لم يكن على صلة به منذ أربعين عاما، وفى الدفاع عن نفسه فى خطاب لعمه ذكر كسبب رئيسى لذكره «ظروف مستحيلة نشأت منذ مرحلة مبكرة جدا»، وكان يعنى بذلك أن أسرته كانت تهبط فى الوقت الذى كان هو يرتفع ويصعد ولم يكن يريدهم أن يشدوه لأسفل. وكان يشعر بالخجل منهم ويخشى مطالبهم المادية، وكلما أصبح غنيا وأكثر قدرة على مساعدتهم قل ميله إلى أن يقيم علاقة معهم، ولم يبذل أى جهد لمساعدة أخيه الأصغر المشلول الذى مات بعد ذلك فى الولايات المتحدة كذلك تجاهل شقيقه الأصغر الذى كان رغم فقره الوحيد الذى كان يساعد أباه ولم يقدم لهم إبسن بنسا واحدا.

ومثلما كانت علاقة إبسن مع أسرته على هذا السوء، كذلك كانت علاقته مع أصدقائه باردة بل وعاصفة فى بعض الأحيان. يشهد على ذلك مراسلاته وعلاقته مع زميله الكاتب بيرنسون: فقد كان إبسن يرى فيه منافسا له، كما كان يغار من نجاحه المبكر وطبيعته المتفتحة وبهجته وقدرته على الاستمتاع بحياته، بينما كان بيرنسون هو الذى فعل كل شىء، قابل هذا إبسن بالنكران وعدم الامتنان، واستمرت علاقته به على أساس أن بيرنسون كان هو دائما الذى يعطى وإبسن هو الذى يأخذ. ومع غيره من الكتاب انتهت علاقة إبسن دائما معهم بالخصام أو الانقطاع والتوتر الدائم، وكان الجانب الآخر هو دائما الذى عليه أن يبذل المجهود للإبقاء على العلاقة حية ومتجددة، وقد كتب لأحد الكتاب ردا على انتقاده له ولمقاطعته لأصدقائه (حين يكون شخص ما فى موقفى، ومثلما أفعل، وفى علاقة شخصية جادة مع حياته وعمله فإن المرء لا يستطيع حقا أن يحتفظ بأصدقاء... إن الأصدقاء هم رفاهية مكلفة، وحين يوجه المرء رصيده من أجل دعوة أو رسالة فى الحياة، فإنه لا يستطيع أن يكون له أصدقاء..).

فى هذا الخطاب يعترف إبسن أن تحقيق الإنسان لذاته إنما تضمن التضحية بالآخرين وفى حالته فإنه لم يكن يستطيع أن يكون كاتبا مسرحيا مؤثرا ومعترفا به دون أن يتجاهل الآخرين بل وأن يدوس عليهم إذا اقتضت الضرورة. ويوحى ذلك أن الأنانية الخلاقة كانت تقع فى مركز تصور إبسن لفنه. وكما كتب لأم زوجته «إن معظم النقد ينتهى إلى نوع من تأنيب الكاتب لأنه يعتبر نفسه بينما الأمر الجوهرى هو حماية المرء لنفسه والاحتفاظ بها نقية وحرة من كل العناصر المتطفلة». وقد كانت الأنانية الخلاقة هى محاولة إبسن كى يحول جوانب الضعف فى شخصيته إلى مصدر قوة. فكطفل كان وحيدا بشكل مفزع يحمل، كما ذكر ناظر مدرسته «وجه رجل عجوز» وشخصية منطوية على ذاتها الأمر الذى جعله غير محبوب من أقرانه. وكشاب فرض عليه فقره مزيدا من الوحدة... فكان يخرج للسير مسافات طويلة منفردا وبشكل جعله عمليا فى منفى يرى المجتمع المحيط به كشىء غريب على أحسن افتراض ولكن دائما كشىء عدائى، وقد كتب فى شبابه «وجدت نفسى فى حالة حرب مع مجتمع صغير وحيث كنت أعيش سجينا»، وهكذا لم يكن غريبا أن يختار إبسن النفى الفعلى لأطول فترة وأكثرها إنتاجية فى حياته، وكما كان الحال مع ماركس قوى هذا فيه إحساسه بالاغتراب وحصره فى مجموعة فكرية محدودة بمشاحناتها وعزلتها- وقد اعترف فيما بعد بعدم قدرته على التواصل مع الآخرين، فقد كتب لبيرنسون عام ١٨٦٤ «لا أستطيع أن أقيم صلة قوية مع أناس يطالبون أن يقدم الإنسان نفسه بلا تحفظ، وأفضل أن أكتم ذاتى الحقيقية داخل نفسى» وهكذا أصبحت وحدته خلاقة. وقد ظلت كذلك موضوعه الرئيسى منذ أشعاره المبكرة التى عاشت والتى كتبها عام ١٨٤٧ وحتى توقف عن كتابة الشعر ١٨٧٠-١٨٧١. وأصبحت كتاباته تعكس وحدته وتمثل ملجأه وسلاحه ضد العالم المعادى، وظل كل فكره وعاطفته موجهة للسعى للشهرة الأدبية. وتدريجيا بدأ يرى عزلته الذاتية وإخفاء ذاته كسياسة ضرورية بل وحتى كفضيلة، وكما كتب لصديقه براندیس «إن الوجود الإنسانى كله ليس إلا حطام سفينة ولذلك فإن الطريق العاقل هو أن ينقذ الإنسان نفسه»، وفى سنه المتقدمة نصح امرأة شابة «يجب ألا تفصحى للناس أبدا عن كل شىء، أن تحتفظى لنفسك بأشياء هو أكثر الأمور قيمة فى العالم». ومثل هذا التصور هو الذى أجبر صديقه براندیس على أن يستخلص «أن عداءه للبشرية لم يعرف الحدود»، وقد انسحبت هذه الكراهية وبشكل منتظم لكى تشمل أفكارا ومؤسسات أثارت بشكل أكثر حيث رأى معظمهم «منافقين، كذابين، منحرفين ولئاما»، ومثل معاصره تولوستوى، كان يحمل كراهية خاصة للنظام البرلمانى ويراه مصدرا لفساد لا قرار له وللدجل، كما كان يكره الديمقراطية وكان يقول «ما هى الأغلبية، إنها الجماهير الجاهلة، إن الذكاء ينتمى للأقلية دائما وإن معظم الناس ليسوا مؤهلين لكى يكون لهم رأى، وتحت أى ظروف لن أربط نفسى مع أى حزب لديهم الأغلبية».

وواضح أن السبب الذى جعل إبسن يخطئ بشكل كبير فى إدراك المستقبل إنما ينبع من الضعف الموروث فى شخصيته، ومن عدم قدرته على التعاطف مع الناس على العكس من الأفكار، فحين تكون الجماعات أو الأفراد مجرد أفكار مجسدة، كما كانت فى مسرحياته، فإنه يستطيع تناولها بتعاطف وبصيرة عظيمة، ولكن فى اللحظة التى تدخل فيها حياته كناس حقيقيين فإنه يهرب أو يرد بشكل عدائى.

وغالبا ما كتب إبسن عن الحب، الذى كان موضوعه الرئيسى فى شعره، ولو بالمعنى السلبى للتعبير عن ألم الوحدة، ولكن كان من المشكوك فيه أنه كان يشعر بالحب تجاه شخص ما على العكس مع فكره أو شخص تجسد فى فكره. فالكراهية كانت عاطفة حقيقية بالنسبة له، وخلف الكراهية كان ينبع شعور أكثر أصالة وهو الخوف، ففى أعماق شخصيته كان ثمة خوف مكتوم ومنتشر، وربما كان أكثر الأشياء أهمية بالنسبة له، وقد ورث الخجل عن أمه التى كانت تنتهز كل فرصة لكى توصد الحجرة على نفسها وهو ما كان يفعله إبسن وهو طفل. وقد لاحظ الأطفال الآخرون خوفه وكان الجبن بمعناه الجسدى والمعنوى ما ينطبق عليه عبر حياته. ولم يكن الجبن ينطبق عليه فقط تجاه الأحداث العامة والسياسية والذى كان يتحجج فيه بقوله «نحن الشعراء لدينا مهام أخرى لكى نؤديها»، وإنما كذلك فى حياته الشخصية، فالجبن هو الذى جعله يهرب وهو فى صحبة صديقة له حين رأى أباها، وحين تقابلا بعد سنوات طويلة وسألها: لماذا لم تثمر علاقتهما أجابته: «ألا تتذكر لقد هربت، فأجابها «أجل لم أكن أبدا رجلا شجاعا يواجه وجها لوجه».

ومع ذلك لم يعدم إبسن من النقاد والشراح من يدافع عنه فيما يتعلق بهذه الجوانب من شخصيته، أو يلقى مزيدا من الضوء على الدوافع والخلفيات التى ساهمت فيها بل وفى تشكيل تصوره ورؤيته للفن وللبشر وعلاقاتهم، وقد وجد هؤلاء النقاد أنه لكى نفهم كتابات إبسن بشكل كامل فإن علينا أن نفهم أولا الرجل الذى كتبها ومن هنا فإنهم يعتبرون أن كثيرا من النقد الذى يوجه لإبسن ربما لم يكن يكتب إذا كان النقاد قد امتلكوا إحساسا كافيا وضميرا كى يكتشفوا أى نوع من الرجال كان حقا وماذا كان فى فكره حين تصرف وكتب. وقد أشار هؤلاء الذين حاولوا إنصاف إبسن وتفسيره إلى ما كان يشدد عليه مرارا من أن على الكاتب أن ينظر ليس فقط فى قلبه ولكن فى خبرته الخاصة، وليس كثيرا فى الأمور الفعلية التى فعلها أو مر بها بقدر ما ينظر إلى المشاعر التى مر بها وإلى خبرته العاطفية، فقد كتب إبسن عام ١٨٧٠ «أن كل شىء حققته كشاعر قد نشأ أصلا من إطار فكرى ومن موقف من الحياة، ولم أكتب أبدا لأننى كما يتصور البعض وجدت موضوعا جيدا للكتابة»، كما كتب مرة أخرى «إن المرء يجب أن يجد شيئا يخلق منه من خبرته فى الحياة، والكاتب الذى ليس لديه ذلك لا يستطيع أن يخلق، والآن، أعرف جيدا أن أى حياة عيشت فى عزلة ليست حياة خالية من الخبرة، إن الإنسان مع هذا وعلى المستوى الروحى مخلوق بعيد النظر، إننا نرى

بشكل أكثر وضوحا من بعيد، فالتفاصيل تخلق التشويش، وعلينا أن نبتعد عما نحكم عليه، فالإنسان يصف الصيف بشكل أفضل فى يوم شتاء».

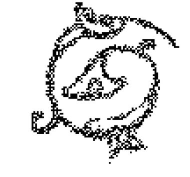
كذلك كان إبسن واضحا تماما فى تأكيده على أن أى كتابة يجب أن تستند على الحياة وأكثر من ذلك على أن الكتابة هى أقل أهمية من الحياة. وقد يدهش البعض الذى رأى حياته باعتبارها حياة كئيبة وخالية من الأحداث واعتبروه شخصا محدودا وبورجوازيا صغيرا، أما إبسن فقد تحدث بشكل واضح بما فيه الكفاية «إنى أحلم، وأتذكر، واستمر فى الكتابة، إن الكتابة شىء رائع، ولكن فى نفس الوقت فإن واقع الحياة يمكن أن يكون من وقت لآخر، أكثر روعة»، إن المرارة والأسف الذى ينمو مع مسرحياته «حين نستيقظ نحن الموتى»، إنما تنشأ عن عدم العيش بما فيه الكفاية، وكما كتب ليبرنسون الذى اختلف معه «إذا كان على أن أقول ما يجب أن يكتب على قبرك، فإنى سوف أختار عبارة «إن حياته كانت أكثر أعماله الخلاقة»، ولذلك أعتقد أن تحقيق الإنسان لذاته فى حياته هو أعلى ما يستطيع الإنسان أن يحققه».

وعلى عكس ما وصفت به الصحف إبسن عند موته عام ١٩٠٦ من أنه «كان باردا كالسمكة وقاسيا وحادا كالمسمار، وكان بالتأكيد لا يمتلك ذرة من الدعابة» فإنه، فى رأى نقاد آخرين ورغم أخطائه لم يكن باردا أو صعبا أو عديم الدعابة، كما اعتبروا أن هذه الأحكام الخاطئة حول إبسن هى نتيجة الفهم الخاطئ للتحفظ النرويجى، وهى صفة قديمة قدم القصص الايسلندية القديمة الزاخرة بأعمال البطولة sagas، باحتقارها الكتوم للنزعة العاطفية والإطناب فى الحديث وبشكل يجعل شخصياتها الأصيلة فى لحظات الأزمة قد لا يصدر عنهم كلمة. وهو نفس الشىء مع إبسن فقد كان ثمة الكثير من الثلوج عليه، وكان الطفل النازع إلى التأمل لأسرة محطمة غير متجانسة، وفى كل حياته كان يدافع عن نفسه، غير انه تحت سطح هذا الجليد يكمن ليس فقط نار الغضب وإنما أيضا دفء ما هو أكثر إنسانية، وحيث تبدو صورة إبسن مضللة حين تقدم النظرة المفترسة وليس الابتسامة الساحرة، وحتى فى موطن راسه جريمستاد، ومع بعض أصدقائه المقربين فقد كان بالإمكان أن يتحول إلى أكثر المتحدثين حيوية، وفى كل حياته شرط أن تكون الرفقة طيبة، كان يستطيع أن يكون مبهجا -يتدفق منه الخيال والسخرية مما يبعث على الدهشة، وبشكل استطاع من يراقبه بشكل ذكى أن يكتشف فيه حتى وراء صمته تطلعا دفينا نحو العاطفة، بل إنه وفى بعض الأحيان كان يمكن أن يصبح عاطفيا، وكان يحب أن يتحدث مع الأطفال أو مع العمال فى الطريق، وأن يكون معهم فاتنا بشكل غير متوقع. وحتى فى أيامه الأخيرة المنكسرة سجل من كانوا يعالجونه كيف أنه، وبعد أن يذوب التحفظ المبدئى، يصبح أكثر المتحدثين لطفا، وسجل صديقه براندیس أنه حين التقى به فى درسدن عام ١٨٧١ احتضنه إبسن وضمه إلى صدره «بدرجة أن كدت أفقد تنفسى»، ويضيف انه فى عام ١٨٨٤ حين استمع إبسن فى روما إلى الموسيقى الموضوعة لبعض أشعاره يعزفها الموسيقار النرويجى ادوارد جريج «جاء والدموع فى عينيه إلى البيانو حيث كنا وضغط على أيدينا دون أن يقول كلمة واحدة»، ويتصور هذا الاتجاه النقدى الذى يدافع عن إبسن أن المفتاح الحقيقى لشخصيته والعاطفة التى تحكمه ربما كانت فرديته غير المرنة التى لا تقهر، وحول هذه النقطة المركزية والحيوية فإن وجهات النظر لا تستطيع أن تجد تعبيرا أفضل وأكثر تركيزا من كلمات إبسن نفسه «إن الشىء الرئيسى هو أن تظل مخلصًا وصادقًا فى علاقة الإنسان بنفسه. إن الأمر ليس مجرد أن تكون مستعدا لشىء أو آخر إلا لما هو زائف» وفى مخاطبته لصديقه جورج براندیس يقول «إن ما أتمناه لك أولا وأخيرا هو الفردية المطلقة تستطيع أن تدفع بك فى وقت ما أن تنظر إلى ما يهمك باعتبار أنه الشىء الوحيد الذى له قيمة وأهمية، وكل شىء آخر وكأنه لا وجود له. ولا يجب أن يؤخذ هذا على أنه علامة على شىء ما فى طبيعتى، فليس هناك طريق أفضل تستطيع أن تفيد به المجتمع الذى ينتمى إليه من أن تصوغ المعادن الموجودة داخلك» كما كتب مرة «إن أقوى إنسان فى العالم هو ذلك الذى يقف وحيدا».



على عكس ما وصفت به الصحف إبسن عند موته ١٩٠٦ من أنه «كان باردا كالسمكة وقاسيا وحادا كالمسمار» فإنه، فى رأى نقاد آخرين لم يكن صعبا أو عديم الدعابة





فى ضوء هذا يصبح من السهل فى نظر نقاد إبسن أن يفهموا ما ذكرته أم زوجته من أنها تجد تشابها بينه وبين الفيلسوف الدانماركى كيركجارد، لا لتشابه جسدى، وإنما لأن كلا منهما لديه «هذه الرغبة المتقدة لأن يكون وحيدا مع نفسه» وقد تبدو بعض أقوال وتصرفات إبسن غير معقولة بالمنطق العام، ولكنهم يتفهمونها فى ضوء أن العبقرية يجب أن تعبر عن غرابة أطوارها. وبالنسبة لهم فقد ظل إبسن هو الرجل الغاضب الذى كتب Bvamd، وهو نفسه المتشكك العطوف الذى كتب «البطة البرية». وفى بعض الأوقات يبدو مثل سامسون الذى لا رحمة لديه يهز أعمدة المجتمع المتعفنة حتى لو سقط كل البناء على رأسه هو، ويفسر ذلك قول إبسن «إن كلا منا يجب أن يناضل من أجل أن يجعل النظام الاجتماعى العام أفضل مما هو عليه، وهذا ما أفعله بأفضل ما فى قدرتى».

أما عن تحفظاته على الديمقراطية فقد كان يقصد بها توقعه أن تضفى على نفسه الأرستقراطية، وحيث كانت الأرستقراطية بالنسبة له هى أرستقراطية الشخصية، وقد أوضح ذلك فى خطاب له أمام عمال فى تروندهايم عام ١٨٨٥ «إنه مازال هنالك الكثير الذى يجب عمله قبل أن نقول إننا كسبنا الحرية، إن عنصرا من الأرستقراطية يجب أن يدخل سياستنا، وحكومتنا وتمثيلنا وصحافتنا. وبالطبع فإنى أعنى بذلك أرستقراطية الشخصية، أرستقراطية الفكر والإرادة، إن هذا فقط الذى يجعلنا أحرارا».

إن هذا التيار الذى يحاول أن يتفهم جوانب شخصية إبسن يضع عددا من الأسئلة التى تحاول أن تجيب عن السؤال الأساسى وهو: ما الذى جعل إبسن فرديا بهذا العنف؟ ولا يعتقد هذا الاتجاه أن إبسن كان كذلك بالطبيعة، ولكنه يرده إلى تربيته وتنشئته واعتبار حماس العوامل التى صبغته بهذا الطابع، فقد شهدت حياته المبكرة فشلا متكررا كطالب وكاتب مسرحية وكمدير مسرح، وكان عليه إما أن يقبل العزلة أو الهزيمة، وحتى حين كسب فى النهاية النجاح كان نجاح الفضيحة، وحين وجد من ينصت إليه استمع لمن يدينه باعتباره يسمم الرأى العام ومعاديا للمسيح. وقد كان من الطبيعى أن يصبح شخصا غاضبا ورغم هذا وعلى عكس الكثير من الأشخاص الغاضبين كان لديه شىء حقيقى يقوله.

غير أن السؤال الرئيسى الذى أثارته فردية إبسن كان هو إلى أى حد تعمل فرديته المتطرفة فى الحياة؟ هنا اختلفت وجهات النظر بشكل واسع. فمن ناحية سيظل مأزق الإنسان الدائم أنه يجمع بين الفردية والنزعة الاجتماعية، فهو فى حرب دائمة مع نفسه، لأنه اجتماعى ولكنه ينشد ذاته وتأكيد فرديته، وشأن الحيوانات الشائكة المشاكسة تندفع نحو بعضنا البعض عندما نشعر بالرعشة، وتفترق وتتباعد مرة أخرى لأننا سريعو الحساسية والفردية الحقة، من نوع فردية إبسن، تتكون من عثور الإنسان على ذاته وكونه إياها وليس وضعها للعرض أو للبيع، مثل هذه الفردية العظيمة يعرفها مونتانى جيدا فهى أفضل ما تكون حين تكون فى المؤخرة وليس فى الواجهة. فى رأى هذا الاتجاه الذى يتلمس الأسباب لتفسير عزلة إبسن وفرديته، تصبح الشعبية شيئا جديرا بالازدراء، كما أنه مما لا يدعو إلى الاحترام أن تكون «مع التيار» أما تكامل وسلامة الشخصية الحقيقية فهو أن ترضى بأن تكون صوتا فى البرية. والنتيجة - عند هذا التيار المدافع عن إبسن - أنه ما دمنا جميعا قد ولدنا نجمع بين الفردية والنزعة الاجتماعية، فإنه يبدو من العبث والجنون أن نحاول أن نمحو أى جانب من طبيعتنا ولا يبقى أمامنا إلا أن نقيم التوازن بينهما، ولكنه التوازن الذى يفضل أن يميل بشكل قوى نحو الفردية -وكما كتب إبسن عام ١٨٨٤ «اعتقد أننا جميعا ليس لدينا شىء آخر أفضل لكى نفعله من أن نحقق ذواتنا وبإخلاص».

حرر فكرك وحياتك من النفاق

ولا تدع الضمير المريض يجعلك جبانا

كن أفضل ما فى نفسك، وكن نفسك

أن تتساءل هو أكثر أهمية من أن تجاوب

لا تقلق من تقييدك لفكرك

بشرط أن تبقى عليه متوقدا ورائعا

إن الحياة أهم من الفن

أن تقتل حب الحياة فى القلب البشرى

هو الخطيئة التى لا تغتفر

المشكلة الحاسمة فى الحياة هى أن تصالح وتوافق ما بين السعادة والواجب

وهكذا تحدث إبسن. ■

المراجع

1. Michael Meyer, "Ibsen", Benguin, 1990
2. Lucas, "The Drama of Ibsen .L.F and Strindeberg", Cossell, London, 1962
3. Arlik Gustafson, "Six Scandinavian Novelists..", Princeton 1940
4. Ellas Bredsdorff, " an Introduction of Scandinavian Literature..", 1951
5. John Budd, Eight Scandinavian Novelists :Criticism and Reviews in English /complied by John Budd, Greenwood Press 1981




أمن المعلومات

جمال محمد غيطاس



ثقافة أمن المعلومات يمكن تعريفها بأنها مزيج من الأفكار والتصورات والسلوكيات والتوجهات العامة التى تتحرك فوق خلفية معرفية تجعل كل فرد أو طرف على وعى بكيفية التعامل مع المعلومات



كان التصور الغالب خلال السنوات الماضية أن أمن المعلومات قضية تقنية بحتة تتعلق بأدوات وبرمجيات ومعدات وأجهزة، وحينما ارتفع سقف التعامل مع هذه القضية فى السنوات الأخيرة وانتقلت من مستوى الخطط العفوية المجزأة ضيقة النطاق التى يضعها وينفذها الفنيون والتكنوقراط إلى مستوى الخطط القومية والوطنية التى يتولى شأنها الاستراتيجيون وصناع القرار بالمستويات العليا، نظر إليها الكثيرون باعتبارها مزيجا من التكنولوجيا وأدواتها ونظريات الأمن وخبراته وأدواته وتعقيداته، والحقيقة أننا فى الحالتين أمام تصورات خاطئة لا تعكس الحقيقة التى أجمعت عليها الخبرات والتجارب العالمية وتؤكد أنه: (فى أمن المعلومات لابد أن تأتى الثقافة قبل التكنولوجيا) وأنه (لا أمن بلا ثقافة)، وأنه (حينما تغيب الثقافة تفشل خطط وسياسات أمن المعلومات).

قد نتساءل فى البداية: ما الذى زج بالثقافة فى قضايا أمن المعلومات؟

واقع الحال أن الثورة الرقمية والتطورات الجارية فى الاتصالات والمعلومات دفعت إلى الساحة بالعديد من المتغيرات الجديدة فيما يتعلق بأمن المعلومات، ولعل أخطر هذه المتغيرات هو وجود الكثير من المؤشرات التى تنبئ بوجود تهديدات فى أمن المعلومات فيها من الشمول والاتساع والعمق ما يجعلها ترقى إلى مستوى تهديد الأمن القومى الشامل للدول والمجتمعات، وبالتالى بات ينظر إليها ليس على أنها مجرد تهديدات ومخاطر محدودة الأثر ولكن باعتبارها مصادر خطر داهمة تشبه العواصف والأعاصير الضخمة التى تضرب دولة بأكملها فى شتى مرافقها، وفى ظل هذه (العواصف الإلكترونية والمعلوماتية) الحالية أو المتوقعة بدأ الكثيرون حول العالم يعيدون النظر فى قضية أمن المعلومات ويرون أنه بات من الضرورات القصوى العمل على الارتقاء بها من مستوى الأمور التقنية التفصيلية التى تسند إلى فنيين وتكنوقراط داخل المنشآت والمؤسسات كل على حدة بشكل مجزأ، لتأخذ مكانها ضمن القضايا التى يتولاها سياسيون واستراتيجيون يترجمونها فى رؤى وسياسات وطنية تعمل ضمن منظومة الأمن القومى الشامل وتضبط العلاقة بين أمن المعلومات والأمن القومى وتوجهها فى مسارها الصحيح.

وقد أكدت الخبرات العملية التى صادفتها العديد من دول العالم عند تعاملها مع أمن المعلومات من منظور الأمن القومى أنه من الخطأ الكبير اعتبار أمن المعلومات قضية تكنولوجيا معلومات فقط أو خطط تقنية يتم العمل على تنفيذها بالقوة والإلزام على الآخرين أو خطط أمنية فقط، وأن المدخل السليم هو التعامل مع أمن المعلومات باعتباره اتجاهات وسلوكا وقناعات يتعين العمل على بنائها وتحديدها بدقة ووعى يناسب طموحات الوطن وتحدياته، ثم الاجتهاد فى نشرها وترسيخها بين أفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة، بما يؤدى لتكوين مستوى من الثقة المتبادلة والولاء القوى بين الفرد والجهة التى يعمل بها إن كان الهدف تأمين منشأة أو مؤسسة، أو بين المواطن والوطن الذى يعيش فيه إن كان الأمر يتعلق بحماية وطن، فيظهر بالمجتمع ما يمكن أن نطلق عليه (ثقافة أمن المعلومات) التى تعمل (كظهير) واسع ورحب يضمن النجاح لأى سياسة أو خطة قومية فى أمن المعلومات.

إذن فالمقصود بالثقافة هنا هى (ثقافة أمن المعلومات)، والتى يمكن تعريفها بأنها مزيج من الأفكار والتصورات والسلوكيات والتوجهات العامة التى تتحرك فوق خلفية معرفية تجعل كل فرد أو طرف بالمجتمع على وعى بكيفية التعامل مع المعلومات ومتى يتم إعطاء المعلومة ومتى يتعين حجبها ولمن تمنح المعلومة وعن من يتم يمنعها ومتى يتم طلب المعلومة ومتى يتعين تركها، ومتى وأين وكيف يجرى توظيف المعلومة واستخدامها، ويستوى فى ذلك جميع أفراد المجتمع ومؤسساته ابتداء من عامل السويتش مثلا وانتهاء بالمسئول عن صيانة وإدارة بيانات فائقة الحساسية داخل قاعدة بيانات قومية ومرورا بجميع الجهات المعنية بتداول وأمن المعلومات.

بناء ثقافة أمن المعلومات

ولو أخذنا التعريف السابق لثقافة أمن المعلومات وطبقناه على ما يجرى فى ساحة أمن المعلومات عالميا من خبرات وتوجهات ورؤى، سنجد أن هناك تنويعات مختلفة داخل ثقافة أمن المعلومات، وببعض التجاوز يمكننا القول إنه لا توجد ثقافة واحدة لأمن المعلومات بل ثقافات متعددة، فالساحة غنية بالعديد من المدارس الثقافية فى أمن المعلومات، فهناك مدرسة تعتبرها ثقافة تعاونية قائمة على المشاركة والرضا، وهناك مدرسة تعتبرها ثقافة إدارية محضة تفرض بقوة الإلزام، وهناك مدرسة ثالثة تتحدث عن ثقافة المعلومات المخططة والمهيكلة أى الخاضعة للتنظيم والمعايرة والقياس، ومدرسة رابعة تتحدث عن ثقافة أمن المعلومات القائمة على العفوية وعدم الهيكلة، وبخلاف هذه المدارس هناك من يرى أن ثقافة أمن معلومات يجب أن تزرع منذ البداية فى جميع الخطط والمشروعات والأنشطة المجتمعية منذ بداية التفكير والتخطيط لهذه المشروعات، وهناك من يراها ثقافة تجسد عمليات تضاف إلى الأنشطة والمشروعات والمؤسسات القائمة وليس الجديدة، والبعض يراها مجموعة الأمور والسلوكيات التى يمكن نشرها والالتزام بها وتطبيقها بشكل روتينى طول الوقت، ومن ثم فهى أقرب إلى ردود الأفعال التفاعلية التى يمكن تنشيطها عندما يحدث شىء ما خطأ.

وعلى الرغم من كثرة وتنوع الرؤى المتعلقة بثقافة أمن المعلومات وأنواعها، هناك ثلاث ركائز أساسية لابد من توافرها فى جميع الأحوال حتى تنشأ بالمجتمع أو المؤسسة أو الدولة ثقافة فى أمن المعلومات قابلة للملاحظة والقياس والتطوير والمتابعة، وتعمل هذه الركائز الثلاث بشكل مشترك وتفاعلى وتشكل فى مجموعها المدخل إلى بناء ثقافة أمن المعلومات، والركيزة الأولى هى الالتزام من أعلى والثانية هى الدمج فى إدارة المخاطر والثالثة هى محفزات البناء وآليات الثواب والعقاب، وفيما يلى نتناول كلا من هذه الركائز بشىء من التفصيل.

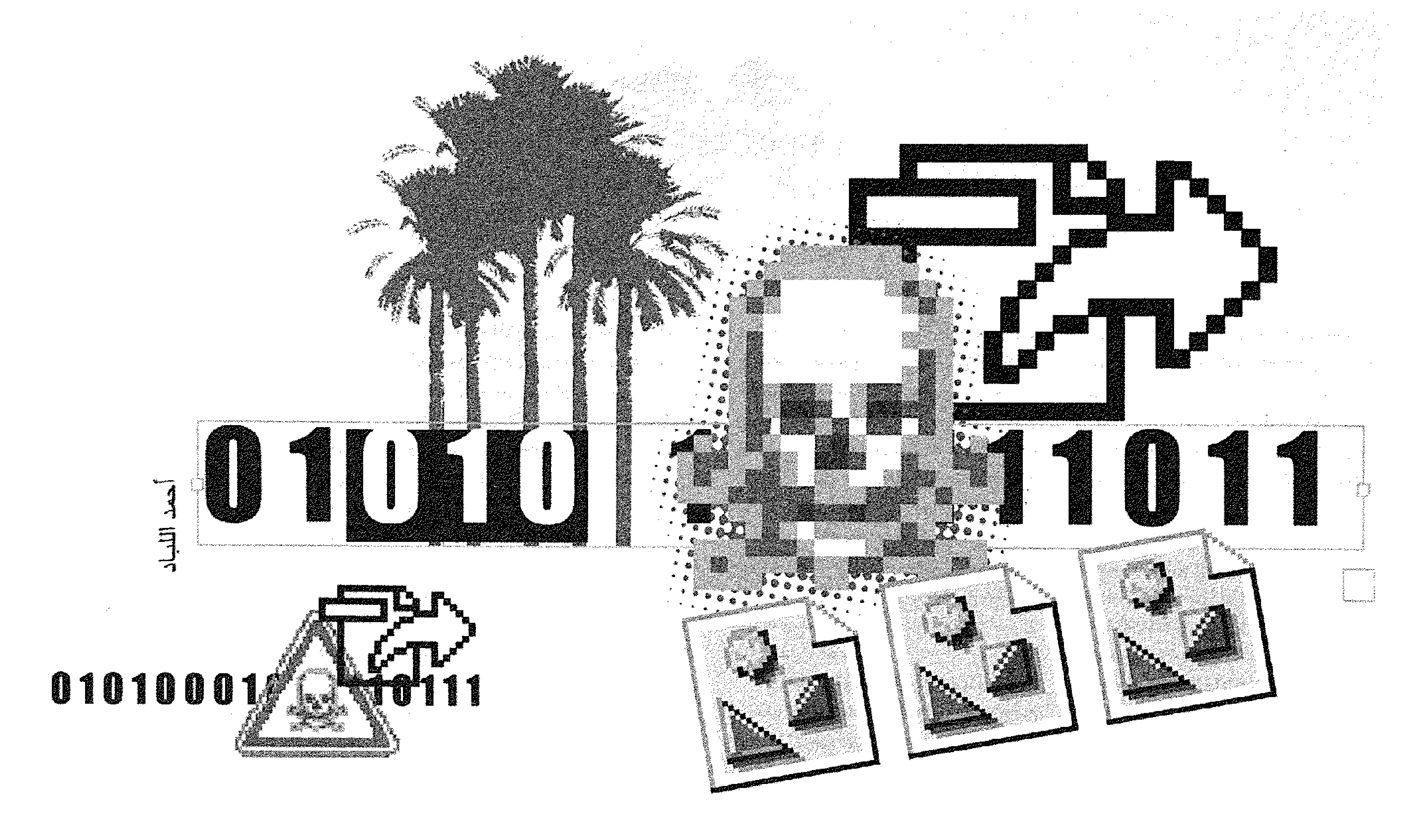
الالتزام من أعلى

تفرض هذه الركيزة أن يكون المسئولون فى أعلى المستويات الإدارية والقيادية بالدولة ومؤسساتها المختلفة على قناعة تامة بأهمية وحيوية أمن المعلومات، وأن تترجم هذه القناعات عمليا فى أن يكونوا على علاقة وثيقة ومستمرة بعمليات وضع سياسات واستراتيجيات أمن المعلومات بالمجتمع وآليات متابعة مستويات أداء أمن المعلومات بالنسبة للمديرين والمسئولين الأدنى تجاه مؤسساتهم، وأن يضربوا المثل والقدوة فى فهم سياسات وإجراءات أمن المعلومات وفى التقيد بها وفى فرض متطلباتها على المستويات الأدنى.

وفى ضوء هذه الركيزة يرى بعض كبار خبراء الإدارة وأمن المعلومات أن ثقافة أمن المعلومات تبدأ من رأس الدولة أو النظام أو المؤسسة أو المنشأة أو الشركة وذلك فى صورة سياسة أو رؤية أو استراتيجية، ثم تتدرج مسئولياتها وأنشطتها وتفاعلاتها إلى المستويات الأدنى حتى تصل إلى المواطن الفرد أو الموظفين فى أدنى المستويات، ويؤكد الذين يتبنون هذا الرأى أنه حينما لا يلتزم القادة فى المستويات الأعلى بثقافة أمن المعلومات ولا يعطونها الأولوية الكافية فإن أى سياسة أو إجراءات تتخذ فى المستويات الأدنى منهم لا تحقق النجاح المنشود، وإذا لم يصنع القادة النغمة الصحيحة لهذه الثقافة ويحرصوا على نشرها فى مجتمعهم ومؤسساتهم يصبح أمن المعلومات فى مهب الريح ومحل صراع وجدل ونقاش، وحينما يقع حادث ما تضيع المسئولية بين الجميع وربما يتنصل الكثيرون منها ويضعونها فقط على المتخصصين والفنيين فى حين تكون المسئولية فى عنق آخرين بالمستويات الأعلى.

والحقيقة أنه حينما يبدأ الالتزام بثقافة أمن المعلومات من رأس الهيئة أو المؤسسة أو الدولة فإن ذلك يفسح الطريق لسياسات واستراتيجيات أمن المعلومات كى تتغلغل بسهولة فى النسيج العام لاستراتيجيات المجتمع وأهدافه وخططه العليا، وتتهيأ الفرصة كى ينظر المجتمع بوحداته ومؤسساته وأفراده إلى أمن المعلومات باعتباره إحدى أدوات تحقيق وتنفيذ هذه الخطط والاستراتيجيات.

وقد وضع جون ستيوارت نائب رئيس شركة سيسكو العالمية لأمن المعلومات معادلة فى هذه النقطة مؤداها أن



(مخاطر أمن المعلومات = القيمة × التهديد × نقاط الضعف) وخلص من هذه المعادلة إلى أن التأثير على الدولة من خلال إفساد أو فقد المعلومات يكون مرتبطا ارتباطا مباشرا بقيمة المعلومات ومستوى التهديد الذى تتعرض له ونقاط الضعف التى يمكن أن تنفذ منها هذه التهديدات إلى مؤسسات الدولة وبياناتها القومية وشبكاتها كل يوم، وكلما كانت القيمة عالية كان الهدف كبيرا والتدمير مؤثرا وخطيرا والمخاطر الكلية على الدولة أكبر.

وتدل هذه المعادلة على أهمية فكرة الالتزام من أعلى كركيزة من ركائز ثقافة أمن المعلومات، ففى ظل الوعى بهذه المعادلة ينعكس الالتزام لدى القيادات العليا إلى أفكار تزرع لدى جميع المواطنين فى مختلف المؤسسات والهيئات، ومن هذه الأفكار: أن المواطن هو العماد الرئيسى للوطن فى قضية أمن المعلومات، وأنه لابد للمواطن من أن يسلك سلوكيات تجسد القناعة بأهمية إدماج أمن المعلومات كجزء من بيئة العمل فى المجالات المختلفة، ويكون من نتيجة ذلك أن يتولد قبول لدى الجميع بأن معايير الالتزام بأمن المعلومات أصبحت من معايير الحكم على المواطن بالصلاح والوطنية، وهنا تكون عملية التدريب الحقيقية بناء ونشر ثقافة أمن المعلومات التى ارتضاها المجتمع لنفسه قد بدأت.

عند هذه النقطة يتعين على القيادات العليا والمسئولين عن بناء ثقافة أمن المعلومات وواضعى سياساتها واستراتيجياتها أن يظهروا ثقتهم فى مواطنيهم ولكن مع توعيتهم بأن عليهم أن يكونوا محلا لهذه الثقة ويتحملوا مسئوليتها، من خلال برامج تدريب وتعليم وتعلم مستمرة وعلى كل المستويات من أجل التوعية، ويمكنهم فى هذه الحالة الاستفادة من وسائل نشر ثقافة أمن المعلومات، كإرسال إيجازات أو مختصرات دورية كل أسبوع أو كل شهر حول الأنشطة فى مجال الأمن على مستوى المؤسسات والدولة ككل عبر البريد الالكترونى والصوتى ليس على المستوى القاعدى فحسب ولكن على مستوى القادة أيضا، فالناس يجب أن تكون على علم دائما بما يجرى من تهديدات ومخاطر وما يطرأ على السياسات والإجراءات من تغيير، ويمكن للقادة التحدث بالأرقام من خلال عرض الإحصاءات والنماذج المالية التى توضح الفوائد التى يمكن تحقيقها من وراء العناية بأمن المعلومات والتى يكون لها مردود على الفرد والجماعة.

الدمج فى إدارة المخاطر

إذا كان المجتمع يبحث عن ثقافة أمن معلومات فاعلة وسليمة فلابد أن تنشأ داخل مؤسساته وهيئاته وقطاعاته المختلفة آليات وأدوات تدمج أمن المعلومات ضمن خطط وإجراءات إدارة المخاطر التى يتعرض لها المجتمع ككل، ليصبح أمن المعلومات جزءا مترابطا وأساسيا فى (قلب أو محور) الأعمال والفعاليات الجارية على مدار اليوم فى شتى المجالات، فهذا من شأنه أن يرسخ فى عقول وأذهان الجميع ومع الوقت تجارب وخبرات ومشاهدات يتلاحم وربما يتمازج فيها أمن المعلومات مع إدارة المخاطر التى يتعرض لها المجتمع من شتى النواحى، فتنشأ تدريجيا طبقة من الوعى العام والسلوك العام تتسم بحساسية صحية وإيجابية تجاه أمن المعلومات، مما يساعد فى تشكيل اللبنات الأولى لثقافة أمن المعلومات المنشودة.

ومثل هذه المهمة تقع على عاتق المستويات العليا بالمجتمع وفى مقدمتها الجهات المعنية بالأمن القومى التى يتعين عليها أن تستعين بالمعايير الدولية وبما تتطلبه القوانين السائدة بالمجتمع ولها علاقة بأمن المعلومات لكى توفر للمجتمع الإطار العام لمفهوم إدارة أمن المعلومات كجزء من إدارة المخاطر، وأن تضع الحزمة الأساسية من المبادئ والإرشادات والمعايير الخاصة بذلك، والتى يمكن أن تكون بمثابة القلب أو المحور الأساسى لحزمة مبادئ تهتدى بها جميع مؤسسات المجتمع فى إدخال ثقافة أمن المعلومات ضمن المنظومة الإدارية الحاكمة لديها، على أن تنطلق هذه الحزمة الأساسية من أن بناء ثقافة أمن المعلومات ستكون فعالة ومثمرة وناجحة إذا ما تم تنفيذ إجراءات أمن المعلومات بشكل طوعى وبرغبة من أصحاب المؤسسات والشركات بدلا من وضعها كتكليف أو هدف يتعين تنفيذها قسرا من قبل الحكومة أو الجهات المختصة، فهذا من شأنه أن يرفع المجتمع ومؤسساته كلها إلى مستوى ما يواجهه من تحديات فى أمن المعلومات.

كما يتحتم على هذه الجهات أيضا إطلاق حملات جماهيرية باستخدام المؤسسات المختلفة لنشر وتدعيم مفهوم إدارة أمن المعلومات وملاحظة الذين يقومون بذلك أو يتراخون فيه، ومثل هذه الحملة يجب أن تأخذ فى اعتبارها ما يلى:

. لابد أن تتضمن تعريفا محددا وواضحا للجهود والالتزامات وليس من أشياء يصعب تطبيقها وتقييمها.

. لابد ان تؤكد على أن مفهوم إدارة أمن المعلومات هو الطريق أمام الجميع للقيام بدورهم فى تنفيذ وتفعيل الاستراتيجية القومية لأمن المعلومات وفى حماية الأمن القومى ككل، وأن هذا يتطلب جهدا مستمرا وليس لمرة واحدة، وأن تتسم هذه الجهود بالحذر والحرص والذكاء بحيث تلفت النظر إلى جهود أمن المعلومات ولا تكشف مستوى أمن المعلومات لدى المؤسسات المختلفة.

محفزات البناء...

آليات الثواب والعقاب

ثقافة أمن المعلومات هى فى النهاية تعبير عن وعى وقناعات وأفكار تختمر وتعيش بالنفوس ويتم ترجمتها إلى سلوكيات وقرارات طوال الوقت من قبل أشخاص ومؤسسات، ومن هنا لابد أن تكون إحدى ركائز بناء هذه الثقافة منطلقة من فهم جيد وصحيح للطبيعة والنفس البشرية بحيث تأخذ فى اعتبارها مراعاة احتياجاتها وطبائعها وتفضيلاتها وتوقعاتها، وهذا ما تتولاه الركيزة الثالثة من ركائز بناء ثقافة أمن المعلومات ونعنى بها محفزات البناء وما تتضمنه من آليات للثواب والعقاب.



أمـــن المعـــلومـات

وعند تناولنا لهذه النقطة، ولو من أبسط مداخلها، سنجد أن معظم الناس لا يحبون عادة وربما لا يطيقون المضي في حياتهم وأعمالهم وهم يلتزمون بالإجراءات التي يتطلبها أمن المعلومات الجيد المستوى، والكثيرون يفضلون القيام بأعمالهم بسهولة من خلال الخطوات المختصرة السريعة التي لا تتقيد بإجراءات معينة، وواحد من أسهل الخطوات المختصرة هي ببساطة الالتفاف حول إجراءات أمن المعلومات، وفي معظم الأحوال يشعر هؤلاء، سواء على سبيل الخطأ أو الصواب، أنه ليس لديهم حافز أو دافع لتطبيق أنشطة أمن المعلومات وليس هناك تبعات أو نتائج عليهم مواجهتها حينما لا يتوافقون مع قواعد وإجراءات أمن المعلومات، فمثلا ربما يغير البعض كلمة المرور أو السر الخاصة بدخوله على شبكة المعلومات الخاصة بالعمل لشخص آخر، كزميل في العمل، حينما لا يستطيع الذهاب للمكتب ويشعر أنه يحتاج إلى إرسال رسالة باسمه لشخص ما، والبعض لا يروقه مثلا أن يقضي بعض الوقت في إنشاء نسخ احتياطية لما لديه من بيانات على حاسبه المحمول أو بريده الشخصي، أو ينفق بعض الوقت في تنزيل الرقع الأمنية لنظام التشغيل الذي يعمل عليه.

والحاصل علميا أن هذا (المزاج) الإنساني السائد يشكل نوعا من الثقافة الراسخة لدى قطاعات واسعة، وهذه الثقافة تتصادم مع حقيقة أن نظم أمن المعلومات التي تطبق داخل المؤسسات والمنشآت المختلفة عادة ما تتعارض أو تضايق الذين يميلون لهذه الطريقة البسيطة المحببة من الأداء، ولذلك فإن الكثيرين يواجهون صعوبات في تنفيذ كل المهام التي يتوقعون التلاؤم معها كل يوم ومن ثم يلجأون لبدائل غير آمنة، ومثل هذه الثقافة لا يمكن تغييرها قهريا دون تغيير في الأفكار والآراء لتتشكل قناعات جديدة بأنها إذا كانت تحقق وفرا في الوقت وسهولة في الأداء إن هذا الوفر والسهولة يستمر لبعض الوقت وبشكل ظاهري، لأنها في الحقيقة قد تكلف الإنسان غاليا دون أن يدري أو فجأة.

ومواجهة هذه الثقافة تتطلب أن يكون هناك حوافز أو دوافع لدى الفرد والجماعة والمؤسسة تشجعهم طوعا على التغيير وتقبل ثقافة أمن المعلومات الجديدة التي ربما تتطلب منهم مزيداً من الوقت ومزيداً من الجهد فيما يقومون به من أعمال وتصرفات وسلوكيات.

وقد كتب الكثيرون عن فكرة التحفيز كركيزة من ركائز أمن المعلومات وأكدوا أن التحفيز يمكن أن يكون بالترغيب في الحصول على الأشياء الإيجابية والمميزة أو بالترغيب في تفادي العقوبات والأشياء السلبية، وتذكر الباحثة الأمريكية ريبيكا هيرولد في دراسة لها حول أمن المعلومات أن الدراسات حول محفزات بناء ثقافة أمن المعلومات تعود جذورها إلى عشرينيات القرن الماضي، حينما كان الأفراد لا يملكون هذا الحافز، وكانت مؤسساتهم تعتمد فقط على التكنولوجيا بالكامل من أجل تأكيد أمن المعلومات، وهذا منزلق خطر لأنه مهما كانت دقة وفعالية التكنولوجيا فإن العامل البشري هو الذي يديرها ويتعايش معها ويحدد معايير استخدامها ومفاتيح ضبطها والتحكم فيها.

والحقيقة أن الحوافز المشجعة على الالتزام بثقافة أمن المعلومات وإدارة المعلومات ليست ذات نمط واحد يتكرر بكل الأماكن والقطاعات ولكنها تختلف حسب طبيعة القطاع الذي يعمل به الأفراد ونوعية المؤسسات التي يعملون بها وحجمها وأيضا ثقافة كل فرد أو مجموعة أفراد على حدة، فحوافز أو دوافع المثقفين تختلف عن المهنيين والعمال والفلاحين وغيرهم.

وقد قدمت ريبيكا في دراستها خلاصة لتجارب العديد من خبراء أمن المعلومات حول قضية (المحفزات) كركيزة من ركائز أمن المعلومات، وانتهت إلى أن هذه الحوافز لابد أن تتصف بمجموعة من الصفات كي تصبح فعالة وتلقى قبولا لدى مؤسسات المجتمع وأفراده، وهذه الصفات هي:

. أن تتوافق هذه الحوافز مع القوانين والإجراءات والقواعد السائدة بالمكان التي ستقدم فيه.

. أن تكون هناك تقارير حقيقية وصادقة وأمينة ودورية حول تأثيراتها ومدى قبولها في المجتمع.

. أن تلبي احتياجات إدارة أمن المعلومات أثناء المراجعات الداخلية للتوافق معها.

. أن تحظى بالاحترام والثقة من قبل العاملين والإداريين والمواطنين من مختلف الفئات والأدوار والمستويات.

. أن تحقق أو تعمل على إيجاد علاقات جيدة وتفاعلات بناءة مع العاملين والمواطنين عموما.

. أن تؤدي لتدعيم وتقوية أعمال تتصف بالاهتمام والفاعلية والتلاؤم مع البيئة المحيطة.

. أن تتبع وتتوافق مع أخلاقيات الأفراد والمبادئ الاجتماعية والمجتمعية السائدة ولا تتصادم معها.

. أن تقلل على نحو واضح ومحسوس من مخاطر أمن المعلومات.

. أن تحقق خبرات شخصية جيدة للمواطنين فيما يتعلق بحوادث أمن المعلومات أو فقدها.

. أن تساهم في تعليم وتعلم الخبرات السيئة والجيدة في أمن المعلومات للآخرين.

. أن تظهر درجة من الاقتراب الشخصي مع العاملين وأن تحقق الرضا لدى المديرين والرؤساء.

. أن تحمي السمعة والخصوصية الشخصية للجميع.

. أن يشعر الجميع بأنها أداة من أدوات التفوق والتميز في المنافسة مع الآخرين.

. أن تحقق شيئا يتصف بالترفيه والمتعة حال الالتزام بها من خلال تلاؤمها مع أجواء العمل.

. أن تحقق الشعور بالإنجاز والرضاء لدى من يلتزم بها من خلال إحساسه بأنه أدى وظيفته كما يجب.

. أن تحقق لدى من يلتزم بها شعورا بالقوة والتآخي أو المساواة مع من لديهم القوة.

. أن تعتمد على أدوات جيدة في عرض الخبرات الجيدة وتجنب الخبرات السيئة.

. أن تمنع الحوادث السيئة من أن تقع ثانية.

. أن تنقل للجميع أن هناك نوعاً من الثواب والعقاب على الأنشطة التي من شأنها التأثير سلبا أو إيجابا على أمن المعلومات المتعلق بمسئولياتهم الوظيفية وسلوكياتهم العامة.

ويعتبر العامل الأخير هو أحد أهم الدوافع السابقة التي من شأنها تكريس وتدعيم ثقافة أمن المعلومات بالمجتمع، ففكرة الثواب والعقاب ليست فكرة حديثة ولكنها من الدوافع والحوافز التقليدية القديمة المتبعة في جميع الحالات، ومن المفيد استخدامها من أجل تقوية أمن المعلومات، وتذكر دراسة ريبيكا أن الأشياء المحفزة التي يمكن أن تقدم كثواب للتشجيع على القبول بإجراءات وسياسات أمن المعلومات يمكن أن تشمل:

. التقدم الوظيفي أو تدعيم المركز الوظيفي.

. منح فوائد وتفضيلات جديدة.

. إجازات إضافية.

. هدايا وجوائز.

. جوائز مالية كعلاوات بالمرتب أو مكافآت.

أما العقاب فيمكن أن يشمل:

. فقد الوظيفة والتخفيض الوظيفي.

. تقليل المنافع والتفضيلات.

. الخصم من المرتب وإجراءات قانونية.

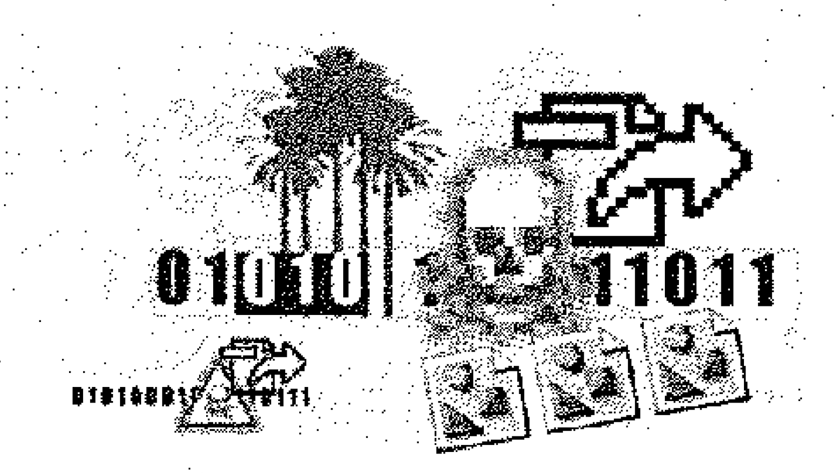
. الإعلان عن أنه شخص غير متوافق مع قواعد أمن المعلومات السائدة داخل المجتمع.

ولا شك أن بعض إجراءات الثواب والعقاب السابقة يمكن أن تكون لها فاعلية جيدة في بعض البيئات والمجتمعات والقطاعات داخل المجتمع، وبعضها الآخر يمكن أن يكون غير قانوني أو غير مقبول اجتماعيا أو وظيفيا، ولذلك لابد من مناقشة ودراسة إجراءات الثواب والعقاب تستخدم كأدوات لدعم وتحفيز ثقافة أمن المعلومات بكل عناية قبل الدفع بها إلى داخل المجتمع بقطاعاته وبيئات عمله المختلفة، ففي بعض الحالات قد يتعين تقديم العقاب على الثواب وفي بعضها الآخر قد يتعين العكس، ومن الضروري في كل الحالات أن تتم إجراءات الثواب والعقاب وفق



إذا كان المجتمع يبحث عن ثقافة أمن معلومات فاعلة وسليمة فلابد أن تنشأ داخل مؤسساته وهيئاته وقطاعاته المختلفة آليات وأدوات تدمج أمن المعلومات ضمن خطط وإجراءات إدارة المخاطر التي يتعرض لها المجتمع ككل





القوانين والعرف الاجتماعى السائد والظروف الاقتصادية والسلوكيات المجتمعية وغيرها من العوامل الأخرى التى عادة ما تكون مؤثرة بقوة عند نشر ثقافة ما بالمجتمع.

من ناحية أخرى فإن المحفزات السابقة لا يتعين أن تدفع إلى قلب المجتمع ومفاصله المختلفة دفعة واحدة، بل لابد أن يصاحبها ما يمكن أن يطلق عليهم (رواد التحفيز) وهم الأشخاص والمؤسسات والهيئات الذين لديهم الرغبة والقابلية والحماس لتقدم الصفوف ولعب دور الرواد فى القبول بإجراءات وسياسات أمن المعلومات المختلفة ويمكن أن نطلق (الأخصائيين النفسيين فى أمن المعلومات) ويمكن استخدامهم كمفاتيح للنجاح فى نشر وتفعيل ثقافة أمن معلومات جيدة فى المجتمع.

وبالطبع فإن مثل هذه النوعية من الفئات الرائدة لا يمكن العثور عليها تلقائيا، بل يتطلب الأمر من الجهات القائمة على نشر ثقافة أمن المعلومات أن تجرى مسوحا ودراسات معمقة لرصدهم واستكشافهم وتقويتهم وإبرازهم وتقديمهم للمجتمع فى توقيتات محسوبة ووفقا لمقتضيات مراحل بناء ثقافة أمن المعلومات، بحيث يظهرون مثلا عند الحاجة إلى عرض نتائج الالتزام بمعايير أمن المعلومات وما تحققه من فوائد خاصة تخفيض المخاطر والتوافق مع القوانين والسياسات والممارسات المقبولة صناعيا.

وتتطلب سياسات التحفيز، بمختلف جوانبها، تحديث السياسات المؤسسية ومعايير أمن المعلومات المختلفة للتوافق مع منهج الثواب والعقاب والحوافز بحيث تكون هذه السياسات جارية ومستمرة ومقبولة ومدعومة من جميع ذوى المصلحة، كما تتطلب تضمين أمن المعلومات كهدف أساسى ورئيس ضمن التوصيف الوظيفى للجميع، بحيث تتضمن مواصفات أى وظيفة تقييما لمهارات التعامل مع أمن المعلومات للتحقق من أن صاحبها ذو مهارات تتوافق مع السياسات والقواعد المطبقة على مستوى المجتمع أو القطاع أو المؤسسة أو الشركة، ويمكن أن يمتد هذا الأمر ليشمل القبول بأمن المعلومات والالتزام بقواعده كهدف خاص فيما يتعلق بالكفاءة الوظيفية بعد الالتحاق بالوظيفة، وهذا الدافع أو المحفز يمكن أن يجعل من الالتزام بأمن المعلومات جزءا من الكفاءة من العمل.

ويمكن أن تلجأ الجهات القائمة على بناء ثقافة أمن المعلومات إلى إجراءات أخرى كأن تطلب من جميع الأفراد والمواطنين أن يوقعوا دوريا على اتفاقيات متعلقة بأمن المعلومات وحماية الخصوصية فى نطاق أعمالهم، ويمكن أن يكون التوقيع عند الالتحاق بالعمل وسنويا، وهذا يدعو الأشخاص لمراجعة والإطلاع من جديد ودوريا على سياسات ومعايير أمن المعلومات المتفق عليها من قبل الدولة أو المؤسسة.

مجتمعاتنا والثقافة السلبية

والمشكلة أن مجتمعاتنا فى مصر والبلدان العربية لا توجد بها ثقافة أمن معلومات ناضجة من أى نوع ولم تتوفر بها بعد أى من الركائز الثلاث السابقة، ويمكننا القول أن السائد هو نوع من الثقافة السلبية المعاكسة التى تظهر فى ثلاث صور:

الصورة الأولى: وهى الأكثر شيوعا وعراقة وتتبع منطق التهويل والخوف المرضى من التعامل مع المعلومات، وأصحاب هذا الاتجاه إما لا يحرصون على إنتاج البيانات والمعلومات التى يحتاجونها فى أعمالهم ويمضون فى اتخاذ قراراتهم طوال الوقت بلا معلومات يستندون إليها فينخفض أداؤهم ويخرجون من كارثة ليدخلوا فى أخرى بلا انقطاع، أو تكون لديهم المعلومات لكنهم يريحون أنفسهم باعتقالها وحجبها عن الجميع ووضع عراقيل غير منطقية وغير مبررة فى الحصول عليها، وغالبا ما لا يمنع ذلك كله من تسريبها واختراقها انتقائيا وفق أساليب ملتوية تخدم القلة وتضر الغالبية، بل وتفتح المجال لسوق سوداء للمتاجرة فى المعلومات بطريقة غير شرعية تشكل ضررا بالغا للوطن ككل.

وفيما يلى بعض الوقائع التى جرت فى قطاع التعاون الدولى وتم فيها اعتقال وحجب المعلومات المتعلقة باتفاقيات التعاون والتبادل التجارى بين مصر ومجموعة كبيرة من بلدان العالم بحجة الحفاظ على سلامة الوثائق وتأمينها مع أن الوضع لم يكن يستدعى ذلك على الإطلاق وكان بالإمكان إتاحة هذه المعلومات لأنها لا تقع فى نطاق المعلومات السرية، ولكن ما حدث عمليا أن البعض استطاع الوصول إليها ولم يصل إليها البعض الآخر[1]:

. الواقعة الأولى: وقعت مصر مع فنلندا اتفاقية للتعاون الاقتصادى منذ الستينيات، تسمح بأن يقوم مستثمرو البلدين بإقامة مشروعات لدى البلد الآخر بمميزات وإعفاءات ضريبية وجمركية كبيرة، ولأن البحث عن المعلومات والوعى بها فى فنلندا يختلف عن مصر، فقد قامت مجموعة من رجال الأعمال الفنلنديين. استنادا إلى الاتفاقية التى لها قوة القانون، بالتقدم لإنشاء مصنع ضخم فى مصر يتمتع بالإعفاءات المقررة فى الاتفاقية على الرغم من أنها موقعة فى الستينيات، وحينما طلبت الجهات المختصة بالقاهرة منهم أوراق ونصوص الاتفاقية، حصلوا عليها من نسختها المحفوظة فى فنلندا لأنهم لم يستطيعوا الحصول عليها من القاهرة، وقدموا جميع المعلومات الخاصة بالاتفاقية بسرعة ودقة، فتمت الموافقة على المصنع فأصبح يعمل ويتمتع بالإعفاءات المقررة، وفى المقابل أدى عدم دوران هذه المعلومة على رجال الأعمال المصريين بسرعة إلى عدم قيام نشاط مصرى مماثل فى فنلندا يتمتع بالإعفاءات المقررة فى الاتفاقية، لأن أحدا ربما لم يعد يسمع عنها شيئا، ولو حاول الحصول على نصوصها من القاهرة سيجد صعوبة شديدة بسبب حجب واعتقال المعلومات بدعوى الحماية والتأمين.

. الواقعة الثانية: وقعت مصر اتفاقية للتبادل التجارى مع ليبيا، يتم بمقتضاها استيراد بعض الخامات والسلع من ليبيا بدون جمارك فى مقابل تصدير سلع مصرية إلى ليبيا بدون جمارك أيضا، وفى ظل غياب الوعى الكافى بالمعلومات وعدم وجود نظام كفء لحماية و لنشر وتوزيع جميع المعلومات الواردة فى الاتفاقية على المصدرين والمستوردين، علم البعض بالاتفاقية ونصوصها كاملة، ولم يحصل البعض الآخر على جميع المعلومات، وكانت النتيجة أن من حصل على المعلومات استطاع استيراد سلع وإدخالها للبلاد بدون جمارك طبقا للاتفاقية، بينما من لم يحصل على المعلومات كاملة استورد نفس السلع بنفس المواصفات من ليبيا أيضا، ولكنه اضطر لدفع جماركها كاملة، والسبب أن ملاحق الاتفاقية حددت بالاسم المصانع وجهات الإنتاج الليبية التى يعفى إنتاجها من الجمارك عند دخولها مصر، ولم تعط حق الإعفاء لجميع السلع دون شروط، وهو شرط طبق أيضا على جهات الإنتاج المصرية، وهكذا أصبح للمعلومة ثمن.

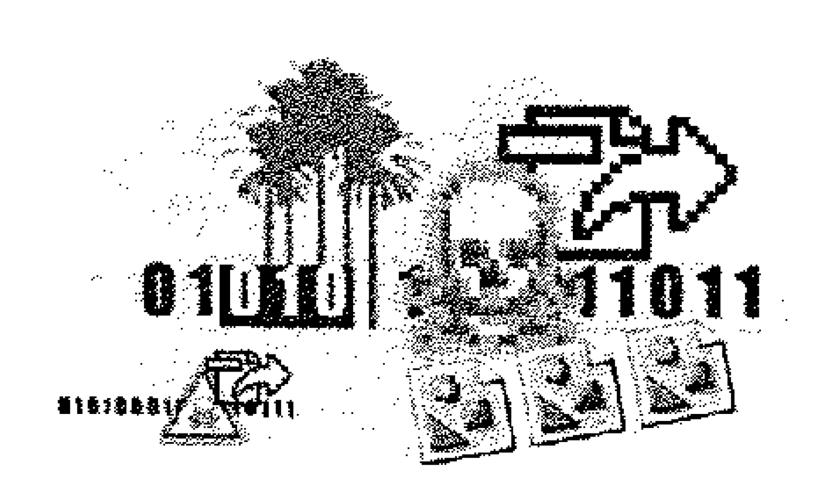
. الواقعة الثالثة: وقعت مصر اتفاقية قرض مع الحكومة الإيطالية، و نجحت الأجهزة المعنية فى مصر فى الحصول عليه بمزايا جيدة جدا يمكن أن تساعد العديد من المستثمرين المصريين، فشروط القرض تنص على منح المستثمرين والمستوردين المصريين قروضا بأسعار فائدة مخفضة وتيسيرات كبيرة فى السداد على فترات طويلة إذا ما رغبوا فى استيراد سلع وبضائع وآلات إنتاج من إيطاليا، ولأنه لا توجد آلية واسعة الانتشار تشرح اتفاقية القرض وشروطها ومزاياها لجميع العاملين فى هذا الميدان، كانت النتيجة أن البعض علم بالأمر وعددا أكبر لم يعلم، ومن علم قام باستيراد مصانع وآلات من إيطاليا طبقا لشروط اتفاقية القرض، ومن لم يعلم استورد نفس الآلات والمعدات بالشروط العادية وبأسعار أعلى كثيرا، وشروط أصعب فى السداد والفوائد، وهكذا تحولت دعاوى حماية المعلومات بدون وعى وتخطيط كاف إلى نشأة نوع من التجارة فى المعلومات، تكسب فيه القلة وتخسر فيه الأغلبية.

الصورة الثانية: يسودها منطق التهوين والتقليل من



مفهوم إدارة أمن المعلومات هو الطريق أمام الجميع للقيام بدورهم فى تنفيذ وتفعيل الاستراتيجية القومية لأمن المعلومات وفى حماية الأمن القومى ككل





شأن أمن المعلومات، وهى حديثة بعض الشىء وتنتشر بشكل خاص لدى الأفراد والمؤسسات والمنشآت والفئات التى يقبل أصحابها بنهم على توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بمختلف صورها، فيندفعون فى بناء المواقع على الإنترنت وتشييد نظم المعلومات وقواعد البيانات ويتعاملون فى كم ضخم من البيانات والمعلومات ثم لا يلقون بالا لعملية التأمين من الأصل، إما لكونهم لا يؤمنون بقيمة المعلومة التى يمتلكونها ومن ثم لا يوجد لديهم دافع يحثهم على تأمينها، أو أن لديهم إحساسا عشوائيا خاطئا بأنه لا يوجد خطر يهدد هذه المعلومات، فلا يرتاحون إلى الإنفاق على تأمينها، والنتيجة أن ما لديهم من معلومات تعيش حالة انكشاف خطيرة تضعهم فى مواقف مؤسفة يضيع فيها كل شىء عند أول تهديد جدى.

ومن الأمثلة المهمة فى هذا الصدد ما حدث عند انتشار فيروس تشرنوبيل فى ٢٦ أبريل ٢٠٠١، فبعد مرور أسبوع على الهجوم الكاسح الذى شنه الفيروس على أجهزة الحاسبات فى مصر صباح يوم ٢٦ أبريل ٢٠٠١ بدا واضحا أن حجم الذعر والهلع والخسائر الناجمة ودرجة الانتشار فاقت الحدود المنطقية المقبولة، فقد تداعت الأجهزة أمامه فى العديد من الجهات دون مقاومة، واخترق العديد من المواقع بسرعة تفوق سرعة اختراق سكين حاد لقالب من الزبد، وحدث ذلك على الرغم من أن الفيروس لم يكن جديدا أو حدثا مفاجئًا، ولكن سبق اكتشافه عالميا منذ أكثر من سنة على تاريخ بدء هجومه فى مصر،علاوة على أن اليوم الذى بدأ فيه العمل ومارس فيه نشاطه التخريبى، كان معروفا منذ عام وتحدثت عنه جميع الأوساط وقامت آلاف الشركات عالميا باتخاذ إجراءات احتياطية ضده، والعديد منها وضع إصدارات جديدة ومجانية من البرامج المقاومة له، فقد كانت بداية ظهور هذا الفيروس فى ٢٦ أبريل ٢٠٠٠ فى آسيا تحت اسم PE-CIH ١.٢ ثم ظهر مرة أخرى تحت اسم PE-CIH ١.٣ ليهاجم الحاسبات فى ٢٦ يونيو من العام نفسه، ثم ظهرت النسخة الثالثة تحت اسم ١.٤ لكى تهاجم الحاسبات يوم ٢٦ من كل شهر، أى كان معروفا أنه سيهاجم مرة أخرى يوم ٢٦ أبريل ٢٠٠١.

و إذا كان مقبولا أن يكون الفيروس يفاجئ الأفراد والهواة ومستخدمى الحاسبات بالمنازل، فمن غير المقبول على الإطلاق أن يكون مفاجئا للجهات والمؤسسات الكبرى التى يفترض أن لديها متخصصين يتابعون هذه الفيروسات أولا بأول، ويضعون خطط مواجهتها فى وقت مبكر.

لكن... بسبب فقر ثقافة التعامل مع أمن المعلومات وعوامل الضعف الأخرى، شاعت بعض الأخطاء فى التعامل مع الفيروس، منها ما ردده البعض من أن الشركات المصنعة للبرمجيات هى التى أضافتها لمكافحة القرصنة، وهذا غير صحيح، وأن الفيروس انتقل إلى الحاسبات التى تعاملت مع شبكة الإنترنت فى يوم ٢٦ أبريل وهذا غير صحيح، لأن الفيروس انتقل إلى الحاسبات المصابة قبل أيام وربما شهور ولكنه ظل كامنا داخل الحاسبات حتى اليوم المحدد لعمله، كما أشاع البعض أن الفيروس يدمر كل البيانات والمعلومات المخزنة على وحدة التخزين الرئيسية بالحاسب، وهذا غير صحيح، لأنه يصيب فقط الجزء الأول من الوحدة الفرعية لوحدة التخزين الرئيسية والمعروفة باسم C، وقد تسبب هذا الاعتقاد الخاطئ لدى البعض فى قيامهم بمحو جميع الملفات والبيانات الموجودة على جميع الوحدات الفرعية بوحدة التخزين الرئيسية، والتى كان من الممكن استرجاع ما بها من ملفات عدا الوحدة :C .

وبشكل عام.. كشفت خبرة التعامل مع هذا الفيروس أن الأكثر تضررا بالفيروسات هم عادة الأشد فقرا فى ثقافة التعامل مع الحاسبات وأقلهم وعيا بالطريقة السليمة لتشغيلها، وأكثرهم استهانة بقواعد التأمين اللازمة، سواء كانوا أفرادا أو شركات أو حتى مؤسسات تحرص على التأكيد دوما أنها الراعية والمسئولة عن دنيا الحاسبات والمعلومات، ومن ثم فإن حالة الهلع والانتشار السريع والخسائر الكبيرة التى حدثت بمصر فى ذلك الوقت لم تكن سوى انعكاس تلقائى لحالة الفقر فى ثقافة التعامل مع أمن المعلومات لدى البعض وثمن مناسب لعدم اليقظة، والنتيجة التى أمكن الخروج بها من هجوم فيروس تشرنوبيل أن الخسائر لم يكن سببها الأساسى مهارة المهاجمين والقراصنة، ولا نقص المتاح من تكنولوجيات التأمين أو قصور كفاءتها أو تقادمها أو حداثتها لدى الضحايا، ولكن السبب الأساسى كان يكمن فى فقر ثقافة أمن المعلومات.



الصورة الثالثة: يقف وراءها منطق (نصف الوعى)، وهو منطق يعى فقط متطلبات الجانب التكنولوجى لأمن المعلومات ويهمل أو يغيب عنه متطلبات الواقع الاجتماعى الذى يحكم تداول المعلومات المطلوب تأمينها، ومن ثم فهو يغرق بأصحابه فى التفاصيل التقنية والفنية لقضية أمن المعلومات فقط، فتكون النتيجة نظم أمن براقة خارجيا خائبة جوهريا لأن من يقومون على إدارتها وتشغيلها ومن يتعاملون معها هم أول من يفرغها من مضمونها ويجعلها بلا قيمة.

والحقيقة لا أجد مثالا على هذا الأمر خيرا من رسالة من أحد شباب المتخصصين فى أمن المعلومات نشرتها بمجلة لغة العصر فى عدد أكتوبر ٢٠٠٢ تحت عنوان (قوالب الزبدة) جاء فيها عن صاحبها أنه قام باختبار بعض المواقع التى تضم الكثير من البيانات والمعلومات القومية على الإنترنت ومنها : موقع المتحف المصرى http:// www.egyptianmuseum.gov.eg وموقع آثار القاهرة الإسلامية http:// www.cim.gov.eg وموقع متحف محمد محمود خليل http:// www.mkhalilmuseum.gov.eg وموقع دليل المكتبات المصرية http:// www.libdirectory.idsc.gov.eg ، وبعد الاختبار وجد أن معظمها يفتقر إلى معايير الأمن الأساسية، التى يفترض وجودها على الإنترنت، واكتشفت أن أى شخص لديه المهارات الأساسية فى مجال البرمجة على الإنترنت، يمكنه إلغاء وتغيير وإضافة أى بيانات يريدها على هذه المواقع، بدون الحصول على إذن أو صلاحية، أو التعرض لعمليات تحقق من الهوية.

وأضاف القارئ أنه بعد ذلك قام بتكرار عملية الاختبار مرتين لهذه المواقع، للتأكد من أن استنتاجاته سليمة مائة فى المائة، وحينما تأكد مرة أخرى، قام بالاتصال بالجهة المسئولة عن إنشاء هذه المواقع لإبلاغها عن هذه المشكلات القاتلة جدا جدا جدا، وتم تحويله إلى أحد المهندسين الذى أظهر تعاونا كبيرا وتفهما كاملا للمشكلات الموجودة بالمواقع، وبعد أسبوع كامل قام بعملية اختبار ثانية لنفس هذه المواقع فوجد المشكلات نفسها تحدث فى المواقع نفسها، ثم نسيت الأمر برمته.

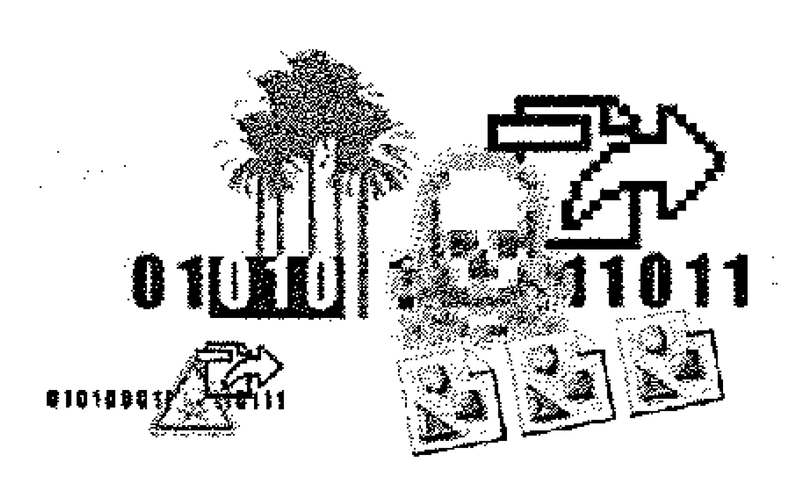
وقال القارئ فى رسالته أيضا أنه ذات يوم كان يبحث عن معلومات عن إحدى الجهات، فقام بالدخول على الموقع الرسمى لهذه الجهة، والذى يحتوى أيضا على معلومات وبيانات قومية، وجرى تصميمه أيضا بواسطة الجهة التى أنشأت المواقع السابقة، وراهن على أن به مشكلات وثغرات أمنية، فقام باختباره، واكتشف أن طريقة إعداد الحاسب الخادم الذى يستضيف هذا الموقع، بها ثغرات أو جرى توصيفها بشكل خاطئ يسمح لأى شخص بالدخول لبعض البيانات على الموقع، والحصول على ملفات غير مسموح له برؤيتها أو العبث بمحتوياتها ولذلك قام بالاتصال مرة أخرى بالجهة المسئولة، وأبلغ المشكلة نفسها للشخص نفسه، فشكا من العمليات الإدارية البطيئة داخل هذه الجهة، والخاصة بإعادة تطوير هذه المواقع، ولذلك طلب منه إرسال توصيف كامل بالمشكلة عبر البريد الإلكترونى، لعرض الرسالة على رئيسه، فربما يعتقد رئيسه أن هناك بعض الأخطاء فى طريقة إعداد وبرمجة المواقع التى يقومون بتطويرها.

كان من الطبيعى أن تقودنا هذه الثقافة السلبية بصورها الثلاث إلى



غالبية المؤسسات والشركات والهيئات المختلفة بمصر والبلدان العربية لا يوجد بها سياسة تأمين عليا، بدءا من كيفية تأمين المبانى وحتى التعامل مع أعقد النظم المطبقة لحماية شبكات المعلومات





مشكلات فى أمن المعلومات تغلب عليها الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسلوكية والمجتمعية وليس النواحى التكنولوجية، ومن هذه المشكلات:

. أن غالبية المؤسسات والشركات والهيئات المختلفة بمصر والبلدان العربية لا يوجد بها سياسة تأمين عليا تتصف بالوضوح والشمول وتتعامل مع كل الاحتمالات، بدءا من كيفية تأمين المبانى ضد السرقة والحريق والدخول والخروج من المبنى وحتى التعامل مع أعقد النظم المطبقة لحماية شبكات المعلومات وقواعد البيانات ونظم المعلومات الموجودة بها، كذلك لا يوجد بها إدارة أو شخص مسئول مسئولية كاملة عن عملية التأمين بشكل عام داخل المنشأة، بحيث لا ينفرد متخصصو تكنولوجيا المعلومات بوضع وتنفيذ الآليات المطلوبة لتأمين المعلومات، بل يكون من المتعين عليهم العمل فى إطار سياسة تأمين عامة، لها شخص مسئول عن متابعة تنفيذها، وفى الوقت نفسه يتحمل تبعات أى إخلال أو تدمير يحدث نتيجة عيوب أمنية سواء فى مجال المعلومات أو غيره، وتكشف الخبرات العملية عن أن عدم الربط بين خطط تأمين المعلومات وسياسات التأمين العامة للمؤسسة يمكن أن تعرض المعلومات والبيانات للخطر، فمثلا ماذا لو تم وضع خطة تأمين محكمة للدخول على شبكة معلومات المؤسسة وحاسباتها، واستخدم فى ذلك أحدث الأدوات والبرمجيات المضادة لعمليات التلصص والاختراق وسرقة البيانات، ثم كانت إجراءات التأمين الخاصة بالدخول والخروج من المبانى والأقسام المختلفة متراخية وغير قوية بالدرجة التى تمنع سرقة وحدات تخزين أو حاسب أو بيانات موجودة بشكل ورقى؟

. أن نسبة كبيرة من المؤسسات والهيئات تتعرض للتنفيذ الخاطئ أمنيا لعمليات الصيانة الدورية أو المفاجئة لمعدات تكنولوجيا المعلومات، وترى العديد من الدراسات أن هذه نقطة ضعف تلعب دورا بشكل أو بآخر فى ما لا يقل عن ٥٠٪ من مشكلات أمن المعلومات التى تواجهها المؤسسات المختلفة، لأن حوالى ٨٠٪ من عمليات الصيانة الدورية والتحديث ومواجهة الأعطال التى تتم داخل الشبكات ونظم المعلومات والأجهزة تتم بشكل غير سليم من ناحية التأمين، وينتج عنها تغيير ما فى طريقة الإعداد والمواصفات التى تم تهيئة الأجهزة والحاسبات والبرامج المختلفة لتعمل عليها منذ بدء التشغيل، والتى تم وضعها من قبل مديرى الشبكات والمسئولين عن نظم المعلومات والتأمين، لأن الصيانة تتم فى أحيان كثيرة على يد أشخاص ليسوا من الفريق الذى وضع طريقة إعداد الحاسب أو البرامج منذ البداية بالشكل الذى يحقق مستوى التأمين المطلوب، مما ينتج عنه ثغرات فى شبكة المعلومات أو إجراءات تأمينها، تسهل على المهاجمين اكتشافها والنفاذ منها إلى المعلومات المطلوب حمايتها.

. إن النسبة الأكبر من مؤسساتنا ومنشآتنا لا توجد لديها تغذية عكسية بالمعلومات حول ما يحدث من تغيير فى أوضاع شبكات ونظم وقواعد البيانات والمعلومات نتيجة التغييرات التى تحدث فى مجموعة العاملين بالمنشأة، سواء الذين ينتقلون من قسم لآخر، أو من إدارة لأخرى، أو الذين يتركون العمل بالمؤسسة ويحل محلهم موظفون جدد، أو الذين يلتحقون بالعمل مع أى توسعات تصاحب النمو فى أعمال المؤسسة أو المنشأة، وذلك على الرغم من أن الخبرات العالمية حول هذه النقطة تؤكد أن التغييرات فى هيئة الموظفين لأى سبب ينشأ عنها أوضاع كثيرة لها علاقة مباشرة بنظم وسياسات تأمين المعلومات بالمؤسسة، على سبيل المثال لابد من إجراء تغيير فى جداول وملفات كلمات السر أو المرور المستخدمة فى الدخول على نظام معلومات المنشأة، بحيث يتم بموجب هذا التغيير إلغاء كلمات السر التى كانت ممنوحة للموظفين القدامى، وتوليد كلمات سر للموظفين الجدد، وغير ذلك من الإجراءات الأخرى، وما يحدث عمليا إن التغذية العكسية بالمعلومات الناجمة عن هذا التأخير إما تكون بطيئة أو غير موجودة،ومن ثم لا تصل للمسئول عن تأمين المعلومات فى الوقت المناسب، وبالتالى تحدث خللا فى أمن المعلومات.

إن ما سبق عينة بسيطة من مشكلات أمن المعلومات شائعة الانتشار فى مجتمعاتنا والناجمة عن غياب ثقافة أمن معلومات سليمة وداعمة، ولو تعمقنا فى الأمر قليلا سنصادف ما هو أشد خطرا وإيلاما، ولست فى حاجة إلى التأكيد على أن الثقافة السلبية والمشكلات الناجمة عنها عادة ما تكون ناتجة عن غياب سياسة قومية أو وطنية لأمن المعلومات تتولى بناء الثقافة قبل نشر التكنولوجيا. ■



الرأى العام

غسان توينى

ما هو الرأى العام، وممَّ يتكون؟ الفكر الحر، هو الرأى الذى لا يخاف، لا يتأثر، هو الرأى الذى يتكون صغيرًا فينطلق ويتقدم وينمو حتى يستفيق الناس وإذا بهم يقولون به.. متى قرأوه أو ظنوا أنهم يسمعون أنفسهم ويقرأون ما تمنوا لو كان فى وسعهم أن يكتبوا. الرأى العام ليس مجموعة آراء المجموع، إنما هو جوهر الرأى الذى عليه يجتمعون. الرأى العام هو كل واحد منا إذا تحرر من الضواغط على رأيه، من ضواغط التعبير لا من قول الحقيقة، من كوابيس القول لا من كوابيس الإيمان. الرأى العام هو الحرية فى مظهرها التعبيرى الاجتماعى أى فى مظهرها الصحفى، حتى قبل وجود الصحافة.

ما هو القارئ؟ هل هو قارئ واحد؟ أعرف صحفًا تكتب لقارئ واحد، لا ضعفًا منها، إنما لأنها تتوجه، سواء أكتبت أسرار الآلهة أم أسرار الشياطين. أعرف صحفًا كذلك لا يقرأها إلا واحد، وهو الذى يكتب فيها. ولكن الصحافة اليوم إنما تؤخذ بشغف العدد، فإما أن تتوجه إلى العدد، إلى الجمهور، أو لا تكون صحافة. أما صحافة القلة، أى المتفوقين المثقفين الذين فوق العامة، هذه الصحافة باتت غير منسجمة مع رأى اليوم ومع متطلبات العصر ومع الحكم الشعبى الذى نريد أن نقيم اليوم فى لبنان، بفضل الصحافة الحرة. لأن الصحافة ليست كالكتاب ولا كالشعر، أو كالفلسفة.. الصحافة لا تكتب حتى تقرأ غدًا أو بعد غد فتنصف فى التاريخ، الصحافة تكتب حتى تقرأ اليوم ويقرأها أكبر عدد ممكن من القراء.

(١٩٦٥)

ظاهرة «الجزيرة»

وضاح خنفر

بعد عشر سنوات كاملة من بداية البث الفضائي لقناة الجزيرة في نوفمبر ١٩٩٦ تدخل المحطة الأكثر إثارة للجدل في العالم مساحة جديدة ببداية بث قناتها «الوليدة» باللغة الإنجليزية. وإذا كان المثل المصري الشعبي ينسب «العمى» إلي من «لا يري من خلال الغربال» ذي الفتحات الواسعة، فلا أحد يستطيع أن ينكر أو يتجاهل الأثر الذي أحدثته الجزيرة علي مدي العشر سنوات الماضية. والحقيقة أنها بقدر ما أحدثت من أثر، بقدر ما أوجدت من خلاف (لا يخلو من غرض) عليها أو حولها. والمثير أن كل ما وضعه بعضهم في خانة «ما لها» وضعه الآخرون في خانة «ما عليها». البعض اعتبرها مسؤولة عن تلك «القنابل البشرية» التي اختارت الموت دفاعًا عن العقيدة أو الوطن. والبعض ذهب بعيدًا ليراها وقد ألقت حجر الديمقراطية «المتوهج» في مياه أنظمة الشرق الأوسط الراكدة، فساعدت علي إخماد نيرانه بالتنفيس «صوتًا بلا فعل». كما اتهمها بعض من يتوق إلي «ثورة» لم يكن الإعلام - بحكم تجارب التاريخ - بقادر وحده عليها. كما أنها لم تكن يومًا - ونحن نتحدث عن «المهنية» - من مهامه أو مسئولياته.

أيًا ما كان أمر خلاف سيستمر حول الجزيرة. وهذا شأن «الظواهر» الكبري عادة، تبقي حقيقة أن القناة أسمعتنا ما لم يكن مسموحًا به أبدًا لعقود. وكانت صوتًا لكثيرين غاب أو تم تزييف صوتهم لسنوات طويلة.

ويبقي أنه وسط سيل الاتهامات الكثيرة «المتناقضة» كانت الجزيرة موضوعًا لأكثر من كتاب ولآلاف المقالات وعشرات الدراسات الأكاديمية. كما وضعتها Time علي قائمة المائة الأكثر نفوذًا في عالم اليوم.

المحرر

الشعور الذى استقر فى نفسى عندما كنت مراسلا تليفزيونيا أنه ينبغى علينا دوما أن ننأى بأنفسنا عن الأجندات السياسية المختلفة، لم أشعر قط أننا كصحفيين يجب فى لحظة من الزمن أن نُسَيَّس، أو أن الصحفى يجب أن يكون له دور سياسى. إننى أحسب أنه مما يتناقض مع جوهر الصحافة المتوازنة أن تحمل معك أجندة سياسية.

ثم تبين لى خصوصا بعدما صرت مديرا لقناة الجزيرة ثم مديرا عاما للشبكة، أن الكثيرين ينظرون إلى الجزيرة بوصفها لاعبا سياسيا أكثر مما ينظرون إليها بوصفها مجرد محطة تليفزيونية.

وسأسرد عليكم ملخصا لبعض ما واجهته طوال الشهور الماضية. فلقد سافرت للعديد من الدول منها مصر والمغرب والصين وروسيا وطهران وتركيا فى زيارات عمل ولألقى بعض المحاضرات.

فعلى الرغم من أن للجزيرة جمهورا عريضا فى مصر، فقد ثار فى وجهى قادة شعبيون غاضبون وقادة من المجتمع المدنى مطالبين أن تتوقف الجزيرة حالاً عن استضافة الإسرائيليين الذين «يبررون قتل إخواننا فى فلسطين»، وأن ننزع فورا اسم إسرائيل من الخريطة التى تعرضها الجزيرة على شاشتها. ولم يكن ذلك انتقادا عابرا؛ وإنما هو فى الواقع انتقاد أساسى أسمعه فى كثير من الدول العربية، ووجدت نفسى أحاول إثبات أن الجزيرة لا تعمل على ترويج أجندة أمريكية أو صهيونية فى المنطقة.

وفى المغرب كان التوجه السياسى مختلفا، إذ أثار حفيظة بعض الناس هناك - بعضهم على الأقل من النخبة السياسية - تغطية الجزيرة لقضية الصحراء، لا سيما استضافتها لرموز من البوليساريو.

وفى تركيا، ناقش البرلمان التركى ما يجب أن يفعله مع الجزيرة؛ لأننا عرضنا فيلما وثائقيا عن حزب العمال الكردستانى، وألقى بعض البرلمانيين بالمسئولية على الحكومة مطالبين بطرد فريق قناة الجزيرة من أنقره واسطنبول، بسبب تلك الجريمة التى ارتكبتها قناة الجزيرة باستضافتها منظمة «إرهابية» وإجراء مقابلة تليفزيونية مع زعيمها.

وبالطبع الأجندة السياسية فى الصين مختلفة، فالانتقادات تأتى غالبا من المسئولين الصينيين فيما يتعلق بتغطية الجزيرة لأحداث تايوان. فمراسلنا هناك أجرى مقابلة مع قادة تايوانيين، ولم يرض المسئولون الصينيون البته عن نقاط بعينها فى تقاريرنا.

وقد زارنا فى الجزيرة السيد لافروف وزير الخارجية الروسى، وأمام الكاميرات حذر بعض المؤسسات الإعلامية الدولية من إعطاء «إرهابيين» شيشانيين منبراً يتحدثون من خلاله، مؤكدا على قناة ABC التى أجرت مقابلة مع شامل باسييف.

وظهرت مشكلة أخرى مع السودان، فكان قد أغلق مكتبنا هناك بسبب غضب السلطات من أداء مراسلنا. كما واجهتنا مشكلة مشابهة فى طهران، وأغلق مكتبنا هناك ما يزيد على سنة وشهرين؛ ومكتبنا فى العراق مغلق، وقد اتهمتنا أخيرا صحيفة أردنية شبه رسمية بالترويج لأجندة صهيونية فى المنطقة من أجل خلق المشاكل بين الدول العربية.

وكثيرا ما صب مسئولون أمريكيون وغربيون جام غضبهم على الجزيرة لأنها تحرض على الكراهية كما يقولون.

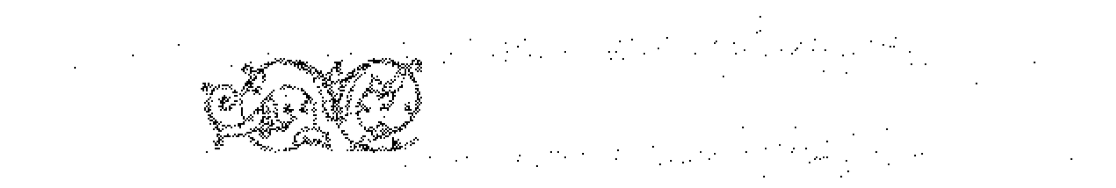
فإذا نظرنا أساسا إلى الواقع السياسى فى العالم العربى وفى الشرق الأوسط، فإن التعامل مع الجزيرة يتجاوز منطق التعامل مع الصحافة ومعايير المهنة، إلى منطق آخر، فليس المعيار عند الحكومات ما هو مهنى وما هو غير مهنى؛ وإنما ما هو مقبول سياسيا وما هو ليس مقبولا سياسيا. فإذا خضعنا لهذا المنطق السياسى، فسنجد أنفسنا كل يوم بأجندة معينة تتناقض مع ما سبقها فى اليوم الفائت. وحتى نحمى مؤسستنا من التسييس، فقد تبنينا نهجا التزمته الجزيرة فى السنوات العشر الأخيرة يقضى بالابتعاد عن الأجندات السياسية لهذا الطرف أو ذاك.

إننى أعرف أن العديد من محطات التليفزيون تمارس أحيانا رقابة داخلية صارمة لتجنب حدة الضغوط السياسية عليها، غير أنه تبين لى أن دور الإدارة فى الجزيرة هو حماية المؤسسة وخطها التحريرى من تأثير الضغوط الخارجية. فالضغوط السياسية الخارجية تضر المؤسسة ولها آثار عديدة. وآخر شىء يود مراسل أو مدير مكتب رؤيته فى أى دولة هو سوء علاقته بالسلطة، ذلك لأن حكومات المنطقة تملك مفاتيح دخوله لأى مكان يود الذهاب إليه. فإذا كانت علاقته بالحكومة سيئة، ضاقت عليه السبل. إنه أمر واقع وتحد حقيقى؛ فالضغوط السياسية تخلق المشاكل للصحفيين ويحاول الصحفيون ممارسة رقابة ذاتية كى لا يتعرضوا للتضييق.

وهدف الإدارة حينئذ حماية المؤسسة وصحفييها ومدراء مكاتبها من ذلك النوع من الضغوط السياسية حتى يحتفظوا بنزاهتهم وتوازنهم. ذلك هو أحد الأدوار

محاضرة ألقاها وضاح خنفر، مدير عام شبكة «الجزيرة» بجامعة ويستمينستر فى ١٠ يوليو ٢٠٠٦

Lecture
10 July 2006
Westminster University
Wadah Khanfar, Al Jazeera
Director General



هنـاك فجـوة في الاعـلام الـدولي
فيما يتعلق بتغطية دول الجنوب المترامية الأطراف..
وسـنحاول أن نسـد هـذه الفجـوة





السياسية الرئيسة التى يتعين على النهوض بها فى الشبكة.

روح الجـــزيـــرة

وعلى صعيد آخر، إذا عدنا إلى العالم العربى، فهناك ما أسميه بروح الجزيرة، التى أود تعريفها بأنها فلسفة الجزيرة ومنهجها فى صناعة الخبر وتقديمه للمشاهدين، إنها الروح التى تجعل من الجزيرة جزيرة، وتميزها عن غيرها من القنوات.

وفى رأيى، أن الجزيرة فى بدايتها انطلقت مستوحية مبادئ إعلامية مهنية غربية. فآخر ثلاثة رؤساء تحرير للجزيرة جميعهم محررون سابقون فى هيئة الإذاعة البريطانية. ولذلك، فإن جذور منهجية الجزيرة المهنية بدأت متأثرة بما هو فى الإعلام الغربى، وبالإعلام البريطانى تحديدا. ثم راحت الجزيرة بعد ذلك تتفاعل مع الواقع على الأرض، وتتعامل مع العقل الجمعى للعالم العربى، ومع البنية الاجتماعية والثقافية فى المجتمع العربى، فصار لها نهجها الخاص وروحها المتفردة.

وأعتقد أن للجزيرة الآن مدرسة فكرية متميزة، وإن كنا فى الجزيرة آخر من يتحدث عن هذه المدرسة. فلم ننشر كتابا رسميا عن أنفسنا، وعن نظريتنا. لقد كتب الكثيرون عن الجزيرة، ولكن الجزيرة لم تكتب حتى الآن عن نفسها.

تغطية الحروب

لقد كان شغلنا الشاغل فى السنوات العشر الأخيرة هو تغطية الأخبار. والأخبار التى نغطيها ليست عادية. فنحن لا نجلس مرفهين على بعد آلاف الأميال من ساحات الحرب والأماكن الساخنة، لنفكر فى عناوين منمقة بعيدا عن الميدان.

إن أهم ست نقاط ساخنة فى العالم تقع فى منطقتنا، أى فى جوار الجزيرة ومنطقة بثها؛ هذه النقاط الساخنة هى: فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان والصومال ودارفور وربما إيران فيما بعد، مما يعنى أننا فى قلب أكثر المناطق سخونة فى العالم.

ولذلك، فعندما نضع فى صدر نشراتنا عناوين تصف هذا الواقع ، يطلق عليها بعض الناس «عناوين دموية»، فماذا نفعل حينئذ؟ فقد تجد فى يوم عادى واحد جملة من الأخبار على النحو التالى: عشرات القتلى فى بغداد، سيارة قصفت فى غزة، عملية انتحارية فى أفغانستان... عناوين ثلاثة لا نملك إلا أن نتعامل معها فى صدر نشراتنا ، فهل يمكن لنا أن نتجاهلها لأنها دموية؟ إنها أحداث بشعة، ولكنها تحدث دوما فى منطقتنا ؛ قد لا تتصدر بعض هذه الأخبار عناوين النشرات الإخبارية فى لندن أو موسكو أو واشنطن. ولكن فى الجزيرة عندما يكون من مشاهديها من هم عوائل الضحايا، أو من ارتكبوا ذلك الفعل أو ممن سمعوا عنه، أو يعيشون يوميا معه فإنه يكون بالطبع عنوانا رئيسا لا يمكن تجاهله.

فإذا لم نضعه عنوانا لنشراتنا فلسنا إذا مهنيين، وسينصرف الناس عن الجزيرة إلى قناة أخرى... إنه واقع يومى. فهل يعجبنا ذلك؟ بالطبع لا. فعندنا نحن أيضا أطفال لا نريد لهم أن يشاهدوا كثيرا من الدماء، ونريد حمايتهم من أشباح الحرب وصورها البشعة. وكشأن سائر الناس حول العالم، لدينا آمالنا الخاصة فى العيش بسلام وأمن، ووقف سفك الدماء فى الشوارع وأن يكون لنا مكان جميل وآمن ومريح نعيش فيه.

فهل بمقدورنا تجاهل واقعنا المؤسف؟ هذا هو السؤال. فهل الجزيرة هى التى تسيل الدماء فى الشوارع أم أن ذلك هو الواقع؟ فإذا اهتم أحد بالأطفال وما يشاهدونه فليسع إذاً لتغيير الواقع الذى أفضى إلى سفك هذا الكم من الدماء فى الشوارع. إن تغيير أخبار القناة وعناوين نشراتها لن يغير الواقع. فالواقع على الأرض صعب ومر. إنى أشعر أن الاقتراب بقدر الإمكان من الحقيقة وإظهارها بوضوح هو جزء من مسئوليتنا كصحفيين. وأنا شخصيا أعتقد بأن حل الصراع يكمن فى عدم التستر عليه. بل فى إظهاره وبيانه، وفى معرفة حقائقه ودقائقه. وبغير ذلك، فإنه متى أسأنا فهمه أسأنا التعامل معه، وافترضنا افتراضات خاطئة، وأصدرنا بشأنه قرارات خاطئة أيضا.

ووظيفتنا كصحفيين هى فى توضيح عناصر الصراع بقدر الإمكان، والإحاطة بمعانيه، ووضعه فى سياقه ، حتى يعلم صناع القرار والجمهور ما يحدث، فيأتى من يتعرف يوما على المشكلة ويسعى إلى حلها.

أشرطة القاعدة

ومتى تحدثنا عن الجزيرة، فإن الضلع الثالث بالطبع الذى صار حديث القاصى والدانى هو شرائط أسامة بن لادن والقاعدة. واليكم حقائق وأرقام ليس إلا: فقد أرسل إلينا أسامة بن لادن ستة أو سبعة أشرطة منذ سنة ٢٠٠١ إلى الآن. ولم تكن الجزيرة أول محطة تليفزيونية فى العالم تذيع مقابلات مع بن لادن، وإنما الذى بث مقابلة كاملة مع أسامة بن لادن لمدة ٤٠ دقيقة هى محطة تليفزيون أمريكية.

إننا قناة أخبار، ومهما تكن الأخبار التى تصلنا فمن الضرورى أن يعرف

مشاهدونا بها. ولذلك فإن شريطا لأسامة بن لادن مثلا أو خبراً ما عن القاعدة هو في الحقيقة «سبق صحفي» في المهنة التي ننتمي إليها. إنها ليست شيئا نتجنب بثه أو نخجل من التعامل معه، وإنما هو شيء نسعى إلى التعامل معه. هذا هو ما تعلمناه ممن سبقونا من آباء الصحافة. فكم من السنين ظل الصحفيان في فضيحة ووترجيت يحميان اسم مصدرهما؟ أتذكرون ذلك؟ لم يقل أحد إن ذلك خطأ.

إننا نحتكم في مهنتنا إلى أخلاقيات واضحة تطورت عبر عقود طويلة. ونحن في الجزيرة نحترم تلك الأخلاقيات. ونعيد بذلك الثقة في جوهر الصحافة الحرة من خلال تقديم إعلام لا يأخذ بالحسبان مدى الرضى السياسي عن الخبر... ذلك أمر مهم.

ونحن إذ نعرض شريطا لبن لادن أو مقتطفات منه، فإننا عادة ما نعرض دقائق قليلة أي نعرض مقتطفات أو لقطات ذات قيمة إخبارية من شريط قد يكون طويلا . ولا تعرض قناة الجزيرة الشريط كله على شاشتها، بل لقطات معينة ذات قيمة إخبارية، توضع في سياق تحليلي. وأحسب أن ما نقوم به هو عين المهنية، فنحن نقدم للناس أخبارا وعليهم هم أن يحكموا بأنفسهم على ما يسمعون، فيكون رأيهم مستندا على وعي كامل بتفاصيل القضية التي يتعاملون معها.

وهذه هي آخر مرحلة- أن يحكموا بأنفسهم. فبعض الناس يظن أن الجزيرة تقود العالم العربي في اتجاه معين... إلى تشكيل العقل العربي ... وإصلاح المجتمع العربي. فأنا لا أرى في الجزيرة حركة إصلاحية، ولا حزبا سياسيا ولا منظمة دينية ولا أي شيء من هذا القبيل. إنني أرى في الجزيرة مؤسسة إعلامية لا تعنى إلا بالقواعد المهنية وأخلاقيات الصحافة. وهذا هو السبب في أننا ركزنا في السنوات الأخيرة على أخلاقيات وقواعد السلوك المهني وعلى رؤيتنا ورسالتنا المنشورة على موقعنا الالكتروني. ويستطيع كل شخص بذلك ان يحكم علينا.

الجزيرة والمشاهدون

الجمهور العربي مسيس. والجمهور العربي منفتح على الإعلام الدولي. واذكر عندما كنت طفلا أن أبي كان يستيقظ كل يوم في السادسة صباحا كي يستمع إلى نشرة الأخبار باللغة العربية التي تذيعها الـ BBC . نعم الجمهور في العالم العربي مسيس. إنهم يهتمون بأخبار العالم لأنهم يعرفون أن أخبار العالم تؤثر في مجريات السياسة المحلية في مدنهم وقراهم ومخيماتهم. إنهم يعلمون أن عليهم أن يستمعوا يوميا لنشرات الأخبار لأن الأحداث السياسية والأمنية في المنطقة شديدة التغيير ويمكن أن تقتل من يجهلها. إذا لم تكن على معرفة جيدة بما يحدث في ذلك اليوم، فربما تصيبك طلقة من هنا أو هناك. عليك أن تعرف، فمعرفة الأحداث السياسية أمر حيوي. انه ليس من الكماليات. ففي دول أخرى، إذا لم تستمع إلى أخبار السياسة، فلن يختلف مسار يومك، وربما تفضل الاستماع إلى أخبار الرياضة أو أخبار نجوم الفن والموسيقى.

ولأن الأخبار السياسية مهمة في المنطقة، فإن فهمها يصبح حرفة مشاعة، وجزءا أساسيا في حياة الناس. ولذلك، فإن الناس في العالم العربي مسيسون وقادرون على حل الشفرة التحريرية للمؤسسات الإعلامية وفهم ما تقوله صراحة وما توحي به من خلال السطور.

مصداقية الجزيرة

كلمة «المصداقية» مهمة جدا، حيث توصف الجزيرة وفقا للإحصاءات بأنها أكثر مصادر المعلومات مصداقية في العالم العربي. والمصداقية ليست كالثقة، فالثقة خلق إنساني، وقد يثق المرؤ بزوجه أو أهله أو جيرانه وهكذا. الثقة تمنح ولكن المصداقية تكتسب، لأنك لو أعطيتني خبرا اليوم وثبت غدا أنه خاطئ أو مبالغ فيه أو انفعالي أو ما شابه ذلك، فستفقد مصداقيتك. فالمصداقية شيء تكتسبه بجدك وتعبك. ومشاهدونا يعتقدون أن الجزيرة تتمتع بالمصداقية.

هل نرتكب أخطاء؟ نعم نرتكب أخطاء. من قال أننا لم نرتكب أخطاء قط؟ ولكن لدينا من الشجاعة ما يكفي لتصحيح هذه الأخطاء، ونقول لمراسلينا وصحفيينا أن عليهم إعادة كتابة الموضوع وتصحيحه وإعلام الجمهور أن خطأ قد وقع وإننا نصححه لكم.

إنني أقول ذلك لأننا رفعنا منذ البداية شعار «الرأي والرأي الآخر». وأحسب أن زملاءنا الذين يعملون داخل الجزيرة يعلمون أننا نتبع المعيار نفسه داخل الجزيرة، وداخل غرفة الأخبار نفسها- إذ لدينا الرأي والرأي الآخر داخل الجزيرة نفسها. فعندما نجلس في هيئة التحرير أو في اللقاءات التحريرية اليومية، نتحاور ويدلي الجميع برأيه وربما يثور جدل حول نقطة ما، وأخيرا نخلص إلى قرار محدد، يقبله الجميع وينفذونه برحابة صدر ونمضي في طريقنا.

نجاح الجزيرة لا يكمن في تنوع الآراء التي تستضيفها شاشتنا فحسب، بل لأننا أيضا نعطي صحفيينا حرية التعبير عن مهنتهم بعيدا جدا عن قيود السياسة والمال.

والجزيرة تعطي غرفة الأخبار الحق في أن تقول الكلمة الأخيرة فيما يجب أن يظهر على الشاشة دون أن يهاتفنا أحد ويملي علينا عناوين أخبار اليوم. هذا هو الإنجاز الرئيس والأهم الذي حققته الجزيرة لإعلامنا، أننا حررنا صحفيينا من ضغوط السلطة وطغيانها. فالصحفي الحر هو ذلك الذي يملك المسافة بين طرف لسانه وشفته، وبين سن قلمه وقرطاسه. ووظيفتنا أن نعزز ذلك ونصونه. وحسب فهمي لوظيفتي، فإنه يتعين على أن أصون استقلال غرفة الأخبار وأن أربأ بها عن النفوذ السياسي أيا كان.

الجزيرة وقطر

ومن التساؤلات الأخرى التي سمعتها اليوم «وماذا عن قطر؟».

صحيح أن قطر في النهاية تعطينا المال، وإن حكومة قطر تمول الجزيرة. وأنا أنتهز هذه الفرصة لأشكر أمير قطر، الذي اتخذ قرارا صائبا قبل عشر سنين في أن يؤسس الجزيرة.

إنني كطالب في السياسة الدولية، ووفقا للنظرية الواقعية في السياسة، تعلمت أن الدول لاعبون عقلانيون، وأنها ليست منظمات خيرية على الإطلاق، وأنها تتصرف حسب ما تمليه عليها مصالحها الذاتية.

وعليه فإن قرار تأسيس الجزيرة كان قرارا عقلانيا، ولا شك أنه خدم دولة قطر.

هل أفادت الجزيرة قطر؟ طبعا أفادتها. إن مجرد وجود الجزيرة في الدوحة أعطى قطر مكانة في المنطقة وفي العالم لم تتمتع بها قبل سنة ١٩٩٦ . غير أن دولة قطر أدركت أنها ستستفيد من الجزيرة ما دامت الجزيرة مهنية وبعيدة عن التوجيه السياسي، وأنها لو تدخلت في تحديد أولويات الخبر وسياسات هيئة التحرير داخل غرفة الأخبار بالجزيرة، فستنتهي تلك الميزة التي تتمتع بها، لأنه سينظر لقناة الجزيرة بوصفها بوقا سياسيا آخر من بين مائتين وخمسين قناة تليفزيونية في المنطقة.

أما موضوع تواجد الجزيرة في قطر، ومدى فائدتها لدولة قطر، فأمران بعيدان عن غرفة الأخبار. وبغير ذلك فلن يكون للجزيرة شأن بالمنطقة، واحسب انهم أدركوا ذلك بجلاء. وفي دول أخرى يدفعون مليارات الدولارات من أجل إنشاء شبكات وقنوات أخبار وغيرها من القنوات ، لكنهم لم يحصلوا على ما حصلت عليه الجزيرة من حضور ومصداقية ذلك لأنهم ببساطة لم يتخلوا عن عقلية السياسي الذي يجب أن يحدد الأولويات للصحفي، ففشلوا. وذهبت هباء الملايين والمليارات.

وهو درس للحكومات العربية: لا بأس من تمويل رسمي للقنوات الإخبارية ، وإذا أرادوا لاستثمارهم أن ينجح فلا بد من أن يرفع السياسيون أيديهم عن غرف الأخبار، وعليهم أن يتعلموا من الجزيرة. فقط أعط المال ولكن رجاءً انصرف من الباب الأمامي. لا تتدخل أبدا في سياسات القناة المتعلقة بتحرير الأخبار، وإلا فإن قناتك لن تجد من يشاهدها.

غياب الإعلام الحر وهيمنة الإعلام الموجه هو سبب لجوء الناس إما إلى نظرية المؤامرة أو إلى الشائعات لتفسير الأمور التي تدور حولهم ، فلم يكن هناك مصدر موثوق فيه. وما تسمعه من التليفزيون هو ما تريد الحكومات من الناس أن يصدقوه، فلم يفعلوا. وعندما جاءت الجزيرة، قدمت شيئا مختلفا... ولذا أعتقد أنه من المهم جدا والأسلم لنا جميعا حكاما ومحكومين أن نشجع الإعلام الحر وأن نتحلى بالانفتاح والشفافية.

الجزيرة الإنجليزية

أود أن أختم حديثي، لأن عندي دقيقتين فقط، بكلمة عن الجزيرة الإنجليزية.

أتفق مع من قال بأن الجزيرة الإنجليزية هي تحد كبير، ولكنه تحد يمكن أن ينجح.

إن أهم ما نحتاجه كي نصوغ نظرة عالمية وشاملة للأخبار هو أن يكون لتلك النظرة منطلقها ، وأن تكون لها جذورها المنغرسة في مكان ما. وبغير ذلك، فالحديث عن النظرة الإعلامية العالمية الشاملة سيكون حديثا إنشائيا غير ذي جدوى، ولن يفهم معناه أحد. الجزيرة كاسم قوي، يضرب بجذوره في المنطقة... في الشرق الأوسط... في العالم النامي وإن شئت فقل... في الجنوب.

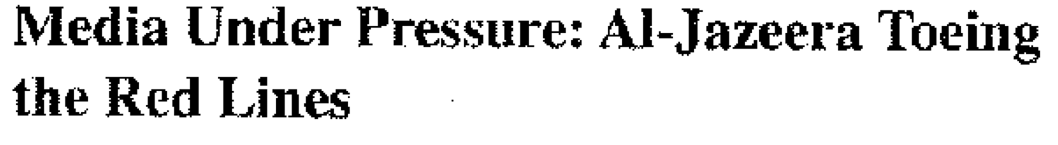
إني أرى فجوة في الإعلام الدولي فيما يتعلق بتغطية دول الجنوب المترامية الأطراف. ولأن الجزيرة الإنجليزية هي أول قناة إخبارية عالمية تنطلق من الجنوب، ولأنها ستبنى على نجاحات القناة العربية، فستكون الأقدر على تناول قضاياه السياسية والاقتصادية والتنموية، نحن نريد أن نقدم للعالم رؤية عالمية، منفتحة، تنطلق جذورها من الجنوب. إني أعلم أن هناك فجوة يمكن سدها، وأعلم أننا سننجح في ذلك، فللجزيرة الإنجليزية رؤية واضحة. وستوضع التفاصيل كشأن أي شبكة. فلن نخترع شيئا لا يعرفه أحد. وستكون هناك البرامج والأخبار، ولكن كما قلت، البرامج ستكون جذورها في مكان ما. وأحسب أننا قد بينا من أين تنبت هذه الجذور. ■

قناة الجزيرة

Voices of the New Arab Public: Iraq, al-Jazeera, and Middle East Politics Today
(أصوات الجمهور العربى الجديد: العراق، الجزيرة، وسياسة الشرق الأوسط اليوم)
Marc Lynch
Columbia University Press, $24.50, 320PP, 2005

نجحت الجزيرة والقنوات الفضائية العربية الأخرى فى تحطيم سيطرة الحكومات العربية على الإعلام لعقود طويلة مما أدى إلى تأثير سياسى عربى، فالجزيرة وزميلاتها أعطت منبرا لأصحاب الأصوات المخنوقة لأعوام مضت مما ساعد على نمو المعارضة فى الدول العربية على حد سواء.

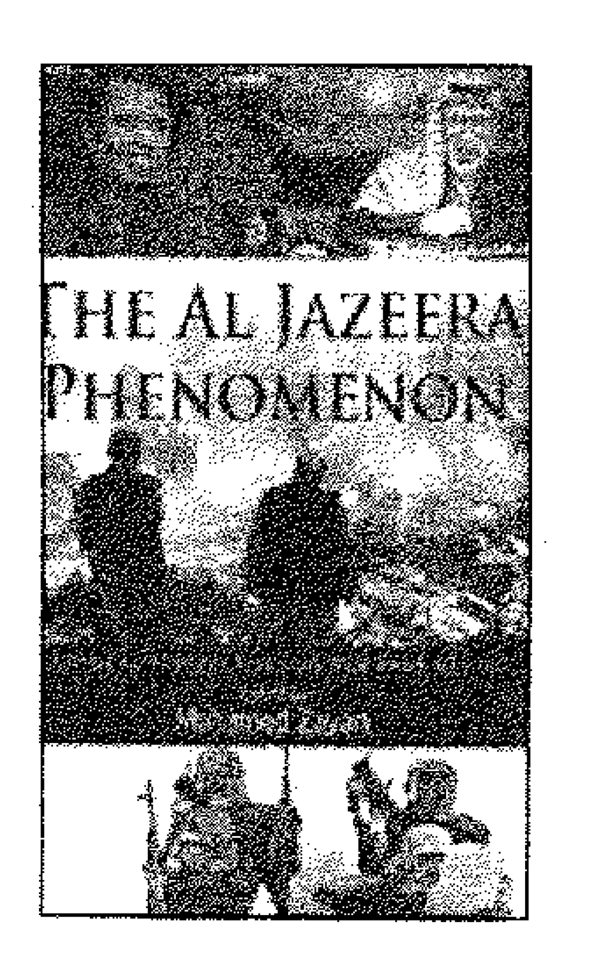
من خلال عدة مقابلات قام بها فى الشرق الأوسط، واستطلاعات الرأى المختلفة يفحص «مارك لنتش» طبيعة وتطور الرأى العام العربى تجاه القضايا المختلفة وكيف أثرت قنوات مثل الجزيرة على هذا الرأى.



Media Under Pressure: Al-Jazeera Toeing the Red Lines
(أعلام تحت الضغط: الجزيرة تمس خطوطا حمراء)
Olivia Qusaibaty
BookSurge Publishing, $12.99, 82PP., 2006

كتاب صغير الحجم صدر بمناسبة العيد العاشر للجزيرة، يقدم البحث والتحليل للقناة العربية الأكثر إثارة للجدل.

الكتاب يتناول بحثا فى مواقف الجزيرة المختلفة تجاه عدة قضايا عربية وعالمية، وتحليلا لتلك المواقف ولدور الجزيرة إعلاميا فى صناعة الرأى العام العربى.

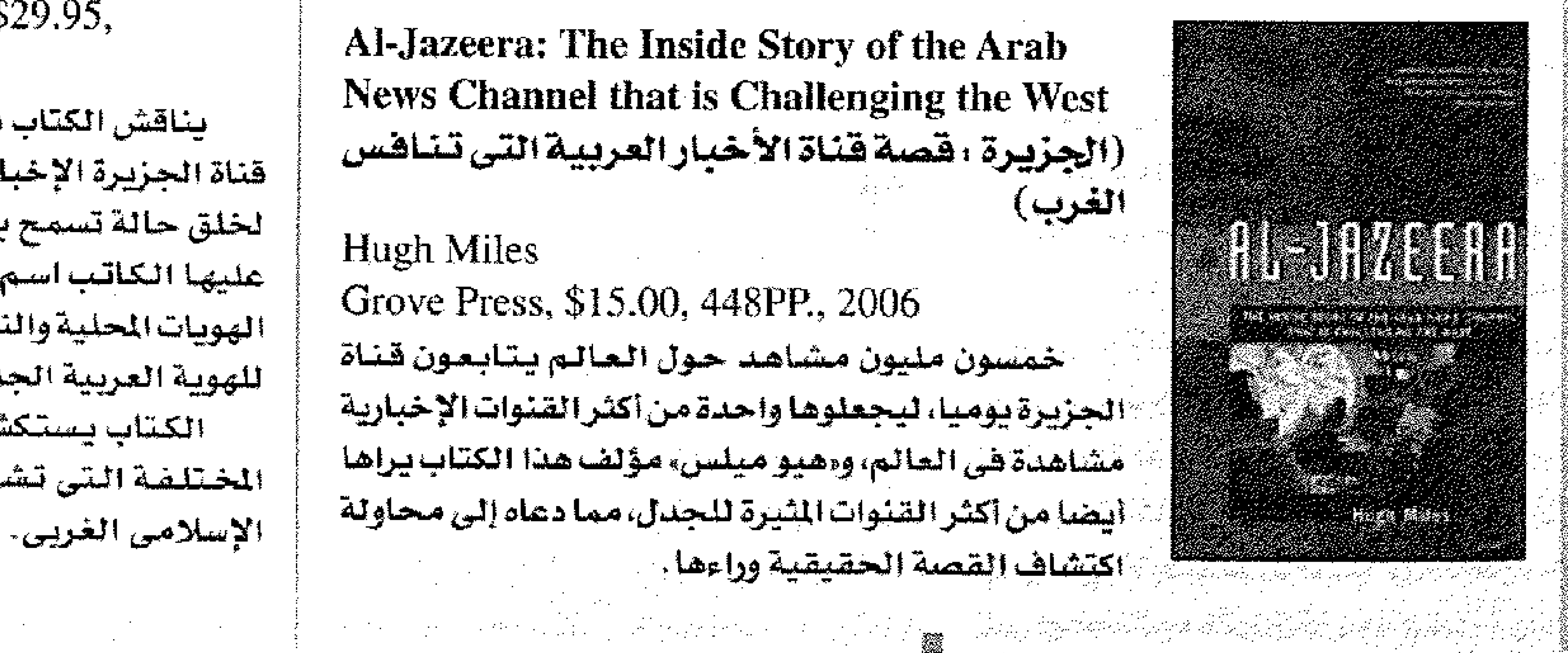


The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives On New Arab Media
(ظاهرة الجزيرة: وجهات نظر انتقادية)
Mohamed Zayani
Paradigm Publishers,$25.95, 223PP., 2005

أحد عشر مقالا مطولا عن الجزيرة لأحد عشر كاتبا، أحدهم هو «محمد زيانى»، الذى كتب عن تناول الجزيرة للصراع العربى الإسرائيلى، ويأتى أيضا الصحفى الفرنسى «أوليفر دى ليج» الذى تناول العلاقات الأمريكية القطرية وكيف تهاجم الجزيرة أمريكا، فى حين أن القيادة القطرية تساند أمريكا، مما يخلق توازنا سياسيا فى العلاقات بين الدولتين.

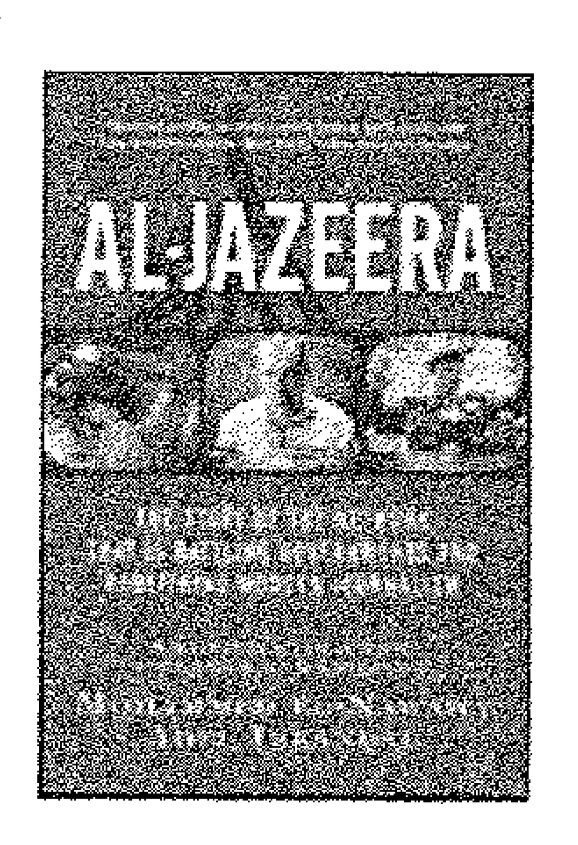
أما الكاتبة البريطانية «ناعومى صقر» فتحلل موقف الجزيرة تجاه تولية النساء السلطة.

الكتاب يقدم تحليلا لسياسة الجزيرة وجدول أعمالها وبرامجها، وتحليلها لأزمات المنطقة، وكيفية تناولها للغرب وتناول الغرب لها.



Al-Jazeera: The Inside Story of the Arab News Channel that is Challenging the West
(الجزيرة: قصة قناة الأخبار العربية التى تنافس الغرب)
Hugh Miles
Grove Press, $15.00, 448PP., 2006

خمسون مليون مشاهد حول العالم يتابعون قناة الجزيرة يوميا، ليجعلوها واحدة من أكثر القنوات الإخبارية مشاهدة فى العالم، و«هيو ميلس» مؤلف هذا الكتاب يراها أيضا من أكثر القنوات المثيرة للجدل، مما دعاه إلى محاولة اكتشاف القصة الحقيقية وراءها.

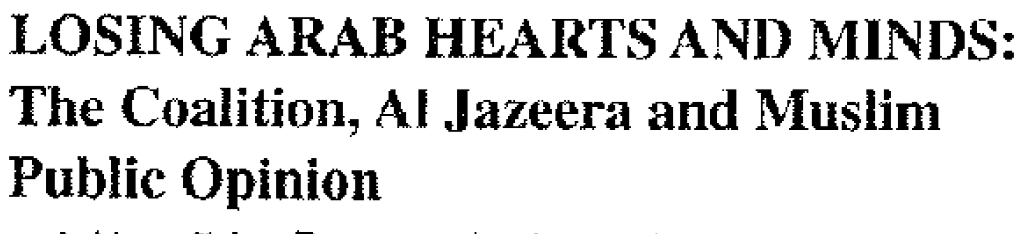


Al-Jazeera: The Story of the Network That Is Rattling Governments and Redefining Modern Journalism
(الجزيرة: قصة شبكة أخبار تهز الحكومات وتعيد صياغة الصحافة الحديثة)
Mohammed El-Nawawy, Adel Iskandar
Westview Press, $16.00, 240PP., 2003

«محمد النوادى» الصحفى الذى عمل من قبل للأسيوشيتيد بريس ووكالة أنباء الشرق الأوسط، و«عادل اسكندر» خبير أجهزة إعلام الشرق الأوسط، يحللان شبكة الأخبار العربية الأولى ودورها فى العالم العربى.

ظهرت الجزيرة كلاعب أساسى فى الأحداث السياسية بعد أحداث ١١ سبتمبر، حرب تُشن فى أفغانستان، والجزيرة تسبق جميع التكتلات الإعلامية الغربية إلى الخبر: وتصل حصريا إلى أسامة بن لادن وأعضاء طالبان. وتحقق الانتشار العالمى عن طريق ظهور شعارها فى لقطات مأخوذة منها بصورة شبه يومية على الشبكات الإخبارية الغربية.

الكتاب يهدف إلى تسليط الضوء على شبكة الجزيرة، كيف بدأت، تأثيرها على المشاهد العربى والرأى العام العربى، وردود الفعل الغربية والعربية على السواء تجاه سياسات الجزيرة، ونتائج هذا على الصعيد العربى والعالمى.



LOSING ARAB HEARTS AND MINDS: The Coalition, Al Jazeera and Muslim Public Opinion
(خسارة القلوب والعقول العربية: التحالف، الجزيرة، والرأى العام الإسلامى)
Steve Tatham
Front Street Press, $25.00, 256PP., 2006

من خلال تجربته المباشرة: وعمله كناطق رسمى باسم البحرية، ومشاركته فى الحملة الإعلامية الضخمة التى صاحبت غزو العراق فى الفترة من نوفمبر ٢٠٠٢ إلى مايو ٢٠٠٣، يشهد «ستيف تاثام» على محاولات الولايات المتحدة لكسب تأييد وتعاطف العرب.

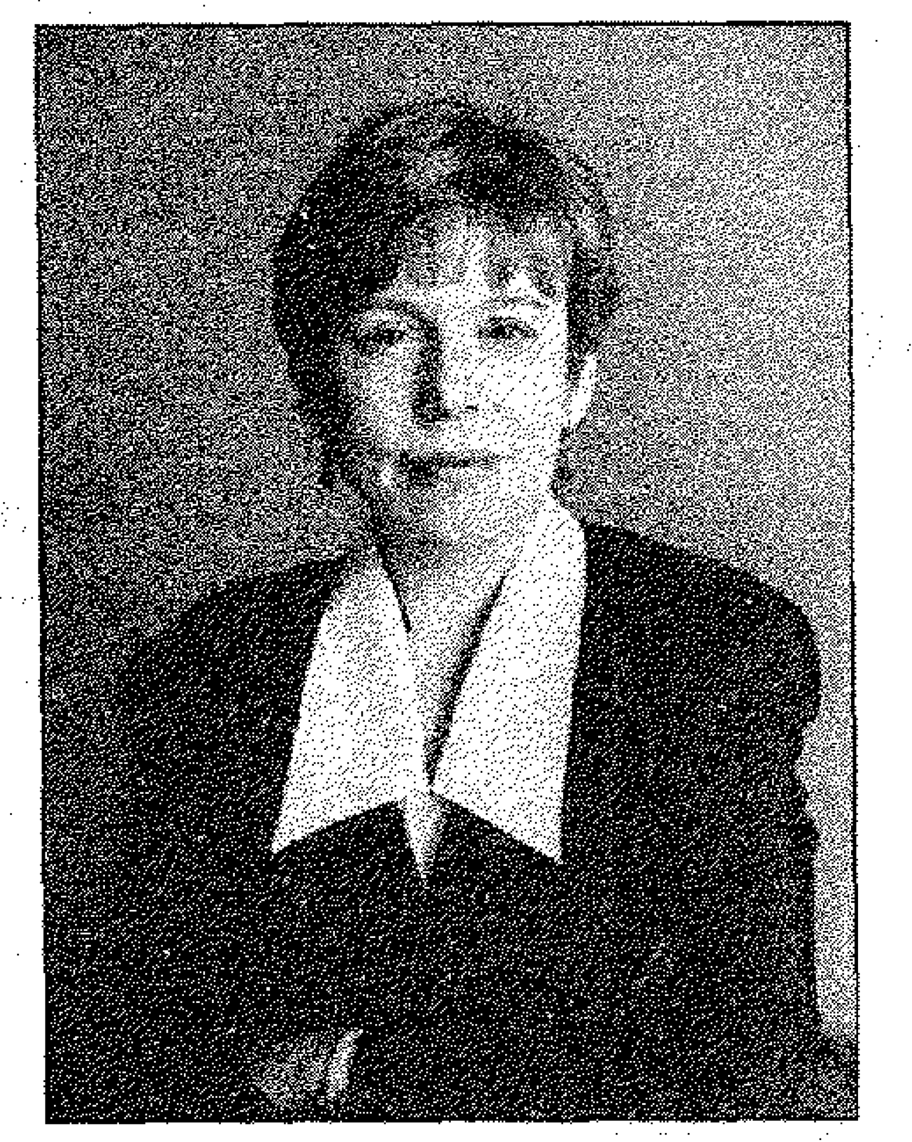
الكتاب ينتقد طريقة المعالجة الأمريكية للإعلام، وممارستها للضغوط على الإعلام المحلى لعدم نشر صور الأسرى والموتى التى نشرها الإعلام العربى، وهو ما أدى إلى اتهام الاعلام العربى وبخاصة قناة الجزيرة بالتحيز ضد قوات التحالف.

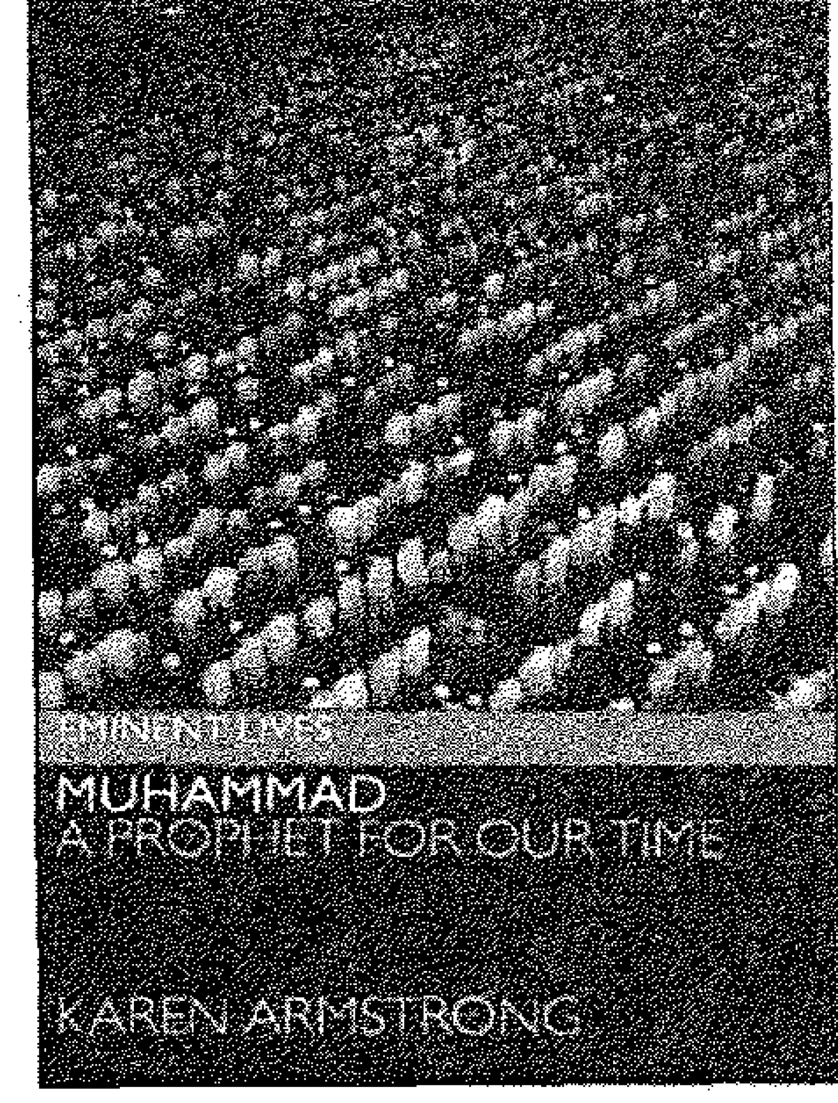
مثل تلك الاتهامات، ومحاولات تشويه السمعة، جعلت العديد من المراقبين يتساءلون حول ما إذا كان الرئيس بوش يقصد بقوله «انك إما معنا أو علينا» وسائل الإعلام أيضا بالإضافة إلى الدول.

Instant Nationalism: McArabism, al-Jazeera, and Transnational Media in the Arab World
(القومية اللحظية: الوحدة العربية، الجزيرة، وأجهزة الإعلام فى العالم العربى)
Khalil Rinnawi
University Press of America, $29.95, 216PP., 2006

يناقش الكتاب دور أجهزة الإعلام العربية وبخاصة قناة الجزيرة الإخبارية فى التأثير على المواطن العربى لخلق حالة تسمح بظهور نوع من الوحدة العربية، أطلق عليها الكاتب اسم «McArabism»، وهى تمثل تقارب الهويات المحلية والنظام العالمى، لتشكل صورة جديدة أو تصلح من صورة موجودة بالفعل للهوية العربية الجديدة.

الكتاب يستكشف ظهور ذلك التقارب وتأثيره على المجتمع العربى والقضايا المختلفة التى تشغله، كالصراع العربى الإسرائيلى والوضع فى العراق والصراع الإسلامى الغربى.





كتـــــاب... وكـــــاتب



A Prophet for Our Time

كـــــارين أرمســـــترونج

❞ الكتاب صدر قبل أسابيع فقط وبالتحديد فى السادس عشر من أكتوبر، ورغم أنه ليس الأول الذى يصدر فى الغرب عن نبينا الكريم، إلا أن توقيت صدوره بعد أيام فقط من محاضرة البابا الشهيرة، واسم كاتبته؛ الأشهر بين دارسى العقائد والأديان فى العالم كان كفيلاً بإثارة اهتمام من نوع خاص.

وهنا باب جديد ستخصصه «وجهات نظر» من حين لآخر للكتاب الذى يلقى اهتماماً «استثنائياً» وقت صدوره، أو الذى يتصدر قوائم المبيعات. وكذلك لصاحب القلم «الكاتب». والذى سيكون فى أغلب الأحيان «استثنائياً» هو الآخر والذى لن يكتمل التعريف به وبتطوره الفكرى إلا بعرض لأعماله كاملة (Bibliography) مرتبة زمنياً. مع بيان بالطبعات الجديدة المتوافرة حالياً. ❝

وجهات نظر

■ يشكل تاريخ التراث الديني حوارا مستمرا بين الحقيقة الأسمى والوقائع الجارية في المجال الدنيوي إذ يستقرئ المؤمنون الماضي المقدس باحثين عن الدروس التي تخاطبهم بشكل مباشر فيما يتعلق بأوضاعهم الحياتية. لدى معظم الأديان شخصية رئيسية تعمل كنموذج بشري يعبر عن مثاليات هذه الأديان. فيرى البوذيون عبر تأمل سكينة بوذا الحقيقة الأسمى للنيرفانا[1] وهي الحالة التي يتوق لبلوغها كل منهم، وبالنسبة للمسيح يرتئي المسيحيون عبره الوجود الإلهي كقوة للخير والرحمة في العالم. تلقي هذه الشخصيات النماذجية الضوء على الأحوال المظلمة التي ننشد الخلاص منها في عالمنا المعيب، هذه الشخصيات تنبئ بالطريقة التي يمكن أن يكون عليها البشر.

وهذا ما يفهمه المسلمون فكتابهم «القرآن» يمنحهم دورا لبناء مجتمع عادل كريم يعامل كافة أعضائه باحترام. إن تحقيق الرخاء السياسي للمجتمع المسلم كان ولايزال أمراً بالغ الأهمية. ومثل أي مثال ديني غالبا ما يعد تحقيق ذلك أمرا صعبا ولكن بعد كل فشل يتعرض له المسلمون يحاولون إعادة الكرة ويبدأون من جديد، إن الكثير من الطقوس والفلسفات والمعتقدات والنصوص المقدسة والأضرحة نتاج تأملات موجعة وناقدة للأحداث السياسية في المجتمع الإسلامي.

حياة النبي محمد (٥٧٠ - ٦٣٢ ميلاديا) كانت حتمية فيما يتعلق بوضوح المثال الإسلامي كما هو اليوم، فمهمته تتعلق بكشف إبهام الحراك الإلهي في الأرض، ويفسر التسليم في صورته المثلى (في العربية إنما تقف كلمة «التسليم» مرادفا للإسلام) ذلك التسليم الذي ينبغي أن يظهره كل إنسان لله. بدءاً من زمن معاصرة النبي كان على المسلمين أن يجتهدوا لفهم معنى حياته وأن يطبقوها على حياتهم. بدأ المسلمون في جمع مجموعات هائلة من أقوال محمد (الأحاديث) وعاداته وأفعاله (السنة) والتي ستصبح أحد أسس شريعة المسلمين بعد ما يزيد عن مائة عام بعد وفاة محمد ومع استمرار الإسلام في الانتشار في مناطق جديدة وكسبه لمزيد من الأتباع. تعلم السنة المسلمون كيف يحاكون محمدا في الطريقة التي يتحدث ويأكل ويحب ويغتسل ويتعبد بها، وبالتالي فهم يعيدون إنتاج حياته على الأرض عبر كل تفصيلة دقيقة في الحياة اليومية وذلك أملاً في الوصول إلى تلك النزعة الداخلية بكامل التسليم لله.

وفي الحقبة الزمنية نفسها تقريبا (أي في القرنين الثامن والتاسع) بدأ المؤرخون المسلمون الأوائل في الكتابة عن حياة النبي محمد: محمد بن إسحاق (المتوفى ٧٦٧) محمد بن عمر الواقدي (المتوفى ٨٢٠) محمد بن سعد (المتوفى ٨٤٥) وأبو جرير الطبري (المتوفى ٩٢٣). ولم يعتمد هؤلاء المؤرخون بشكل تبسيطي على ذاكراتهم أو انطباعاتهم ولكنهم كانوا يحاولون تحقيق إحياء تاريخي جاد، فكانوا يضمنون رواياتهم وثائق قديمة ويتعقبون التراث الشفهي إلى حيث مصادره الأصلية وبالرغم من إجلالهم لمحمد كرسول من عند الله لم يكونوا عديمي النقد بشكل تام. وبفضل جهودهم - وإلى حد كبير- فإننا نعرف عن محمد أكثر مما نعرفه غالبا عن أي مؤسس منهج ديني رئيس. هذه المصادر الأولى لاغنى عنها لأي من كتاب سيرة حياة محمد وسأشير إليها مرارا في هذه الصفحات.

وغالبا لن يرضي مؤرخًا حديثًا عمل كُتاب سيرة محمد الأوائل إذ كانوا أبناء عصرهم وغالبا ما ضمنوا في أعمالهم قصصًا لها طبيعة إعجازية وأسطورية قد نفسرها بشكل مختلف في وقتنا الحالي. ولكنهم كانوا على دراية بدرجة تعقيد ما يكتبون، فهم لم يروجوا لنظرية أو تفسير للأحداث على حساب آخر. وأحيانا ما كانوا يضعون روايتين شديدتي الاختلاف لحادثة واحدة جنبا إلى جنب ليعطوا لكل منهما الوزن

مقدمة كتاب:

Muhammad: A Prophet for Our Time

محمد: نبي هذا الزمان

Karen Armstrong

Harper Collins (October 17, 2006)

256 pages

ترجمة: داليا يوسف

أدركت أن الكثير من الغربيين لم تسنح لهم الفرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد ولذلك قررت كتابة رواية سهلة الفهم والانتشار لحياته لتتحدى وجهة النظر الحصينة تلك



نفسه وبالتالي يتمكن القراء من إعمال عقولهم. ولم يكونوا دائما متفقين مع ما يروون ولكنهم كانوا يحاولون رواية سيرة نبيهم بأمانة وصدقية قدر استطاعتهم.

وقد يعتري رواياتهم بعض من الخلل فعمليا نحن لا نعلم شيئا عن حياة محمد المبكرة قبل تلقيه ما آمن به على أنه وحي من الله في سن الأربعين، لابد أنه قد نشأت قصص تحمل بعدا مثاليا عن ميلاد محمد ..طفولته وشبابه ولكنها تحمل قيمة رمزية أكثر مما تحمل كقيمة تاريخية ، كما يوجد عدد قليل من المواد عن حياة محمد السياسية المبكرة في مكة، إذ كان في ذلك الوقت شخصية مستترة نسبيا ولم يكن يظن أحد أن الأمر يستحق تدوين ما يقوم به من نشاطات. ومصدرنا الرئيس للمعلومات هو النص الذي أتى به للعرب . فلمدة ٢٣ عاما (٦١٠ - حتى وفاته في ٦٣٢) قال محمد إنه يتلقى الرسالة مباشرة من الله والتي جمعت في نص عرف باسم القرآن .

والقرآن بالطبع لا يحمل رواية صريحة لحياة محمد ولكنه يقترب من حياته شيئا فشيئا: سطراً عبر سطر .. آية عبر آية وسورة عبر أخرى ، وأحيانا ما يعالج التنزيل موقفاً محدداً في مكة أو المدينة .في القرآن يجيب الله منتقدي محمد إذ يدحض حججهم ، ويشرح القرآن الدلالة الأعمق لمعركة أو صراع داخل المجتمع، وكلما أوحي إلى محمد بعدد جديد من الآيات يحفظها المسلمون عن ظهر قلب ويكتبها المتعلمون ، جاء أول جمع رسمي للقرآن تقريبا عام ٦٥٠ أي بعد عشرين عاما من وفاة الرسول وحقق وضعا شرعيا.

القرآن هو كلمة الله المقدسة وتبقى سلطته مطلقة ، ولكن المسلمين يعلمون أن التفسير ليس بالأمر السهل دائما ، لقد وضعت تشريعاته لمجتمع صغير ولكن بعد قرن من وفاة النبي حكم المسلمون إمبراطورية واسعة تمتد من الهملايا إلى جبال البرانس .فاختلفت ظروفهم تماما عن تلك التي كان فيها النبي والمسلمون الأوائل ، وكان على رسالة الإسلام أن تتغير وتتكيف تبعا لذلك ، لقد كتبت الفصول الأولى من تاريخ المسلمين لمعالجة الارتباكات المعاصرة.

كيف يمكن للمسلمين تطبيق رؤى النبي وممارساته في أزمانهم؟

فحينما يقص كتاب السيرة الأوائل قصة حياته إنما يحاولون شرح بعض من أجزاء القرآن عبر إعادة إنتاج السياق التاريخي الذى تنزلت فيه آيات بعينها على محمد وعبر فهم ما استحثه تعليم قرآني معين يمكنهم الربط بينه وبين مواقفهم عبر وسائل عملية منضبطة من القياس التناظري.

إن مفكري ومؤرخي العصر يؤمنون بأن التعرف على نضال النبي ليسمع كلمة الله في القرن السابع سيساعدهم على الحفاظ على روحه في زمنهم. من البداية لم تكن الكتابة عن النبي محمد مجرد تعقب لآثاره ، الأمر الذي يستمر إلى اليوم.

بعض من المسلمين يؤسسون لأيديولوجياتهم «الجهادية» على حياة محمد. إذ يؤمن المتطرفون المسلمون أن النبي سيغفر لهم وحشيتهم ويعجب بهم. بينما مسلمون آخرون ينكرون هذه الادعاءات ويشيرون إلى التعددية الكبيرة في القرآن والتي تشجب العدوان وهم يرون أن كل الأديان الهادية مصدرها الله الواحد.

لدينا تاريخ طويل من «الاسلاموفوبيا» في الثقافة الغربية والتي يرجع تاريخها إلى الحروب الصليبية .في القرن الحادي عشر حيث أصر الرهبان المسيحيون أن الإسلام دين عنف انتشر بالسيف وأن محمداً كان دجالا[2] فرض دينه على العالم مناوئ له بقوة السلاح .وقد أطلقوا عليه الداعر والمنحرف جنسيا. هذا السرد المشوه لحياة النبي أصبح من الأفكار التي تلقاها الغرب ودائما ما وجد الغربيون صعوبة في رؤية محمد في ضوء موضوعية أكبر.

استمر أعضاء اليمين المسيحي في الولايات المتحدة وشرائح أخرى من الميديا الغربية - منذ انهيار برجي التجارة العالمي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ - في عدائهم التاريخي وادعوا أن محمداً كان مدمنا للحرب إدمانا غير قابل للعلاج، وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك بادعاء أن محمد إرهابي ومولع جنسيا بالأطفال .

ولا يمكننا أن نساير أكثر هذا النوع من التعصب إذ سيكون ذلك منحة للمتطرفين الذين يمكنهم استخدام هذه العبارات لإثبات أن العالم الغربي يشن حروباً صليبية جديدة ضد العالم الإسلامي. فالحقيقة أن محمدا لم يكن رجل عنف ولابد أن نقترب من حياته بشكل متوازن من أجل تقدير إنجازاته المعتبرة . إن تشجيع تحيزات غير دقيقة تفسد التسامح والحرية والرحمة والتي يفترض أنها تميز الثقافة الغربية.

لقد وصلت لهذه القناعة منذ ١٥ عاما بعد فتوى آية الله الخميني التي حكمت على سلمان رشدي وناشر روايته بالموت لما تم اعتباره تقديم لشخصية محمد بشكل مسيء في روايته «آيات شيطانية». لقد بغضت هذه الفتوى ورأيت أن من حق سلمان رشدي نشر ما يروق له ولكن أزعجتني الطريقة التي انحرف بها مؤيدو رشدي الليبراليون من إدانة الفتوى إلى شجب ورفض متزايد للإسلام نفسه الأمر الذي لا يمت بصلة لحقائق الأمور.

يبدو من الخطأ الدفاع عن مبدأ ليبرالي عبر إحياء تحيز قروسطي ، إننا لم نتعلم شيئا من مأساة الثلاثينيات حينما جعل مثل هذا النوع من التعصب قتل ٦ ملايين يهودي على يد هتلر أمرا ممكنا . أدركت وقتها أن الكثير من الغربيين لم تسنح لهم الفرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد ولذلك قررت كتابة رواية سهلة الفهم والانتشار لحياته لتتحدى وجهة النظر الحصينة تلك.

وكان نتاج ذلك كتاب «محمد: سيرة النبي»(Muhammad: A Biography of the Prophet, ١٩٩١) والذي نشر لأول مرة في ١٩٩١ ولكننا نحتاج بعد ١١ سبتمبر إلى التركيز على جوانب أخرى من حياة محمد ولذلك فهذا كتاب جديد ومختلف تماما ، وآمل أن يخاطب بشكل أكثر مباشرة الحقائق المروعة في عالمنا ما بعد ١١ سبتمبر.

لدى محمد - كشخصية نماذجية- دروس هامة ليس فقط للمسلمين بل وللغربيين أيضا. لقد كانت حياته :جهادا؛ ويجب علينا أن نفهم أن هذه الكلمة لا تعني «الحرب المقدسة» كما تم الترويج لها هنا وإنما تعني «الكفاح» ، لقد بذل محمد الكثير من المجهود ليجلب السلام إلى الجزيرة العربية التي مزقتها الحروب، إننا بحاجة إلى أناس على استعداد لفعل ذلك اليوم.

لقد أدرك محمد أن الجزيرة العربية كانت تمر بنقطة تحول وأن الطريقة القديمة في التفكير لن تفي بمطالب هذا التحول ولهذا فقد أضنى نفسه عبر طرق إبداعية ليخرج بحلول جديدة تماما . إننا ندخل لحقبة تاريخية جديدة في ١١ سبتمبر وعلينا أن نجتهد بدأب مساو لنخرج بمنظور مختلف.

الغريب أن الأحداث التي وقعت في الجزيرة العربية في القرن السابع تحمل لنا الكثير من الدروس للأحداث التي تقع في أيامنا بل وأكثر من ذلك عبر فهم دلالتها البينة الأكثر وضوحا من طنطنة السياسيين . لم يحاول محمد فرض عقيدة دينية - فهو لم يكن مهتما كثيرا بالميتافيزيقا - ولكنه كان مهتما بتغيير عقول وقلوب الناس.

لقد أطلق محمد على الروح الغالبة على عصره «الجاهلية» ، وعادة ما يفهم المسلمون ذلك على أنه يعني «زمن الجهل» وهي تلك الحقبة التي سبقت المعرفة بالإسلام في الجزيرة العربية . ولكن- وكما أشار البحث الحديث- استخدم محمد مصطلح الجاهلية لا للإشارة إلى حقبة تاريخية ولكن إلى حالة ذهنية تسبب العنف والإرهاب. ■

هوامش

(*) يستدعي العنوان الذي اختارته «كارين أرمسترونج» لكتابها عن النبي محمد شعارا ارتفع في أجواء مأزومة خلال الحرب العالمية الثانية، ففي العام ١٩٣٨ وصل «نيفل شامبرلين» Neville Chamberlain إلى المملكة المتحدة ومعه الاتفاقية الموقع عليها هتلر والتي تنص على عدم رغبة هتلر في الدخول في حرب مع بريطانيا ، وقتها رفع شامبرلين شعار It is Peace for Our Time ليحتفى به لأنه جلب السلام لأوروبا بتوقيع اتفاقية عدم الاعتداء مع ألمانيا.

(١) النيرفانا لفظ يستعمل لوصف حالة التيقظ التي تخمد معها العوامل التي تسبب الآلام (الشهوة، الحقد، الجهل) .

(٢) آثرنا أن نلتزم في ترجمتنا بالنص الأصلي رغم ما قد يكون فيه من تجاوز لا نقبله في الألفاظ. (المترجم)

كـــارين أرمــــسترونج
الراهبة الهاربة

■ يعرفها البعض بأنها «الراهبة الهاربة» التي تركت حياة الدير لا لتفقد اهتمامها بالشأن الديني وإنما لتدلف إليه مرة أخرى عبر بوابة البحث في مقارنة الأديان وتصبح واحدة من أهم مقدمي سيرة رسول الله محمد لمجتمعها الغربي، تلك الأهمية التي لا تقتصر على خلفيتها المعرفية والأكاديمية ولكن تمتد إلى الأسباب التي دفعتها للكتابة عن سيرة رسول الله وعلى رأسها ضرورة «أن تمد القارئ الغربي بنظرة واضحة - يحجبها الغموض والخلط الفلكلوري - عن رجل كان نبيا بشرا .. غير من التاريخ الإنساني ويستمر - حتى هذا اليوم- في العمل كمصدر إلهام لمزيد من الناس». لقد تمنت كارين أرمسترونج عبر كتابتها عن سيرة محمد أن تساعد الغرب في فهمه للدين الإسلامي الذي تراه ينتشر عبر العالم.

ولدت كارين أرمسترونج في ١٤ نوفمبر ١٩٤٤ بإنجلترا لأسرة من أصول ايرلندية، والتحقت بجمعية «يسوع الطفل المقدس» للعمل كراهبة ١٩٦٢ - ١٩٦٩ ضمن نظام تعليمي وتقدمت في عملها كراهبة مبتدئة ليتم إرسالها إلى كلية «سانت آن» في جامعة «أوكسفورد» حيث درست الأدب الإنجليزي، تركت أرمسترونج الدير في سنى دراستها معترفة بأنها لم تستطع أن تفي بمطالب حياة الرهبانية والتي كانت قد اختارتها .. تلك الحياة التي وصفت ضيقها ومحدودية الخبرات التي تمنحها في كتابها «عبر البوابة الضيقة» Through the Narrow Gate (١٩٨٢) لتكسب بذلك عداء الكثير من البريطانيين الكاثوليك رغم تصدر كتابها هذا قائمة الكتب الأكثر مبيعا في بريطانيا.

بعد تخرجها بدأت في العمل على إنهاء رسالتها للدكتوراة من جامعة أوكسفورد واستمرت في عملها حتى درست في جامعة لندن ولكن أطروحتها للدكتوراه رفضت على يد ممتحن خارجي لتترك المجال الاكاديمي قبل أن تكمل رسالتها للدكتوراة. وفي العام ١٩٧٦ أصبحت مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة للبنات إلا أن وضعها الصحي حال بينها وبين الانتظام في عملها بالتدريس الذي تركته عام ١٩٨١.

وبتصدرها لمكانة مميزة في الحياة المعرفية والأدبية عبر كتاباتها دعتها القناة الرابعة في لندن عام ١٩٨٤ لعمل سلسلة من الافلام التسجيلية من ٦ أجزاء عن حياة وأعمال سان باول Saint Paul.

وكانت تلك نقطة تحول في حياة «أرمسترونج» المعرفية على أكثر من مستوى كان أبرزها أن العمل من أجل هذا الفيلم التسجيلي دفعها لأن تعود مرة أخرى للبحث في شئون الدين بالرغم من هجرها للعبادات الدينية بعد تركها للدير.

لقد اطلعت «أرمسترونج» بكثافة على «الأديان الابراهيمية الثلاثة»، وهو أمر كانت قد بدأته خلال السنوات السبع التي قضتها في حياة الرهبانية والتي ضمت سنوات دراستها في اكسفورد، لم يقف أثر تجربة الفيلم التسجيلي عند هذا الحد إذ أن هذا التكليف استلزم سفر «أرمسترونج» إلى القدس عدة مرات وهناك بدأت في الملاحظة وطرح الأسئلة على من تعمل في أوساطهم.

كانت زيارتها الأولى إلى «إسرائيل» أثناء غزو لبنان في ١٩٨٢ ووقوع مذبحة صبرا وشاتيلا أما زيارتها الثانية فجاءت أثناء الانتفاضة الفلسطينية.

وعن هذا تقول: «لقد صدمني أن أسمع الاسرائيليين لا يدافعون فقط عن قتل الصغار الذي لا حول لهم ولا قوة بل ويعملون أيضاً على تسويغ هذا الأمر».

تضيف كارين عن هذه الفترة: «كنت في القدس حين سمعت مضيفي من الإسرائيليين يشيرون إلى العرب والدين الإسلامي بأكثر التعبيرات ازدراءً، لم أصدق - وأنا التي نشأت أستنكر فظائع الهولوكوست - كيف لأناس عانوا الكثير من الاضطهاد أن يتورطوا في مثل هذا النوع من العنصرية».

«كل هذا أتى لينبهني إلى أن أرى جانبا آخر من القصة عبر زيارة مناطق المسلمين في القدس، ومن هنا أدركت أن ثمة شيئا ما تم حذفه عمدا في أوروبا وربما في أمريكا أيضا وأن الشرق الأوسط والإسلام بحاجة لأن يتم تقديمهما بالشكل الصحيح بعد أن لطخت المبالغات والتشويهات صفحات تاريخ الكتابة عنهما في الغرب».

وكنتيجة لزيارتها للقدس واجهت أرمسترونج حالة جادة من التساؤل والأرق: «لقد أقلقني أن وعيا جديدا بدأ يقوض ما خبرته ونشأت عليه من ثقافة غربية متسقة ونظام قيمي ارتبط بتلك الثقافة»، وتضيف: «إننا نقدم مجتمعنا كمجتمع متسامح ورحيم ومع ذلك فإننا نصدر أحكاما من مواقع شديدة الجهل وتخلو من العقلانية».

كانت هذه هي الفترة التي بدأت خلالها «أرمسترونج» في اقتفاء أثر ما وصفته بالحكمة جديدة وتعيد البحث في مسائل اليهودية والمسيحية والإسلام. وحتى هذا الوقت كانت مصادر «أرمسترونج» الروحية والفكرية هي تعاليم الكنيسة والروافد التقليدية للإعلام والأكاديمية الغربية وقد أشارت أرمسترونج أن جميعها تعرض المسيحية واليهودية في ضوء أفضل بينما تعطي صورا سلبية لكل ما يتعلق بما هو عربي أو إسلامي.

من هنا جاء تركيز «أرمسترونج» الأساسي على أبناء حضارتها الغربية لتمدهم بفهم أفضل للإسلام ونبيه ومن ثم فقد قامت بتمشيط المكتبات واطلعت على أعمال مدارس مقارنة الاديان وحضرت الحلقات الدراسية لتعثر على ثروة من الكنوز البحثية والاعمال المفيدة إلا أنها لم تجد شيئا يناسب القارئ العادي الذي لم ينشأ في ظل الثقافة الإسلامية بما حثها على التفكير في تقديم جوانب من الدين الإسلامي وسيرة رسول الله بصورة تناسب القارئ الغربي العادي.

وكان من ضمن الاحداث التي دفعتها للكتابة عن حياة نبي الله «محمد» قضية سلمان رشدي وكتابه «آيات شيطانية» الذي استقبل بموجات من الغضب من قبل المسلمين لما اعتبر إساءة إلى رسول الله وآل بيته، وبينما استاءت «أرمسترونج» من تلك الفتوى التي



الترجمة بتصرف عن:

1. Karen Armstrong: A Profile in Literary Diversity, Washington Report on Middle East Affairs, February, ١٩٩٣
2. Karen Armstrong, Wikipedia, Free Online Encyclopedia
3. The Modern Library, Randomhouse (http://www.randomhouse.com/modernlibrary/karmstrong.html)

أصدرها الإمام الخميني والتي قضت بإباحة دم «سلمان رشدي» وناشر كتابه ولكن في الوقت ذاته لم يرق لها الطريقة التي تم بها التعامل مع قضية سلمان رشدي ومناقشتها في إنجلترا فتقول: «هؤلاء الصليبيون الجدد يدافعون عن الحق في حرية التعبير ولكن من موقع الجهل، لقد احتجوا على حرق آيات شيطانية كما لو كان المسيحيون لم يشعلوا حريقا من قبل في كتب اختلفوا مع محتواها ، لقد اضطررت أن أسأل أصدقائي لماذا قوانين الكفر والتجديف لا تطبق- في بريطانيا - إلا فيما يتعلق بالمسيحية فقط».

وسط هذه الاجواء من فقدان الوعي والتوتر الفكري قررت «أرمسترونج» سنة ١٩٩١ أن تكتب سيرة النبي محمد خصيصا للقارئ الغربي، وقد رأت آنذاك أن إسهامها وثيق الصلة بأن أنصار الشيوعية قد وضعوا أسلحتهم - في ذلك الوقت - وأن القلعة السوفيتية تهافتت بما يشير لمزيد من الإحياء الديني على جانبي الاطلسي وهو أمر يبعث - في رأيها - على ضرورة وجود توافق أكبر بين التراث المسيحي اليهودي والدين الابراهيمي الثالث: الاسلام.

ويتضح أن هناك مفهوما مركزيا في قراءة «أرمسترونج» للتاريخ وهو امتلاك الثقافات ما قبل حداثية لطريقين اثنين - متكاملين ولاغنى عنهما للتفكير والتحدث والمعرفة - وهما الأساطير والرموز.

ترى «أرمسترونج» أن الأساطير تتعلق بالمعنى .. إنها تمد الناس بالسياق الذي يعطي معنى لحياتهم اليومية وتوجه انتباههم إلى الأبدي والكوني أما الرموز فهي تتعامل مع الأمور العملية . وتجادل أرمسترونج في أن المجتمع الغربي فقد حسه بالأساطير والرموز إذ تنازل الغرب عن سلطة الروايات الأسطورية والطقوس والمعاني الملحقة بهم لصالح كل ما هو عقلاني براجماتي علمي ولكن ذلك لم ينجح - في رأيها - في تخفيف الألم الإنساني ولم يستطع تقديم إجابة حول القيمة العليا للحياة الإنسانية.

انطلاقا من هذا الفهم قدمت«أرمسترونج» مفتاحا لفهم الحركات الأصولية ونشأتها ورأت أنه لا يوجد شيء خاص بصعود الأصولية في أجزاء من العالم الإسلامي، ووصفت الأصولية بأنها «رد فعل عالمي على إرهاق الحياة المعاصرة ولا سبيل لربطها بالعالم الإسلامي»، وبعيدا عن الرفض الشامل للحداثي لصالح القديم - الذي يبدو أكثر توازنا - ترى «أرمسترونج» أن الأصولية وليدة الحداثة وأن الأصوليين هم حداثيون بالأساس. ■

داليا يوسف

مؤلفات الكاتبة.. مرتبة زمنيا

Karen Armstrong, Bibliography

1. Through the Narrow Gate (1981), ISBN 0-333-31136-1
2. Beginning the World (1983), ISBN 0-333-35017-0
3. The First Christian: Saint Paul's Impact on Christianity (1983), ISBN 0-330-28161-5
4. Tongues of Fire: An Anthology of Religious and Poetic Experience (1985), ISBN 0-670-80878-4
5. The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West (1986), ISBN 0-241-11449-7
6. Holy War (1988), ISBN 0-333-44544-9
7. Muhammad: A Western Attempt to Understand Islam (1991), ISBN 0-575-05012-8
8. The English Mystics of the Fourteenth Century (1991), ISBN 1-85626-023-2
9. A History of God: From Abraham to the Present, the 4000 Year Quest for God (1993), ISBN 0-434-02456-2
10. The End of Silence: Women and the Priesthood (1993), ISBN 1-85702-145-2
11. In the Beginning: A New Interpretation of Genesis (1996), ISBN 0-00-628014-5
12. Jerusalem: One City, Three Faiths (1996), ISBN 0-00-255522-0
13. The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam (2000), ISBN 0-00-255523-9
14. Buddha (2000), ISBN 0-297-64625-7
15. Islam: A Short History (2000), ISBN 0-297-64372-X
16. Faith After September 11th (2002), ISBN 90-807191-1-0
17. The Spiral Staircase (2004), ISBN 0-00-712228-4
18. A Short History of Myth (2005), ISBN 1-84195-644-9
19. The Great Transformation: The World in the Time of Buddha, Socrates, Confucius and Jeremiah (2006), ISBN 1-903809-75-4
o published in the U.S. as The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions (2006), ISBN 0-375-41317-0

كارين أرمسترونج

Through the Narrow Gate
(عبر البوابة الضيقة)

Karen Armstrong
St. Martin's Griffin, 2005, 304PP, 13.95 $

السيرة الذاتية التى كتبتها «كارين آرمسترونج» عن حياتها بالدير الكاثوليكى كراهبة لسبع سنوات كاملة بدءا من سن السابعة عشرة؛ وقصة بحثها المستمر عن الله.

فى أوائل الستينيات وفى السابعة عشرة من عمرها، التحقت «كارين آرمسترونج» بدير كاثوليكى كراهبة بحثا عن الله وهروبا من الحياة المدنية، ولكنها بعد سبع سنوات أحست بأن تلك الحياة لا تستهويها، وشعرت بعدم إيجادها لله بعد.

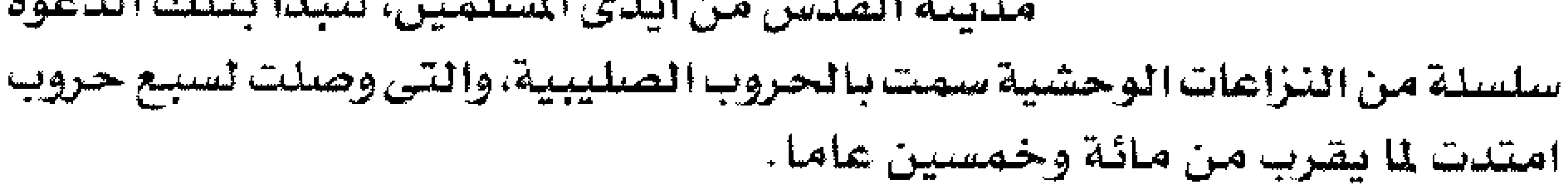
الكتاب يسرد تفاصيل حياتها داخل الدير، ومحاولاتها المستمرة فى البحث عن الله.

■

Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World
(الحرب المقدسة: الحملات الصليبية واثرها علي العالم اليوم)

Karen Armstrong
Anchor, 2001, 672PP, 17.00 $

فى نهاية القرن العاشر، دعا البابا «أوربان» المحاربين المسيحيين إلى نصرة الصليب ومحاربة العثمانيين الذين كانوا قد أحكموا سيطرتهم على شرق أوروبا، كما دعاهم إلى استعادة المدينة المقدسة، مدينة القدس من أيدى المسلمين، لتبدأ بتلك الدعوة



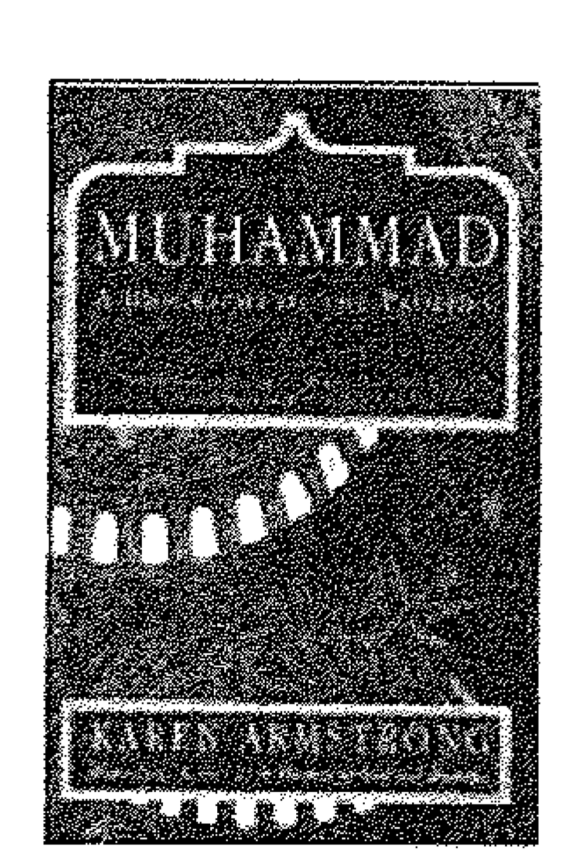
سلسلة من النزاعات الوحشية سمت بالحروب الصليبية، والتى وصلت لسبع حروب امتدت لما يقرب من مائة وخمسين عاما.

الحروب الصليبية كانت أول ما وحد الأوروبيين نحو عدو مشترك، وكانت بداية لظهور العنف الدينى الذى تطور بعد هذا ليصبح صراعا بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

الكاتبة تصل بتأثير الحروب الصليبية إلى العصر الحديث مؤكدة أن قيام الدولة الإسرائيلية والحرب على العراق ما هما إلا امتداد لتلك الحروب الصليبية التى رسخت معانى العنف الدينى.

■

Muhammad: A Biography of the Prophet
(محمد «صلي الله عليه وسلم»: سيرة نبي)



Karen Armstrong
Harper San Francisco, 1993, 288PP, 15.00 $

فى مسعى دقيق لفهم الإسلام ونبيه، ومحاولة لدحض الصور التى لصقت بالإسلام سواء أنه انتشر بحد السيف قديما، أو ارتباطه بالإرهاب حديثا، يأتى هذا الكتاب الذى يعرض السيرة الذاتية لمحمد (صلى الله عليه وسلم).

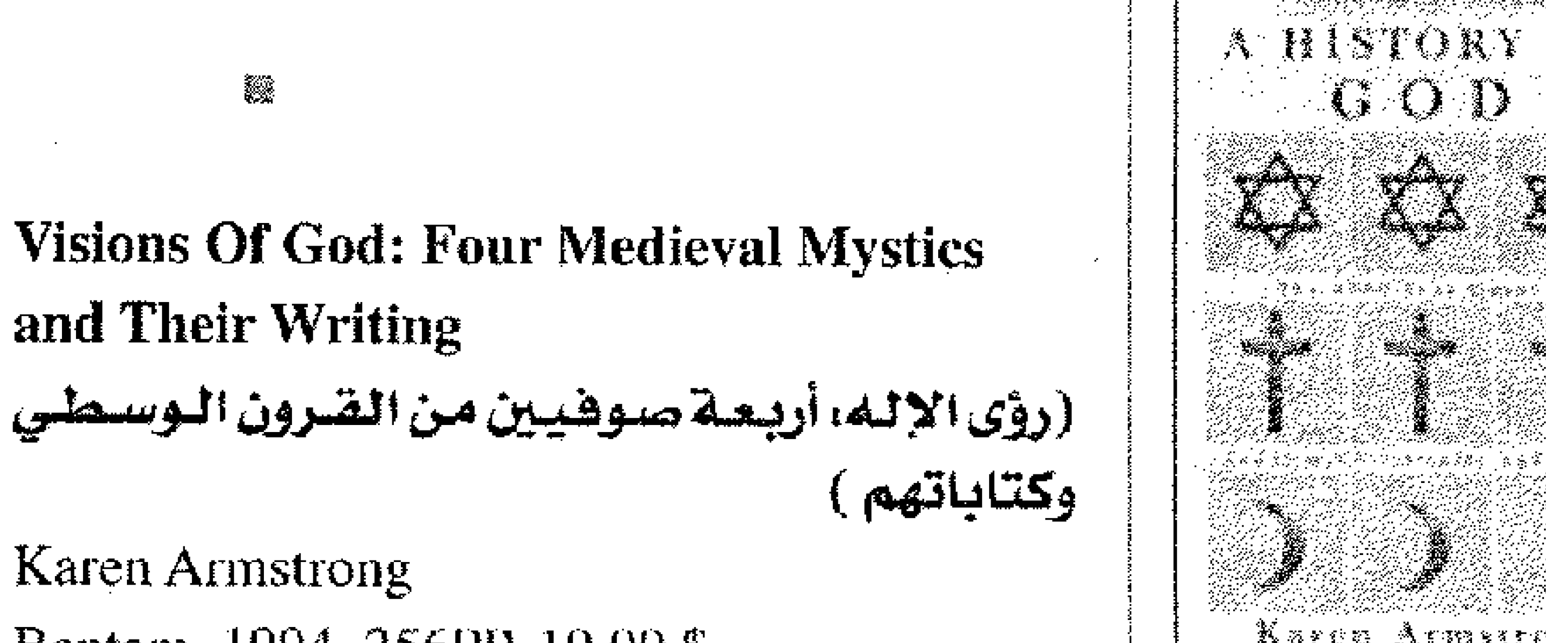
الكتاب موجه للقارئ الغربى، المحاط بالعديد من الأكاذيب حول الإسلام ونبيه، و«آرمسترونج» هنا تحاول الوصول بالقارئ إلى الحقيقة وإلقاء الضوء على حقيقة الإسلام كدين توحيدى يتفق عليه ما يقرب من مليار شخص حول العالم.

تؤكد الكاتبة أن الإسلام دين سمح يدعو إلى السلام ولم ينتشر بحد السيف كما يقال عليه، كما تؤكد على ضرورة فهم الطبيعة القبلية التى ظهر فيها الإسلام

كارين أرمسترونج

قبل الحكم على تصرفات نبيه بالبربرية، وتهاجم الكاتبة كتاب «سلمان رشدي» آيات شيطانية مؤكدة أن إنكار الإسلام يعتبر عنادا لا مبرر له.

تتعرض أيضا الكاتبة إلى مفهوم الجهاد في الإسلام، الذي تعرض أيضا بدوره إلى اللغط الشديد، وتعرفه الكاتبة بأنه واجب كل مسلم أن يكافح من أجل مجتمع محترم وعادل.



History of God: The 4,000-Year Quest of A Judaism, Christianity and Islam

(تاريخ الله: ٤٠٠٠ عام من البحث، اليهودية والمسيحية والإسلام)

Karen Armstrong

Ballantine Books, 1994, 496PP, 15.95 $

بالرغم من تركها لحياة الراهبات في آخر الستينيات، إلا أن شغفها بالدين لم يهدأ، في كتابها (تاريخ الله) تحكي لنا «أرمسترونج» قصة ٤٠٠٠ سنة من التوحيد، وتؤرخ مساعي البحث عن الله التي بدأت باليهودية وانتهت بالإسلام.

ما طبيعة الله؟، ما صفاته؟، أين هو؟، محاولات عديدة لإيجاد إجابات أرسطو وأفلاطون، مفكرين وحاخامات يهود، فلاسفة مثل ديكارت وهيغل وكانط، علماء مسلمون ابن سينا والفارابي والأشعري والحلاج، وصولا إلى الأفغاني ومحمد عبده.

بحث روحاني مدهش في ماضينا، وتأريخ جديد لإدراك الإنسان وجود إله واحد، وتحليل للأديان الثلاثة التوحيدية، والترابط بينهم في فكرة التوحيد، ودراسة مقارنة بينهم.

In the Beginning: A New Interpretation of Genesis

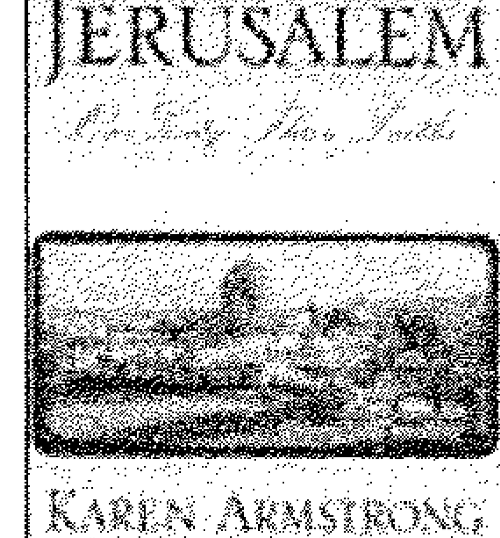
(في البداية: تفسير جديد لسفر التكوين)

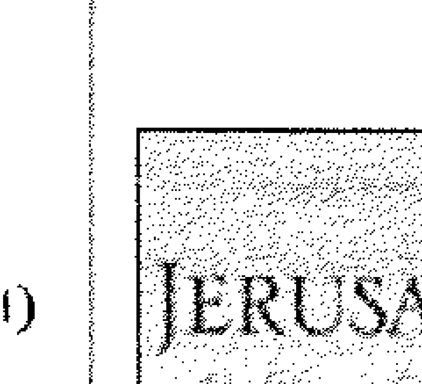
Karen Armstrong

Ballantine Books, 1997, 208PP, 14.00 $

سفر التكوين هو أول أسفار التوراة، وهو يتحدث عن كيفية خلق الله للكون والإنسان، واختيار الله للنبي نوح لينقذ البشرية من الطوفان، ثم قصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وصولا إلى قصة يوسف ووصوله إلى أرض مصر لينتهي السفر بوفاة يوسف.

الكتاب يقدم قراءة جديدة مثيرة للجدل لسفر التكوين، وتفسيرا مختلفا له.





Jerusalem: One City, Three Faiths

(القدس: مدينة واحدة وثلاث عقائد)

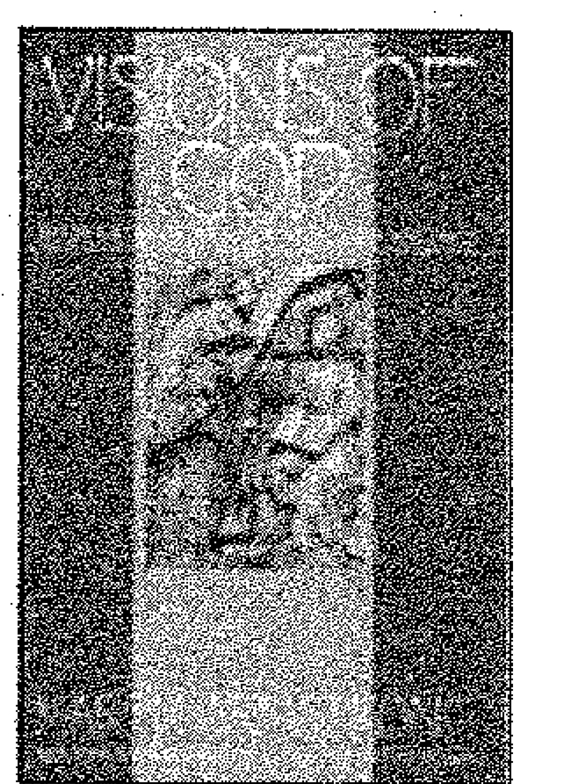
Karen Armstrong

Ballantine Books, 1997, 512PP, 17.95 $

الكتاب يدور حول تاريخ القدس، تلك المدينة المقدسة التي قدستها الأديان السماوية الثلاثة، واعتبرتها مكانا للعبادة، عبر طريق من أربعة آلاف عام، تقودنا «أرمسترونج» في رحلة عبر تاريخ القدس، من عهد الأسر البابلي، وهدم المعبد اليهودي، والاحتلال الروماني، مرورا بالفتح الإسلامي، والحملات الصليبية، ثم العهد العثماني، وصولا إلى قيام الدولة الإسرائيلية، والصراع العربي الإسرائيلي الحالي.

للقدس تاريخ دام لا تنافسها فيه أي مدينة أخرى، فهناك أنهار من دماء أريقت في سبيلها، وتفسر الكاتبة هذا بأن الفاتحين كانوا دوما لا يعترفون بأحقية أسلافهم في المدينة المقدسة، ويعتبرونها مدينتهم فقط، مما يعتبر فشلا في تطبيق مبادئ المحبة والسلام التي نادت بها وقامت عليها الأديان الثلاثة.

الكتاب أكثر من ساحر، ومليء بالمعلومات التاريخية المذهلة عن تاريخ المدينة المقدسة.



Visions Of God: Four Medieval Mystics and Their Writing

(رؤى الإله، أربعة صوفيين من القرون الوسطى وكتاباتهم)

Karen Armstrong

Bantam, 1994, 256PP, 19.00 $

يتضمن هذا الكتاب مختارات من كتابات أربعة متصوفين إنجليز من القرن الرابع عشر (ريتشارد رول، والتر هيلتون، وجوليان النرويتشية، وكاتب مجهول).

الكتاب يتضمن تعليقات لكارين آرمسترونج توضح فيها خلفيات تاريخية حول تلك الحقبة وآراء شخصية لها حول تلك الكتابات.

الكتابات تجربة روحية فريدة تغوص داخل النفس البشرية الباحثة عن الإيمان، لذا شبهت «أرمسترونج» الكتاب الأربعة برواد الفضاء الذين اقتحموا دينا جديدا، ليصلوا إلى الله وإلى أعماق النفس البشرية.

Short History of Myth A

(مختصر تاريخ الأسطورة)

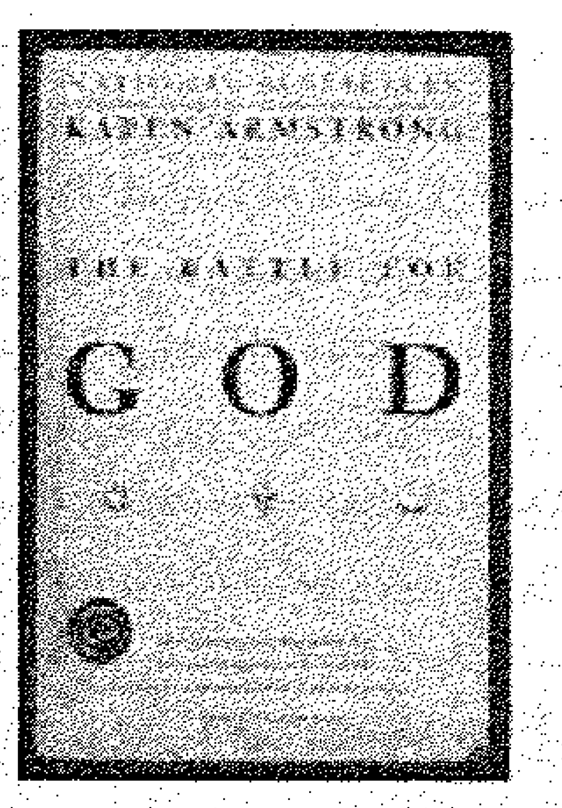
Karen Armstrong

Canongate U.S., 2006, 176PP, 12.00 $

الأساطير تجسد التاريخ والتراث الإنساني، وفي هذا الكتاب تتعرض «كارين آرمسترونج» لعلم الأساطير، ساردة التطور الذي طرأ على الأساطير، وبخاصة في الخمسة قرون الأخيرة التي شهدت التطور العلمي الرهيب.

ترى الكاتبة أن تأريخ الأسطورة هو تأريخ للإنسانية، فالأساطير ما هي إلا قصص ومعتقدات إنسانية، ومحاولات لفهم العالم والكون.

الكتاب يستعرض العديد من الأساطير الأكثر شهرة بالعالم، محللا أسباب ظهورها، وارتباطاتها الدينية المختلفة، وجوانبها الروحية والتثقيفية المختلفة.



The Battle for God

(الحرب من أجل الرب)

Karen Armstrong

Ballantine Books, 2001, 480PP, 14.95 $

في عالم علماني يُحكم بالتكنولوجيا والمنطق، ظهرت الأصولية كقوة ساحقة في كل دين في العالم، فلماذا؟، إجابة هذا السؤال هو ما يدور حوله هذا الكتاب (الحرب من أجل الرب)، موضحا أسباب انتشار الفدائية والعنف الديني كظاهرة انتشرت في تلك الأيام.

الكاتبة ترى أن الأصولية ليست كما يعتقد الأغلبية، ارتدادا إلى الشكل القديم للدين، لكنها بالأحرى رد فعل طبيعى على الأزمة الروحية التى نعيشها فى العالم الحديث، فانهيار التقوى إبان عصر النهضة جعل أصحاب الإيمان يتشبثون بأى طريقة للتدين، مما أدى إلى ظهور الأصولية.

فى كتابها، تركز «أرمسترونج» على ثلاثة نماذج للأصولية تتبع الثلاثة أديان الرئيسية، البروتستانتية فى أمريكا، والأصولية اليهودية فى إسرائيل، والأصولية الإسلامية السنية فى مصر والشيعية فى إيران، مستكشفة كيف تطورت كل منها لتنتج طريقتها الفريدة لمحاربة الحداثة.

Buddha

(بـــــوذا)

Karen Armstrong

Penguin, 2004, 240PP, 13.00 $

الكتب عن البوذية كثيرة جدا، وعلى الرغم من هذا ظلت سيرة بوذا نفسه غامضة بالرغم من تأثيره المستمر لخمسة وعشرين قرنا، «أرمسترونج» تقلب فى الكتب المقدسة البوذية القديمة، والسير الذاتية القديمة، لتجمع تلك السيرة الذاتية الغنية عن بوذا.

فى سن التاسعة والعشرين، انضم السيد «سيدهارثا غاوتاما» إلى مجموعة من الرهبان الباحثين عن التنوير الروحى، وترك منزلة وحياته ليعيش فى زهد وتقشف، باحثا عن حقيقة الكون وعن الروح، ثم ممضيا ٤٥ عاما فى الدعوة وتعليم الناس الوصول إلى الروحانية.

توفى بوذا فى سن الثمانين تاركا عددا قليلا من الأتباع، ولكنه بمرور الزمن يزداد عدد أتباع البوذية لتظل كديانة عالمية يدين بها الكثيرون.

The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions

(التحول العظيم، بداية تعاليمنا الدينية)

Karen Armstrong

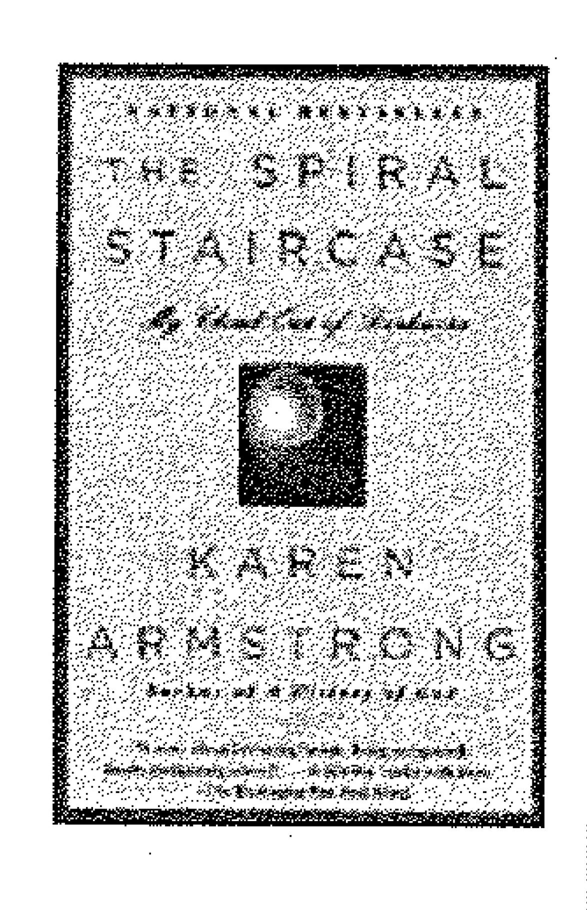
Knopf, 2006, 496PP, 30.00 $

فى (التحول العظيم) تتعرض (أرمسترونج) لفترة عرفت بالعنف والحروب، كما كانت أيضا بداية لتحول دينى عظيم فى تاريخ البشرية، سبعة قرون كاملة استمرت من القرن التاسع إلى القرن الثانى قبل الميلاد.

فى تلك الفترة، نبذا للعنف ومحاولة لإنهاء قرون من الحروب، ظهرت أربعة اتجاهات مختلفة حول العالم، فكانت اليهودية فى الشرق الأوسط، والهندوسية والبوذية فى الهند، والكونفوشيوسية فى الصين، والمذاهب الفلسفية باليونان.

أربع مناطق مختلفة ظهرت بها تعاليم متشابهة تدعو إلى نبذ العنف وإلى الحب والإنسانية مما يؤكد الاتجاه الروحى الفطرى للجنس البشرى.

الكتاب يستعرض كيف خلقت الظروف المحيطة بالإنسان الفلسفات والأديان التى اشتركت بنفس المخاوف ومن ثم التعليمات، ويسرد تطور الأربعة اتجاهات كل على حدة والترابط والتشابه بينهم، فى محاولة لفهم الفترة التى شهدت بداية التحول الدينى العظيم فى التاريخ البشرى.



The Spiral Staircase: My Climb Out of Darkness

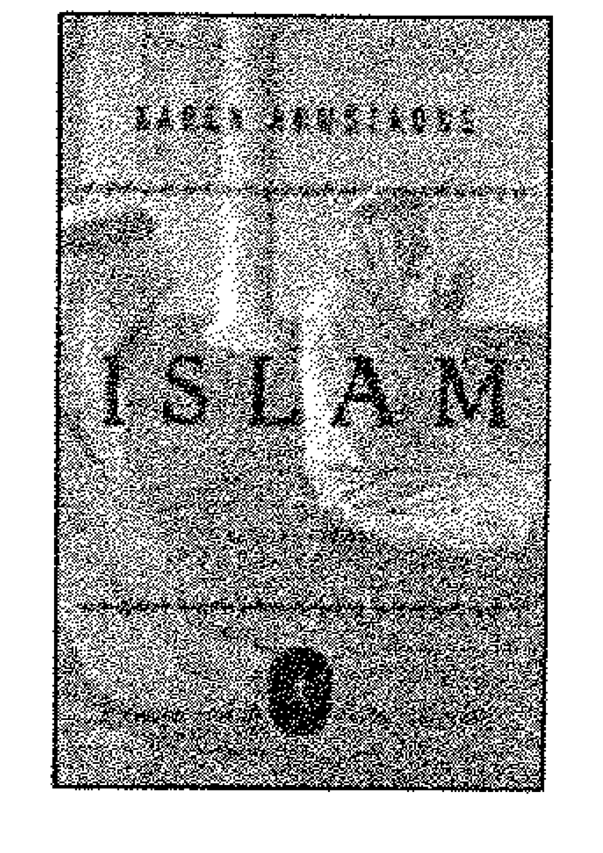
(السلم الحلزوني، خروجي من الظلمة)

Karen Armstrong

Anchor, 2005, 336PP, 14.00 $

سيرة ذاتية أخرى لكارين أرمسترونج، فبعد كتابها الأول (عبر البوابة الضيقة) التى سردت فيه تجربتها فى الدير وأيامها الأولى بعد خروجها منه، يأتى هذا الكتاب ليسرد بتفاصيل أكثر حياتها بعد خروجها من الدير حتى لحظة كتابة الكتاب، تتويج لخبراتها وكتاباتها.

الكاتبة تحكى عن مرضها الذى لازمها دون أن تجد له تشخيصا لما يقرب من سبع سنوات، وما عانته خلال تلك السنوات، إلى أن شخص مرضها بالصرع عام ١٩٧٦. تحكى أيضا الكاتبة عن اهتمامها وشغفها بالأديان، وقصة نموها الروحى، الذى اكتسبته من الدير ثم من انغماسها فى الأديان.



Islam: A Short History

(الإسلام، تاريخ موجز)

Karen Armstrong

Modern Library, 2000, 272PP, 19.95 $

مسح سريع وشامل لما يقرب من ألف وخمسمائة عام هى تاريخ الإسلام، أكثر الأديان تعرضا للأقاويل وإساءة الفهم، تبدأ الكاتبة فى التعرض بموضوعية إلى السيرة النبوية، وأيام الإسلام الأولى التى شهدت محاولات عديدة لقتله فى مهده من قريش والقبائل العربية، ثم تنتقل الكاتبة إلى الهجرة إلى المدينة والظروف التى أحاطت بها، ثم الغزوات والحروب الإسلامية المختلفة وأخيرا حجة الوداع ووفاة الرسول، لترسم «أرمسترونج» صورة حقيقية لبداية الإسلام. تنتقل الكاتبة إلى عصور الإسلام الأولى وبدايات انتشار الإسلام فى شمال أفريقيا وآسيا، وهو أيضا ما صاحبه بدايات الانشقاق بين المسلمين إلى فرق سنية وشيعية، وظهور الصوفية، ثم المخاوف الأوروبية من الإسلام التى تبعت بالحملات الصليبية، منتقلة بعد هذا إلى عصور ازدهار الإمبراطورية الإسلامية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

تختم «أرمسترونج» كتابها بتقييم للإسلام اليوم وعرض لتحدياته.

Muhammad: A Prophet for Our Time

(محمد، نبي هذا الزمان)

Karen Armstrong

Eminent Lives, 2006, 256PP, 21.95 $

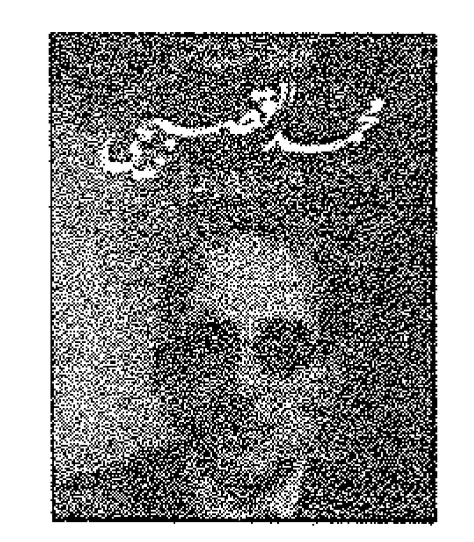
السيرة الذاتية الثانية التى تكتبها «كارين أرمسترونج» حول نبى الله محمد (صلى الله عليه وسلم)، بعد كتابها الأول (محمد: سيرة نبى)، على حد تعبير «أرمسترونج» فمحمد هو النبى الذى ترك لأتباعه مهمة خلق مجتمع عادل، يعامل كل أفراده بالمساواة، كما تصرف هو أثناء حياته، فمحمد وعلى الرغم من الطبيعة البدوية الصارمة التى ولد وعاش فيها، إلا أنه أبدى تسامحا محمودا تجاه اليهود والمسيحيين. تطرق الكاتبة أيضا لموضوع تعدد زوجات الرسول، وهى تفسر هذا بكونه قائداً كان يعيش فى مجتمع تقام فيه التحالفات عن طريق المصاهرة.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

محمد القصبجى

رتيبة الحفنى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٠٠ صفحة



بحسب رغبة والده، فقد كان مقدراً للفنان محمد القصبجى (١٨٩٢ - ١٩٦٦) أن يكون فقيهاً أو عالماً أزهرياً، وقد كان والده متشدداً دينياً وقارئاً للقرآن الكريم، لكن رغبة الأمر التى أرادت لولدها أن يكون «أفندياً» هى التى انتصرت فى النهاية، دعمتها ميول الطفل نفسه الذى نشأ موهوباً، يعشق الموسيقى والغناء.

ولم يجد أبوه بداً من تشجيعه على هوايته التى ملكت عليه نفسه، واصطحبه مرات لسماع الشيخ سلامة حجازى الذى كان المدرسة التى تلقى فيها القصبجى أصول الغناء فى مرحلة مبكرة من حياته، لكنه مع ذلك واصل مسيرته فى مدرسة المعلمين، وبعد ما حصل على الشهادة وحانت لحظة التعيين، (ادعى الفتى أن بصره ضعيف للغاية فاستبعدوه)، ليخلع للأبد العمامة والقفطان ويبدأ مرحلة جديدة من حياته بدءاً من العام ١٩١٧ ومن شارع محمد على بدأ مسيرته الفنية عازفاً على العود خلف هذه العالمة أو تلك: نعيمة شخلع، زوبة الكمسارية، عزيزة كهربة، وغيرهن.

وشيئاً فشيئاً اتجه للتلحين، الذى كان يعانى فى هذه المرحلة المبكرة حالة من الإسفاف والترف، حتى أن القصبجى نفسه لحن للشيخ يونس القاضى - الذى كان فارس هذا اللون من الأغانى الإباحية آنذاك - تلك الأغنية التى تقول كلماتها: بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة/ انس اللى فات/ وتعالى بات/ ليلة التلات.. إلخ.

لكن القصبجى سرعان ما ابتعد عن هذا الطريق، وبدأت لقاءاته تتعدد بكبار الملحنين والمطربين، وتغنت بألحانه المطربة فتحية أحمد التى كانت منافسا قوياً لأم كلثوم، كما غنت له منيرة المهدية التى عرفت بسلطانة الطرب، وبعدها تعرف على داود حسنى، ثم بصوت عبدالوهاب ومن بعده أم كلثوم، وكانت انطلاقته الكبرى فى المسرح الغنائى، أما انطلاقته الأكبر، فكانت مع صوت أم كلثوم وكلمات أحمد رامى بدءاً من العام ١٩٢٤، وكان آخر ما غنت أم كلثوم من ألحانه أغنية «رق الحبيب» التى مثلت نقلة نوعية مهمة فى مسيرتها، وبعدها توقفت أم كلثوم عن قبول ألحانه وهو ما أصابه بعقدة نفسية جعلته يتوارى، مكتفيا بدوره عازفا على العود ضمن فرقتها الموسيقية ليحافظ على مورد رزقه الوحيد.

وقد كانت الأيام الأخيرة من حياة القصبجى أيام كد وشقاء، فقد تجاهله الإعلام وانصرف عنه المعجبون، وعانى من عدم الاعتراف به كملحن، وتوفى وحيداً إثر أزمة قلبية.

سيرة القصبجى ومسيرته وأعماله الفنية تحكيها المؤلفة تحت عنوان «الموسيقى العاشق».

الجماعة الإسلامية المسلحة فى مصر ١٩٧٤ - ٢٠٠٤

سلوى محمد العوا

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٢٤٦صفحة



يمثل هذا الكتاب أول دراسة علمية فى تاريخ الجماعة الإسلامية فى مصر، وقد بنى على رواية الأحداث عن ستة من قادة الجماعة، من أعضاء مجلس شوراها وقادة جناحها العسكرى السابقين، الذين كانوا فى المعتقلات والسجون حتى وقت قريب، كما أنه يستند إلى روايات يكشف عنها النقاب للمرة الأولى، لرجال الأمن السابقين الذين اشتركوا فى المواجهات مع الجماعة فى مراحل الأحداث المختلفة تخطيطاً وتنفيذاً، إلى أن صدرت عن الجماعة مبادرة وقف العنف.

كما أنه يقوم كذلك على شهادات ومعلومات أدلى بها عدد من السياسيين والإعلاميين والصحفيين والمحامين ورجال القضاء، الذين عاصروا تلك الأحداث بحكم اهتمامهم أو عملهم، أو بحكم صلاتهم الشخصية بقيادات الجماعة، أو عضويتهم السابقة فيها أو فى تنظيمات العنف الأخرى.

وبينت الدراسة أن كلا من الطرفين كان ظالماً وضحية فى الوقت نفسه، وأن هذين العقدين من التطاحن لم يسفرا عن انتصار لأحد، وإنما عن خسائر لا يمكن تعويضها، وإن كان ثمة مكسب وحيد من هذا التاريخ الأليم، فهو ما تشير إليه المؤلفة بأن «النتائج السلبية»، وبعبارة أخرى، فإن نتائج الدراسات أشارت إلى أن أكثر عمليات القتل والقتال التى قامت بها الجماعة الإسلامية فى مصر فى الثمانينيات والتسعينيات لم تكن جهاداً فى سبيل إقامة دولة إسلامية، بقدر ما كانت سجالاً مع عدو سياسى بدا الانتصار عليه فى وقت ما هدفاً مسيطراً على توجهات أفراد الجماعة، وفى الخلاصة تقول المؤلفة إن الجانب الأكبر من تاريخ الجماعة الإسلامية قد تحكمت فيه المصادفات التى تغلب فيها سوء الحظ على دقة التخطيط، والفكرة الفردية العشوائية على الإرادة الجماعية المحسوبة، وتضيف: ولا تعنى مفارقة الأحداث للشرع على هذا النحو إدانة أشخاص لم يكونوا على دراية كافية بالشرع الذى اعتبروا أنهم ممثلوه، بل تعنى تبرئة الشرع - حتى بفهمهم الخاطئ له - من هذا التاريخ الأليم.

قضايا وطنية

حماد عبدالله حماد

القاهرة: مؤسسة روزاليوسف، ٢٠٠٦، ٤٥٦صفحة



يضم الكتاب عشرات المقالات والدراسات التى نشرها المؤلف فى صحيفة روزاليوسف اليومية، وتتضمن تعليقاته ووجهة نظره فى موضوعات عدة سياسية وعامة، من تعديلات الدستور إلى تعديل المادة ٧٦ الخاصة بالاقتراع على رئاسة الجمهورية، إلى الفساد، إلى الإعلام وبرامج التليفزيون، وغيرها من الموضوعات التى ينشغل بها الناس فى شأنهم اليومى.

وهذه الكتابات وإن فقد بعضها أهميته لارتباطه بحدث آنى أو بقرارات حكومية أو رئاسية صدرت فى حينها واستوجبت من صاحبها - كاتب العمود - أن يعلق عليها فى حينه، إلا أنها من ناحية أخرى تبقى سجلاً مع كاتبها أو ضده، والملاحظة الأساسية التى ربما اكتشفها من تابعوا مقالات المؤلف فى الصحيفة، أو قرأوها مجمعة فى الكتاب، هى أن المؤلف لا يترك مجالاً للمناورة أو أنصاف الحلول، فهو يشتبك مع كل القضايا على طريقة الأبيض والأسود، بوجهة نظر واضحة محددة لا تترك مجالاً للتوهمات، وهو أسلوب قد يرضى كثيرين من القراء، لكنه ربما أكسب صاحبه كثيراً من العداوات.

أرتيست

هاديا سعيد

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٦، ٣٥٨صفحة



تحمل هذه الرواية الكثير من التأويل والتكهنات، من هى الفنانة سلمى حسن التى تدور فصول الرواية جميعها حولها، هل يمكن أن تكون هى نفسها الفنانة الراحلة سعاد حسنى التى لايزال لغز موتها محيراً ومدوخاً.

لا تبوح الرواية بتفاصيل كثيرة عن نسب سلمى حسن، ثمة أوجه شبه كثيرة بين سيرة سلمى حسن وسعاد حسنى، ولكن الرواية تصر على إبقاء الاحتمالات كلها مفتوحة، وتبقى هويتها الأصلية عرضة لكثير من الجدل، وتكتفى فقط، بتقصى بوليسى عن لغز موتها.

هل هى ماتت حقاً، أم انتحرت، أم ربما دفعت إلى موت ظل غامضاً بما يشبه حالة غريبة بين موت طبيعى وقتل غامض، ثم تستحضر الرواية بأسلوب بوليسى شخصية أخرى تسميها Miss X، وهى شخصية غامضة أيضاً وجدلية، ربما تكون صحفية، ولكنها تمثل كثيراً من الخفايا والأسرار عن حياة الفنانة الغامضة سلمى حسن، ربما تساعد على معرفة لغز موتها، كما لغز حياتها نفسها. ومع ذلك فإن المؤلفة تثبت فى مقدمة الرواية أن شخصياتها درامية، وأن أى تطابق بينها وبين شخصيات حقيقية هو صدفة، دون أن تنفى إضافة أسماء شخصيات أدبية وفنية حقيقية إلى بعض أحداث الرواية، لإضفاء لمسة من الواقعية على الأحداث، وإن كانت المشاهد التى ظهرت فيها تلك الشخصيات خيالية تماماً.

تنظيم وإدارة النقل

سعد الدين عشماوى

القاهرة: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٦، ٤٠٠ صفحة

يناقش الكتاب بأسلوب علمى

واستناداً إلى خبرة عملية تتجاوز الأربعين عاماً واحدة من المشكلات المعقدة التى تواجه المجتمع المصرى والعربى، خصوصاً مع الكثافة السكانية المتزايدة، والحاجة إلى إحداث تنمية متسارعة يحتل النقل فيها موقعاً مهماً إن لم يكن الأهم على الإطلاق.

يتألف الكتاب من تسعة فصول وخاتمة، تناقش عدداً من العناوين المهمة: النقل والتطور الاقتصادى والاجتماعى، مقومات صناعة النقل وخصائصها، تخطيط وتنظيم النقل، تشغيل النقل والرقابة على الإيراد، تسعير وتسويق النقل، تكاليف وإحصاءات النقل، النقل وظيفة بالمنشأة، النقل والموقع الاقتصادى للمنشأة، تنظيم النقل داخل المدن.

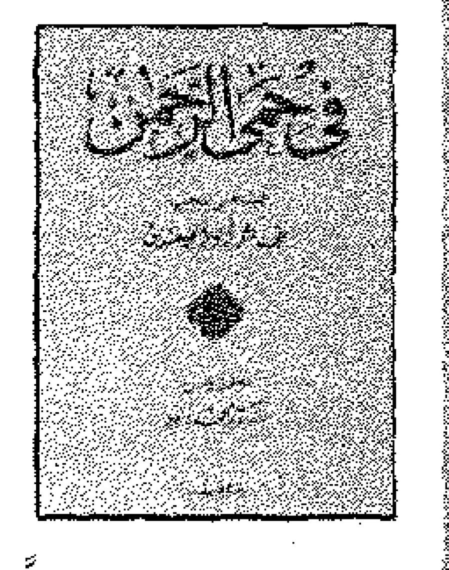
والميزة الأساسية للكاتب أنه يناقش قضايا النقل والمرور على مستوى تطبيقى، أى أنه يقترح الحلول من واقع المشكلات اليومية التى يواجهها الناس فى تعاملهم مع قطاع النقل والمرور، فهو يتحدث مثلاً عن أنسب الأماكن لتوطين الأجهزة الحكومية المركزية والإدارات العليا للمنشأة، ويستعرض خدمات النقل العام من حيث الكم والمستوى، ويقترح أساليب حديثة لتنظيم حركة المرور، ويعرض لحوادث المرور وتكلفتها الاقتصادية، وتأثير وحدات النقل العام على تدفقات المرور، وتجربة تملك الأجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات لوسائل النقل الجماعى، وكذلك تجربة الميكروباص فى شوارع العاصمة، وكيفية تطوير أداء مترو الأنفاق فى إطار خطة متكاملة.

وجميعها موضوعات يعايشها ويعانى منها المواطن بشكل يومى.

فى حمى الرحمن (شعر)

خالد أبو العينين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٤٧٢صفحة



ينتمى هذا المؤلف إلى الفكر الصوفى وما عرف بأدب المدائح النبوية، ذلك الباب الذى يحفظ أسماء من نوعية ابن الفارض (سلطان العاشقين) وأمير الشعراء أحمد شوقى والإمام البوصيرى وغيرهم كثيرون.

والتجربة الشعرية للشاعر لا تنفصل عن التجربة الصوفية، وكل شعره يدور حول معانى الحب لله والشوق إلى لقائه، ومديح النبى صلى الله عليه وسلم، وتأملات فى فيوضات الرحمن وحبه لعباده ورحمته بهم.

ففى الحب الإلهى كتب الشاعر قصائد متعددة تراوحت بين المقطوعات القصيرة والقصائد بالغة الطول التى تقترب من الملاحم، وأما القسم الخاص بالمدائح النبوية ومدح آل البيت فيضم أطول قصائد الديوان، وربما أطول قصائد الشعر العربى وهى قصيدة مدينة النور، وهى ملحمة شعرية تسجل لمحات من حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهى سجل حافل بالحب والانتماء لسيد الخلق سيدنا محمد، وتأريخ شعرى جميل لسيرته الشريفة. يقول الشاعر مثلاً فى مدح السيدة نفيسة:

أتيت أسعى لباب الحب مرتشفاً
من النفيسة إحساناً وإنعاما
فقد عشقت مدى الأيام موردها
فهى النفيسة تغذو القلب ما راما
حظيت من جدك المختار منزلة
فأنت منه ورثت العلم إلهاما
ونلت من ربك الفتاح منته
فكنت رحمة من سواك وسلاما

النسب والقرابة فى المجتمع العربى قبل الإسلام

محمد سعيد

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٦، ٦٢٢صفحة



هذه الدراسة فى الأصل هى أطروحة دكتوراة فى التاريخ جرت مناقشتها فى ٢٠٠٤ فى كلية العلوم الإنسانية بتونس، وهى تعنى بأدب الأنساب، وارتباط فكرة الأنساب والقرابة، بعديد من الظواهر السياسية والاجتماعية التى شكلت مجتمع ما قبل البعثة النبوية، حيث يشير المؤلف إلى أن الرواة فى مراحل مختلفة، حدثوا عن تاريخ المرحلة الجاهلية انطلاقاً من وقائع حادثة حملتها الذاكرة ودخلت دائرة الأدب المكتوب.. «ويبقى الوصول إلى تلك المضامين رهن إعادة الرواية لسياقها البيانى الأصلى داخل دائرة أدب كانت له جملة من الوظائف التمجيدية والسياسية والعقائدية».

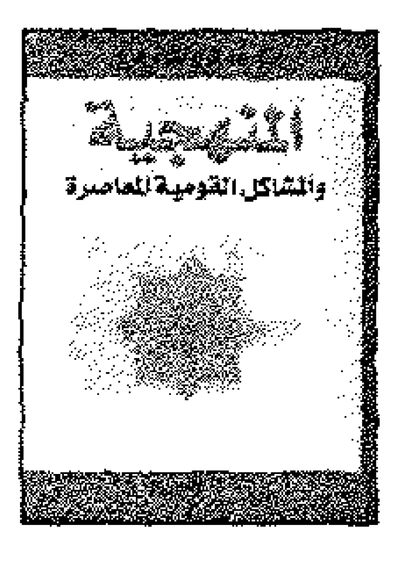
وفى المستوى التاريخى كشفت الدراسة عن جوانب مهمة، فعناصر الشرعية التاريخية كلها كانت فى مرحلة أولى لجانب هاشم وبنى هاشم، هم الذين أسسوا التجارة وهم الذين خدموا البيت، وإليهم ينتمى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بقيت هذه الحجج متداولة حتى أزمنة متأخرة (مفهوم آل البيت)، ولم يكن بإمكان العشائر القرشية أن تشكك فى هذه العناصر، وكل ما يمكن تصوره أنه فى مرحلة تالية، قد تكون العصر الأموى، وبعد أن رسخت فكرة أن التجارة كانت الأصل والمنشأ، وكل ما يمكن إضافته للتاريخ التأسيسى الأصلى هو التأكيد على دور العشائر المكية فى التجارة القديمة، وهكذا حضرت عائلات وغابت أخرى، أدمجت بعض العائلات التى دخلت فى دائرة القرابة والتجارة مع بنى هاشم، لكن من بين هذه العائلات ذكرت بنى عبدالمطلب وأهملت بنى أسد بن عبدالعزى وبنى زهرة، كما ذكرت بعض العائلات التى نمت ثروتها بفعل التجارة مثل بنى عبد شمس، فيما أهملت أخرى مثل بنى مخزوم وبنى تيم.

ويشير المؤلف إلى أنه بعد ترسخ الإسلام وتحوله إلى ثقافة عالمية، لم يعد المتلقى يعى المضامين من زاوية أنها إخبار عن التاريخ، بقدر ما يعيها على أنها إخبار ثقافى عام يمهد لمحورية العقيدة، ولهذا ساندت الرواية أصالة الإسلام من خلال المحافظة على محورية مكة، أما مغزى الإخبار عن التجارة الجاهلية أمام الوعى الدينى المتأخر، فقد انحصر فى التدليل على سعى عرب الجاهلية للمال وعبادتهم للدنيا وحيدهم عن شريعة الحق الإلهى، وقد يكون فى هذا الوعى ما دفع بشكل مستمر إلى تبرئة هاشم من خلال التذكير بدوره فى خدمة الحرم.

المنهجية والمشاكل القومية المعاصرة

أحمد فرج أحمد فرج

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٦، ١٦٣صفحة



لماذا تخلفنا وتقدمت دول بدأت معنا وربما بعدنا بسنوات مشاريع نهضتها، كيف صارت التجربة اليابانية والكورية أو حتى الماليزية نموذجاً نتمنى لو اقتفينا أثره دون أن نجد لذلك سبيلاً؟

الاجتهاد الذى يقدمه المؤلف هنا هو ما يسميه ثورة ثقافية منهجية، تعتمد أساساً على العلم وتنظيم الخدمات والأداء، بدلاً من العشوائيات فى الأداء العام والخاص، ولا يدعى أن فكرة المنهجية ابتكار خاص به، وإنما وجدت عند كثيرين من مفكرى السلف والمعاصرين، فى الأمور الدينية والدنيوية، لكنهم طرحوها للخاصة والمتخصصين، وكتبت بأسلوب علمى أكاديمى معقد، وما ينادى به المؤلف هو تبسيط المنهجية وجعلها فى متناول الأفراد العاديين، ولهذا السبب يقترح عدداً من المشروعات القومية ويطبق عليها رؤيته الجديدة فى المنهجية، ويبدأ بمشروع لإنشاء منظمة عربية للبحث العلمى والتكنولوجيا، حيث يستعرض أهدافه والكيفية التى تعمل بها المنظمة، ويقترح مصادر لتمويلها من حكومات ومنظمات أهلية، ويرفق دراسته بجداول علمية عن العاملين فى مجالات البحث العلمى والتكنولوجى فى دول العالم ونسب الإنفاق على البحث العلمى من الناتج المحلى الإجمالى.. إلخ.

فى الباب الثانى يطبق المنهجية على التعليم وارتباطه بالتنمية البشرية: محدداً المناهج المطلوب دراستها وسبل تقييم الطالب والمعلم، وكيفية الارتقاء بالمستوى التعليمى فى عمومه: ويخصص الباب الثالث للكيفية التى يمكن بها علاج مشاكل الخدمات الصحية فى مصر استناداً أيضاً إلى أسلوب المنهجية باعتباره أستاذاً للجراحة العامة فى طب قصر العينى بجامعة القاهرة، وهو يبدأ بتقييم النظام الصحى استناداً إلى دراسات وبيانات إحصائية معتمدة: ويعرض لنقائص كفاءة الإدارة والتمويل وتوظيف القوى البشرية، كما يقدم مشروعاً لتفعيل المجلس الأعلى للشئون الصحية، ويقدم فى الباب الرابع مشروعاً لتطبيق المنهجية فيما يتعلق بتجديد الخطاب الدينى الذى يراه واحداً من القضايا الشائكة.

الوصايا فى عشق النساء

أحمد الشهاوى

القاهرة: المكتب المصرى للمطبوعات، ٢٠٠٦، ١٧٠صفحة



هذا الكتاب هو الثانى الذى يحمل العنوان ذاته «الوصايا فى عشق النساء» وهو عبارة عن تأملات فى العشق مستلهمة من خبرات صوفية، ويستوفى النص دلالاته عبر التشكيل بالموروث، والعشق فى هذه الوصايا مبنى على مفهوم الحب الذى غايته الوصول إلى رضا المحبوب حتى يكشف للمحب الحجب التى تحول دونه ودون رؤية وجه المحبوب، فإذا انكشفت الحجب تحققت الرؤى، والعشق هنا هو الوجه الآخر للمعرفة والإدراك، معرفة الأنا على المعنى الباطن للوجود كله، وهو انفتاح مرهون بالقدرة على التواصل بين الأنا والكون الذى هى جزء منه.

وبشكل عام فإن أهمية الوصايا كما عبرت عن ذلك كتابات نقدية عديدة تناولت الجزء الأول منها، تأتى من سعيها إلى تعديل العلاقة التراثية بين الرجل والمرأة، حيث كان الرجل هو العاشق دائماً، والمرأة هى المعشوقة دائماً، وهو ما يعنى أن الرجل هو المتن والمرأة هى الهامش، والتعديل الذى قدمته الوصايا جعل المرأة

هى المتن بوصفها العاشقة، والرجل هو الهامش بوصفه المعشوق، وهناك حرص مبدئى على إيجاد شراكة فى العشق تجمع الطرفين على سبيل التوحد، وقد استلزم هذا التعديل أن تحرص مجموعة الوصايا على إعلاء الأنثى والارتفاع بها إلى آفاق نورانية، من خلال استحضار الأنثى الأم بوصفها المتلقية الأولى بداية ونهاية.

من أجواء الديوان:

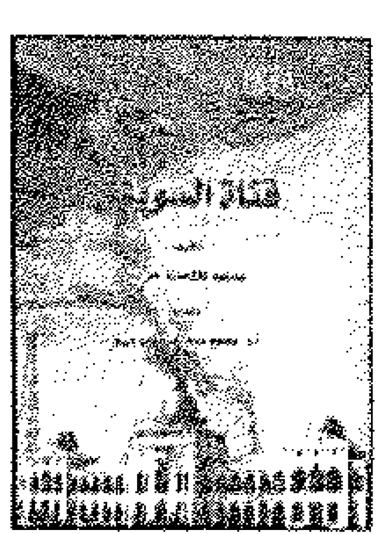
اصفحى فى المحبة/ صلى من قطعك تُرفعى درجة/ وإذا أردت معاقبة العاشق اصمتى أيامًا لا تكلميه إلا رمزًا/ فبالصمت تكون الهنية والراحة، ورب قول جوابه فى السكوت، لا تجعلى قلبك يرتاب فيه، إياك والظن، لا تصدقى ما تتوهمينه، أعطى بصمت وسخاء، لأن اليد العليا - فى العشق - خير من اليد السفلى.

■

قناة السويس

محمد طلعت حرب

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦، ١٤٠صفحة



وضع الاقتصادى الوطنى الكبير محمد طلعت حرب هذا الكتاب فى عام ١٩١٠، وفى هذا العام دار حديث عن محاولة شركة قناة السويس مد امتيازها لإدارة القناة أربعين عامًا بعد انتهاء مدة الامتياز الصادر لها، وكان مقررًا أن تكون نهاية الامتياز فى عام ١٩٦٨، وطالبت الشركة بمد الامتياز أربعين عامًا لينتهى فى ٢٠٠٨، وكانت شركة القناة والاحتلال البريطانى شريكين فى نظر المصريين كسلطتين أجنبيتين اغتصبتا حق مصر فى قناة السويس، ولم يكن متوقعًا أن تقف الحركة الوطنية مكتوفة الأيدى إزاء ما يحدث.

ولم يفت طلعت حرب أن يدلى بدلوه فى هذه المسألة وهو المشهود له بالوطنية والدفاع الصلب عن استقلال مصر الاقتصادى، وقد عرض فى الكتب لتاريخ قناة السويس وبين بالأرقام والإحصائيات أن المصلحة فى المد تستفيد منها شركة القناة وليس مصر، وأن الأربعة ملايين من الجنيهات التى وُعدت بها الحكومة المصرية من الشركة يمكن تدبيرها ولو بقرض. «لسنا نظن أن الحكومة مضطرة للمال اضطرارًا يسوغ لها أن تقترض بهذه الشروط بدليل أن الأربعة ملايين جنيه لا تدفع إلا فى أربع سنوات من ١٥ ديسمبر ١٩١٠ والحصة فى الأرباح لا تبتدئ إلا من ١٩٢١، ولو سلمنا باضطرارها للمال فلا تعدم وسيلة لإيجاده من الخارج وأمامها مصلحة الدومين يمكن للحكومة أن تقترض عليها أربعة ملايين وزيادة(...) وعلى ذلك نرى المشروع من كل وجهة قلبناه عليها مشروعًا ضارًا لا تصح الموافقة عليه».

وكان لما كتبه طلعت حرب، ويتضمنه هذا الكتاب، دور فى نجاح الحملة التى قادها المصريون للتصدى لمد الامتياز.

■

مائة سر بسيط من أسرار العائلات السعيدة

ديفيد نيفين

ترجمة: رنا النورى

الرياض: العبيكان، ٢٠٠٦، ٢٨٧ صفحة



مائة باب، أو بالأحرى مائة جواب لمائة سؤال، تمثل النتائج النهائية لأبحاث علماء قاموا على دراسة الحياة الأسرية، ويحتوى كل بحث على نتيجة رئيسية تم التعليق عليها بتوصية علمية، يبدأ الكتاب بدعوة أفراد الأسرة لأن يكونوا أصدقاء حميمين، وبالأخص أن يكون الأب والأم أقرب كثيرًا لأبنائهما مما درجوا عليه، فالأسرة سلسلة من العلاقات الشخصية، وهذه العلاقات لها أهميتها فى حياة الشخص مثل أى علاقات أخرى خارج نطاق الأسرة، والنصيحة التى يقدمها الباحثون هنا هى أن تعامل أسرتك مثلما تعامل أى صديق، كما لو أنه تم اختيارك لتكون برفقتهم وتتمنى لو يتم اختيارهم ليكونوا برفقتك، وفى موضع آخر ينصح الباحثون الشخص المقدم على الزواج وتكوين أسرة أن يغير من سلوكياته التى كان يتمتع بها بمفرده، أن يغير ذاته، لكن هذا لا يعنى أن يلغى ذاته كليًا، أو أن يكون مختلفًا كليًا، لكن هذا يعنى أن تكون أسرته جزءًا منه، وهذه حقيقة لا سبيل للسعادة دون إدراكها.

ثمة توصية أخرى تتعلق بالبيت أو المكان الذى يختاره الفرد لإقامته مع أسرته، وبحسب النتيجة التى انتهى إليها الباحثون، فإن المكان الذى تعيش فيه له تأثير قوى على الخبرات والأفكار التى تبناها أفراد أسرتك، فالمجتمع الذى تعيش فيه إما أن يكون مجاملاً لسلوكياتك من أجل أسرتك وإما أن يكون مناقشًا، لذا ابحث عن مكان تعيش فيه يفى باحتياجاتك.

بالنسبة للأطفال، فإن غياب الاتصالات يعد أمرًا بالغ الخطورة، فنحن عندما لا نقول شيئًا نترك الباب مفتوحًا لافتراض حدوث أسوأ الأمور، ولذا، فإن أسرتك تحتاج لأن تسمع منك.

وتؤكد دراسة أخرى على أن التزامنا نحو أسرتنا هو الذى يشكل حياة أطفالنا أكثر من أى تجربة سابقة، ولا يعنى أنك حظيت بطفولة سعيدة إن ذلك يجعل منك أبًا مثاليًا، ولا يعنى العكس أن تكون أبًا سيئًا، فنحن فى الحقيقة من نصنع نجاح أسرتنا.

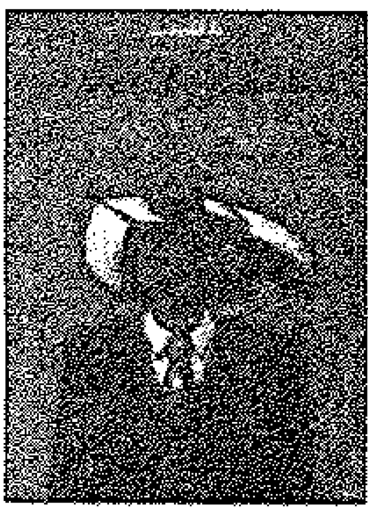
نصيحة أخرى يقدمها الباحثون، مفادها أننا يجب أن نفكر فى أسرتنا فى كل الأوقات وليس فى وقت الحاجة إليهم فقط، ثم نتجاهلهم فى الأوقات الأخرى، فعندما تفكر فى احتياجات أسرتك حتى لو كانت تلك الاحتياجات قليلة، عليك أن توزعها قدر ما تأخذه من أسرتك.

■

تحطيم الأصنام

شريف الشوباشى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٢١صفحة



ما هي الأصنام التي يسعي المؤلف إلي تحطيمها، إنها ثقافة العصبية والقبلية، وكذلك ثقافة الأذن وثقافة اليقين، وكلتاهما تكبل العقل العربي وتعوقه عن الانطلاق وتحقيق ما حققته أمم أخرى تعرضت للسحق والانهيار، ثم قامت وتفوقت وتجاوزتنا بقرون، ومازلنا نحن أسري قضايانا ذاتها التي نلوكها منذ قرنين أو يزيد دون أن نحسم أيًا منها، لنقترب نحو ما ينشغل به العالم من شئون الحداثة والعصرنة.

الأمثلة التي يسوقها المؤلف عديدة، وما حققته اليابان وألمانيا برغم ما لقيتاه في الحرب العالمية الثانية يمكن أن يعد في خانات الأساطير أو المستحيلات، لكنه يبرهن علي أن الحضارة بما هي مكونات مادية وآثار معمارية وصناعية قد تتعرض للنكوص، لكن «نكوص» العقل أدهي وأمر، لأنه يعني النهاية أو عدم القدرة علي استعادة الذات من جديد.

في حالتنا العربية، فإن ما يكبل العقل العربي ليس هو الدين ولا تعاليمه كما يحلو للبعض أن يردد، فثمة أمم تدين بالإسلام لكنها حققت نجاحات مذهلة، ونموذج ماليزيا أوضح من أن يطمس، ما يكبلنا في الحقيقة هو أن ثقافة القبيلة مازالت هي الثقافة الحاكمة لعقولنا، وهي التي تحول بيننا وبين التوحد والقدرة علي الإنجاز والعمل المشترك. هذه القبلية والعصبية التي ربما أفادت مجتمعات الجزيرة العربية في بدايات تكوينها، تمارس دورها السلبي إلي اليوم في مجتمعاتنا، لأن ما تقوم عليه من قيم، يتنافي تماماً مع تلك التي تقوم عليها المجتمعات الحديثة، من عدالة وحقوق إنسان وتكامل ووعي بالمخاطر المحدقة بالبشرية في عمومها، بعيداً عن هذه الحالة من التقوقع حول الذات التي تخلقها ثقافة القبيلة، والتي سعي الرسول عليه الصلاة والسلام إلي محوها بنشر قيم جديدة تلخصها الآية الكريمة.. «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» صدق الله العظيم.

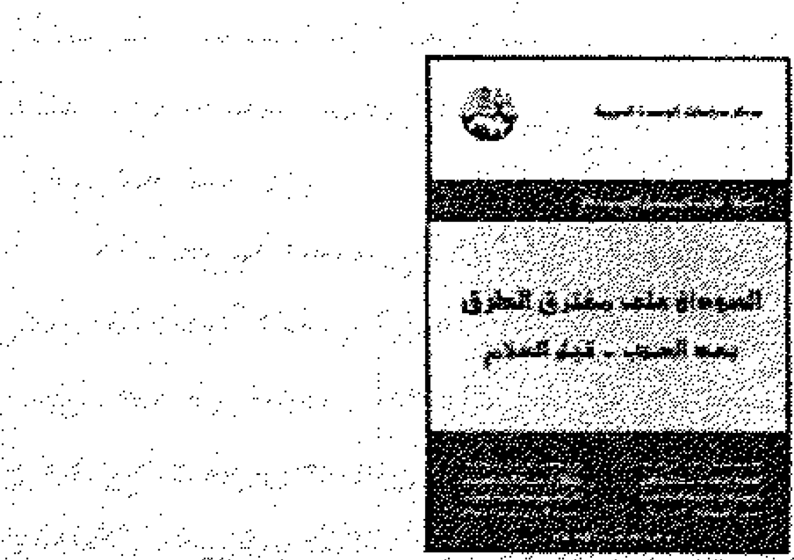
أما ثقافة الأذن، فمردها إلي أن ثقافة الجزيرة العربية، وهي المنطقة التي نزلت فيها الرسالة المحمدية، قامت أساساً علي الشفاهة، وحتي القرآن الكريم، لم يجمعوه إلا بعد سنوات من نزول الوحي به، ولولا أن الله سبحانه وتعالي حفظه من التحريف، لواجه ما واجهه المنتج الثقافي لهذه المنطقة من العالم من تشويش وتشويه، والخلاصة التي يقدمها المؤلف من استقرائه لحكايات الأدب ومعاركه في العقود الماضية (كالمعركة بين العقاد وشوقي علي سبيل المثال) أو قراءته للصحف والمجلات السيارة، إن ثقافة الأذن عودتنا علي الإطالة والمبالغة وعدم الدقة، ومازالت هذه العيوب جزءًا أساسيًا من تكويننا العقلي والثقافي.

وفي مواجهة ثقافة الأذن، أو ربما استكمالاً لها، لدينا أيضًا ثقافة اليقين، ومبعثها في الحقيقة يقين النص الديني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه حقيقة لا مراء فيها، لكن كثيرين - لأسباب مختلفة - عمدوا إلي توسيع دائرة اليقين، فصار يشمل تفسير هذا النص المقدس وتأويله والاجتهاد حسب الزمان ومقتضيات الحال حوله، علي الرغم من قول رسولنا الكريم «أنتم أدري بشئون دنياكم»، فكبلوا العقل وقيدوه، وقتلوا ملكات الاجتهاد والنقد في نفوس الناس، فبات أكثرنا يستعيد مقولات السلف بكسل عقلي مقيت وكأنها مقدسات غير قابلة للنقد، وهكذا استسلمنا لثقافة اليقين، وصرنا نبحث في الكتب الصفراء عن حلول لمشكلات حياتنا المعاصرة.

■

السودان على مفترق الطرق بعد الحرب.. قبل السلام

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٢٨٧صفحة



البحوث التي يتضمنها هذا الكتاب تتناول حزمة القضايا المعبرة عن واقع

السودان الراهن.. وهى تحاول رسم الطريق بين قلب السودان ورمز سيادته، الخرطوم، وأطرافه الممتدة من كردفان ودارفور إلى أعماق الجنوب عند حدود جبال الأماتونج. إن تلك الجغرافيا المذهلة التى تمثل واحداً من أكثر البلدان فى العالم التى تمتزج فيها المناخات الصحراوية وشبه الصحراوية فى الشمال بمناطق السفانا الشاسعة والتربة الطينية الخصبة والسدود فى أعالى النيل والمناخ الاستوائى الرطب فى أقصى الجنوب، هى فى الواقع تعبيرات ثقافية أسهمت بشكل وآخر فى كل الأحداث التى عبرت عن تمزق السودان ووحدته فى آن واحد.

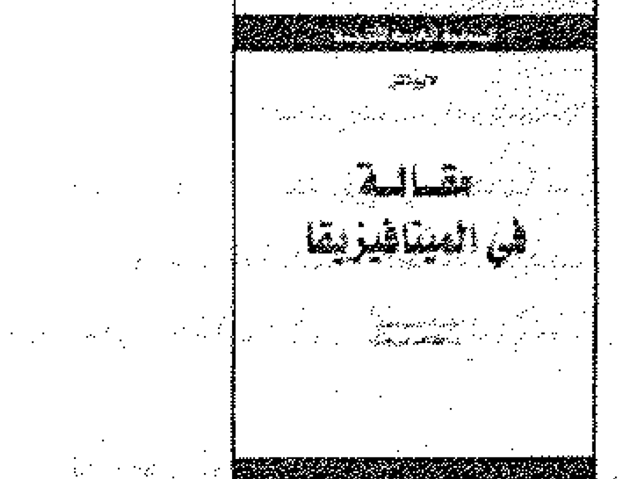
ومن هنا، فإن هذه البحوث شملت موضوعات معبرة عن مسعى الطموح لبناء السلام الوطنى المجسد لوحدة السودان وتقدمه، ومعالجة تداعيات قضية الجنوب وأزمة دارفور، والتصدى لسياسات التدخل الخارجى، وفى مقدمتها المخططات الأمريكية لإثارة النزاعات الداخلية، ومواجهة التحالفات الإقليمية من داخل القارة الأفريقية، لانتزاع أدوار على مائدة القضية السودانية، وصولاً إلى تناول موضوع الثروة، والتنمية، والمحور الاقتصادى والاجتماعى، وتأثيره فى مسيرة السودان، ووحدته واستقلاله وتقدمه.

وكل تلك الموضوعات تلتقى على قاعدة جامعة تقود إلى التعريف وإشاعة الحقائق حول قضية السودان من جوانبها المختلفة، فالأرض العربية التى أرسل إليها نيرون قبل عشرين قرناً أولى بعثات الاستعمار طمعاً فى الثروات والنفوذ، تواجه اليوم عصر النيرون الأمريكى وأطماعه فى الهيمنة، وتقاوم، كما عرفت بذلك عبر تاريخها، من أجل ذات الثوابت، وفى سبيل حريتها وكرامتها.

■

مقالة فى الميتافيزيقا

جوتفريد فيلهلم
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٢٤٤ صفحة



عرض شامل ومكثف، فى آن واحد، للمبادئ العامة للميتافيزيقا التى كانت لا تزال، قبل هذه «المقالة»، موضوع بحث مشتت فى أعمال جزئية، إن فيها تأليفاً قوياً نعرف أن لايبنتز استوحى الكثير منه فى أعمال نضجه الكبرى التى اتسعت لمعارف متنوعة، من الرياضيات والفيزياء إلى اللسانيات، مروراً بالميتافيزيقا واللاهوت، وجعلت منه فيلسوفاً «كونياً».

وهذه الترجمة هى نموذج لما يمكن أن يكون عليه نقل المعارف إلى اللغة العربية، لا من حيث الدقة العلمية فى نقل المعانى والمصطلحات فحسب، وإنما أيضاً من حيث الجهد الذى يبذله المترجم فى تقديم الكتاب تقديماً علمياً وفى إضافة التعليقات الواسعة المساعدة على فهم النص المترجم: إن ثلث الكتاب، تقريباً، مخصص للمقدمة وثلثه الثانى للحواشى وثبت المصطلحات بحيث لا يمثل نص لايبنتز المترجم أكثر من ثلث الكتاب.

■

لزوم ما يلزم

نجيب سرور
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦



على الرغم من سنوات عمره القصيرة، فإن نجيب سرور (١٩٣٢-١٩٧٨)، ملأ الدنيا وشغل الناس، أكثر من ١٠ مسرحيات شعرية ونثرية، وأكثر من عشرة دواوين، وما يزيد على ٥ كتب نقدية، وعشرات الدراسات والمقالات فى صحف مصرية وعربية.

كان نجيب سرور حالة فنية شاملة، فهو مؤلف وشاعر ومخرج مسرحى وممثل، اختار منذ البداية أن يكون فى الموضع المناهض للسلطة، ولهذا طورد وجاع وتشرد وفصل من عمله وأدخل مستشفى للأمراض العقلية، وهام على وجهه فى شوارع المحروسة يتسول بملابس ممزقة وجسد منهوك.

لكن ما تركه من آثار أدبية ومسرحية مازال باقياً، وسيظل لأجيال قادمة، وإذا كان الجيل الحالى لا يعرف من إنتاجه سوى «الأميات»، وهى الهجائية التى انتشرت عبر شبكة الإنترنت، فإن من عاصروا فترة ازدهار المسرح المصرى فى الستينيات يذكرون كيف كان الشاعر الشاب العائد لتوه من بعثة علمية فى موسكو وبودابست، ملء السمع والبصر، ويتذكرون النجاح المذهل الذى حققته ثلاثية: «ياسين وبهية» و«آه يا ليل يا قمر» و«قولوا لعين الشمس»، وكذلك مسرحيته المستوحاة من الحكاية الشعبية «حسن ونعيمة»، ومن الأسطورة الفرعونية «إيزيس وأوزوريس»، ونعنى بها مسرحية «منين أجيب ناس».

ويستحيل على من يتعرض لدراما نجيب سرور فى مسرحه وفى دواوينه الشعرية، أن يفلت من دراما حياته ذاتها،



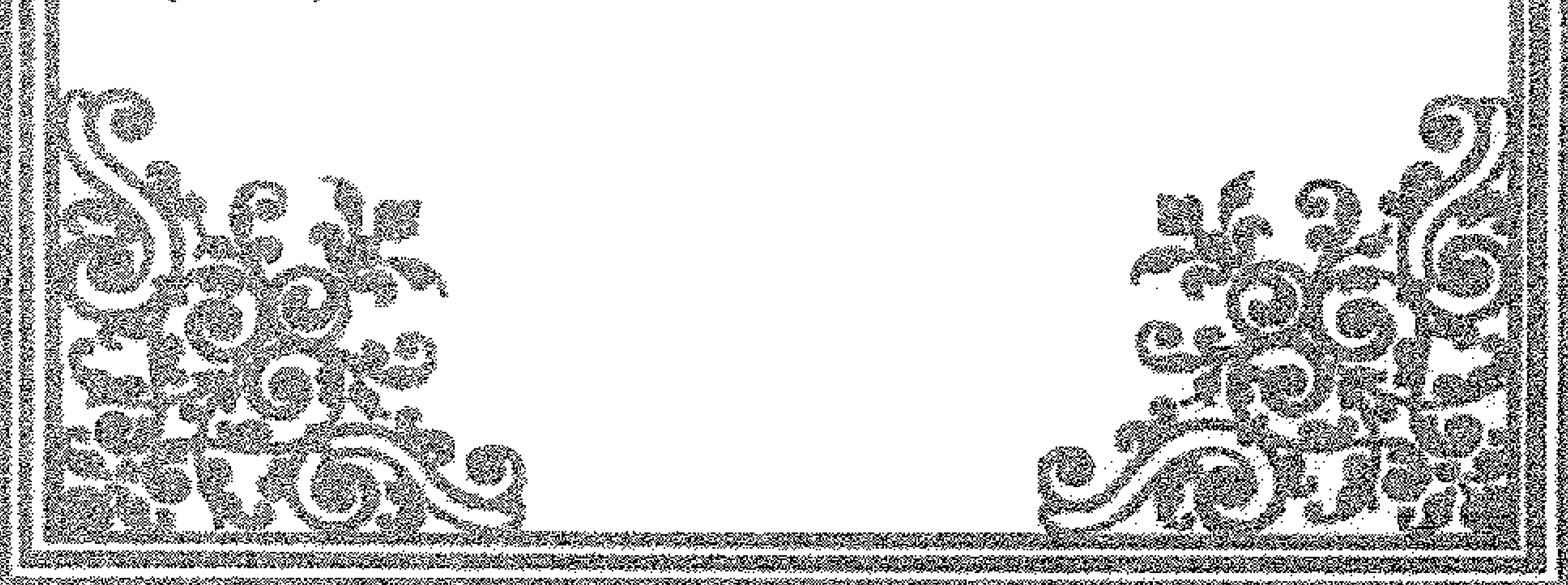
الرأى العام

غسان توينى

ما هو الرأى العام، ومم يتكون؟ الفكر الحر، هو الرأى الذى لا يخاف، لا يتأثر، هو الرأى الذى يتكون صغيراً فينطلق ويتقدم وينمو حتى يستفيق الناس وإذا بهم يقولون به.. متى قرأوه أو ظنوا أنهم يسمعون أنفسهم ويقرأون ما تمنوا لو كان فى وسعهم أن يكتبوا. الرأى العام ليس مجموعة آراء المجموع، إنما هو جوهر الرأى الذى عليه يجتمعون. الرأى العام هو كل واحد منا إذا تحرر من الضواغط على رأيه، من ضواغط التعبير لا من قول الحقيقة، من كوابيس القول لا من كوابيس الإيمان. الرأى العام هو الحرية فى مظهرها التعبيرى الاجتماعى أى فى مظهرها الصحفى، حتى قبل وجود الصحافة.

ما هو القارئ؟ هل هو قارئ واحد؟ أعرف صحفاً تكتب لقارئ واحد، لا ضعفاً منها، إنما لأنها تتوجه، سواء أكتبت أسرار الآلهة أم أسرار الشياطين. أعرف صحفاً كذلك لا يقرأها إلا واحد، وهو الذى يكتب فيها. ولكن الصحافة اليوم إنما تؤخذ بشغف العدد، فإما أن تتوجه إلى العدد، إلى الجمهور، أو لا تكون صحافة. أما صحافة القلة، أى المتفوقين المثقفين الذين فوق العامة، هذه الصحافة باتت غير منسجمة مع رأى اليوم ومع متطلبات العصر ومع الحكم الشعبى الذى نريد أن نقيم اليوم فى لبنان، بفضل الصحافة الحرة. لأن الصحافة ليست كالكتاب ولا كالشعر، أو كالفلسفة.. الصحافة لا تكتب حتى تقرأ غداً أو بعد غد فتتصف فى التاريخ. الصحافة تكتب حتى تقرأ اليوم ويقرأها أكبر عدد ممكن من القراء.

(١٩٦٥)



كتاب الزاوية

صحافة «فوق» و«تحت»

غسان تويني

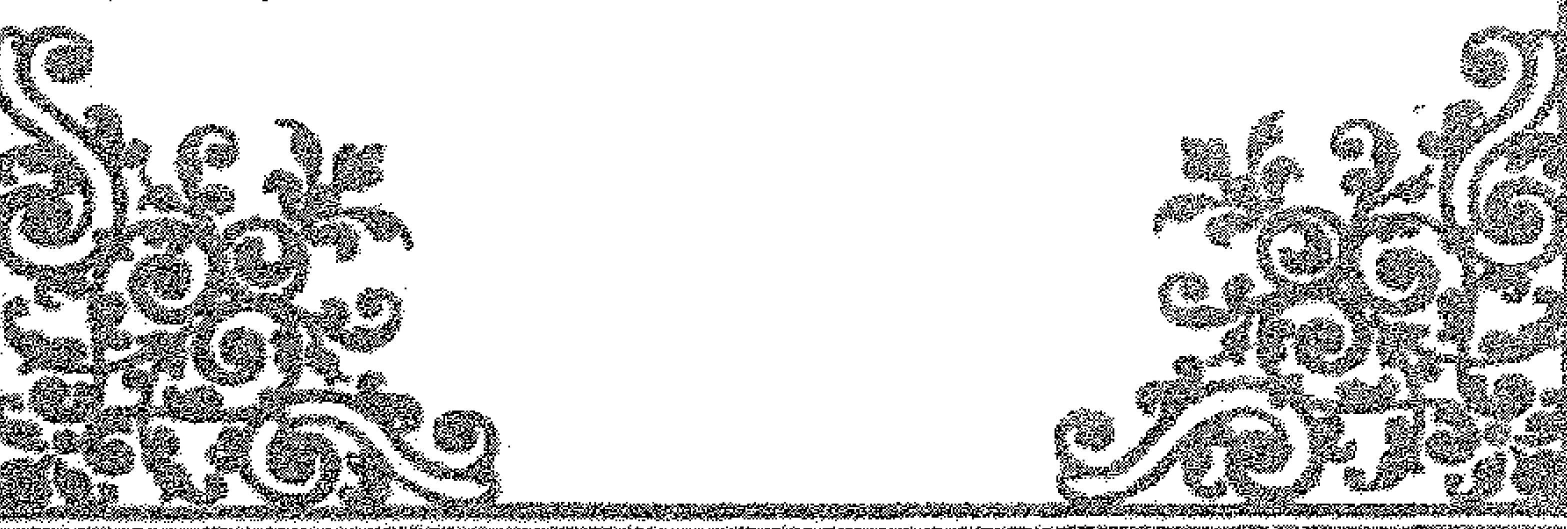
الآن، ما هى هذه الصحافة؟ وهل كل الصحافة زى كل الصحافة؟

نصل إلى ناحية حساسة هى التمييز بين ما يمكن تسميته الصحافة المنبثقة من تحت، والصحافة المفروضة من فوق، أى الصحافة التوجيهية والصحافة الإعلامية الحرة. فأسارع إلى القول إن هذا التمييز لا علاقة له بملكية الصحيفة. المهم ليس أن ترتبط الصحافة بالنظام الليبرالى مثلاً فتكون حرة، أو لا ترتبط بالنظام الليبرالى فتكون توجيهية أو موجهة. الموضوع هو موضوع ممارسة الصحفى لصحافته، أى أن يكون الصحفى هو فى ذاته صاحب حرية، أن يحس ويشعر بأن التزامه الأول هو تجاه القارئ الذى يخاطبه، القارئ الذى يتوسل الصحيفة لمعرفة أمرين أساسيين، لا صحافة من دونهما، هما الخبر والرأى. فماذا عن الخبر؟ وماذا عن الرأى؟

الصحافة مفروض فيها، حتى تكون أمينة، أن تقدم الخبر كل الخبر، المعرفة كل المعرفة، الحقيقة كل الحقيقة. وهنا تصطدم الصحافة دائمًا، وهذا تاريخها الحافل، بالأزمات. تصطدم دائمًا بالذين يقولون إن الحقيقة قد تكون ضارة مضرة. والحقيقة، أيها السادة، لا تضر أبدًا. والحقيقة معناها كل الحقيقة، ليس نصف الحقيقة ولا ربعها ولا ثلثها، وفى ذلك احترام للقارئ.

التزام الصحافة يجب أن يكون أولاً وأخيرًا الإنسان. فلا صحافة من أجل الآلة، ولا صحافة من أجل الصحافة فى المطلق. الصحافة حتمًا من أجل الإنسان.

(١٩٧٤)



ونهايته المأساوية التى بدأت عمليًا فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧، والتى لم تتحملها نفسه شديدة الرهافة.

و«لزوم ما يلزم» ديوانه الأخير، الذى يتبدى فيه بوضوح وجه الشاعر الراديكالى الثائر، الذى عارض السلطة، ودفع الثمن حياته ذاتها، والديوان يقدمه صديقه المترجم والأديب والإذاعى شوقى فهيم، الذى رافقه سنوات عديدة.

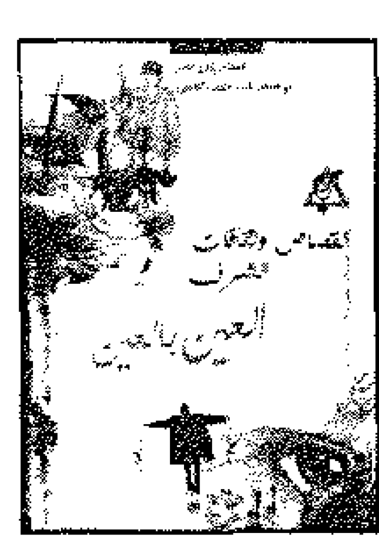
■

القصاص وثقافات الشرف

وليام إيان ميلر

ترجمة: محمد عنانى

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٦، ٣٥٣صفحة



على مدى ١٢ فصلاً، يتتبع المؤلف فكرة القصاص فى المجتمعات التى أعطت للشرف مكانته الرفيعة، قبل الثروة والجاه والنفوذ، وهى منذ الأزل مجتمعات فقيرة تحكمها أعراف القبيلة أساسًا، لكن المؤلف يشير من ناحية ثانية إلى صياغة القصاص فى التوراة، والتى تضع أجزاء الجسد من روح وعيون وأيد وأسنان فى المقدمة، باعتبارها المقياس الحقيقى الذى تقاس به القيمة، ففى القصاص العين بالعين والسن بالسن والصاع بالصاع.

والقصاص ـ كما يشير ـ يعتبر التقييم جوهر العدالة، فهو يدور حول القياس، وأحيانًا ما لا تزيد على تعويضات كما هو معروف اليوم، وآنذاك ـ فى الماضى السحيق قبل ٢٥٠٠ سنة مثلاً ـ كان لأعضاء الجسد أسعارها، كما أن لها أسعارًا اليوم، فمن الأهداف التى يشيع التعبير عنها لقانون الضرر، تعويض الضحية حتى يعود «كاملاً»، بمعنى استكمال النقص الذى تعرض له، وذلك باستبدال النقود بالجزء الذى فقده من جسمه، تمامًا مثلما يسعى القصاص إلى أن يعيد للفرد اكتماله.

فالأفكار الخاصة بالتوازن والتساوى أو التعادل هى التى قادتنا إلى القصاص، ونقلنا القصاص إلى الأفكار الخاصة بالمقايسة، وكان القصاص أسلوبًا لتعليم المشاركة فى الإحساس والشعور.. «فإذا أخذت عينك ثمنًا مقابل أخذك عينى، فسوف أعرف أنك سوف تشعر بألمى، كما اعتدنا القول بأسلوب العصر الحديث، وسوف نستطيع أن نحدد لها ثمنًا عادلاً».

المؤلف كما يفصح بوضوح يتغنى بفضائل ثقافات الشرف، التى ماتت منذ زمن بعيد وتركت لنا آثارًا نموت من أجل بقائها اليوم، وهذه الثقافات هى التى حافظت على استمرار هذه المجتمعات قرونًا طويلة، وأنشأت مجتمعًا صالحًا قائمًا على القصاص، أى على العدالة والتوازن، وهو ما تفتقده المجتمعات المعاصرة المكتظة بالسكان اليوم.

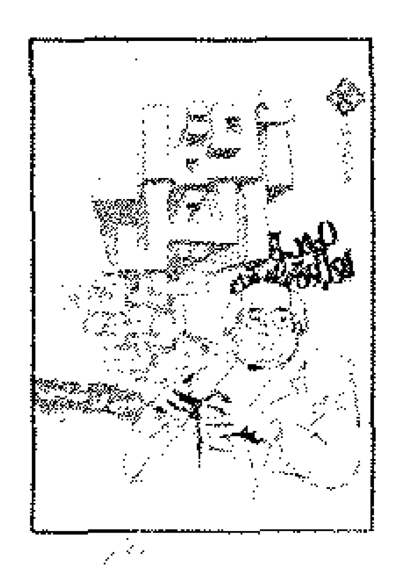
والمدهش أن المؤلف يقطع بأن ما أحرزناه ـ كمعاصرين ـ من تقدم فى بعض فروع المعرفة، لم يجعلنا أكثر تقدمًا على أبناء هذه القرون البعيدة فى علوم النفس والاجتماع والتربية، ويضيف: وأشهد أننا فيما يتعلق بفهم الدوافع البشرية وفهم العدالة ومعنى تحقيق المساواة، لا نتمتع بالذكاء الذى كنا نتمتع به يوم أن كان الناس يبدون من القلق والحرص على شرفهم، أكثر مما يبدونه من الحرص على متعتهم.

■

أقمار النيل

خيرى شلبى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٦، ٢٩٨صفحة



صور فنية (بورتريهات) لوجوه مصرية فى الثقافة والأدب والسياسة، يغزل ملامحها بعناية ومحبة الأديب الكبير خيرى شلبى، ويختار لكل منها صفة دالة تلخص مشوار حياته التى يقدم المؤلف تفاصيل عديدة منها، بعضها يؤكد انسجام الشخصية مع أفكارها وصورتها العامة التى تبدت بها للناس، فيما يشير بعضها الآخر إلى حالة التناقض، التى قد نجد لها تبريرًا لدى المؤلف، بين ما بدت عليه الشخصية وما طوته تفاصيل حياتها، نقرأ عن «الحارث» نجيب محفوظ، و«المناور» أنور السادات، و«العفريت» أحمد رجب، و«حلاوتهم» سعاد حسنى، و«الناجى» سلامة أحمد سلامة، و«المزعج» يوسف شاهين، و«ذات الهمة» نعمات أحمد فؤاد، و«الكوكب» أم كلثوم، و«المتوازن» أحمد بهاء الدين، و«السياسى» البابا شنودة.. وغيرها من الشخصيات التى تركت آثارًا خالدة فى الإبداع والفكر العربى.

وهو مثلاً بعد أن يرسم ملامح الوجه والأسرة التى تلخص ذلك التعبير السياسى المدهش الذى انطلق فى زمن ثورة ١٩١٩ واستمر سنوات طوالاً «مصر للسودان والسودان لمصر» ينتهى إلى أن «المناور» أنور السادات شخصية أسطورية، وهى كذلك شخصية تراجيدية بمعنى الكلمة فى تركيبها الإنسانى والسياسى والثقافى، تبهرك بانضباطها وحنكتها وأهليتها،

وتؤسفك في النهاية بالخطأ التافه الذي لخصه المأثور العربي بالقشة التي قصمت ظهر البعير. والمؤلف لا ينتهي إلى تلك الخلاصة إلا عبر استعراض لمسيرة حياة الشخصية وتقلبها بين أهواء السياسة وعواصفها، وانغماسها في حياة العامة والدهماء وانصارها في بوتقة خبرات إنسانية متفاوتة جعلته قادراً على مصارعة خلوية زمن الانفتاح، دون أن ينفي ذلك عن الزعيم عظمته أو ينكرها.

وهو حين يقرأ ملامح وجه البابا شنودة بما تنطوي عليه من رصانة وطيبة، وما تشعه من روح السلام والمحبة، يرى فيه «وجه فلاح مصري صعيدي منحوتاً بأزميل مصري، مبثوثاً في نصله قبس من روح الله تبث بدورها في المنحوت روحاً إنسانية، فكأن الحجر يشعر وينفعل، يبكي ويضحك ويغني ويقيم الصلاة».

وبطبيعة الحال فإن هذا ليس كل شيء، فالمؤلف يكشف لنا عن الوجه الآخر لقداسة البابا، وجه السياسي الذي وقف بصرامة ضد رغبة الرئيس السادات في «تسفير» الأقباط إلى القدس واستخدامهم عربة جر في قطار التطبيع.

أما الموسيقار محمد عبدالوهاب، فهو الذي عرف كيف يتعامل مع الحكام، كيف يجاملهم ويشتري خواطرهم، ويبادر بتقديم الخدمة في وقتها المناسب باللباقة المناسبة، ويدلل المؤلف على وصف عبدالوهاب بـ «العقر» بحكايات عديدة، وهو لا ينفي موهبته الموسيقية الفذة، لكنه مع ذلك يؤكد على أنه «موسوعة في معرفة تحقيق أهدافه»، فنية كانت أو اجتماعية، عبر طريق معاكس لكنه ملفوف.

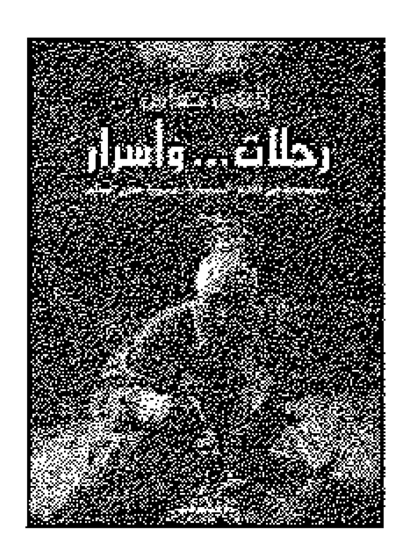
على العكس تماماً تبدو لنا صورة أحمد بهاء الدين «المتوازن»، يقول المؤلف: لم يكن ثمة ما يفصل بين الإنسان أحمد بهاء الدين والمثقف أحمد بهاء الدين، كلاهما شخص واحد، أي أنه يتميز عن غيره من المثقفين الذين يستحقون هذا اللقب بالفعل، بأنه لا توجد تلك المساحة الفاصلة بين المثقف والإنسان.

على هذا النحو من القراءة الفنية والإنسانية يرسم المؤلف بورتريهات شخصياته.

رحـلات وأسرار

زاهي حواس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٦٠صفحة



يمتلك المصريون أعظم وأعرق حضارة عرفتها الإنسانية، لكن كثيرين من بيننا لا يقدرون تأثير هذه الحضارة على العالم. المؤلف الذي اختارته مجلة «تايم» الأمريكية بوصفه واحداً من أهم ١٠٠ شخصية في العالم، يكشف لنا في هذا الكتاب سحر الحضارة المصرية وتأثيرها على العالم كله، كما أنه يرد على عديد من المزاعم التي رددتها كتابات في الغرب، منها مثلا ما يدعيه نفر من الإسرائيليين من أن اليهود هم بناة الأهرامات، إذ يدحض المؤلف هذه الكذبة بأسانيد علمية مؤكداً أن الأهرامات شيدت بالكامل بأيدي المصريين، وأن اليهود جاءوا إلى مصر بعد ٧٠٠ سنة تقريبا من بناء الأهرام، كما أن مقابر العمال بناة الأهرام هي لعمال مصريين، ولا يوجد اسم عبراني واحد على جدرانها.

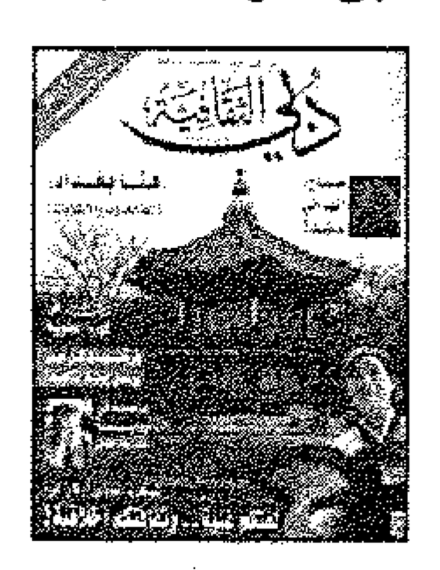
ويحكي المؤلف من خلال مصاحبته لعديد من الملوك والأمراء ورؤساء الدول الكبيرة، مثل بيل كلينتون وتوني بلير والأميرة ديانا وملكة إيرلندا وملكة هولندا وملكة أسبانيا ومستشار ألمانيا وملكة الدنمرك.. وغيرهم، كيف علت علامة الدهشة والانبهار وجوه الضيوف الأجانب، وكذلك الأثر الذي يتركه عرض الآثار المصرية خارج الحدود، مثل عرض آثار توت عنخ آمون في سويسرا وألمانيا.

وكذلك هذا الولع الفرنسي بكنوز الآثار المصرية التي لا يخلو منها متحف أو تجمع فني، وقسم المصريات ومتحف اللوفر خير شاهد على «الإجيبتومونيا» التي لا ينكرها الفرنسيون.

دوريـات

دبي الثقافية

دبي: دار الصدى للنشر والتوزيع



بانوراما العدد من كوريا الجنوبية، ومن سوق الملح قلب اليمن النابض منذ ألفي عام استطلاع آخر، ويكتب رجاء النقاش عن «أولاد حارتنا» تحت عنوان «أولاد حارتنا عاصفة في رواية».

وفي باب الحوارات، حوار مع الشاعر الدكتور حسن فتح الباب، وآخر مع القاص العراقي محمود عبدالوهاب يقول فيه: قصة بلا امرأة.. قصة بلا حياة.

ومن دفتر أفكاره يكتب أدونيس حول الأصولية الثقافية العربية، كما يكتب الدكتور عبدالعزيز المقالح «في مديح الصمت».

وبالعدد حوار مطول مع الإذاعي المصري الرائد طاهر أبو زيد، وفي «ألوان وظلال» تحقيق عن المتحف الوطني في سوريا، وآخر عن جماعة الجمان التشكيلية في دبي.

كما يكتب مجدي موسى من لندن عن التشكيلي الروسي كاندنيسكي بمناسبة احتفاء متحف لندن به، ودراستان عن الشاعر جميل صدقي الزهاوي، والمفكر الجزائري مالك بن نبي، إضافة إلى موضوعات أخرى في الفنون والموسيقى.

الشـموع

القاهرة: دار لوتس للطباعة والنشر



بعد توقف عادت هذه المجلة الثقافية التي أسسها ورأس تحريرها عام ١٩٨٦ أحمد بهاء الدين للصدور من جديد برئاسة تحرير الشاعر أحمد الشهاوي.

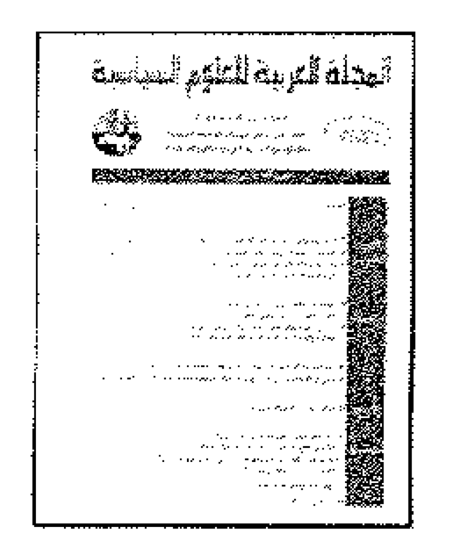
يتضمن العدد تحقيقاً موسعاً عن تزييف اللوحات الفنية بوصفه خطراً يهدد الفن التشكيلي في مصر، وزيارة إلى معرض الشاعر الأمريكي اللاتيني بورخيس بمكتبة الإسكندرية.

وحوار مع الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي بمناسبة بلوغه السبعين، وحوار آخر مع الشاعرة والفنانة التشكيلية الإماراتية ميسون صقر، ويكتب الدكتور مرسي سعد الدين عن الفن حول العالم.

وحوار مع الحاج صبري كاتب أحلام نجيب محفوظ، وحوار أدبي وسياسي مع الناقد محمود أمين العالم، بالعدد أيضاً ٤١ حكمة للإمام الشافعي، إضافة إلى أبواب وموضوعات أخرى عديدة.

المجلة العربية للعلوم السياسية

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



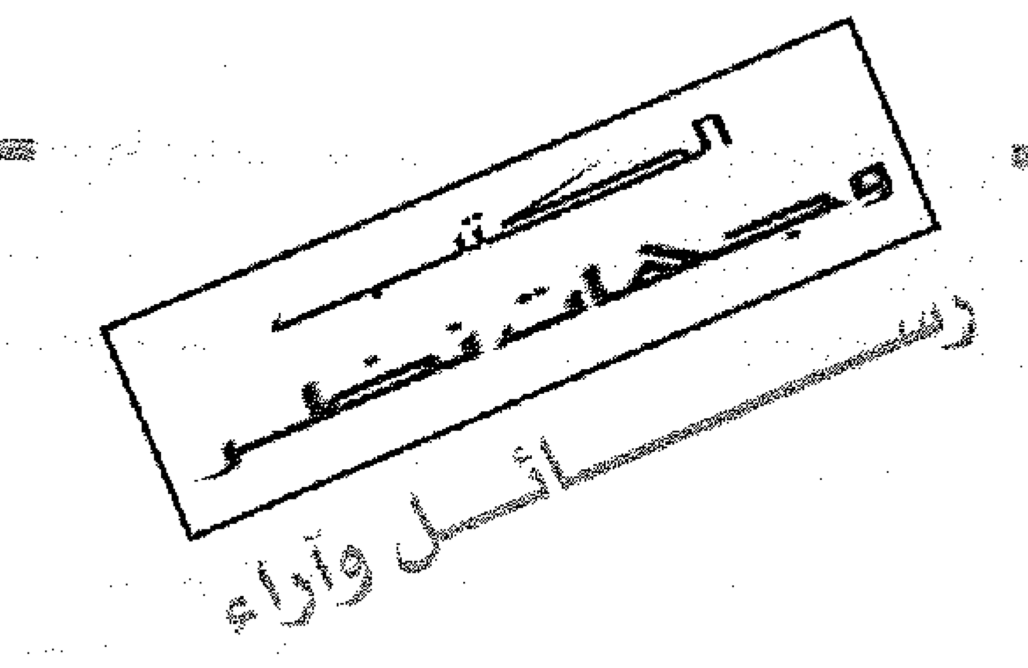
صدر العدد الجديد الخاص بـ «خريف ٢٠٠٦» من المجلة العربية للعلوم السياسية، وتضمن افتتاحية رئيس التحرير علي الدين هلال بعنوان: «علم عربي للسياسة أم مدرسة عربية في علم السياسة؟» وملف «الإصلاح السياسي» الذي شارك فيه كل من: ثناء فؤاد عبدالله (الإصلاح السياسي.. خبرات عربية/ مصر، دراسة حالة) وفتحي العفيفي (الاستعصاء الليبرالي في الخليج العربي)، وإسماعيل العبادي (أثر النظام الانتخابي في تشكيل المجالس المحلية في الجزائر في ظل التعددية الحزبية).

أما باب دراسات فتضمن دراستين: الأولى: لخضر عباس عطوان (الرؤية الأخلاقية الغربية لقضايا النظام العربي: الصراع العربي - الإسرائيلي نموذجاً) والثانية لإبراهيم إبراش (التباس مفهوم وواقع التعددية في النظام السياسي الفلسطيني: العلاقة الملتبسة بين المنظمة والسلطة وحركة حماس).

وفي باب آراء مساهمتان، الأولى لهناء صوفي عبدالحي (الديمقراطية التنافسية والديمقراطية التوافقية/ الحالة اللبنانية) والثانية لأخصاص خليد (مدى إفادة المغرب من جهاز تسوية النزاعات بمنظمة التجارة العالمية).

وفي العدد أيضاً عرض كتاب: «الوطن العربي وأمريكا اللاتينية»، الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، تأليف: ماريا روزا دي مادارياكا، وترجمة عبدالواحد أكمير.

واختتم العدد بتقرير عن نشاطات الجمعية العربية للعلوم السياسية، و«يوميات عربية ودولية مختارة»، و«ببليوجرافيا مختارة».



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ملاحظة

فى العدد الثانى والتسعين (سبتمبر ٢٠٠٦) من «وجهات نظر» ورد فى مقال للكاتب عصام تليمة بعنوان (الإخوان: الثقافة.. والفن.. والأحزاب محاولة للفهم) أن الدكتور محمد أحمد خلف الله مؤلف كتاب (القصص الفنى فى القرآن الكريم) عضو فى المجمع اللغوى. وهو يقصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وهذا ليس صحيحاً، ولا شك أن الكاتب اختلط عليه الأمر، فلم يميز بين الدكتور محمد أحمد خلف الله: وبين الدكتور محمد خلف الله أحمد (١٩٠٤ - ١٩٨٣) الذى كان عضواً عاملاً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكان عميداً لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ومديراً لمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية. أما صاحب الكتاب الذى أثار ضجة هائلة فى الجامعة وفى الصحافة (الفن القصصى فى القرآن الكريم)، فقد كان لفترة وكيلاً لوزارة الثقافة بمصر، ولم يكن عضواً فى المجمع اللغوى.

وفى المقال نفسه وردت الإشارة إلى كتاب (إقامة الدليل على حرمة التمثيل): دون ذكر الاسم الكامل للمؤلف، واكتفى بالإشارة إلى أنه أحد دعاة السلفية الشيخ الغمارى. وهذه معلومة ناقصة وغير دقيقة، إذ مؤلف هذا الكتاب (أو بالأحرى الرسالة) هو الشيخ أحمد بن الصديق الغمارى، أحد أعلام أسرة آل ابن الصديق فى مدينة طنجة المغربية والذى أقام فى القاهرة أزيد من أربعة عقود.

عبدالقادر الإدريسى
مسئول الاعلام بالاسيسكو

الاعتذار عن الماضى

لقد قرأت بإمعان مقالة الكاتب الكبير الأستاذ سلامة أحمد سلامة والمعنونة «الاعتذار عن الماضى.. أو تقشير البصل» وذلك فى عدد أكتوبر ٢٠٠٦ من مجلة «وجهات نظر»، وقد تجلى الكاتب الهمام وأبدع فى سرد المقال والذى تحدث فيه عن واقع الأدباء والمفكرين والكتاب الذين بلغوا ذروة فى الشهرة والمكانة المحلية والدولية وكيف أن هؤلاء أو بعضاً منهم عندما يبلغون قمة المجد والشهرة والنجومية قد يسترجعون ماضيهم وما علق بسيرتهم الذاتية أثناء حياتهم الماضية كيف بهم وقد يسترجعون موقفاً من المواقف أو لحظة فاصلة فى حياتهم كانت تعتبر هفوة أو يرونها كبيرة من الكبائر، يرون فيها أنها نقطة مظلمة قد تشوب الثوب الأبيض الذى راهن الناس عليه واستمروا على ما هم عليه من الشهرة والنجومية حتى بلغ بهم العمر مبلغه عندئذ يجاهرون وتستيقظ ضمائرهم ويعلنون على الملأ خطأ هذا الموقف الذى اعتراهم فى حياتهم الغابرة. وسمى الكاتب هذا الاعتراف أنه أشبه بنزول النهر للتطهر عند طقوس الهندوس أو شعيرة الحج عند المسلمين. وذكر الكاتب مثلاً بالأديب الألمانى الحائز على جائزة نوبل فى الآداب وهو جونز جريس والذى أعلن خطأه فى انضمامه إلى صفوف الألمان فى الحرب وقد أسهب الكاتب وذكر الكثير من سطور المقال عن هذا الأديب واعترافه.

وقد تساءل الكاتب فى نهاية مقاله عن: هل أحد عندنا فى العالم العربى يملك من الجرأة والشجاعة على مواجهة ماضيه مثلما فعل هذا الأديب المعاصر ومن نافلة القول قول واضح للكاتب أنه من خلال قراءتى ومعايشتى لكثير من الكتاب والمفكرين والساسة فى عالمنا العربى يندر أن يحدث هذا الاعتراف لاعتبارات عدة قد يعرفها الكاتب ويعرفها الجميع، وهى من ضمنها أن الكثير منهم قد يكون بلغ به من النجومية والشهرة مما قد يعز فى نفسه أن يعترف عن موقف ما أو حدث معين قد اعترض مسيرة حياته. ثانياً: إن مجتمعاتنا لم تبلغ بها النضج الفكرى والعقلى أن يتقبل من نجم مشهور أن يعترف، فقد تلوكه الألسنة ويخرج من الملة وقد يقولون فعل هذا لأسباب معينة فى نفسه حتى الأديب الألمانى الذى اعترف بخطئه لم يتركوه فى مجتمعه الذى نراه ناضجاً، بل تناولته الألسنة وظنت به الظنون كما ذكر الكاتب، فما بالك بمجتمعاتنا المتخلفة، وحتى لا نبخس الناس أشياءهم قد نرى نفراً قليلاً تراجعوا عن مواقف فكرية أو أيديولوجية فى بلد كمصر مثلاً، ما رأى الكاتب فى مراجعة توفيق الحكيم وما سطره فى كتابه عودة الوعى والذى تراجع فيه عن مواقفه أيام الثورة ثم ماذا عن خالد محمد خالد الذى تبرأ وأناب وتراجع عن الكثير من أفكاره وعلى سبيل المثال قوله فى نعى ستالين: «طبت حياً وميتاً يا رفيق» رأينا كيف تراجع عن كل ذلك فى مذكراته التى نشرها فى آخر أيامه، ثم ماذا عن عودة طه حسين عن بعض ما قاله عن الإسلام فى كتاباته المشهورة حتى إن الكثير من الناس اتهموه بالمروق والكفر وقد علل توبته وصفاء سريرته عندما رآه أحد العلماء الذين رافقوه فى مؤتمر بالسعودية كيف كان طه حسين يبكى عند الحجر الأسود ويقبله وينتحب حتى استوقف الكثير من الحجيج من جميع الجنسيات ويتعجبون لهذا الشيخ الضرير الذى يبكى بكاء شديداً، ثم نهايته ماذا عن موقف فصيل كبير من جماعات العنف وهم كانوا من أكثر الشباب ثقافة وعلماً ماذا عن اعترافهم وتوبتهم ومراجعاتهم التى وصلت ٢٠ مرجعاً يعتبرون أنهم كانوا على خطأ وقالوا لو استدبروا من أمرهم ما قتلوا السادات وما فعلوا ما كانوا يفعلونه، أليس هذا اعترافاً يحسب لهم وعلاوة على اعترافهم خرج البعض ينهشهم ويشكك فى أمرهم حتى إن أحد الكتاب كتب مقالة فى الأهرام عن أحد قيادتهم وكان هذا القائد من قيادات الجماعة، أول من نادى بالمراجعة كتب عنه هذا الكاتب مقالة بعنوان: «كرم زهدى الذئب العجوز».

نخرج من كل هذا بأن العيب قد يكون فى الكل.. الكتاب والمفكرين ينكرون ويتكبرون أن يقولوا خطأ اعتراهم والعيب أيضاً فى عامة الشعب، بل ومثقفيه. إن الكل لم يسلم من الكل. ولكم تحياتى.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين
أخميم - سوهاج

قلادة محفوظ الحقيقية

حين وقع نظرى على غلاف المجلة لشهر أكتوبر الماضى.. تملكتنى مشاعر جياشة قبل أن أتصفح العدد الذى اتخذت له المجلة عنواناً لها هذا الشهر وهو «ملف نجيب محفوظ».. تأملت الغلاف الذى يتصدره صورة فوتوغرافية على غير عادة المجلة حيث كان يتصدر الغلاف أحد رسوم الفنان التشكيلى المتميز الأستاذ التونى.. كانت الصورة لأديبنا الراحل نجيب محفوظ مولياً ظهره فى هدوء لخلفية بها بعض الأثاث المصرى العريق ويدلف مغادراً فى هدوء.. حيث يرحل تاركاً الظلام والبقايا إلى نور غامر ساطع هادئ شامل ليس له نهاية.

لم يدهشنى أن الذى التقط للأستاذ الراحل هذه الصورة هو تلميذه الأديب جمال الغيطانى الذى توحد مع أستاذه ومصريته الأصيلة.. وكان هذا الغلاف هذه المرة يستحق درجة الامتياز فعلاً.

وحين تصفحت العدد قفزت مرة أخرى إلى نفس الصورة فى مقال الحرفوش الآخر الشهير للأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى غلبت عليه حرفيته كطبيب أمراض نفسية وغاص فى إبداعات الأديب الراحل عن أحلامه.

لكن الأغرب أن المقال الأخير بالمجلة الذى نشر بمجلة فرنسية قبيل أيام من رحيل الأستاذ نجيب ذكر فيه أن آخر الأحلام التى كانت تسكن رأسه كان حلماً رأى فيه الزعيم عبدالناصر يعطى له خبزاً مصرياً من الصعيد (العيش الشمسى).. فنجيب محفوظ كان يتمسك بمصريته وبساطته وأصالته، كما كان الزعيم الراحل جمال عبدالناصر.. وكان إعطاء الزعيم - المصرى خبزاً مصرياً صعيدياً أصيلاً للأديب المصرى هو فى رأيى واعتقادى أغلى وأعظم من قلادة ذهبية تحمل اسم النيل العظيم.. المصرى الأصيل يعشق تراب بلده وخبز بلده حتى لو وضع فى كفة.. والذهب فى كفة أخرى.. رحم الله الزعيم المصرى.. والأديب المصرى.

سعيد الرفاعى
العمار الكبرى - قليوبية


الآن مع
خدمة الفاتورة المخفضة للشركات
خصم يصل إلى
١٢٪
على جميع مكالماتك